2006

مكتبة نوبل

اورهان باموق

البيت الصامت

ترجمة:

عبد القادر عبد اللي

علي مولا

البيت الصامت

مكتبة نوبل

اسم المؤلف : أورهان باموق
عنوان الكتاب : البيت الصامت
المترجم : عبد القادر عبد اللي
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : ٢٠٠٧
الحقوق العربية محفوظة

Author : ORHAN PAMUK
Title : SESSIZ EV
Translator: Abd Al kader Abdelli
Al- Mada P.C.
First Edition : 2007
Arabic Copyright © Al- Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان -بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
تلفون: ٧١٧٠٢٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

٢٠٠٦

مكتبة نوبل

أورهان باموق

الثلج

ترجمة: عبد القادر عبد اللي

-١-

قلتُ: "الطعام جاهز أيتها السيدة الكبيرة. تفضلي إلى الطاولة".

لم تقل شيئاً. وقفتْ متجمدة تستند إلى عكازها. ذهبتُ، وتأبطت ذراعها، وجلبتها، وأجلستها إلى الطاولة. تمتمتْ فقط. نزلتُ إلى المطبخ، وجلبت صينيتها، ووضعتها أمامها. نظرتْ، ولم تمس الطعام. تذكرتُ حين تحدثتْ لنفسها، ومطت رقبتها. أخرجتُ منديل الطعام، وأحنيت نفسي، وربطته من تحت أذنيها الضخمتين.

قالت: "ماذا حضّرتَ هذا المساء، لنرَ ما لفقته؟"

قلت: "مقلي الباذنجان بالبندورة. أما طلبتهِ البارحة؟"

"أهو الذي كان ظهراً؟"

دفعتُ الصحن إلى أمامها. تناولتْ شوكتها، وقلّبت الباذنجان وهي تحدّث نفسها. بدأت تأكل بعد أن قلّبته قليلاً.

قلت: "سَلَطَتُكِ هنا أيتها السيدة الكبيرة" وولجتُ إلى الداخل. أخذت صحن باذنجانَ لنفسي، وجلستُ، وبدأت بالأكل.

بعد قليل، نادت قائلة: "ملح، أين الملح يا رجب؟"

نهضتُ، وخرجتُ إليها، ونظرت، وإذا به تحت يدها.

"ها هو هنا ملحكم!"

قالت: "وهذا أيضاً جديد. لماذا تلج إلى الداخل في أثناء تناولي الطعام؟"

لم أجبها.

"ألن يأتوا غداً؟"

"إنهم قادمون يا سيدتي الكبيرة، قادمون! ألن ترشي الملح؟"

قالت: "لا تتدخل أنت. هل سيأتون؟"

قلتُ: "غداً ظهراً. أما اتصلوا ياه.."

"ماذا يوجد أيضاً؟"

أعدتُ نصف صحن الباذنجان، وسكبت فاصولياء في صحن نظيف، وجلبته. ولجت إلى الداخل من جديد عندما بدأتْ تحرك الفاصولياء مشمئزة. بعد قليل، نادت طالبة الفلفل هذه المرة، ولكنني تظاهرت بعدم السماع. بعد ذلك، نادت طالبة الفواكه. يداها المعروقة راحت تجوب على الدراق مثل عنكبوت متعب.

"كلها رخوة يا سيدتي الكبيرة. ناضجة. هذه أفضل الدراقات. اشتريتها من عند الفاكهاني. أنت تعلمين أنه لم يبق هنا أشجار دراق".

تظاهرت بعدم السماع، واختارت إحدى الدراقات. عدت إلى الداخل. وحين كنت أنهي صحن الفاصوليا، نادت: "فكها! أين أنت يا رجب؟ فكها؟"

هرعت ذاهباً إليها، وحين مددت يدي إلى منديلها لأفتحه، وجدت أنها قد تركت نصف دراقة.

قلت: "لأعطيك مشمشاً أيتها السيدة الكبيرة. في ما بعد، ستوقظينني ليلاً، وتقولين إنك جائعة"

قالت: "شكراً. أشكر الله أنني لم أصبح في حالة تجعلني آكل ما يسقط من الأشجار. فك هذا!"

مددتُ يدي، وفككت المنديل. قطبت وجهها في أثناء مسح فمها، وتظاهرتْ بأنها تقرأ دعاء، ونهضت.

"خذني إلى الأعلى!"

استندت إلي. صعدنا قليلاً، وتوقفنا عند الدرجة التاسعة، وأخذنا نفساً.

قالت لاهثة: "هل جهزت غرفهم أيضاً؟"

"جهزتها"

قالت: "حسنٌ، هيا". وأرخت نفسها عليّ أكثر من ذي قبل.

صعدنا من جديد. وحين وصلنا إلى الدرجة الأخيرة، قالت: "تسع عشرة ولله الحمد!" ودخلت إلى غرفتها.

قلت: "أضيئي مصباحك. أنا سأذهب إلى السينما".

قالت: "يقول: سينما! رجل بهذا القد... لا تتأخر إذن".

"لن أتأخر".

نزلت، وأنهيت صحن الفاصوليا، وغسلت الأطباق. نزعت صدارتي. ربطة عنقي في مكانها. تناولت سترتي. ومحفظتي جاهزة. خرجت.

هواء بارد منعش يهب من البحر. أعجبني. أوراق التين تصدر حفيفاً. أغلقت باب الحديقة، وسرت نحو الشاطئ. عند حدود جدار حديقتنا بدأ الصيف، وبدأت الأبنية البيتونية. إنهم يجلسون على شرفاتهم، وفي حدائقهم الصغيرة والضيقة، يفتحون تلفازاتهم، يتابعون الأخبار. ثمة نساء حول مواقد الشواء، وهنّ أيضاً لا يرونني. ثمة لحم

ودخان فوق المواقد. أنا أتوق لمعرفة العائلات والحيوات. ولكن عندما يحل الشتاء لا يبقى أحد. حينئذ أسمع وقع أقدامي في الزقاق فأرتعش. شعرت بالبرد، فارتديت سترتي، وانعطفت نحو الزقاق الفرعي.

التفكير بمتابعة الجميع للتلفاز، والجلوس إلى الطعام في الوقت نفسه أمر غريب. أتجول في الأزقة الفرعية. توقفت سيارة في نهاية أحد الأزقة المؤدية إلى الساحة الصغيرة، وترجّل منها زوج متعب قادم للتو من اسطنبول، ودخل إلى بيته حاملاً حقيبته منهمكاً كأنه تأخر عن الطعام الذي سيؤكل في أثناء متابعة التلفاز. حين وصلت إلى الشاطئ، سمعت صوت إسماعيل: "اليانصيب القومي. بقي ستة أيام".

لم يرني. ولم أنبس بكلمة. كان يتجول بين طاولات المطعم وهو يحني رأسه إلى الأسفل، ويرفعه إلى الأعلى. بعد ذلك، نادوه من إحدى الطاولات، فذهب، وانحنى، ومد كدس أوراق اليانصيب لفتاة ذات لباس أبيض، وشعر معقوص. الفتاة تختار بجدية، وأبواها يبتسمان مسرورين. استدرت، ولم أعد أنظر. لو ناديت: إسماعيل! أو رآني، لجاء نحوي مسرعاً وهو يعرج، ولقال: لماذا لا تعرّج علينا أبداً يا أخي الكبير؟ ولقلتُ: بيتكم بعيد يا إسماعيل، فوق ذلك، الطريق إليه صاعدة. ولقال: نعم، إنك على حق. لو أنني لم أشتر الأرض هناك على الطريق الصاعد، واشتريتها هنا عندما أعطاني السيد ضوغان النقود، لو اشتريتها هنا على الشاطئ وليس هناك لأنها قريبة من محطة القطار، لكنتُ الآن مليونيراً. نعم، نعم: الكلمات نفسها. زوجته الجميلة تنظر صامتة. لِمَ أذهب؟ ولكنني أريد أحياناً. أريد هذا في ليالي الشتاء عندما لا أجد شخصاً واحداً أحدثه، وأذهب، ولكن الكلمات نفسها دائماً...

مقاصف الساحل خاوية تماماً. أجهزة التلفاز مفتوحة. محضرو الشاي صفوا مئات الكؤوس الفارغة وكلها تتلامع نظيفة جداً تحت المصباح القوي، وينتظرون انتهاء الأخبار وتدفق الناس إلى الأزقة. القطط تحت الطاولات الفارغة. مشيت.

سُحِبت القوارب إلى خلف الرصيف الكاسر للأمواج. ليس ثمة أحد على الشاطئ الرملي الصغير القذر. ثمة طحالب دُفعت إلى الشاطئ وجفّت، وزجاجات، وقطع بلاستيكية. يقال إنهم سيهدمون بيت صاحب القارب إبراهيم والمقهى أيضاً. انفعلت فجأة حين رأيت زجاج المقهى المنار. لعل أحداً هناك لا يلعب الورق أتحدث إليه، ويسألني عن حالي، وأشرح له، ويستمع إلي، وأقول له: كيف حالك، ويشرح لي، وأستمع إليه. صراخٌ من أجل قهر الضجيج وصوت التلفاز: صداقة. يمكن أن يصل الأمر بنا إلى الذهاب إلى السينما معاً.

تعكر صفوي فور دخولي إلى المقهى لأن نفس الشابين هناك من جديد. ها هما: فرحا حين شاهداني، ونظر أحدهما إلى الآخر وهما يضحكان. ولكنني لم أركما، وأنظر إلى ساعتي، وأبحث عن صديق. هناك إلى اليسار يجلس نوزات، ويتفرج على لاعبي الورق. ذهبت إلى جانبه، وسحبت كرسياً وجلست. التفتّ إلى نوزات مسروراً، وابتسمت.

قلتُ: "مرحباً. كيف حالك؟"

لم يقل شيئاً.

نظرت إلى التلفاز قليلاً. إنه يبث الأخبار. بعد ذلك، نظرت إلى نوزات الذي ينظر إلى الأوراق الدائرة على اللاعبين، وإلى اللاعبين، وانتظرت انتهاء اللعبة. انتهت، لكنهم لم يحدثوني، وتبادلوا الحديث

فيما بينهم، وتضاحكوا. بعد ذلك بدأت لعبة جديدة، وشردوا. وانتهت أيضاً. وبينما كانت الأوراق توزع مرة أخرى قلت لنفسي لأقول شيئاً؟

"الحليب الذي جلبته هذا الصباح جيدٌ يا نوزات".

هزّ رأسه دون أن يرفع عينيه عن الأوراق.

"أتعرف؟ الحليب الدسم حليب جيد".

هز رأسه من جديد. نظرت إلى ساعتي، كانت تشير إلى التاسعة إلا خمس دقائق. بعد ذلك، نظرت إلى التلفاز، وشردت. لم أنتبه إلى تضاحك الشباب ضحكات مكبوتة إلا بعد وقت طويل. عندما رأيت الجريدة التي بين أيديهم فكرت قائلاً لنفسي: رحماك يا الله، هل هنالك صورة جديدة؟ لأنهم ينظرون إلي وإلى الجريدة، ويتضاحكون بقذارة. لا تبالي يا رجب! ولكنني برغم هذا فكرت بعد ذلك: ينشرون صورة في الجريدة أحياناً. إنهم عديمو الرحمة. ينشرون مقالة عبثية وظالمة كالتي تنشر تحت صور النساء العاريات والدببة وهي تلد في حديقة الحيوانات. التفتُّ فجأة إلى نوزات، وقلت له دون تفكير: "كيف حالك؟"

تمتم بأمور ما، والتفت إلي لحظة، ولكنني لم أجد ما أقوله لأن عقلي منشغل بالصورة، وفوّتُ فرصة الحديث. فوق هذا، وجدت فرصة بعد ذلك، ونظرت نحو الشابين. تظاهرا بالسرور حين التقت أعيننا. أدرت رأسي. نزلت إلى الطاولة ورقة الشايب. تبادل لاعبو الورق الشتائم، وفرحوا، وحزنوا. بعد ذلك بدأت لعبة جديدة. تبودلت الأوراق والضحكات والأمكنة. هل هنالك صورة؟ فجأة خطر ببالي أمر، فناديت قائلاً: "جميل، هات شاي إلى هنا!"

وهكذا وجدت ما يمكنني أن ألهي نفسي به لكي أنسى ولو قليلاً.

ولكن هذا لم يستمر طويلاً، وتعلّق بالجريدة التي ينظر إليها الشباب متضاحكين. حين التفت، ونظرت إليهم مرة أخرى، كانوا قد أعطوا الجريدة لجميل، وراح ينظر إلى حيث أشاروا. شَعر جميل بالقلق حين رآني أنظر متوجساً، وصرخ بالشباب فجأة بنبرة مؤنبة: "عديمو الشرف".

وهكذا أفلت السهم من القوس. لم أعد أستطيع التصرف وكأنني غير منتبه. كان علي أن أنهض وأغادر قبل وقت طويل. الشباب يقهقهون.

قلت: "ماذا هنالك يا جميل؟ ما الذي في تلك الجريدة؟"

قال: "لا شيء. عجيب!"

لم يكن ذلك الفضول محتملاً. حاولت التماسك، ولكن ليست لدي القوة. نزلت عن الكرسي وكأنني مسحور، وسرت ببطء نحو جميل عابراً قرب الشباب الصامتين.

"هات هذه الجريدة!"

تحرك حركة تدل أنه يريد إخفاء الجريدة. بعد ذلك، قال شاعراً بالذنب: "عجيب. هل يمكن أن يكون قد حدث هذا؟ ألهذا الأمر أصل؟" ثم التفت إلى الشباب، وقال: "عديمو الشرف" في النهاية، مد نحوي الجريدة ولله الشكر.

اختطفت الجريدة من يده كذئب جائع. فتحتها وقلبي يخفق بسرعة. أنظر إلى حيث أشار، وأكاد أختنق من الانفعال. ولكن لا، لا توجد صورة.

"أين؟"

قال جميل: "هنا!" ولمس المكان برأس إصبعه منفعلاً.

قرأت حيث أشار مسرعاً.

زاوية تاريخية.. كنوز (أسكدار) التاريخية... الشاعر يحيى كمال وأسكدار... في الأسفل ثمة عناوين صغيرة: جامع محمد الرومي... جامع وسبيل الأحمدية... جامع ومكتبة شمسي باشا... بعد ذلك، نزلت، نزل إصبع جميل إلى الأسفل بتردد، ورأيت: بيت الأقزام في أسكدار!

نفر الدم إلى وجهي. قرأتها بنفسٍ واحد.

كان هنالك بيت أقزام في أسكدار في زمن ما. ذلك البيت أنشئ للأقزام وليس للناس العاديين. كانت أبعاد غرفه وأبوابه ونوافذه وأدراجه ومفروشاته تتناسب مع الأقزام. وعلى الإنسان العادي أن ينحني طاقين من أجل أن يدخل إلى ذلك البيت. وبحسب بحث أستاذنا في تاريخ الفن البروفيسور دكتور سهيل أنور فإن السلطانة هاندان زوجة السلطان محمد الثاني ووالدة السلطان أحمد الأول المحبة للأقزام كثيراً أمرت ببناء هذا البيت. ولهذه المرأة المتعلقة جداً بأقزامها مكانة هامة في تاريخ الحرم. وقد رغبت السلطانة أن يعيش أصدقاؤها هؤلاء المحببين بطمأنينة دون أن يقلقهم أحد بعد موتها. إثر هذا استنفز كبير نجاري القصر المعلم رمضان. ويقال بأن كمال صنع أعمال الخشب والمفروشات وجعل من هذا البيت إحدى الروائع الصغيرة. ولكن علينا القول بأننا لا نعرف بالتأكيد إن كان لهذا البيت وجود أم لا، لأن (أولياجلبي) الذي مر في المنطقة في تلك السنوات لم يذكره. وإذا كان هذا البيت موجوداً في الواقع فإنه زال في الحريق الشهير الذي أتى على أسكدار عام ١٦٤٢ .

صرتُ ممتقع الوجه. رجلاي ترتجفان، وظهري مبلل بالعرق.

قال جميل: "لا تهتم يا رجب. لماذا تهتم بعديمي الشرف هؤلاء؟"

في داخلي رغبة مخيفة لقراءة الجريدة مرة أخرى، ولكنني لا أمتلك القوة. كدت لا أستطيع التنفس. انزلقت الجريدة من يدي، وسقطت.

قال جميل: "لا تحزن. ارتح". بعد ذلك، التفتَ إلى الشباب، وقال: "عديمو الشرف!"

نظرت إليهم وأنا أتأرجح على رجلي. رأيتهم ينظرون إلي بفضول ماكر.

قلت: "نعم، حزنت". صمتُّ قليلاً، ثم استجمعت قواي كلها، وتحدثت من جديد.

قلت: "أنا لست حزيناً لأنني قزم. أنا حزين في الحقيقة لأن الناس سيئون إلى حد أنهم يسخرون من قزم في الخامسة والأربعين من عمره".

خيّم صمت. سمع لاعبو الورق غالباً. التقت عيناي بعيني نوزات. هل فهم؟ الشباب مطرقون. يبدو أنهم خجلوا قليلاً. شعرت بدوار. التلفاز يصدر ضجيجاً.

ردد جميل: "عديمو الشرف".

قال جميل: "قف يا رجب! إلى أين يا هذا؟"

لم أجبه. خطوت عدة خطوات وأنا أتأرجح. تركت الأضواء الحية للمقهى خلفي. أنا في الخارج من جديد، وسط الليل المظلم والبارد المنعش.

لست في حالة أستطيع فيها المشي، ولكنني ضغطت على نفسي، وخطوت عدة خطوات. بعد ذلك، جلست على أحد مرابط السفن عند كاسر الموج. تنفست هواءً نظيفاً بعمق. مازال قلبي يخفق بسرعة. ماذا

يجب أن أفعل؟ تتلامع أضواء المقاصف والمطاعم البعيدة. علقوا مصابيح ملونة على الأشجار. ثمة اناس يتحدثون إلى بعضهم البعض، ويتناولون الطعام تحت تلك الأضواء: يا إلهي!

فُتح باب المقهى، وسمعت جميلاً ينادي: "رجب. أين أنت يا رجب؟"

لم أستطع إخراج صوتي. لم يرني. دخل.

بعد وقت طويل، نهضتُ عندما سمعت صوت محرك القطار الذاهب إلى أنقرة. يجب أن تكون الساعة تشير إلى التاسعة وعشر دقائق، وكنت أفكر على النحو التالي: ألم تكن هذه كلها كلمات؟ أليست سحابة صوت تزول فور انتشارها في الفراغ؟ ارتحت قليلاً، ولكنني لا أريد العودة إلى البيت، وليس ثمة ما أفعله: سأذهب إلى السينما. بردت عروقي، وهدأ قلبي، والآن أنا أفضل. أخذت نفساً عميقاً، ومشيت.

ها قد بقي المقهى في الخلف، حتى إنهم نسوني، ونسوا الكلمات، والتلفاز يهدر. إذا لم يَطردْ جميل الشباب فهم الآن يبحثون عن شخص آخر يسخرون منه. ها أنا في الشارع من جديد. ثمة ازدحام. تناول الناس طعامهم، وقبل أن ينتقلوا لمشاهدة التلفاز من جديد، وإلى المقاصف، يقومون بنزهة التهضيم. يتناولون المثلجات، ويتبادلون الحديث والتحية، ويتعرف الأزواج العائدون مساء من اسطنبول والأولاد المتخاصمون على بعضهم البعض، ويحيون بعضهم بعضاً من جديد. مررت من أمام المطعم. إسماعيل غير موجود. لعلّ بطاقاته قد نفدت، وهو يصعد الآن طريق بيته. لو أنني ذهبت إليه، ولم أذهب إلى السينما. كنا سنتحدث. لكنها الكلمات نفسها.

ازدحم الشارع. السيارات المنتظرة أمام باعة المثلجات، المجموعات التي تمشي متجاورة تعطّل السير. ربطة عنقي وسترتي في مكانهما، ولكنني لا أستطيع احتمال زحمة إلى هذا الحد. انعطفتُ إلى الأزقة الفرعية. يلعب الأولاد لعبة (الغميضة) في الأزقة الضيّقة التي يُنيرها ضوء التلفازات الأزرق، وبين السيارات المتوقفة. كنتُ أعتقد في طفولتي بأنني ألعب هذه اللعبة جيداً، ولكنني لم أجد الجرأة للدخول بينهم مثل إسماعيل. لو استطعتُ أن ألعب معهم لكنتُ أفضل من يختبئ. لعلني أختبئ هنا، بين أنقاض نُزُلِ القوافل القديم الذي تقول أمي بأن وباءً فيه، وممن سيسخرون فيما لو لم أخرج أبداً. ولكن أمي ستبحث عني، وتسأل اسماعيل: أين أخوك؟ إسماعيل سينظف أنفه، ويقول: من أين لي أن أعرف؟ وكنتُ سأستمع إليهما، وأقول لأمي: أنا أعيش سراً وحدي، ودون أن أظهر لأحد. وستبكي أمي وحدها كثيراً، وأقول: حسن، حسن، أنا خارج. انظري ها أنا هنا، لم أعد أختبئ يا أمي. وستقول أمي: لماذا تختبئ يا بني؟ ما الذي يدفعك إلى الاختباء؟ وكنت سأنسى في لحظة.

رأيتهم وأنا أعبر الشارع مسرعاً: السيد صدقي صاراً كبيراً وتزوج، وإلى جانبه زوجته وابنه الذي بطولي. عرفني، فابتسم، وتوقف.

قال: "مرحباً يا رجب أفندي. كيف حالك؟"

دائماً أنتظرُ ليبدأ الآخرون بالكلام.

قلت: "مرحباً يا سيد صدقي. أشكرك".

تصافحنا، ولم أصافح زوجته. ابنه ينظر بفضول وخوف.

"رجب أفندي أحد أقدم سكان (جنة حصار) يا حلوتي".

ابتسمت زوجته وهي تهز رأسها. فرحت، وشعرت بالكبرياء لأنني قديم هنا.

"هل الجدة بخير؟"

قلت: "إيه... السيدة الكبيرة تشتكي دائماً".

قال: "كم سنة مضت؟ أين فاروق؟"

قلت: "غداً سيأتون".

التفت إلى زوجته، وبدأ يشرح لها بأن السيد فاروق صديق طفولته. بعد ذلك، تبادلنا التحية بهزّ الرؤوس فقط دون مصافحة، وافترقنا. لابد أنه يتحدث لزوجته عن طفولته الآن، وسيذكرني أيضاً، وكيف كنت آخذهم إلى البئر، وأعلمهم صيد سمك (الكفالوس). وحينئذ سيسأل الولد: بابا، لماذا هذا الرجل صغير على هذا النحو؟ كنت أجيب قديماً: لأن أمه ولدته دون أن تتزوج.

تزوج صدقي، والسيد فاروق تزوج أيضاً، ولكنه بلا ولد. أمي حدث معها عكس هذا تماماً، أرسلتنا السيدة الكبيرة مع أمي إلى القرية، وقبل ذهابنا، كانت تحاصرنا بالكلمات، وبعد ذلك بالعكاز، فقالت أمي: لا، يا أيتها السيدة الكبيرة، ما ذنب الأولاد؟ أنا أعتقد أحياناً بأنني سمعت تلك الكلمات في ذلك اليوم الفظيع...

دخلت إلى زقاق السينما، وسمعت الموسيقا. إنهم يبثونها قبل الفيلم. أناروا المكان هنا جيداً. نظرت إلى الصور: لنلتقي في الجنة. فيلم قديم: في إحدى الصور يتعانق (إذ يزهون) و(هوليا كوتش بيت). بعد ذلك إديز في السجن. ثم هوليا تغني. ولكن أحداً لا يمكنه أن يفهم ترتيب كل هذا دون رؤية الفيلم. لعلهم يعلّقون الصور في الخارج لأنهم

يعرفون أن هذا يثير فضول الإنسان. ذهبت إلى كوة التذاكر. واحدة لطفاً. قطع تذكرة، وناولني إياها. شكراً. سألته: "هل الفيلم جميل؟"

لم يره. أحياناً أرغب بالحديث هكذا فجأة. ذهبت، وجلست في مكاني، وانتظرت. بعد قليل، بدأ الفيلم.

تعارفا بداية. الفتاة مغنية، ولم تعجب به. وعندما خلّصها الشاب منهم تُعجب به، وتدرك أنها تحبه. ولكن أباها يقف ضد هذا الزواج. بعد ذلك يدخل الشاب السجن. حانت الاستراحة. لم أنهض من مكاني وأخرج إلى الزحام. بعد ذلك استمر الفيلم من جديد، وتزوجت الفتاة من صاحب الملهى. ولكن لم يصبح لديهما أولاد. ولم يفعلا شيئاً كي يصبح لديهما أولاد. حين ذهب زوجها وراء تلك المرأة السيئة، وهرب إديز من السجن، التقيا في بيت قرب جسر البوسفور، وغنت هوليا كوتش أغنية. شعرتُ بقليل من الغرابة وأنا أستمع لتلك الأغنية. في النهاية، حين نال عقابه وهو ينقذها من الزوج السيء، فُهم أنهما سيتزوجان. أبوها ينظر من خلفهما مسروراً، وهما يسيران في الطريق بذراعين متشابكين. يسيران، ويصغران بابتعادهما، والنهاية.

أنيرت الأضواء. كل شخص يتحدث هامساً عن الفيلم ونحن نخرج. أردت أن أتحدث عن الفيلم مع أحدهم. الساعة الحادية عشرة وعشر دقائق. لابد أن السيدة الكبيرة تنتظر. ولكنني لا أريد العودة إلى البيت.

سرت نحو طريق الشاطئ الرملي الصاعد. لعل الصيدلي كمال مناوب، أو مؤرق. سأقلقه، ونتحدث، وأشرح له، ويستمع شارداً وهو ينظر إلى الشبان الذين يسابقون السيارات في أضواء الكافتيريا

يريدها. إنه مؤرخ، ولديه فضول لقراءة الرواية التاريخية... وصلتُ إلى الأعلى. إنها في غرفتها، متمددة في سريرها.

قلت: "جئت أيتها السيدة الكبيرة".

قالت: "حسن، في النهاية وجدت طريق البيت".

"انتهى الفيلم متأخراً، ماذا أفعل؟"

"هل أغلقت الأبواب جيداً؟"

قلت: "أغلقتها. هل تريّدين شيئاً؟ أنا ذاهب إلى النوم. ستوقظينني في ما بعد".

"غداً سيأتون، أليس كذلك؟"

قلت: "نعم، جهزت أسرتهم وغرفهم".

قالت: "حسن. أغلق باب غرفتي جيداً".

أغلقته، وخرجت. سأتمدد، وأنام بسرعة. كنت أنزل الدرج.

-٢-

أسمعه ينزل عند أول الدرج فوراً. ماذا يفعل في الأزقة حتى هذه الساعة؟ لا تفكري يا فاطمة، ستشعرين بالاشمئزاز. ولكن برغم هذا لديَّ فضول. ترى هل أغلق القزم الماكر الأبواب؟ هذا لا يهمه أبداً. سيتمدد على فراشه فوراً وسينام طوال الليل وهو يشخر لإثبات أنه من نسب الخدم. نم يا قزم نومة الخادم دون همّ أو انشغال بال. نم، وليبق الليل لي. أنا لا أستطيع النوم. أفكر بأنني سأنام، وأنسى، ولكنني أنتظر النوم فقط، ومع طول الانتظار أدرك أنني أنتظر فقط.

كان صلاح الدين يقول: إن نومك هذا حدث كيميائي، والنوم حدث يمكن فهمه ككل الأحداث يا فاطمة. وكما وجدوا (اتش) إثنان في صيغة الماء، سيجدون صيغة النوم. وطبعاً لن يجده واحد من الكسالى، بل الأوربيون أيضاً. وحينئذ لن يرتدي أحد هذه المنامات المضحكة، ويدخل بين هذه الأغطية غير اللازمة، ولحفك المزهرة الغبية وينتظر الصباح من أجل التخلص من التعب، بل حينذاك سنقطر ثلاث قطرات من زجاجة في كأس ماء، ونشربها كل مساء، وسيكفينا هذا بأن نشعر أننا في منتهى الحيوية وكأننا نمنا حتى الصباح نوماً متواصلاً وعميقاً. هل يمكنك أن تفكري يا فاطمة حينئذ بما يمكننا أن نفعله في تلك الساعات التي لا ننامها؟ أتستطيعين التفكير بتلك الساعات التي لا ننامها؟

لا ضرورة لي أن أفكر يا صلاح الدين، أعرف: أنظر إلى السقف منتظرة فكرة ما تجرفني معها، ولكن النوم لا يأتي. لو استطعت أن أشرب العرق والنبيذ مثلك لنمت، ولكنني لا أريد ذلك النوم القبيح. كنتَ تشرب زجاجتين: أنا لا أشرب من أجل المتعة يا فاطمة، بل من أجل الاستراحة من تعب الموسوعة وتفتيح عقلي. بعد ذلك تنام مفتوح الفم، وأنت تشخر، وأنا أهرب مشمئزة من رائحة العرق المنبعثة من فمك الذي يذكرني بفتحة بئر مظلم تتزاوج فيه العقارب والضفادع. أنتِ امرأة باردة ومسكينة مثل الجليد، أنت بلا روح! لو شربت قدحاً يمكن أن تفهميني. هيا تفضلي اشربي يا فاطمة، أنا آمرك، ألا تؤمنين بوجوب طاعة زوجك؟ نعم، تؤمنين، لأنهم علموك هذا. إيه.. والآن، أنا آمرك. اشربي، ولتكتب حرمته علي. هيا اشربي يا فاطمة من أجل أن يتحرر عقلك. انظري، زوجك يطلب منك هذا. يا الله، هذه المرأة تجعلني أتوسل إليها. سئمت من هذه الوحدة. ماذا سيحدث يا فاطمة؟ هيا اشربي قدحاً واحداً، أم أنك ستعصين زوجك؟

لا، أنا لا أخدع بالكذب الذي يرتدي ثوب أفعى! لم أشرب أبداً. مرة واحدة فقط؟ دفعني الفضول. لم يكن ثمة أحد. طعم ملح وليمون وسمّ على رأس لساني. بعدئذ ارتعدت، وندمت، فتمضمضت، وسفحت القدح، وغسلته مرات عديدة. وانتظرت بفضول شعوري بدوار. جلست كي لا أسقط على الأرض. يا الله، خفت أن أسكر مثله. لكن شيئاً لم يحدث. بعد ذلك فهمت، وارتحت: لا يمكن للشيطان أن يصلني.

أنظر إلى السقف. لم أنم بعد. ذهبتُ، وأشعلتُ مصباح النوم بهدوء، لأن البعوض أيضاً لا يتحرش بي. دفعتُ أجنحته بشكل خفيف.

هدأت الريح، إنه ليل ثابت. التين لا يتحرك. نظرتُ، وإذا بنور مصباح رجب مطفأ: لابد أنه نام فوراً. ليس لدى هذا القزم ما يفكر به، لذلك ينام فوراً. كل ما يفعله هو طهو الطعام وغسل حفنة ملابس والتسوق من السوق. ولكنه في النهاية اشترى دراقاً فاسداً، بعد أن قضى ساعات يتجرجر في الأزقة.

أنا لا أستطيع رؤية البحر، ولكنني أفكر بامتداده من أين وإلى أين دون أن أراه: إنه عالم هائل! وتفوح منه رائحة طيبة لولا المحركات الصاخبة والقوارب التي يركبها الناس عراة، وكنت سأحبه. أسمع صوت جدجد. في أسبوع قطع خطوة. وأنا لست طريقاً قصيراً إلى هذا الحد. في زمن ما، كنت أعتقد بأن العالم شيء جميل. كنت طفلة وغبية. أغلقت أباجور النوافذ، وسمعت المزلاج: ليبق العالم هناك.

جلست على الكرسي بهدوء، ونظرت إلى الطاولة. أشياء وسط الصمت. إبريق مملوء نصفه، والماء فيه لا يتحرك. حين أريد أن أشرب، أفتح غطاءه الزجاجي، أمسكه، وأرفعه، وأملأ الكأس، وأنظر إلى الماء كيف ينسكب، وأسمعه، ويطن الزجاج، ويخر الماء، وينتقل هواء بارد منعش من هناك إلى هناك، والتغيير يسليني، أتسلى، ولكنني لن أشرب. ليس بعد. أنفق الأشياء التي تقسم الزمن بحرص. أنظر إلى فرشاة شعري، وأرى شعراتي العالقة فيها. تناولتها، وبدأت بتنظيفها. إنها شعراتي الرفيعة والضعيفة البالغة التسعين من عمرها والمتساقطة واحدة واحدة. تمتمت قائلة: الوقت، وهو ما يدعونه الزمن، يتساقط. توقفت، وتركت الفرشاة على ظهرها. نامت كصرصار مقلوب على ظهره، وأرعبتني. لو تركت كل شيء هكذا، وإذا لم يلمسنا أحد خلال ألف

سنة، سيبقى كل شيء على حاله ألف سنة. على الطاولة ثمة مفاتيح وإبريق، وأشياء: ياللغرابة. كل شيء مكانه دون أن يتحرك! حينئذ تغدو فكرتي متجمدة كقطعة ثلج، وتتوقف دون لون أو رائحة، تتوقف.

لكنهم سيأتون غداً، وسأفكر. مرحباً، مرحباً. كيف حالك، كيف حالك أنت؟ سيقبّلون يدي. أطال الله عمرك. كيف حالك يا جدتي العزيزة، كيف حالك؟ كيف حالك يا جدتي العزيزة، كيف حالك؟ سأدقق بهم. لا تتحدثوا جميعكم معاً. أنت تعال إلى هنا، تعال إلى جانبي. احك لي لأرى ماذا تفعل؟ أعرف أني سأسأل كي أخدع، وسأستمع كي أخدع. إنها عبارة أو عبارتين مزورتين! أهذا كل شيء؟ ألن تتحدثوا مع جدتكم؟ سيتبادلون النظرة والحديث، ويتضاحكون، وأسمعهم، وأفهمهم. في النهاية سيبدؤون الصراخ. لا تصرخ، لا تصرخ، مازالت أذناي تسمعان والحمد لله. عفوك يا جداتي، فإن جدتي لأمي لا تسمع جيداً. أنا لست جدتكم لأمكم، بل جدتكم لأبيكم. عفوك، عفوك! حسن، حسن، هيا احكوا شيئاً ما. ماذا تحكون؟ احكوا عن جدتكم لأمكم مثلاً، ماذا تفعل؟ فجأة يدهشون، ويسكتون: حقاً، ماذا تفعل جدتنا لأمنا؟ حينئذ أفهم أنهم لم يتعلموا الرؤية والفهم. ليكن، رغم هذا أسألهم. ولكنني لا أسألهم كي أصدق، بل أسألهم برغم هذا، وأجدهم قد نسوا: إنهم غير مشغولين بي، بل بالغرفة، وغير مشغولين بما سأسألهم، بل بأفكارهم. انا وهم، كل منا وحده...

مدّدت نفسي، وأخذت حبة مشمش من الصحن. آكل، وأنتظر. لا، لم تفد في شيء. أنا هنا، بين الأغراض أيضاً، ولست في الفكرة. أنظر إلى ما فوق الطاولة. الساعة الثانية عشرة إلا خمس دقائق. ثمة زجاجة

كولونيا بجانب الساعة، وبجانب زجاجة الكولونيا جريدة، وبجانبها منديل. وتقف هكذا. أنظر إليها، وأجول ببصري فوقها، وأفتش وجوهها لعلها تقول لي شيئاً، ولكنها لم تذكر أكثر من هذا. لم يعد لديها ما تقول. إنها مجرد زجاجة كولونيا وجريدة ومنديل ومفتاح وساعة تتكتك. لا أحد يعرف ما هو الزمن بما في ذلك صلاح الدين. لحظة، وأخرى من بعدها، واحذري يا فكرتي من التعلق في إحدى هذه اللحظات الصغيرة المتقافزة من هنا إلى هناك. اقفزي، واخرجي، وهيا لنخرج خارج الغرفة والزمن. أكلت حبة مشمش أخرى، ولكنني لم أستطع الخروج. كأنني أطيل النظر في الأشياء حينئذ، وأريد أن أرتعش، وأسلي نفسي بالشيء نفسه: لولا وجودي، ووجود الآخرين ستبقى الأشياء حيث هي إلى ما لا نهاية، ولن يفكر أحد بأنه لا يعرف ما تعنيه الحياة.

لا، لم أتسل. نهضت عن الكرسي، وذهبت إلى الحمام. غسّلت، ونظّفت نفسي، وتركت العنكبوت المتدلي في الزاوية، وعدت. حين أدرت المفتاح، انطفأ المصباح المتدلي من السقف. المصباح المجاور لرأسي فقط مضيء. أدخل إلى سريري. الجو حار، ولكنني لا أحتمل دون لحاف. ماذا أفعل؟ إنه شيء يحتضنني، أنزل تحته، وأختبئ فيه. أسندت رأسي إلى المخدة، وأنتظر، وأعرف أن نومي لن يأتي بسرعة. ضوء المصباح الشاحب يسقط على السقف، وأستمع إلى صوت الجدجد. إنها ليالي الصيف الحارة.

كأن الأصياف قديماً كانت أكثر حرارة. كنا نشرب الليمونادة والشراب، ولكن ليس في الزقاق. كانت أمي تقول: الرجال ذوو الصدارات البيض يحضرونه نظيفاً يا فاطمة. نعود من السوق، ليس ثمة

جديد في الدكاكين. تنتظر أبي مساء. يأتي، ويتحدث. نحن نستمع إليه. كانت تفوح منه رائحة التبغ، ويتحدث بصحبة السعال. ذات مرة قالت: هنالك دكتور طلب يدك. أنا لم أجب. ثمة دكتور، وأنا صماء. وأبي لا يقول شيئاً. ولكنها في اليوم التالي، قالت مرة أخرى.. وأنا في السادسة عشرة من عمري. قالت أمي: إنه طبيب، وأنا فكرت: أمر غريب، أين رآني؟ خفت، ولم أسأل، وفكرت مرة أخرى: طبيب، جمجمة؟ بعد ذلك، قال هذا أبي مرة أخرى، وأضاف: أمامه مستقبل باهر يا فاطمة. سألت عنه. إنه مجتهد. لعله حريص قليلاً، ولكنه رجل شريف وذكي. فكرت جيداً. سكتّ. كان الجو حاراً جداً، وكنا نتناول الشراب: أنا لا أعرف. قلت: حسن. وحينئذ قدم أبي نصائحه: يا ابنتي، وأنت تغادرين بيت أبيك، ضعي هذا قرطاً في أذنك: حكى لي عن ضرورة عدم الإلحاح بالسؤال على الرجال، وقال بأن الفضول للقطط فقط. حسن يا أبي، أنا أعرف هذا. أقوله لك أنا مرة أخرى يا ابنتي، ولا تضعي يدك هكذا، لا تقضمي أظافرك بعد الآن، كم صار عمرك؟ حسن يا أبي، لن أسأل. لن تسألي. لم أسأل.

لم أسأل. مضت أربعة أعوام ولم يصبح لدينا ولد. يقال إن هذا بسبب جو اسطنبول. فهمت هذا في ما بعد. مساء أحد أيام الصيف الحارة، لم يذهب صلاح الدين إلى عيادته، بل جاءني مباشرة، وقال: لن نسكن بعد الآن في اسطنبول يا فاطمة! لم أسأله لماذا يا صلاح الدين، ولكنه قدم شرحاً، وكانت يداه تلعبان مثل طفل صغير غير متوازن: لن نسكن بعد الآن في اسطنبول يا فاطمة. طلبني اليوم طلعت باشا، وقال: يا دكتور صلاح الدين، أنت لن تسكن في اسطنبول، ولن تعمل في

السياسة! هذا ما قاله عديم الشرف. قلنا لا، فقال: تعتبر نفسك بطلاً عظيماً. لابد أنك لا تريد أن نرسلك إلى سجن (سينوب) فوراً على أول سفينة. ماذا سنفعل؟! لعبت بنا كثيراً، وتلاعبت بالحزب، ولكن يبدو أنك رجل عاقل، كن منطقياً. أنت طبيب متزوج، ولديك عمل جيد، ويمكنك أن تكسب نقوداً تمكّنك من العيش براحة في أي مكان من العالم. كيف لغتك الفرنسية؟ ليبعث الله له البلاء! هل تفهمين يا فاطمة؟ لقد بالغ هؤلاء الاتحاديين. إنهم لا يحتملون الحرية. ماذا بقي من فرق بينهم وبين عبد الحميد؟ حسن يا طلعت أفندي، أنا أقبل دعوتك، وإذا كنت سأجمع أغراضي فلا تعتقد بأنني أفعل هذا خوفاً من زنزانات (سينوب): لا! نحن ذاهبون إلى باريس لأنني لا أستطيع إرسال الرد اللازم من زوايا الزنزانة، بل من باريس. بيعي قطعة أو قطعتين من خواتمك وماساتك! لا تريدين؟ حسن، لدي الآن ملك انتقل إلي من والدي. إذا لم نذهب إلى أوربا، نذهب إلى سيلانيك. ولماذا نسافر إلى الخارج؟ نذهب إلى دمشق. انظري! ذهب الدكتور رضا إلى الاسكندرية، وهو يكتب لي بأنه يكسب كثيراً. أين رسائلي؟ لا أجدها. ألم أقل: لا يلمس أحد ما فوق طاولتي، يا الله. برلين ممكنة أيضاً. ألم تسمعي بجنيف؟ صار هؤلاء أسوأ من عبد الحميد. هيا حضّري الحقائب والصناديق بدل من نظرك هكذا مندهشة. ليس هنالك ما يخيف. كنت صامتة، أنا كما أنا لا أقول شيئاً، ومازال صلاح الدين يتكلم، ويشرح بأنه سيفعل بهم ما فعله عبد الحميد من باريس، وحين يحل ذلك اليوم سنعود بالقطار منتصرين من باريس! بعد ذلك قال لا، قال دمشق، وقال إزمير. وفي المساء قال إنه يرضى بإزمير. علينا أن نبيع أملاكنا يا

فاطمة، هل أنت جاهزة للتضحية؟ لأنني أريد أن أستخدم قوتي كلها في النضال. لا تقولي شيئاً أمام الخدم، فإن للحيطان آذان. ولكن ليس ثمة ضرورة لأن تقول لي: اذهب، يا طلعت أفندي: لن أتوقف أساساً في هذا الماخور المدعو اسطنبول الملعونة. ولكن إلى أين سنذهب يا فاطمة؟ قولي شيئاً! كنت صامتة، وأفكر كأنني طفلة. نعم، الشيطان يمكن أن يخدع الطفل إلى هذا الحد. فهمت أنني تزوجت من طفل بإمكانه الخروج عن طريقه بكتاب مؤلف من ثلاثة مجلدات: في منتصف تلك الليلة، خرجت من غرفتي. الجو حار، قلت لأشرب شيئاً. ذهبت إليه حين رأيت ضوءاً ينبعث من غرفته. فتحت الباب بهدوء، ورأيت: أسند صلاح الدين مرفقيه إلى الطاولة، ووضع رأسه بين يديه، وراح يبكي. سقط من المصباح الشاحب نور بشع على الوجه الباكي. الجمجمة التي وضعها على طاولته راحت هي الأخرى تنظر إلى الرجل الكبير الباكي. أغلقت الباب بهدوء، وذهبت إلى المطبخ، وشربت كأس ماء، وهذا يعني أنه طفل كما فكرت، إنه طفل.

أنهض من السرير بهدوء، وأجلس إلى الطاولة، وأنظر إلى الإبريق. كيف ينجح الماء بالوقوف فيه دون أن يفور؟ كأنني دهشت لهذا. إن إبريق ماء شيء يدعو إلى الدهشة كثيراً. ذات مرة قلبت كأساً على نحلة وحبستها. حين شعرت بالضيق، نهضت من سريري، ونظرت: كانت النحلة قد تجولت على مدى نهار وليلتين داخل الكأس حتى فهمت أن لا مخرج لها. بعد ذلك، انزوت في أحد الأطراف دون أن تتحرك، وتعلمت أن ليس لها ما تفعله سوى الوقوف، والانتظار دون معرفة ما تنتظره. حينئذ شعرت بالاشمئزاز منها، قرفت. فتحت النافذة، وجررتها إلى حافة

الطاولة. ناديت رجب، وطلبت منه أن يسحق هذه الحشرة المقرفة. قطع قصاصة من جريدة، وأمسك النحلة بدقة، وألقاها من النافذة. لم يستطع سحقها، لأنه من نوعها.

ملأت الكأس بالماء، وشربت ببطء. فرغ. ماذا سأفعل؟ نهضت، ودخلت إلى سريري، ووضعت جانب رأسي على المخدة، وفكرت بالزمن الذي أنشئ فيه هذا البيت هنا. كان صلاح الدين يمسكني من يدي، ويتجول بي: هنا ستكون عيادتي، وهنا غرفة الطعام، وهنا مطبخ على الطريقة الأوربية، وسنخصص غرفة لكل ولد، فكل منهم يجب أن يغلق على نفسه غرفته ليطور شخصيته الخاصة. نعم يا فاطمة، أريد ثلاثة أولاد، كما ترين، لا أضع شبكاً للنوافذ. ما أقبح هذا؟ هل النساء طيور او حيوانات؟ كلنا أحرار. يمكنك أن تتركيني، وتذهبي. نحن أيضاً نركّب أباجورات مثلهم، وهناك – لا تقولي بعد الآن هنا وهناك يا فاطمة – هذا البروز يدعى شرفة، وليست مشربية. إنها شرفة مفتوحة على الحرية. كم هو جميل المنظر، أليس كذلك؟ يجب أن تكون اسطنبول تحت تلك الغيوم يا فاطمة. حسن نزلنا خمسين كيلو متراً فقط، في غبزة. الزمن يمر بسرعة. ولا أعتقد أن هؤلاء سيستمرون طويلاً مع حكومة الحمقى. يمكن أن يسقط الاتحاديون قبل أن ننهي هذا البيت، ونعود فوراً إلى اسطنبول يا فاطمة.

بعد ذلك، انتهى البيت، وولد لي (ضوغان) ونشبت حرب أخرى، ولكن حكومة الاتحاديين لم تُسقَطْ، ويقول لي صلاح الدين: اذهبي أنت إلى اسطنبول يا فاطمة. طلعت منعني أنا، ولم يمنعكِ أنت. لماذا لا تذهبين أنت؟ ترين أمك، وأباك، وتزورين بنات شكرو باشا، وتتسوقين،

وتشترين أشياء جديدة، وترتدينها، وعلى الأقل، ترتدين ما تخيطينه وأنت جالسة تدورين آلة الخياطة من الصباح إلى المساء، وما تحيكينه بالصنارة ليلاً، وترينه لوالدتك. لماذا لا تذهبين يا فاطمة؟ ولكنني أقول: لا، سنذهب معاً يا صلاح الدين، عندما يَسقطون سنذهب معاً، ولكنهم لا يسقطون. فيما بعد، رأيت هذا في الجريدة، وكانت تصل جرائد صلاح الدين بعد ثلاثة أيام من صدورها، ولم يعد يتلهف عليها كما كان في السابق. لم يكن يهتم حتى لأخبار الحرب الواردة من فلسطين وغاليتشا وتشنق قلعة. ولأنه نسي حتى مجرد تصفحها بعد العشاء، فكنت أول من قرأ تلك الجريدة، وذلك الخبر، لأنه مكتوب بحروف كبيرة جداً. قرأه ولم يقل شيئاً. وأنا أيضاً لم أسأله. ولأن وقع أقدامه لم يهدأ حتى المساء فوق رأسي، فهمت أنه لم يكتب كلمة واحدة في موسوعته طيلة فترة بعد الظهر. وعندما لم يقل صلاح الدين شيئاً على طعام العشاء، قلت: أرأيت يا صلاح الدين، ها هم أُسقِطوا؟ قال: آه، نعم. سقطت الحكومة، أليس كذلك؟ أنهى الاتحاديون الدولة وهربوا، وخسرنا الحرب أيضاً! لم يستطع النظر إلى عيني، وعلى نحو خجول، كأنه يذكر ذنباً مخجلاً قال: لا يمكن أن نعود إلى اسطنبول حتى تنتهي الموسوعة يا فاطمة. لأن تلك الترهات الصغيرة واليومية التي يسميها الحمقى الذين في اسطنبول سياسة لا تساوي شيئاً بجانب العمل الذي سأنجزه بهذه الموسوعة. العمل الذي أقوم به هنا عمل أعمق بكثير، وأعظم، إنها مهمة سيستمر تأثيرها إلى ما بعد قرون. لم أعد أمتلك حق ترك هذا العمل يا فاطمة. وقال صلاح الدين: أنا سأصعد فوراً إلى الأعلى، وصعد فوراً، وكتب في تلك الموسوعة المقرفة ثلاثين عاماً حتى ظهرت

مؤشرات موته، لأربعة أشهر تلوى من الألم الفظيع، حتى سال الدم من فمه، ثم مات. وأنا أشكرك من أجل هذا فقط يا صلاح الدين، لأنني بهذا قضيت سبعين عاماً هنا في جنة حصار، وتخلصت من الغرق في حرام ما سميته "اسطنبول المستقبل" و"الدولة اللادينية"، أليس كذلك؟ تخلصت يا فاطمة، وصار بإمكانك أن تنامي مرتاحة...

ولكنني لا أستطيع النوم، أستمع للقطار القادم من بعيد: لصافرته، لصوت محركه المنبعث لمدة طويلة، لعجلاته. كنت أعتقد أن بلاداً وأرضاً، وبيوتاً، وحدائق عذراء هناك في البعيد، لأنني كنت صغيرة، ومن السهل أن أخدع. ذهب قطار آخر، ولم أعد أسمعه. لا تفكري إلى أين! ارتفعت حرارة مخدتي تحت خدي فاستدرت. حين أسندت رأسي صار المكان بارداً تحت أذني. كان صلاح الدين ينام وهو يشخر، وأنا أشمئز من رائحة النبيذ التي تفوح من بئر فمه، فأذهب إلى الغرفة المجاورة، وأجلس في البرد. في إحدى المرات، قلت لأذهب إلى الغرفة الأخرى، وألقي نظرة إلى أوراقه، وأرى ما يكتبه من الصباح إلى المساء: كتب حول مادة: جدُّ الإنسان هو الغوريلا: في هذه الأيام التي نشهد فيها تحول قضية وجود الله إلى قضية مضحكة وملقاة جانباً في نهاية التقدم المذهل الذي طرأ على العلوم في الغرب. وكتب: يجب ألا يدفعنا نوم الشرق حتى الآن في ظلمات العصور الوسطى العميقة والمقرفة - نحن حفنة المثقفين - إلى اليأس، بل على العكس، إلى انفعال العمل العظيم. وكتب: لأن الأمر الواضح تماماً هو أننا لن نأخذ هذا العلم كله من هناك، وننقله إلى هنا ببساطة، بل سنضطر لإعادة اكتشافه. وكتب:

ومن أجل سدّ الفرق الفاصلة بيننا، والممتدة إلى عدة قرون خلال زمن قصير، أرى الآن بعد أن أمضيت سنتي السابقة بهذا العمل العظيم، أن الجماهير المحولة إلى مجموعة مخبولين عبر مخافة الله... يا الله، لا تقرئي بعد ذلك يا فاطمة، ولكنني أقرأ. وكتب: أنا أضطر للقيام بكثير مما يُعتبر في الدول المتقدمة مضحكاً من أجل إيقاظ مجموعة المخدرين. وكتب: لو كان لي صديق أتحدث معه عن كل هذا ولكن لا، لا يوجد لدي صديق واحد كما قطعت الأمل من هذه المرأة الباردة. إنك وحيد يا صلاح الدين. وكتب على ورقة ما سيفعله في الغد. وكتب أنه سيستفيد من كتاب (بوليكوسكي) من أجل خريطة هجرة اللقالق والطيور. وكتب ثلاثة أمثلة بسيطة تثبت عدم وجود الله للمخدرين، ولكن كفى يا فاطمة، لم أعد أستطيع القراءة، ورميت أوراق الحرام، وهربت من تلك الغرفة الشديدة البرودة المليئة بالكفر، ولم أدخلها منذ ذلك اليوم البارد الثلجي، وفهم صلاح الدين هذا صباح اليوم التالي فوراً. هل دخلتِ إلى غرفتي ليلة الأمس وأنا نائم يا فاطمة؟ أنا صامتة. أدخلتِ إلى غرفتي، وعبثت بالأوراق يا فاطمة؟ أنا صامتة. عبثتِ بها، وخربت ترتيبها، وأسقطت بعضها على الأرض يا فاطمة؟ لكن هذا غير مهم، يمكنك أن تقرأي، وبقدر ما تريدين. اقرأي! أنا صامتة. قرأتِها، أليس كذلك؟ حسن فعلت يا فاطمة. ما رأيك؟ أنا صامته... تعرفين أنني أردت هذا دائماً، أليس كذلك؟ اقرأي يا فاطمة. القراءة أفضل شيء. اقرأي، وتعلمي. إذا قرأت، واستيقظت في يوم ما يا فاطمة سترين كم هنالك ما يجب فعله في الحياة، يا لكثرته.

لا، هنالك أشياء قليلة جداً: مرت تسعين سنة، وأعرف أنها قليلة جداً: الأشياء والغرف، أرى وأرى، ومن هناك إلى هنا، وفي النهاية، قليل من الوقت. قطرات ماء لا يمكن إيقافها تقطر من صنبور لا يُغلق. الآن هو في جسدي وعقلي، قبل قليل، وقبل قليل هو الآن، يغمز ويفتح، يدفع الأباجور ويفتح، ليل نهار، وهيا يا صباحاً جديداً، ولكنني لا أهتم. أنتظر من جديد. سيأتون غداً. مرحباً، مرحباً! أطال الله عمرك. يقبلون اليد، ويضحكون. شعر الرأس المحني على يدي غريب. كيف حالكم؟ كيف حالك يا جدة؟ ماذا يمكن أن يقال لشخص مثلي. أنا أعيش، وأنتظر. قبور وموتى، وتعال يا نوم تعال.

انقلبت في السرير. لم أعد أسمع صوت الجدجد. النحلة أيضاً ذهبت. ماذا بقيّ أيضاً للصباح. تستيقظ الغربان على السطح باكراً، وأسمعها. هل صحيح أن الغربان لصة؟ ثمة غراب سرق مجوهرات الملكة والأميرات، وتبعوه. أنا أتوق لمعرفة كيف استطاع ذلك الطائر الطيران مع كل هذا الحمل؟ كتب صلاح الدين عن البالونات والمناطيد وذلك الولد: كيف يطير ليندبيرغ؟ إذا شرب زجاجتين وليس زجاجة واحدة لما استمعت إليه، ولنسيت. لكنه كان يتحدث عن هذا بعد الطعام. كتبت اليوم عن الطائرات والطيور والطيران يا فاطمة، اسمعي: الجو ليس فارغاً يا فاطمة، توجد وحدات داخله. وكما أن ثقل الماء بقدر الحيّز الذي تشغله الورقة السابحة في الماء... لا أنا لا أفهم كيف تطير البالونات والمناطيد. ولكن صلاح الدين يشرح منفعلاً، ويُقدّم النتيجة التي توصّل إليها، وهو يصرخ كما يفعل دائماً. يجب أن تكون هذه، وكل شيء

مـعـروف، هذا مـا يلزمنـا: مـوسـوعـة. إذا عُـرفت العلوم الطبـيـعـيـة والاجتماعية فسيموت الله، ونحن... لم أعد أسمعك! إذا شرب الزجاجة الثالثة فلا أسمع ما يقوله وهو مسعور: نعم، الله غير موجود يا فاطمة: صار هنالك علِم. مات إلهك هذا أيتها المرأة المخبولة! بعد ذلك، عندما لا يبقى مـا يؤمن به سوى أن يحب نفسه، ويشمئز من نفسه، تسيطر عليه الشهوة القبيحة فيهرع إلى البركة في الحديقة. لا تفكري يا فاطمة.. خادمة.. لا تفكري، كلاهما عاجزتان! فكري بأمر آخر! بالصباح الجميل والحدائق القديمة وعربات الخيل... تعال يا نوم، تعال.

حين أمدّ يدي مثل قطّ منتبه يُطفأ المصباح المجاور لرأسي. ظلام صامت. ولكن ثمة ضوءاً باهتاً يتسلل من فتحات الأباجور. لم أعد أستطيع رؤية الأشياء، فقد تخلصت من نظاراتي. سكتت، وانغلقت على نفسها. كأنها تقول إنها تستطيع البقاء حيث هي دون أن تتحرك، ودونما الحاجة إليّ، ولكنني أعرفك: أنتِ هناك، أنتِ هناك أيتها الأشياء، أنتِ قربي، وكأنك محط انتباهي. أحياناً تطقطق إحداها فأعرف صوتها، إنه ليس غريباً. أنا أيضاً أريد إصدار صوت، وأفكّر. يالغرابة الفراغ الذي نقف في داخله! تتكتك الساعة، وتقسم الزمن. حاد ومصمم. ثمة فكرة، وبعدها أخرى. بعد ذلك، جاء الصباح، وجاؤوا. مرحباً، مرحباً! نمت، واستيقظت. مر الوقت، ونلت راحتي من النوم. جاؤوا أيتها السيدة الكبيرة جاؤوا. صفير قطار آخر ينبعث وأنا أنتظر. إلى أين؟ مع السلامة! إلى أين يا فاطمة، إلى أين؟ نحن ذاهبون يا أمي. اسطنبول ممنوعة علينا. هل أخذت خواتمك؟ أخذتها. آلتك

الخياطة؟ وهذه أيضاً. ماساتك، ولآلئك؟ ستكون ضرورية لك على مدى حياتك يا فاطمة. عودي بسرعة! لا تبكي يا أمي. الصناديق والأغراض تُحمّل في القطار. لم أكن قد وضعت مولوداً بعد. إننا مسافران، ذاهبان - زوجي لوّح إلينا، وألوّح بيدي. استودعك الله يا أبي، أستودعكِ الله يا أميز. انظرا، أنا ذاهبة إلى أماكن بعيدة.

-٣-

قال الفاكهاني: "نعم، ماذا تريد؟"

قال مصطفى: "توجد أمسية ينظمها الشباب القومي، ونحن نوزع بطاقات دعوة".

أنا أخرجتُ بطاقات الدعوة من الحقيبة.

قال الفاكهاني: "أنا لا أذهب إلى أمكنة كهذه، ليس لدي وقت".

قال مصطفى: "أي أنك لن تأخذ واحدة أو اثنتين لدعم الشباب القومي".

قال الفاكهاني: "أخذت في الأسبوع الماضي".

قال مصطفى: "هل أخذتها منّا؟ نحن لم نكن هنا في الأسبوع الماضي".

قال سردار: "أما إذا كنت قد ساعدت الشيوعيين فهذا أمر آخر".

قال الفاكهاني: "لا، أولئك لا يأتون إلى هنا".

قال سردار: "لماذا لا يأتون؟ ألأنهم لا يريدون؟"

قال الفاكهاني: "لا أعرف. اتركوني وشأني. أنا لا أهتم بهذه الأمور".

قال سردار: "أنا أخبرك بسبب عدم مجيئهم. إنهم لا يأتون لخوفهم منا. لولا وجودنا لفرض الشيوعيين الأتاوة هنا كما في طوظلا".

"اللهم احمنا".

"ياه.. أنت تعرف ما يفعلونه بالمواطن في طوظلا، أليس كذلك؟ بداية يكسرون الواجهة الزجاجية..."

التفتُّ إلى واجهة دكانه: ثمة زجاج نظيف وعريض متلامع.

بعد ذلك قال سردار: "هل أُخبرك بما يفعلونه إذا لم يدفع؟"

أنا أعتقد أنهم يجهزون له قبراً. إذا كان الشيوعيون يفعلون هذا دائماً فإن المقابر في روسيا ممتلئة إلى أفواهها. يبدو أن الفاكهاني قد فهم في النهاية. وضع يده في زناره وهو ينظر إلينا بعين حمراء.

قال مصطفى: "نعم يا خال. ليس لدينا وقت. بكم تريد؟"

أخرجتُ البطاقة كي يراها

قال سردار: "سيأخذ عشراً"

قال الفاكهاني: "في الأسبوع الماضي أخذتُ".

قال سردار: "حسن، علينا ألا نهدر وقتنا. هذا يعني أن صاحب هذا الدكان فقط في السوق كله لا يخاف تحطيم واجهته الزجاجية. هذا الدكان فقط. علينا ألا ننسا. خذ رقمه يا حسن!"

خرجتُ، ونظرتُ إلى الرقم فوق الباب، ثم دخلتُ. احمرّ وجه الفاكهاني.

قال مصطفى: "حسن يا خال، لا تغضب. هدفنا ليس إهانتك. أنت بعمر جدنا، ونحن لسنا شيوعيين". التفت إلي "اعطه خمساً هذه المرة يكفي".

أخرجتُ خمسَ بطاقات، ومددتها إليه. مد الفاكهاني يده، وأمسكها من طرفها كما لو أنه مشمئز، وأخذها. بعد ذلك، بدأ يقرأ ما هو مكتوب على الدعوة على نحو جدي.

قال سردار: "لنعطه فاتورة. هل تريد؟"

أنا أيضاً ضحكت.

قال مصطفى: "لا تهينوه!"

قال الفاكهاني: "لدي من هذه البطاقات خمس أخرى". وبحث في الزاوية المظلمة المغبّرة لدُرجه منفعلاً، وبحث، ثم أخرجها فرحاً، وأرانا إياها: "أليست هذه مثلها بالضبط؟"

قال مصطفى: "نعم، يمكن أن يكون الشباب الآخرون قد أعطوك إياها بالخطأ. ولكن عليك أن تأخذ منا".

"أخذتُ، ها هي".

قال سردار: "إذا أخذتَ خمساً أخرى فهل ستموت يا خال؟"

ولكن الرجل العجوز البخيل تظاهر بعدم الاستماع، وأشار برأس أصبعه إلى زاوية البطاقات، وقال: "موعد هذه الأمسية قد مضى. هذه أمسية كانت قبل شهرين. انظر، مكتوب هنا: أيار ١٩٨٠".

قال مصطفى: "هل تنوي الذهاب إلى تلك الأمسية يا خال".

قال الفاكهاني: "كيف أذهب إلى أمسية كانت قبل شهرين؟"

في النهاية، كاد صبري أن ينفد أنا أيضاً من أجل خمس بطاقات. يبدو أنهم لم يعلموننا في المدرسة شيئاً. فالصبر لا يؤدي في الحياة إلا إلى الموت، ولا يفيد في شيء آخر. لو طلبوا مني كتابة موضوع إنشاء عن هذا الأمر، لوجدتُ أموراً تجعل حتى مدرسي اللغة التركية الذين يتحينون الفرصة لترسيبي يمنحونني خمس درجات. وها هو سردار أيضاً غاضب مثلي. وفجأة ذهب، وسحب القلم المثبت فوق أذن العجوز البخيل بشكل آلمه، وكتب كتابة ما على البطاقات، وأعادها له مع القلم.

قال: "حسن يا خال، أجّلنا الأمسية إلى بعد شهرين. ستدفع خمسمائة ليرة".

أخرج خمسمائة ليرة، وأعطانا إياها. وهكذا فإن أحداً لا يؤمن بالمثل القائل بأن اللسان الحلو يخرج الأفعى من جحرها سوى مدرسي الإنشاء التركي في مدرستنا. غضبت إلى حد أنني قررت أن أؤلم هذا العجوز البخيل أو أسيء إليه إساءة ما. كنا خارجين. توقفت فجأة، وسحبت دراقة من أسفل برج الدراق الذي صفّه أمام الباب. ولكنه محظوظ، إذ لم يسقط كله. وضعت دراقتي في الحقيبة. بعد ذلك، دخلنا إلى دكان الحلاق.

الحلاق ممسك برأسٍ وضعه تحت الصنبور يغسله. نظر إلينا عبر المرآة.

قال دون أن يترك الرأس الذي بين يديه: "آخذ اثنتين يا شباب".

قال مصطفى: "لو كانت لديكم رغبة لأخذتم عشر بطاقات. تبيعونها هنا في الدكان".

قال الحلاق: "قلت لك اترك اثنتين وكفى. ألم تأتوا من الرابطة؟"

اثنتان! فجأة تأجج غضبي.

قلت: "لا، ليس اثنتين. ستأخذ عشراً" وعددت عشر بطاقات، ومددتها نحوه.

حتى سردار دهش. نعم يا سادة، هكذا أبدو عندما يتأجج غضبي. ولكن الحلاق لم يأخذ البطاقات.

قال: "كم عمرك أنت؟"

الرأس المصوبن الذي بين يدي الحلاق نظر إلي هو الآخر عبر المرآة.

قلت: "ألن تأخذها؟"

قال سردار: "ثمانية عشر"

قال: "من الذي أرسلك من الرابطة. أنت ناري جداً".

لم أجد ما أقول، ونظرت إلى وجه مصطفى.

قال مصطفى: "لا تؤاخذونا يا أخي. إنه جديد، لا يعرفكم".

"واضح أنه جديد. اتركوا لي اثنتين يا شباب".

أخرج من جيبه مئتي ليرة، ونسيني جماعتي، واتفقوا معه، وكادوا يقبلون يده. هذا يعني أنك إذا عرفت من في الرابطة تغدو مَلِكَ هذا المكان. لو أنه لم يأخذ أبداً! أخرجت بطاقتين ومددتهما نحوه ، ولكنه لم يلتفت ويأخذها.

"اتركهما هناك".

تركتهما. كنت سأقول شيئاً، لم أقل.

قال: "مع السلامة يا شباب" وأشار بطرف زجاجة الشامبو التي تناولها نحوي: "هل يدرس هذا أم يعمل؟"

قال مصطفى: "إنه مُكمل في الثاني ثانوي".

"ماذا يعمل والدك؟"

أنا صامت.

قال مصطفى: "والده بائع يانصيب".

قال الحلاق: "انتبهوا لابن آوى الصغير هذا. إنه ناري جداً. هيا لنر".

ضحكت جماعتي. قلت لأدلي بدلوي. في اللحظة التي كنت سأقول

فيها: لا ترهق صبيك، تراجعت. خرجت دون أن أنظر إلى وجه الصبي. سردار ومصطفى يتضاحكان، ويتحادثان، ولكنني لم أستطع الاستماع إليهما، رأسي ملخبط. بعد ذلك، قال مصطفى لسردار:

"تذكّر أنه حلاق، لا تهتم".

"ابن آوى!"

أنا لم أقل شيئاً. مهمتي حمل الحقيبة، وإخراج البطاقات في الوقت اللازم، وتقديمها. أنا هنا معكم لأنهم طلبوا من جنة حصار، وكلفوني بهذا العمل، ولأنكم تتفقون مع أصحاب الدكاكين وتسخرون مني، وتقولون تلك الكلمة وتتضاحكون فليس لدي ما أقوله لكم، وأنا صامت. دخلنا إلى صيدلية. صمتُّ. دخلنا إلى قصاب. صمت. وصمت آخر عند السمان، وعند بائع الخرداوات بعده، وبائع البن، وفي المقهى، لم أتكلم أبداً حتى انتهاء دكاكين السوق. حين خرجنا من الدكان الأخير، أدخل مصطفى يديه في جيبيه.

قال: "استحق كل منا صحن كفتة".

أنا صامت. لم أقل له إنهم لا يعطوننا النقود كي نأكل الكفتة.

قال سردار: "نعم، استحق كل منا وجبة".

ولكننا عندما جلسنا في دكان بائع الكفتة، أخرج مصطفى النقود، وعدّها. سبعة عشر ألف ليرة. بعد ذلك قال لسردار:

"لماذا يقطّب وجهه هذا؟"

قال سردار: "غاضب من وصفنا إياه بابن آوى".

قال مصطفى: "واحد مخبول".

ولكنني لم أسمع، لأنني كنت أنظر إلى التقويم الملصق على الجدار. بعد ذلك، جاءت الكفتة. أكلنا وهم يتحدثون، وأنا صامت. طلبوا حلوى، وأنا طلبت هريسة، وأعجبتني. بعد ذلك، أخرج مصطفى المسدس، وأمسكه تحت الطاولة، ولعب به.

قال سردار: "هاته".

هو أيضاً لعب به. لم يعطني إياه. تضاحكوا. بعد ذلك، دسه مصطفى في خصره. دفع الحساب، ونهضنا، وغادرنا.

عبرنا السوق دون خوف من أحد. دخلنا إلى بناء المجمع التجاري، وصعدنا درجه دون أن نتكلم. حين دخلنا إلى الرابطة، أحسست بأنني كالخائف مثلما يحدث لي كل مرة. وبالطريقة التي أنفعل فيها حين أغشّ بالامتحان خوفاً من رؤية المدرس لي، ويراني المدرس منفعلاً فيفهم الأمر.

قال: "السوق كله تمام؟"

قال مصطفى: "نعم يا أخي الكبير. الأمكنة التي ذكرتموها".

"كلها معك، أليس كذلك؟"

قال مصطفى: "نعم" وأخرج النقود والمسدس.

قال هو: "آخذ الآلة فقط. النقود يتسلمها السيد زكريا".

أعطاه مصطفى المسدس، ودخل الرجل الوسيم إلى الداخل، ومصطفى كذلك. ونحن ننتظر. في إحدى اللحظات فكرت لماذا أنتظر. نسيت أننا ننتظر السيد زكريا، وكأننا ننتظر دون انتظار شيء. بعد ذلك، جاء رجل مثلنا، وقدم لنا السجائر. أنا لا أدخن، ولكنني أخذت. أخرج قداحة ذات شكل رأس قطار، وأشعل سيجاراتنا.

"هل أنتم الأصدقاء (المثاليون)(*) القادمون من جنة حصار؟"

قلت: "نعم".

"كيف الوضع هناك؟"

فكرت بما يقصد. للسيجارة طعم قذر. كأنني تقدمت بالسن.

قال سردار: "الحي العلوي لنا".

قال هو: "أعرف. أنا أسألك عن شاطئ البحر. طوظلا للشيوعيين".

قلت فجأة: "لا، ليس ثمة شيء في جنة حصار، ولا في الشاطئ. هناك توجد طبقة اجتماعية راقية غنية".

نظر إلي وضحك. أنا ضحكت.

فيما بعد، قال: "ليكن، لا شيء مضمون".

قال سردار: "أصحاب الحي العلوي سيكونون أصحاب الشاطئ".

"نعم، هكذا أخذوا طوظلا. انتبهوا، واحذروا". بعد ذلك فكرت قليلاً بالشيوعيين. وبينما كنت أفكر بهم كنت أدخن بجدية، قال المتحدث معنا: "أنت جديد، أليس كذلك؟" ودخل إلى الغرفة الداخلية دون أن يسمع جوابي.

لم يدع لي فرصة لأقول شيئاً! هز سردار رأسه قائلاً: نعم. كيف يفهمون فوراً أنني جديد يا ترى؟ ماذا قصد بالضحكة حين قلت: هناك طبقة اجتماعية راقية؟ نهض سردار أيضاً، ودخل إلى مكان ما في الداخل. هذه المرة بقيت هنا وحدي. كأن سردار تركني وحدي كي يفهم

* – المثاليون تنظيم فرعي لحزب العمل القومي في تركيا، وهو حزب قومي طوراني، ويسمى أنصاره (الذئاب الغبر) المترجم.

الداخلون والخارجون بأنني جديد. أدخن السيجارة، وأفكر بأمور مهمة. أمور مهمة إلى حد أن الداخلين والخارجين يفهمون أنني أفكر بأمور على هذا النحو عندما يرونني: قضايا حركتنا. ثمة كتاب بهذا العنوان، قرأته. حين قرأت هذا، خرج مصطفى من الغرفة، وتعانق مع أحدهم، وفي تلك الأثناء انسحب الجميع جانباً: السيد زكريا... نعم جاء. ألقى عليّ نظرة في أثناء دخوله إلى غرفته، وكنت أنهض من مكاني، ولكنني لم أنهض تماماً. بعد ذلك، نادوا مصطفى. حين دخل، فكرت بما تحدثوا به. بعد ذلك، خرجوا، فنهضت على قدمي هذه المرة.

قال السيد زكريا لابن جماعتنا مصطفى: "حسن، سنرسل لك خبراً عند الضرورة، جيد ما فعلت"

بعد ذلك، نظر لحظة. انفعلت كثيراً، واعتقدتُ أنه سيقول لي شيئاً ما، لكنه لم يقل شيئاً أبداً. عطس فجأة، وصعد إلى الأعلى من جديد. يقولون: إلى الحزب. بعد ذلك تحادث مصطفى همساً مع الشاب الذي كلمنا قبل قليل. فكرت لحظة أنهما يتحدثان عني، وعن أشياء هامة... لم أنظر إليهما كي لا يعتقدان أنني أستمع إليهما، وأنني شخص فضولي.

فيما بعد، قال مصطفى: "هيا يا شباب. نحن ذاهبون".

تركت الحقيبة. نحن ذاهبون إلى المحطة دون أن نتحدث، كأناس نجحوا في مهمتهم، بعد ذلك، فكرت لماذا لم يتحدث مصطفى أبداً. لم أعد غاضباً منهم. كيف وجدوني في أثناء المهمة؟ فكرت بهذه الأمور

عندما كنا جالسين على مقعد المحطة المجاور منتظرين القطار. حين رأيت دكان بائع اليانصيب الذي هناك، تذكرت أبي، ولكنني لا أريد أن أفكر بأبي الآن، ولكنني برغم هذا فكرت. وتمتمت بما أردت قوله له: شهادة الثانوية ليست أهم ما في الحياة يا أبي!

جاء القطار، ركبنا. سردار ومصطفى يتهامسان من جديد. يقولان عبارة أو يتمازحان، فيضعانني موضع المخبول. حينئذ أبحث عن فرصة أرد بها على ممازحتهما، ولكنني لا أجد بسرعة، وبينما أبحث عن الرد، ينظران إلى وجهي الشارد، ويتضاحكان أكثر، أدرك أنهما وضعاني في موضع المخبول أكثر من السابق. حينئذ أرغب بأن أكون وحدي. عندما يكون الإنسان وحيداً يمكنه أن يفكر بالأمور العظيمة التي يمكنه فعلها براحة. ما يفعلونه أحياناً هو مزاح لم أستطع فهمه. يتغامزان فيما بينهما كما يفعلان الآن، وهما يذكران تلك الكلمة: ابن آوى! كيف شكل هذا الحيوان يا ترى؟ كانت هنالك فتاة في المدرسة الابتدائية، جلبت موسوعة الحيوان إلى الصف. تقول فهد، وتفتح على حرف الفاء... لو كانت تلك الموسوعة موجودة، كنت سأنظر إلى "ابن آوى". ولكن تلك الفتاة لا تعيرني إياها. لا، ستوسخها! يا قحبة، لماذا تجلبينها إلى المدرسة إذن؟ فيما بعد، سافرت تلك الفتاة إلى اسطنبول طبعاً، يقولون إن أبيها صار غنياً. كانت لها صديقة، وكانت تربط شعرها بربطة زرقاء.

شردت... انفعلتُ حين وصل القطار إلى طوظلا، ولكنني لم أخف. يمكن للشيوعيين أن يدخلوا في كل لحظة. سردار ومصطفى صمتا، ونظرا

متوترين. لم يحدث شيء. حين تحرّك القطار قرأت ما كتبه الشيوعيون على الجدار: ستكون طوظلا مقبرة للفاشيين. يقصدوننا نحن بالفاشيين. شتمت قليلاً. بعد ذلك وصل القطار إلى محطتنا، فنزلنا. مشينا حتى الموقف دون أن نتكلم.

قال مصطفى: "يا شباب، أنا لدي عمل.. عن اذنكم.."

نظرنا إليه حتى غاب بين الحافلات الصغيرة. فيما بعد، قلت لسردار فجأة: "لا أريد أن أذهب إلى البيت، وأدرس في هذا الحرّ".

قال سردار: "نعم، حر شديد".

قلت: "أنا متوتر" وسكت قليلاً، ثم قلت: "هيا يا سردار، لنذهب إلى المقهى".

"لا، أنا ذاهب إلى الدكان، لدي عمل".

ذهب. لو كان لدى أبوك دكان لكان عندك عمل بشكل تلقائي. ولكنني مازلت أدرس. لم أستطع ترك الدراسة مثلكم. لكن كم هذا غريب، فأكثر شخص يسخرون منه هو أنا. مساء، يأتي سردار إلى المقهى قبل الجميع، وأنا واثق أنه سيحكي لهم عني بوصفي ابن آوى. لا تهتم يا حسن، ولم أهتم. بدأت بصعود الطريق.

أنظر إلى السيارات والشاحنات المارة من أمامي مسرعة لتلحق بموعد العبارة البحرية المتجهة إلى جنة حصار أو (ضارجا). كأنني مستمتع بالتفكير أنني وحيد. كنت أريد أن أخوض مغامرة. هنالك أشياء كثيرة يمكن أن تحدث في الحياة، ولكنك ها أنت تنتظر. يتهيأ لي التالي: كأن الأمور التي أريدها أن تحدث، تحدث ببطء، وعندما تحدث،

تحدث كما أفكر بها وأتوقعها. كأنها تأتي بطيئة من أجل إغضابي. بعد ذلك تنظر، ترى أن كل شيء قد مر. مثل هذه السيارة المارة. أنظر لعل إحداها تقف لتصعدني هذا الطريق، ولكن ليس هنالك من يعير اهتماماً في هذا العالم. بدأت بتناول دراقتي. ولكنني لم أستطع إشغال نفسي.

لو كان الفصل شتاء الآن لتجولت وحدي على الشاطئ الرملي: تأتي الأمواج، وتضرب الساحل، وأنا أقفز أحياناً كي لا يتبلل حذائي، وأركض، وأمشي، وأفكّر بحياتي، وأفكر بأنني سأكون رجلاً مهماً بالتأكيد، وأفكر بأن ليس هؤلاء الأشخاص فقط من سينظر إليّ بشكل مختلف، بل الفتيات أيضاً. حينئذ لن أشعر بهذا الضيق القذر، وخاصة عندما أفكر بما سأكونه في المستقبل، حينئذ لن أكون في وضع يدفعني للطلب من سردار الذهاب إلى المقهى. سأكفي نفسي بنفسي كما لو كان الفصل شتاء. ولكن هنالك مدرسة في الشتاء. لعنة الله عليها، وعلى المدرسين المرضى...

في ما بعد، رأيت تلك السيارة البيضاء طراز أناضول تصعد الطريق. وبينما كانت تقترب ببطء فهمت بأنهم فيها، وكأنني خجلت، فلم ألوح لهم بيدي، والتفت جانباً. جاؤوا، وجاؤوا، وعبروا ذاهبين دون أن يعرفوني. بينما كانوا عابرين اعتقدت للحظة بأنني أخطأت. لأن نيلفون لم تكن جميلة إلى هذا الحد عندما كنا صغاراً! ولكن من يمكن أن يكون غير فاروق هذا البدين الذي يقود السيارة؟ أية بدانة؟ حينئذ فهمت أنني لن أذهب إلى البيت، وعرفت إلى أين سأذهب: سأنزل

الطريق، وأنتظر عند باب بيتهم. لعلني أرى عمي القزم، فيدخلني. طبعاً سأدخل إذا لم أخجل. أقول: مرحباً، ولعلني أقبّل يد الجدة. بعد ذلك أقول لهم مرحباً، هل عرفتموني؟ وأقول إنني كبرت كثيراً. يقولون: نعم، عرفناك، ألم نكن أصدقاء حميمين عندما كنا صغاراً؟ لعلني إذا ذهبت إلى هناك أنسى هذا الملل القذر عبر حديثنا.

- ٤ -

بينما كانت سيارة الأناضول تصعد الطريق بصعوبة، سألت:

"هل عرفتموه يا جماعة؟"

قالت نيلفون: "من؟"

"ذو الأزرق الماشي في طرف الطريق. هو عرفنا فوراً".

قالت نيلفون: "الطويل؟" واستدارت، ونظرت إلى الخلف. كنا قد ابتعدنا "من هو"؟

"حسن"

قالت نيلفون لا مبالية: "أي حسن؟"

"ابن شقيق رجب".

قالت نيلفون مندهشة: "كم كبر؟ لم أعرفه".

قال متين: "عيب يا ناس. إنه صديق طفولتنا".

قالت نيلفون: "لماذا لم تعرفه إذن؟"

"لم أره... ولكني عرفته فور إشارة فاروق إليه".

قالت نيلفون: "أحسنت. أنت ذكي جداً".

قال متين: "إذن هذا ما تعنيه بقولك إنك تغيرت من قمة رأسك حتى قدميك. أنت نسيت ماضيك فقط".

"أنت تهذي".

قال متين: "الكتب التي قرأتِها جعلتك تنسين كل شيء".

قالت نيلفون: "لا تتساخف".

خيّم صمت طويل. صعدنا الطريق الذي أنشئت على جهتيه كل سنة أبنية اسمنتية قبيحة جديدة، على حساب أشجار الكرمة وبساتين الكرز وأشجار التين التي صارت قليلة جداً. كان المذياع الصغير يبث موسيقا غربية خفيفة دون خصوصية. حين رأينا البحر وجنة حصار من بعيد شعرنا على ما يبدو بانفعال قريب من ذاك الذي نشعر به في طفولتنا، وفهمت هذا من الصمت. انحدرنا في الطريق دون أن نتحدث بشيء. عبرنا وسط زحام الناس المرتدين بنطالات قصيرة وألبسة سباحة، والمحروقي البشرة. وبينما كان متين يفتح باب الحديقة، قالت نيلفون:

"اضغط على الزمور يا أخي الكبير".

أدخلت السيارة إلى الحديقة، ونظرت متأملاً إلى البيت الذي يبدو لي أنه صار أعتق وأكثر خواء كلما جئت إليه. تساقط طلاء خشب نوافذه، قفزت العرائش من الجدار الجانبي إلى الجدار الأمامي، ظل شجرة التين يسقط على نافذة غرفة الجدة المغلقة، حديد نوافذ الطابق الأول صدئة. لف داخلي شعور غريب: كأن هناك أشياء مخيفة لم أنتبه إليها من قبل نتيجة الاعتياد. أنظر إلى البيت مندهشاً وقلقاً. نظرت إلى الظلام الرطب والميت العائد للجدة ورجب داخل الباب الأمامي الكبير الذي فتحت ردفتاه الثقيلتان من أجلنا.

كانت نيلفون تقول: "هيا انزل يا أخي، لماذا أنت جالس؟"

نزل من السيارة، وكان يسير نحو البيت. بعد ذلك، رأى جسم رجب المخجل الخارج منهمكاً من باب المطبخ الصغير، والمقترب منا متأرجحاً. تعانقا، وتبادلا القبل. أغلقت المذياع الذي لم ينتبه إليه أحد. نزلت من السيارة إلى الحديقة صامتاً. كان رجب يرتدي تلك السترة التي يرتديها دائماً وتخفي عمره، وربطة العنق الرفيعة الغريبة تلك. تعانقنا، وتبادلنا القبل.

قال رجب: "قلقتُ، فقد تأخرتم".

"كيف حالك أنت؟"

قال وكأنه خجل: "إيه... جيد. حضّرت لكم أسرتكم وغرفكم. السيدة الكبيرة تنتظر. هل أنتم أسمن من قبل يا سيد فاروق؟"

"كيف الجدة؟"

"جيدة. تشتكي.. لآخذ حقائبكم".

"نأخذها فيما بعد".

صعدنا الدرج، رجب في المقدمة، ونحن وراءه. فرحت لسبب أجهله عندما تذكرت ضوء البيت الداخلي المنساب من بين عوارض الأباجور، ورائحة العفن. حين وصل رجب أمام باب غرفة الجدة، توقف لحظة، وأخذ نفساً، بعد ذلك لمّع عينيه بنشوة ماكرة، وصرخ:

"جاؤوا أيتها السيدة الكبيرة، جاؤوا".

قال صوت الجدة العجوز والمتوتر: "أين هم؟ لماذا لم تخبرني؟ أين هم؟"

كانت تتمدد على السرير ذي الكرات المصنوعة من الفونط، والتي كنتُ أنقر عليها عندما كنت صغيراً، ملفوفة بلحاف أزرق مزهر، وظهرها

مسند إلى ثلاث مخدات مصفوفة واحدة خلف الأخرى. قبلنا يدها مرات عديدة. ثمة شامات على بشرة يدها البيضاء الناعمة المجعدة. الرائحة نفسها تفوح من الغرفة والجدة ويدها.

"أطال الله في عمرك".

"كيف حالكِ يا جدتي العزيزة؟"

قالت الجدة: "سيئة" ولكننا لم نقل شيئاً. حركت الجدة شفتيها قليلاً، وخجلت كفتاة شابة، أو أنها تظاهرت بالخجل، بعد ذلك، قالت: "هيا، احكوا لي أنتم".

تبادلنا النظر، نحن الأخوة الثلاثة، وخيم صمت طويل. فكرت بأن الرائحة التي تفوح من الغرفة هي رائحة عفن وطلاء مفروشات، وصابون قديم، ومن المحتمل أيضاً رائحة سكاكر النعنع، وأزهار البنفسج، وكولونيا، وغبار.

"أليس لديكم ما تشرحونه لي؟"

قال متين: "جئنا إلى هنا بالسيارة يا جدة. يستغرق الطريق من اسطنبول إلى هنا خمسين دقيقة بالضبط".

كل مرة يقول فيها هذا، وفي كل مرة يبدو وجه الجدة العنيد متجاهلاً، ليعود إلى حالته السابقة بسرعة.

قالت نيلفون: "كم ساعة كان يستغرق مجيئكم قديماً يا جدة؟" وكأنها لا تعرف.

قالت الجدة مباهية، أو مبدية الانتصار: "أنا جئت مرة واحدة فقط". ثم أخذت نفساً للحظة، وأضافت: "واليوم أنا التي أسألكم، وليس أنتم". يبدو أنها سرّت من هذه الكلمات التي قالتها بدافع الاعتياد،

وفكرت بسؤال، لكنها فيما بعد، عندما طرحت السؤال، أدركت أنها لم تسأل بذكاء كما أرادت.

"كيف حالكم؟"

"جيدون يا جدة".

غضبت وكأنها تعرضت لهزيمة، وقطبت حاجبيها بحدة. حدث أن خفت من حالة الوجه هذه عندما كنتُ صغيراً.

"ضع مخدّة خلفي يا رجب".

"المخدات كلها خلفك أيتها السيدة الكبيرة".

قالت نيلفون: "هل آتيك بواحدة أخرى يا جدة؟"

"ماذا تفعلين أنت؟"

قلت: "بدأت نيلفون بالدراسة الجامعية يا جدتي العزيزة".

قالت نيلفون: "أنا لي لسان يا أخي، لا تقلق. أنا أدرس علم الاجتماع يا جدة، وأنهيت هذه السنة الصف الأول".

"ماذا تفعل أنت؟"

قال متين: "سأنهي الثانوية في السنة القادمة".

"بعد ذلك؟"

قال متين: "بعد ذلك، سأذهب إلى أمريكا".

قالت الجدة: "ماذا يوجد هناك؟"

قالت نيلفون: "اناس أغنياء وماكرون".

قال متين: "جامعة".

قالت الجدة: "لا تتكلموا كلكم معاً. أنت ماذا تفعل؟"

لم أقل لها إنني أذهب إلى الكلية حاملاً حقيبة ضخمة، وأتجول في

البيت ليلاً، وأتناول الطعام، وأغفو أمام التلفاز. ولم أقل لها أيضاً إنني انتظر موعد الشرب وأنا ذاهب إلى الجامعة صباحاً، وإنني أخاف من فقدان إيماني بما يدعى بالتاريخ، وإنني اشتقت إلى زوجتي.

قالت نيلفون: "صار أستاذاً مساعداً يا جدة".

قالت الجدة: "ماذا تفعل زوجتك؟"

قلت: "أخبرتك عندما جئنا في المرة السابقة يا جدة. انفصلنا".

قالت: "أعرف، أعرف. ماذا هي تفعل الآن؟"

"تزوجت من جديد".

قالت الجدة: "حضرت لهم غرفهم أنت، أليس كذلك؟"

قال رجب: "حضرتها".

"أليس لديكم أمر آخر تقولونه؟"

قالت نيلفون: "صارت اسطنبول مزدحمة جداً يا جدة".

قال رجب: "وهنا أيضاً المكان مزدحم".

قلتُ: "اجلس هنا يا رجب!"

قال متين: "هذا البيت بات قديماً جداً يا جدة".

قالت الجدة: "أنا لست على ما يرام".

"بات قديماً جداً يا جدة، لنهدمه، وننشئ مكانه عمارة، وترتاحين أنت".

قالت نيلفون: "اسكت! لا تسمعك الآن، وهذا ليس وقته".

"متى يحين وقته؟"

"لن يحين أبداً".

خيّم صمت. أصغيت كأنني أسمع الأغراض في الغرفة الخانقة

تتمطى مصدرة صوت طقطقة. يدخل عبر النافذة ضوء ميت كأنه معتق لزمن طويل.

قالت الجدة: "ألن تقول شيئاً؟"

قالت نيلفون: "رأينا حسن في الطريق. لقد كبر وصار ضخماً".

تحركت شفتا أمي بشكل غريب:

سألت نيلفون: "ماذا يفعلون يا رجب؟"

قال رجب: "لا شيء. يسكنون في بيت عند أعلى الطريق الصاعدة. وحسن في الثانوية.."

صرخت الجدة قائلة: "ماذا تقول لهم؟ عمن تحكي؟"

قالت نيلفون: "ماذا يفعل إسماعيل؟"

قال رجب: "لا شيء، يبيع اليانصيب".

صرخت الجدة من جديد: "ماذا يقول لكم؟ احكوا معي، وليس معه! هيا اخرج أنت. اذهب يا رجب، وانزل إلى مطبخك!"

قالت نيلفون: "لا ضرر منه يا جدة. ليبقَ هنا".

قالت الجدة: "خدعكم فوراً، أليس كذلك، ماذا قلت لهم؟ هل استدرت عطفهم؟"

قال رجب: "لم أقل شيئاً أيتها السيدة الكبيرة".

"رأيتك للتو. كنت تتحدث، وتشرح".

خرج رجب، وخيّم صمت.

قلتُ أنا: "هيا يا نيلفون! إحكي لنا شيئاً".

قالت نيلفون: "أنا؟ ماذا أقول" فكرت قليلاً، بعد ذلك قالت: "كل شيء صار غالياً يا جدة".

قال متين: "قولي إنك نسيت كل شيء لكثرة قراءتك الكتب".

قالت نيلفون: "ثرثار مسكين".

قالت الجدة: "ماذا تقولين؟"

خيم صمت مرة أخرى.

قلت أنا: "هيا يا جدة. لننهض نحن، ونرتب أنفسنا في غرفنا".

قالت الجدة: "جئتم للتو. أين تذهبون؟"

قلت: "لا نذهب. إننا هنا لأسبوع".

قالت الجدة: "هذا يعني أن ليس لديكم حديث حلو تحدثوني به" وابتسمت قليلاً في انتصار غريب.

قلتُ دون تفكير: "غداً سنذهب إلى المقبرة".

كان رجب خارج الغرفة ينتظر أمام الباب. قادنا إلى غرفنا واحداً واحداً، وفتح أباجورات النوافذ. حضّر لي مرة أخرى الغرفة المطلة على البئر. تذكرت رائحة العفن والأغطية والطفولة.

قلت: "تسلم يديك يا رجب. وضبت الغرفة في غاية الجمال".

قال: "علّقتُ منشفتكم هنا". وأشار إليها.

ولعت سيجارة. كنا ننظر معاً إلى الخارج عبر النافذة المفتوحة. سألته: "رجب! كيف هذا الصيف في جنة حصار؟"

قال: "شيء.. لم يبق طعم أيام زمان".

"كيف؟"

قال: "الناس سيئون، ولا يرحمون".

التفت محدقاً في وجهي، منتظراً مني تفهماً. بعد ذلك نظرنا معاً إلى الزقاق الذي يظهر بين الأشجار البعيدة مستمعين لصخب الشاطئ الرملي. جاء متين:

"هلا أعطيتني مفتاح السيارة يا أخي؟"

"هل أنت ذاهب؟"

"سأخرج حقيبتي، وأذهب".

قلت: "إذا أخرجت حقائبنا إلى الأعلى سأعطيك السيارة حتى صباح الغد".

كان رجب يقول: "لا تفعلوا شيئاً يا سيد فاروق، أنا أخرجها".

قال متين: "ألا تذهب الآن إلى الأرشيف، وتبحث عن الوباء؟"

قال رجب: "عن ماذا تبحثون؟"

قلت: "يمكن أن أبحث عن الوباء غداً".

سأل متين: "هل ستبدأ الشرب فوراً؟"

قلت: "ما دخلك بشربي؟" ولكنني لم أغضب.

قال متين: "صحيح" وأخذ مفتاح السيارة وذهب.

مشينا - رجب وأنا - خلف متين دون تفكير بشيء، ونزلنا الدرج. بعد ذلك، خطر ببالي بأن أذهب إلى المطبخ، وأبحث في الثلاجة. لكنني بعد أن نزلت الدرج، لم أذهب إلى المطبخ بل انعطفت إلى الجانب الآخر، وعبرت من أمام غرفة رجب، وذهبت إلى نهاية الممر الضيق. كان رجب خلفي.

قلت: "أما زال مفتاح غرفة الغسيل هنا؟" ومددت يدي إلى ما فوق بروز الباب، ووجدت المفتاح المغبر.

قال رجب: "السيدة الكبيرة لا تعرف. لا تخبروها".

بعد أن أدرت المفتاح، كان علي أن أدفع الباب بقوة كي يفتح. يجب أن يكون قد سقط خلفه شيء. نظرت فدهشت: جمجمة وسط

الغبار انحصرت ما بين الباب والصندوق. تناولتها من الأرض، ونفختها وأريتها لرجب محاولاً أن أبدو فرحاً.

"هل تتذكر هذه؟"

"ماذا يا سيدي؟"

"أنت لم تدخل إلى هذا المكان أبداً على الأغلب".

تركت الجمجمة على طرف طاولة صغيرة مليئة بالأوراق. وكطفلٍ، تناولت أنبوباً زجاجياً وهززته. بعد ذلك وضعته في إحدى كفتي ميزان صدئ. رجب صامت وواقف عند عتبة الباب، ينظر خائفاً إلى ما ألمسه: مئات الزجاجات الصغيرة، كسرات زجاج، صناديق، قطع عظام ملقية في صندوق، جرائد قديمة، مقصات صدئة، محاور معدنية، كتب فرنسية حول الطب والتشريح، صناديق مليئة بالأوراق، صور طيور وطائرات ملصقة على قطع خشبية، عدسات نظارات، دائرة مقسمة إلى سبعة ألوان، سلاسل، آلة خياطة كنت أضغط على بدالها لألعب كأنني أقود سيارة، براغي، صراصير وزواحف مثبتة بالدبابيس على الخشب، مئات الزجاجات المكتوب عليها "إدارة الحصر"، دقيق منوع مملوء بزجاجات دراء عليها لصاقات، وأصيص الفطر.

قال رجب: "هل هذه فطر يا سيد فاروق؟"

"نعم، خذها إذا كانت تفيدك".

لا يدخل إلى الغرفة لأنه خائف غالباً. ذهبت وأعطيته إياها. بعد ذلك، وجدت اللوحة المكتوب عليها بالحروف القديمة أن الدكتور صلاح الدين يستقبل المرضى بين الثانية والسادسة صباحاً، وبين الثامنه والثانية عشرة مساء. للحظة خطر ببالي أن آخذ معي هذه اللوحة إلى

اسطنبول، لا لمجرد أنها مهزلة بل لكونها ذكرى. ولكنني ألقيتها بين الأشياء المغبرة حين شعرت بالاشمئزاز من التاريخ والماضي مع كرهٍ وخوف غريبين. بعد ذلك أقفلت الباب. في أثناء سيري مع رجب إلى المطبخ رأيت متيناً من بين فواصل الدرج. كان يُخرج حقائبنا إلى الأعلى وهو يحدث نفسه.

-٥-

بعد أن صعدت بحقائب فاروق ونيلفون إلى الطابق العلوي، خلعت ثيابي، وارتديت لباس البحر، ولباساً صيفياً، وأخذت محفظة نقودي الممتلئة، ونزلت، وركبت سيارة الأناضول القديمة المهلهلة. ترجلت من السيارة أمام بيت وداد. ليس ثمة حركة في بيته غير حركة الخادمة التي تعمل في المطبخ. عبرت من باب الحديقة إلى الطرف الخلفي للبيت، وعندما دفعت النافذة دفعة خفيفة، رأيت وداداً ينام في سريره، ففرحت. قفزت إلى الغرفة كقط، وضغطت رأس وداد على المخدة.

صرخ قائلاً: "هل هذا مزاح يا حيوان؟" ابتسمت، وقلت "إيه... ماذا هناك؟"

قال: "متى جئت؟"

لم أجب. تجولت ببصري في الغرفة. كل شيء - بما في ذلك رسوم النساء العاريات التي لا معنى لها - ظل على حاله كما كان في السنة الماضية. بعد ذلك نفد صبري.

قلت: "هيا، هيا يا ابني، انهض".

"ماذا سنفعل في هذا الوقت؟"

"ماذا يفعل الجميع بعد الظهر؟"

"لا شيء!"

"ألا يوجد أحد؟"

"لا!، الجميع هنا، حتى إن هنالك قادمين جدد".

"أين يجتمعون؟"

قال: "في بيت جيلان. وهم قادمون جدد".

"حسن، هيا لنذهب إلى هناك".

"لابد أن جيلان لم تستيقظ بعد".

قلت: "إذن لنذهب، ونسبح في البحر في مكان آخر. أنا لم أجد فرصة للسباحة هذا العام ولا مرة واحدة بسبب انشغالي في تعليم أبناء أصحاب مصانع النسيج وتجار الحديد الأغبياء الرياضيات واللغة الإنكليزية".

"أتقصد أنك غير مهتم بجيلان؟"

"انهض. لنذهب إلى طورغاي إذن".

"طلبوا طورغاي إلى فريق كرة السلة للشباب. أتعرف هذا؟"

"هذا لا يهمني، أنا تركت كرة السلة".

"من أجل أن تشبه البقرة أكثر، أليس كذلك؟"

لم أقل شيئاً. نظرت إلى جسم وداد المحروق بالشمس وهو سليم ومطمئن، وفكرت، نعم أنا أدرس كثيراً، وأتضايق كثيراً إذا لم أحصل على الدرجة الأولى في صفي، وأعرف أن أمثالي يُسمون بقراً، ولكن ليس لدى أبي المسكين مصنع آلات إنتاج الألبسة، أو مصنع خيوط، أو مستودع حديد، أو ورشة صب معادن، أو مقاولة في ليبيا حتى لو كانت صغيرة، أو ربما مكتب استيراد وتصدير يتركه لي بعد عشر سنوات: ليس لدى أبي المستقيل من منصب القائمقام سوى قبره. ونأتي مرة في

السنة كي لا تبكي جدتي في البيت، فهي تبكي هناك. بعد ذلك، سألته: "حسنٌ، ماذا يفعل الجميع غير هذا ؟"

ليس لدى وداد نية النهوض من السرير الذي ينام عليه منبطحاً. وضع فمه على طرف المخدة: وحكى لي عن عودة محمد من انكلترا بصحبة فتاة ممرضة. الفتاة لا تسكن في بيت أهل محمد، ولكنهما ينامان في غرفة واحدة، وما يسميها فتاة هي في الحقيقة امرأة في الثلاثين من عمرها، وتتفاهم مع فتياتنا جيداً. وطوران في العسكرية، وأنا لا أعرفه. ومن أين سأعرفه. أنا أقضي الشتاء في مبيت المدرسة وبيت خالتي، وليس مع الطبقة الاجتماعية الراقية لأنقرة واسطنبول، ولكي أكسب بعض النقود أعطي دروساً في الرياضيات واللغة الإنكليزية والبوكر. ولكنني لم أقل شيئاً. قال وداد إن أبا طوران أرسل ابنه إلى الجندية عندما أدرك أنه لن يكون رجلاً. ولم يستخدم أبو طوران واسطة من أجل ابنه قائلاً: إن حياة الجندي تجعله يتعقل. وعندما سألته عما إذا كان قد تعقّل، قال وداد إنه لا يعرف. وقال إن طوران جاء في إجازة لمدة خمسة عشر يوماً. وعندما قال إن طوران بدأ علاقة مع هوليا شردت في التفكير. في هذه الأثناء أضاف وداد بأن هنالك شخصاً جديداً اسمه فكرت. وأدركت فوراً بأن وداداً معجب به لأنه يصفه: "ملك"، "راجح العقل". بعد قليل صار يصف عدد أحصنة محرك قاربه المصنوع من (الفيبرغلاس) وعدد أحصنته. توترت أعصابي تماماً، وصرت لا أستمع إلى هذا السافل، وصمتنا حين فهم هذا. ولكننا تحدثنا من جديد بعد ذلك.

قال: "ماذا تفعل أختك؟"

"إنهـا شيـوعيـة بكل معنى الكلمة. وهي تقول مثلهم دائماً: أنا تغيّرت".

"آسف، حزنت لأجلها".

أنظر إلى صور النساء العاريات المعلقة على الجدار.

قال كأنه يهمس: "أخت سلجوق الصغرى سارت على نفس الطريق. وعشقت أحدهم! هل هنالك شخص مثل هذا لدى أختك الكبيرة؟"

لم أجب. تحركت حركات منفعلة. وفهمَ أنني لم أسرُّ لهذا الموضوع.

"حسن، كيف وضع أخيك الكبير؟"

قلت: "يائس. يشرب، ويسمن فقط. أنه كسول يائس".

"وهو أيضاً كذلك؟

ثم قلت غاضباً: "إنه كسول إلى حد أنه لن يكون أي شيء. ولكنه في الحقيقة يتفاهم جيداً مع أختي. وهي آيديولوجية إلى حدّ أنها تكره النقود، والآخر كسول إلى حد عدم استطاعته مد يده من أجل كسب النقود، مما يضع المسؤولية فوق رأسي. مازال ذلك البيت القديم الغريب المقرف الغبي موجوداً في تلك الأرض فارغاً".

"ذلك الشيء.. الرجل الذي يعمل، ألا يسكن هناك مع جدتك الآن؟"

"يسكنان. ولكن ماذا سيحدث لو سكنا في أحد طوابق البناء الذي سينشأ؟ حينئذ لن أضطر طوال الشتاء إتعاب لساني بالقول لأولاد الأغنياء أين محور القطع الزائد؟ وما هو الرابط بين علاقة المحور والمركز بالمعطى (ر)؟ هل تفهمني؟ لابد لي من الذهاب إلى أمريكا للدراسة في الجامعة في العام القادم. من أين سآتي بالنقود؟

قال: "أنت على حق". يبدو أنه امتعض.

وأنا أيضاً امتعضت لأنني خشيت أن يعتقدني عدواً للأغنياء. صمتنا قليلاً.

قلت في ما بعد: "هيا لنذهب، ونسبح في البحر".

"نعم، لابد أن جيلان قد استيقظت".

"لسنا مضطرين للذهاب إلى هناك".

"الجميع يجتمعون هناك".

نهض من السرير الذي يتمدد عليه حتى الآن دون حركة. كان عارياً بلباس سباحة صغير. له جسد محروق وجميل ومطمئن ومغذّى جيداً. تمطى براحة دون هم أو غم.

"فوندا أيضاً كانت ستأتي معنا".

كنت متوتراً من جسم وداد، ومن أشياء أخرى على ما يبدو.

"حسنٌ، لتأت".

"ولكنها نائمة".

قلت وأنا لا أنظر إلى جسده بل إلى النساء العاريات على الجدار: "اذهب، أيقظها إذن".

"حقاً، لأوقظها، أليس كذلك؟"

ذهب لإيقاظ أخته الأصغر منه. عاد بعد قليل، فبدا كأن حياته كلها مشاكل، وهرع لإشعال سيجارة وكأنه لا يستطيع عمل شيء من دونها، وسألني:

"مازلت لا تدخن. أليس كذلك؟"

"لا".

خيم صمت. فكرت بفوندا وهي تتمدد على سريرها تحك نفسها كالجربانة. تحدثنا عن أمور تافهة مثل ما إذا كان البحر دافئاً أم حاراً بعد ذلك، دخلت فوندا من الباب.

"أخي، أين نعليّ البحر؟"

كانت فوندا فتاة صغيرة في الصيف الماضي. أما الآن فلديها ساقان طويلتان وجميلتان، وترتدي لباس سباحة صغير.

"مرحباً متين!"

"مرحباً".

"كيف الأحوال؟ يا أخي، أقول لك أين نعليّ؟"

بدأ الأخ والأخت شجاراً: الأول يقول إنه ليس حارساً لأشيائها، وهي تدعي أن قبعتها الشبكية قد وجدت في خزانته قبل أيام. وصرخا أكثر. بعد قليل، صفعت فوندا الباب وهي خارجة. بعد قليل أيضاً دخلت وكأن شيئاً لم يكن. ثم راحا في نقاش هذه المرة بشأن مَنْ سيأخذ مفتاح السيارة من غرفة الأم. بعد قليل، ذهب وداد. أنا قلقت قليلاً.

"إيه يا فوندا، كيف الأحوال؟"

"ماذا تتوقع؟ ضجرة!"

تحدثنا قليلاً. سألتها عن الصف الذي أنهته هذا العام. إنه الأول ثانوي. ودرست "تحضيري" في الثانوية الإيطالية وليس في الثانوية الألمانية أو النمساوية. حينئذ تمتمتُ بهذه الكلمات: "Equipement eletrique Brevete type Ansaldo San Giorgia Genova" سألتني فوندا عما إذا كنتُ قد قرأتها على هدية جاءت من إيطاليا. لم أخبرها بوجود لوحات كهذه فوق أبواب الحافلات ذات القاطرات في اسطنبول كلها، وأن الاسطنبوليين

الذين يركبون تلك الحافلات يضطرون لحفظ أمور كهذه كي لا ينفجروا من الضيق، شعرت بأنها ستستهين بي لو قلت لها إنني أركب الحافلات. بعد ذلك، صمتنا. فكرت بتلك المخلوقة المقرفة التي يسمونها أماً، والتي تنام في الظهيرة وسط روائح الكريم والعطور، وتمضي الوقت من أجل لعب الورق، وتلعب الورق من أجل تمضية الوقت. بعد ذلك، جاء وداد، وهزّ المفتاح بيده ليريه.

خرجنا. ركبا السيارة التي سخنت في الحرّ، وبعد أن قطعنا نحو مائتي متر، نزلنا أمام بيت جيلان.

"غيروا المكان هنا كثيراً".

"نعم".

سرنا على الأحجار المنثورة على الأرض العشبية بفواصل لا تتعدى خطوة. ثمة بستاني يروي الحديقة في الحر. في النهاية، رأيت الفتيات، وتحدثتُ لمجرد الحديث:

"هل تلعبن البوكر؟"

"ماذا؟"

نزلنا الدرج. ارتفعت قامات. خطر ببالي أنهن رأونني. فكّرت: أرتدي قميصي الذي اشتريته من عصمت بالنقود التي كسبتها بالبوكر، وفوق لباس السباحة أرتدي بنطالاً ماركة Lewis، وفي جيب بنطالي أربعة عشر ألف ليرة كسبتها من إعطاء دروس خاصة للأغبياء طيلة شهر! بعد ذلك، تحدثت لمجرد الحديث.

قلت: "هل تلعبن؟"

"أية لعبة؟ أعرفكم على متين".

أنا أعرف زينب.

"مرحباً يا زينب. كيف الأحوال؟"

"جيدة".

"وهذه (فخرالنا) ولكن لا تناديها هكذا، تغضب. ناداها: فافا!"

فافا فتاة ليست جميلة. تصافحنا.

"وهذه جيلان!"

صافحت جيلان القاسية والخفيفة. أردت النظر إلى مكان آخر. فكرت فجأة بإمكانية أن أعشق، ولكن هذا عبث، وفكرة طفولية. نظرت إلى البحر، أردت الاعتقاد بأنه غير هائج، وأن يظل هكذا. نسيني الآخرون، وبدأوا يتحادثون:

"التزلج على الماء أيضاً صعب".

"لو استطعتُ ركوب الماء مرة!"

"ولكنه غير خطير كالتزلج على الجليد على الأقل".

"يجب أن يشد لباس السباحة جيداً".

"ساعدا الإنسان تؤلمانه".

"لو أتى فكرت، وبدأنا".

تضايقت، وغيرت وقفتي، وسعلت.

قال وداد: "اجلس يا هذا".

أعتقد أنني أبدو مفكراً كثيراً.

قالت جيلان: "اجلس!"

نظرت إلى جيلان. كانت جميلة.

فكرت مرة أخرى بأن بإمكاني أن أعشقها. بعد قليل صدّقت بأنني أصدق ما فكرت به.

قالت جيلان: "هنا يوجد كرسي بحر مطاول" وأشارت إليه برأس أنفها.

رأيته وأنا أسير نحو الكرسي: ثمة مفروشات مخيفة خلف الباب المفتوح على البناء المؤلف من ستة طوابق: يجلس الأزواج الأغنياء في الشركات الأمريكية والتعساء على مفروشات كهذه وهم يناقشون مشاكلهم الزوجية متصايحين، وبأيديهم أقداح الوسكي. كأن رائحة المفروشات والغنى والرفاه تقول لي: ما عملك أنت هنا؟ ولكنني فكرت وارتحت: أنا أذكى من هؤلاء جميعاً. نظرت إلى البستاني الذي مازال يروي الحديقة، وأخذت الكرسي، وعدت. وحين فتحت الكرسي دون أية صعوبة جلست بجانبهم. وبينما كنت أفكر فيما إذا كنت عاشقاً أم لا استمعتُ إليهم شارداً.

كانت فافا تحكي عن أمور تشبه توافه صفنا، ولأن جيلان زميلتها في الصف تقول لها احكي عن هذا وعن ذاك. كنتُ قد نضجت عندما انتهت الحكايات. مازلت متردداً. فيما بعد، ولكي لا أبدو شخصاً وحشياً لا يفهم بالمزاح قررت أن أحكي بعضاً من هذه الحكايات التافهة. وحكيتُ لهم بالتفصيل كيف سرقنا أسئلة الامتحان من غرفة المدير في مدرستنا، ولكنني لم أحك لهم كم كسبنا من بيعها لبعض الأولاد الأغنياء المخبولين، لأن الجميع سيفهمونني خطأ، وسأبدو قبيحاً لأنني

مضطر للقيام بهذا العمل الصغير لعدم وجود أب يهديني ساعة الأوميغا هذه التي في معصمي يوم ميلادي أو في يوم آخر من تلك الأيام غير اللازمة، رغم أن أباءهم يحيكون أحابيل ما من الصباح حتى المساء. في هذه الأثناء سمعنا صوت محرك قارب قوي جداً يقترب. أدار الجميع رؤوسهم، ونظروا. توقعت أن القادم هو فكرت. اقترب قاربه بسرعة كبيرة وكأنه سيصطدم بالرصيف، وفجأة، تدفقت كمية كبيرة من الماء، ووقف. بصعوبةٍ قفزَ منه إلى الشاطئ.

قال: "كيف الأحوال يا شباب؟" وألقى نظرة إلي.

قال وداد: "أعرفكما. متين. فكرت".

قالت جيلان: "ماذا تشربون يا شباب؟"

الجميع قالوا: كوكا كولا.

لم يجب فكرت. قلب شفتيه فقط، وأشار بيده: كانت هذه إشارة تعني: "رأسي مصدوع" نظرت، لم أفهم إن كانت جيلان قد قلقت أم لا. ولكنني فهمتُ أمراً آخر: حركةُ فكرت هذه أعرفها منذ سنوات: يلعب دور صاحب الشخصية المميزة. إذا كنتَ قبيحاً أو مخبولاً عليك أن تكون صاحب شخصية بقاربك الذي يسير أسرع من الصوت، وسيارتك التي تسرع أكثر منه، كي تنظر الفتيات إلى وجهك. جلبت جيلان المشروبات. جلسوا مدة طويلة، وتحادثوا وبأيديهم الأقداح.

"هل تسمعون موسيقى؟"

"أين سنذهب مساء؟"

"أما قلتِ إن لديك (إلفِس)؟"

"كان لدي. أين Best of Elvis ذاك؟"

"لا أعرف".

"أنا متضايق".

"ماذا نفعل؟"

بعد ذلك، صمتوا قليلاً كأنهم تعبوا من الكلمات والشمس الحارقة. تحدثوا من جديد، وصمتوا مرة أخرى، ثم تدفقت موسيقى لا خصوصية لها من مكبّر صوت غير مرئي. اعتقدت بأن علي أن أتكلم.

قلت: "هذه موسيقى عادية، إنها موسيقى المصاعد. في أمريكا يسمعون هذه الموسيقى في رحلات المصاعد الطويلة".

"رحلات مصاعد طويلة؟". سألت جيلان.

نعم يا جيلان. تحدثت وراقبتُك كيف تستمعين متظاهرة بأنك غير مبالية، إنني أؤمن من الآن بأنني عاشقك حتماً. أنا خجل، لكنني حكيت عن الحيّز الكبير الذي تشغله رحلات المصاعد هذه في حياة النيويوركيين، وأن بناء Empire State يبلغ مائة وطابقين، ومن ارتفاع ٥٠ قدماً تظهر بانوراما تبلغ خمسين ميلاً. لم أقل إنني لم أذهب بعد إلى نيويورك، ولم أر المشهد ذاك. وبعد أن أخبرتهم إن نفوس هذه المدينة ٧,٨٩١,٩٥٧ نسمة بحسب الموسوعة البريطانية، طبعة عام ١٩٥٧ في مدرستنا، وبحسب الطبعة ذاتها فإن نفوسها عام ١٩٤٠ بلغ ٧,٤٥٤,٩٥٥، قالت فافا: "يوه! حفظها كبقرة". ضحكت أنت أيضاً يا جيلان، ثم صرحتُ لكم بأنني على سبيل المثال يمكنني أن أضرب

الأرقـام كلهـا ذات الخـانتين فـوراً، لأثبتُ لكم أنني لست من الذين يضطرون للانكباب على الدراسة كبقرة من أجل الحفظ، ولأعطيكم فكرة عن ذكائي.

قال وداد: "نعم، لهذا الشخص عقل عجيب، وهذا ما تعرفه المدرسة كلها".

قالت جيلان: "سبعة عشر مضروبة في تسعة وأربعين؟"

قلت: "٨٣٣!"

"سبعون مضروبة في أربعة عشر؟"

"١٠٠٨"(*)

قالت جيلان: "كيف نعرف أن هذا صحيح؟"

كنتُ منفعلاً، ولكنني أبتسم فقط.

قالت: "هل أجلب ورقة وقلماً؟"

قـفـزتِ من مكانك يا جـيـلان حين لم تحـتـملي ابتـسـامـتي الموترة للأعصاب، وركضتِ إلى تلك المفروشات المخيفة، وعدت بعد قليل وفي يدك ورقة ذات ترويسة "فندق السويد" وقلم فضي، وعلى وجهك تعبير حريص.

"٢٣×٢٧=؟"، "٨٩١"، "١٧×٢٧=؟، "٥١٣"(*)، "٨١×٧٩=؟"، (٦٣٩٩)، "١٧×١٩=؟"، "٣٢٣"، "لا، ٣٧٣"، "اضربيهما مرة أخرى لو سمحتِ يا جيلان"، "حسنٌ، ٣٢٣"، "٩٩(٩٩=؟"، "هذا الأسهل: ٩٨٠١".

* – ورد الرقمان في النص الأصلي بهذا الشكل، وتركتهما كما وردا . . . المترجم .

كنت تغضبين يا جيلان، كنت تغضبين إلى حد الكره.

"حقيقة إنك حفظتها كبقرة".

أنا كنتُ أبتسم فقط، وأفكر بأن من الممكن أن تكون عبارة: العشق يبدأ بالكره التي ترد في تلك الكتب العادية والسافلة صحيحة.

بعد ذلك تزلجتْ يا جيلان على الماء بقارب فكرت، وأنا غصتُ بقضية التنافس، وأدركتُ فوراً بأنني سأتلهى بهذه الأفكار حتى منتصف الليل غالباً. لأنني، اللعنة: صرت أعتقد بأنني عاشق عن ايمان.

-٦-

استيقظتُ، ونهضتُ. وضعتُ ربطة عنقي، وارتديت سترتي، وخرجت. صباح جميل هادئ براق. غربان وعصافير على الشجر. نظرت إلى الأباجورات، كلها مغلقة. إنهم نائمون. ناموا الليلة الماضية متأخرين كثيراً. شرب السيد فاروق، وكانت نيلفون تنظر إليه وهو يشرب. والسيدة الكبيرة تنادي باستمرار من الطابق العلوي. لم أسمع متى جاء متين، ونام. شغّلتُ المضخة بهدوء كي لا يستيقظوا على صوتها. فتحت باب خن الدجاج، فتراكضت الدجاجات هاربات بضجة. كسرت بيضتين من طرفيهما الرفيعين بدقة، وشربتهما، وأكلت الخبز. أخذت بقية البيض. كنت عائداً إلى المطبخ، وقبل أن أغلق باب الخن، دهشت: "استيقظتْ نيلفون، وتناولت حقيبتها وهي ذاهبة. ابتسمت حين رأتني.

"صباح الخير يا رجب".

"إلى أين في هذا الوقت؟"

"إلى البحر، سيزدحم في ما بعد. سأسبح قليلاً، وأخرج. هل البيض من الخن؟"

قلت: "نعم" وكدتُ أشعر بالذنب "هل تريدين إفطاراً؟"

قالت نيلفون: "أريد" وضحكت، وذهبت.

نظرتُ إليها من الخلف. إنها قطة يقظة ودقيقة وحذرة. ترتدي نعلين صيفيين. ساقاها عاريان. كانا رفيعين جداً في صغرها. دخلتُ. صببت ماء من أجل الشاي. أمها أيضاً كانت مثلها. هي الأن في المقبرة. سنذهب، وندعو لها. هل تتذكرين أمك؟ كانت في الثالثة من عمرها، لا تتذكرها. كان السيد ضوغان قائمقاماً في الشرق، وأرسلهم إلى هنا في آخر صيفين. كانت أمك تجلس في الحديقة، ومتين في حضنها، وأنتِ إلى جانبها. كانت الشمس تسقط على وجهها الشاحب طوال اليوم، ولكنها تعود إلى (كماه) كما جاءت، وجهها شديد البياض. كنت أقول: هل تريدين عصير الكرز الحامض أيتها السيدة؟ كانت تقول: أشكرك يا سيد رجب. ضعه هنا. بعد ساعتين، آتي، فأجدها لم تشرب أكثر من رشفتين من القدح الكبير. بعد ذلك، يأتي فاروق متعرقاً وبديناً، ويقول: جعتُ يا أمي. وكان يشرب كأسه دفعة واحدة، وينهيه. أحسنت! أخرجتُ الغطاء، وكنت ذاهباً لأفتحه على الطاولة، شممت رائحته: سفَحَ السيد فاروق عرقاً على الطاولة وهو يشرب في الليلة الماضية. ذهبتُ، وأحضرت قطعة قماش، ومسحته. أعددت شاياً. يوجد حليب أيضاً من الأمس. غداً أذهب إلى نوزات. كان المقهى ببالي، ولكنني ضبطت نفسي، وانهمكت بالعمل.

شردتُ، ومر الوقت. بينما كنت أجهّز المائدة، نزل السيد فاروق من الدرج. خطواته الثقيلة التي تجعل الدرج يُصدر صوتاً تشبه خطوات جده. تمطى، وتمتم بشكل غير واضح بشيء ما.

قلت: "أعددت شاياً. اجلسوا، سأقدم لكم الإفطار".

أرخى نفسه على الكرسي الذي كان يجلس عليه الليلة الماضية وهو يشرب.

قلت: "هل تريدون حليباً أيضاً؟ يوجد حليب جيد ودسم".

قال: "حسنٌ، هات. إنه جيد لمعدتي".

ذهبت إلى المطبخ: معدة! بسبب الشرب من المياه المسمومة سوف تصاب معدتك بثقب في النهاية. قالت السيدة الكبيرة. إذا شربت بعد ذلك تموت. سمعت ما قاله الطبيب، أليس كذلك؟ ينظر السيد ضوغان أمامه، ويفكر. قال: "أفضل الموت على تعطل عقلي. أنا لا أستطيع العيش دون تفكير يا أمي" وقالت السيدة الكبيرة: هذا ليس تفكيراً يا صغيري، إنه حزن فقط. ولكن أحدهما نسي الإصغاء للآخر. في ما بعد، مات السيد ضوغان وهو يكتب تلك الرسائل. كان الدم يسيل من فمه كأبيه، ومن الواضح أن معدته هي السبب. تبكي السيدة الكبيرة صراخاً، وتناديني، كأنني أستطيع عمل شيء ما. خلعتُ له قميصه المدمى قبل أن يموت، وألبسته قميصاً نظيفاً مكوياً، ومات. سنذهب إلى المقبرة، غليت الحليب، وسكبتُه له في كأس جميل. المعدة عالم مجهول مظلم، ولا يعرفها إلا النبي يونس. حين أفكر بذلك الثقب المظلم أرتعد. ولكن يبدو أن لا معدة لي، لأنني أعرف حدودي، ولست مثلهم، وأعرف كيف أنسى. حين جلبتُ له الحليب، ونظرت، كانت نيلفون قد جاءت. أية سرعة هذه! شعرها مبلل جميل.

قلتُ: "هل أقدّم لك إفطارك؟"

قالت نيلفون: "ألا تنزل جدتي إلى الإفطار؟"

قلتُ: "تنزل. إنها تنزل صباحاً ومساءً".

"لماذا لا تنزل ظهراً؟"

قلت: "إنها تمتعض من ضجيج الشاطئ. أنا أخرج لها صينيتها ظهراً".

قالت نيلفون: "لننتظر الجدة. متى تستيقظ؟"

قلت: "استيقظت من زمن طويل" نظرتُ إلى ساعتي: الثامنة والنصف.

قالت نيلفون: "آه، رجب! أنا اشتريتُ جريدة من الدكان، بعد الآن أنا سأشتريها صباحاً".

قلت: "كما تريدون". وكنتُ خارجاً.

صرخ السيد فاروق فجأة: "تشتريها، ماذا يحدث؟ ماذا يعني أن تعلم عدد الأشخاص الذين قتلوا عدداً من الأشخاص، كم منهم فاشيّ، كم منهم ماركسي، وكم منهم لا علاقة له لا بهذا ولا بذاك".

دخلتُ، وكنت صاعداً إلى الأعلى. ما هذه العجلة؟ وماذا تريدون؟ لماذا لا تكتفون بالقليل؟ أنت لا تعلم يا رجب! الموت! أفكر، وأخاف، لأن الفضول يدفع الإنسان. قال السيد صلاح الدين إن أصل العلم كله هو الفضول، هل فهمت يا رجب؟ وصلتُ إلى الأعلى. نقرت على بابها.

قالت: "من هذا؟"

قلت: "أنا أيتها السيدة الكبيرة" ودخلت.

كانت قد فتحت خزانتها، وعبثت بأغراضها. تظاهرت بأنها تغلقها.

قالت: "ماذا هنالك؟ لماذا يتصايحون؟"

"إنهم ينتظرونك على الإفطار".

"ألهذا يتصايحون؟"

فاحت الرائحة القديمة للخزانة في الغرفة. أشمها وأتذكرها.

قلت: "نعم يا سيدتي؟ لا، إنهم يتمازحون".

"منذ الصباح، وحول الطاولة؟"

قلت: "إذا كنتِ تتوقين لمعرفة هذا أيتها السيدة الكبيرة، فإن السيد فاروق لا يشرب. وهل يُشرب في هذا الوقت؟"

قالت: "لا تتستر عليهم! ولا تكذب عليّ! أنا أفهم هذا فوراً".

قلت: "أنا لا أكذب. إنهم ينتظرونك على الإفطار". نظرت إلى فردة الخزانة المفتوحة.

"هل أُنزلك إلى أسفل؟"

"لا".

"هل ستأكلين في السرير؟ أأُخرج لك الصينية؟"

قالت: "اخرجها. وقل لهم: جهزوا أنفسكم".

"إنهم جاهزون".

"اغلق الباب".

أغلقتُه، ونزلتُ الدرج. كل سنة تعبث بالخزانة قبل الذهاب إلى المقبرة، وكأنها ستجد شيئاً لم تره، ولم تلبسه من قبل. وفي النهاية، تلبس من جديد ذلك المعطف النسائي الغريب المخيف نفسه. دخلتُ إلى المطبخ، ووضعت خبزاً، وبعد ذلك، أخذته.

كان السيد فاروق يقول لنيلفون: "اقرأي، اقرأي لنر كم عدد الأشخاص الذين ماتوا اليوم!"

قالت نيلفون: "سبعة عشر".

قال السيد فاروق: "ماذا تستنتجين من هذا؟"

دسّت نيلفون أنفها بالجريدة أكثر، وكأنها لم تسمع أخاها.

قال السيد فاروق مبدياً قليلاً من السرور: "لم يبق لهذا معنى".

قلتُ: "تقول السيدة الكبيرة إنها لن تنزل إلى الإفطار. سأقدّم لكم إفطاركم".

"لماذا لا تنزل؟"

قلتُ: "لا أعرف، إنها تعبث بخزانتها".

"حسنٌ، اجلب لنا إفطارنا".

قلتُ: "نيلفون، إنك تجلسين ورداء السباحة مبلل. ستبردين. اصعدي، وارتدي ملابسك ثم اقرأي الجريدة".

قال السيد فاروق: "انظر، إنها لم تسمعك. إنها مازالت شابة إلى حدّ أنها تصدق الجرائد. تقرأ عن الميتين منفعلة".

نهضتْ نيلفون مبتسمة. وأنا نزلت إلى المطبخ. تصديقُ الجرائد؟ قلبت الخبز، وجهّزت صينية السيدة الكبيرة. تقرأ السيدة الكبيرة الجريدة لمعرفة ما إذا كان هنالك ميت من المعارف، وهذا الميت ليس شاباً تثقّب بالرصاص والقنابل، بل مسناً مات في سريره. آخذ إليها الجريدة. تغضب أحياناً لأنها لم تتعرف على الكنيات التي تقرأها في الجرائد، وتحدّث نفسها، بعد ذلك، تقصّها من الجريدة. وإذا كنتُ بجانبها وهي غير غاضبة كثيراً، تسخر من الكنيات. هذه أسماء ملفقة، ستودي بهم إلى جهنم، ماذا تعني الكنية؟ فكرتُ: أبي هو الذي منحني كنيتي، وهي (قرة طاش)(*)، ومعناها واضح. أما بعضها فلا أفهم ما تعنيه. وهذه تأتي هكذا. نقرتُ الباب، ودخلت. مازالت السيدة الكبيرة أمام الخزانة.

"جلبتُ لك إفطارك أيتها السيدة الكبيرة".

"اتركه هناك".

قلتُ: "كلي فوراً. سيبرد حليبك".

---

* – تعني الحجر الأسود . . . المترجم .

قالت: "حسنٌ، حسنٌ" وكانت عينها على الخزانة، وليست على الصينية. "اغلق الباب".

أغلقته. بعد ذلك، خطر ببالي الخبز، فنزلتُ راكضاً. المهم، لم يحترق. وضعتُ بيضة نيلفون خانم،وإفطارها في صينية، وجلبتها لها.

قلت: "عدم المؤاخذة، تأخرت".

قال السيد فاروق: "ألن يأتي متين إلى الإفطار؟"

حسنُ!.. صعدتُ من جديد، ودخلتُ إلى غرفة متين، وأيقظته، وفتحت أباجور نافذة غرفته. كان يتحدّث شاخراً. نزلتُ. كانت نيلفون قد طلبت شاياً. ذهبتُ إلى المطبخ، وصببت لها شاياً، وحين جلبته لها، وجدت متيناً قد نزل، وجلس على الكرسي.

قلت: "الآن أجلب لكم إفطاركم".

قال السيد فاروق: "متى جئت أنت في الليلة الماضية؟"

قال متين: "نسيت" لم يكن يرتدي سوى لباس سباحة وقميص.

قال السيد فاروق: "هل تركت وقوداً في السيارة؟"

قال متين: "لا تشغل بالك يا أبي. تجولنا في سيارات الآخرين. فسيارة الأناضول هنا أمر دوني.."

قالت نيلفون: "أمر ماذا؟"

قال متين: "أنتُ اقرئي جريدتك. أنا أتحدّث مع أخي الكبير".

دخلتُ لجلب الشاي. وضعتُ خبزاً جديداً للتسخين، وجلبت شاياً ثقيلاً.

قلت: "هل تريد حليباً أيضاً يا سيد متين؟"

قال متين: "سألوا عنكِ".

قالت نيلفون: "ما دخلي أنا؟"

قال متين: "كانت علاقتك مع تلك الفتيات الروح بالروح. حتى إذا شربت إحداكن ماء لم يسر في مجريين مختلفين. الآن تستهينين بهن بعد أن قرأتِ عدة كتب".

"لا أستهين بهن. لا أريد رؤيتهن فقط".

"تستهينين بهن. الإنسان يسلّم عليهن على الأقل".

قالت نيلفون: "لا أسلّم".

قلت أنا: "هل تريدون حليباً يا سيد متين؟"

"أرأيت؟ صرتِ أيديولوجية كثيراً، وفجة جداً".

قالت نيلفون: "وهل تعرف أنت ما تعنيه آيديولوجية؟"

قال متين: "أيمكن ألا أعرف؟ لديّ أختٌ هكذا. غُسل عقلها للتو، وأراها كل يوم".

"مخبول".

"هل تريدون حليباً يا سيد متين؟"

كان السيد فاروق يقول: "لا تفعلوا هذا، لا تفعلوه يا أولاد".

قال متين: "لا أريد حليباً".

هرعتُ إلى المطبخ. قلبت الخبز. غسلوا مخها. كان السيد صلاح الدين يقول: لن نتطور طالما لم تُنظف تلك القذارات والمعتقدات الفارغة والكذب من عقول الجميع. لهذا السبب أكتب منذ سنوات يا فاطمة، لهذا السبب. أخذتُ لنفسي قدحَ حليب، وشربت نصفه وحين احمر الخبز أكملته.

كان السيد فاروق يقول: "أنتم كذلك اقرأوا الأدعية حين تقرأها الجدة في المقبرة".

قالت نيلفون: "نسيت الأدعية التي علمتني إياها خالتي".

قال متين: "يالسرعة نسيانك لها".

قال السيد فاروق: "أنا أيضاً نسيتها يا روحي. أقصد أن تفتحوا أيديكم مثلها كي لا تحزن".

قال متين: "لا تقلق. سأفتحهما. أنا لا أعطي أهمية لأمور كهذه.

قال السيد فاروق: "أنتِ أيضاً افتحيهما! ممكن يا نيلفون؟ واربطي شيئاً على رأسك".

قالت نيلفون: "حسنٌ".

قال متين: "ألا يتناقض هذا مع معتقداتك الأيديولوجية؟"

أنا خرجت، وصعدت. نقرتُ على باب السيدة الكبيرة، ودخلتُ. تناولت إفطارها، وعادت للعبث بخزانتها.

قالت: "ماذا هناك؟ ماذا تريد؟"

"هل تريدين قدح حليب آخر؟"

"لا أريد".

كنت آخذ صينيتها. فأغلقت باب خزانتها فجأة، وصرخت.

"لا تقترب!"

قلت: "أنا لا أقترب من خزانتك أيتها السيدة الكبيرة. كما ترين، أنا آخذ الصينية فقط".

"ماذا يفعلون في الأسفل؟"

"يجهزون أنفسهم".

قالت: "أنا لم أستطع الاختيار حتى الآن". وكأنها خجلت فجأة، بدأت تنظر إلى خزانتها.

قلت: "اسرعي أيتها السيدة الكبيرة! وإلا سنبقى حتى يشتد الحر".

"حسنٌ، حسنٌ، أغلق الباب جيداً".

نزلت إلى المطبخ، وصببت ماء من أجل الجلي. أشرب ما تبقى من حليبي وأنا أنتظر تسخين الماء. فكرت بالمقبرة، وانفعلتُ، وصرتُ غريباً، وفكرت بالأشياء التي في المجلى. يريد الإنسان أن يبكي في المقبرة أحياناً. ذهبتُ. طلب السيد متين شاياً فأخذت له. السيد فاروق يدخّن سيجارة وهو ينظر إلى الحديقة. إنهم صامتون. دخلتُ وأنهيت الجلي. وحين عدت كان السيد متين قد ارتدى ثيابه، وأتى. وأنا عدتُ، وخلعت صداري. نظرت إلى ربطة عنقي وسترتي، ومشّطت شعري. ابتسمت لنفسي كما أبتسم بعد أن يمشط الحلاق شعري، وخرجت.

كانوا يقولون: "نحن جاهزون".

صعدتُ إلى الأعلى: المهم أن السيّدة الكبيرة قد ارتدت ثيابها في النهاية. وهذا هو المعطف الأسود المخيف نفسه. ثوبها يلامس الأرض لأن السيدة الكبيرة الطويلة تقصر كل سنة قليلاً. ومن حيث يلمس الأرض يمدّ رأسي حذاءها العجيب المدببين نفسيهما كأنفي ذئبين شقيقين فضوليين. كانت تربط غطاءً على رأسها. كأنها خجلت حين رأتني. صمتنا قليلاً.

قلت: "ستتعرقين بهذه في هذا الحر".

قالت: "هل الجميع جاهزون؟"

"جاهزون".

نظرت إلى الغرفة، وبحثتْ عن أشياء ما. رأت أن خزانتها مغلقة. بحثت عن أشياء ما من جديد. وبعد أن نظرت إلى خزانتها مرة أخرى، قالت: "هيا انزلني إلى الأسفل".

خرجنا من الغرفة. رأتني أغلق الباب، ولكنها دفعته بيدها. عند بداية الدرج، استندتْ علي وعلى العكاز. نزلنا ببطء إلى الأسفل، وعبرنا الباب. جاء الآخرون. كنا نركب السيدة الكبيرة في السيارة، قالت: "هل أغلقتم الأبواب جيداً؟"

قلت: "نعم أيتها السيدة الكبيرة" ولكنني رغم هذا ذهبت إلى الأبواب، وشددتها مرة أخرى لترى أنها مغلقة.

في النهاية ركبتْ السيارة ولله الشكر.

-٧-

يا إلهي! يا للغرابة، عندما تحركت السيارة مهتزة انفعلتُ فجأة كما لو أنني أركب عربة الخيل التي ركبتها في طفولتي، ولكنني فكرت بكم في ما بعد، أنتم المساكين الذين في المقبرة. حينئذ اعتقدتُ أنني سأبكي، ولكن ليس الآن يا فاطمة. كنتُ أنظر إلى الخارج من نافذة السيارة التي تعبر الباب إلى الزقاق، ورجب في البيت، مفكراً فيما إذا كان سيبقى وحده، توقفت السيارة، وانتظرنا، وبعد قليل، جاء القزم، وركب من الباب الآخر، محتلاً مقعداً خلفياً. ومرة أخرى حين كانت السيارة تنطلق: "أغلقتَ الأبواب جيداً، أليس كذلك يا رجب؟"

"نعم، يا سيد فاروق".

استندت جيداً في مقعدي.

"سمعت أيتها الجدة، أليس كذلك؟ أغلق رجب الأبواب جيداً. بعد ذلك، لا تبدأي بالقول إن البواب أبقاها مفتوحة كما حدث في السنة الماضية.."

بدأتُ بالتفكير، وتذكرت صلاح الدين بالطبع. كان قد علق فوق باب الحديقة الذي قالوا إنه أُغلق لوحة كتب عليها: الدكتور صلاح الدين، وأوقات المعاينة. وكنت تقول: لن آخذ نقوداً من الفقراء يا

فاطمة، أريد أن أحتك بالناس. طبعاً ليس لدينا مرضى كثيرون بعد، فنحن لسنا في مدينة كبيرة، بل على شاطئ بحر متطرّف. ولم يكن ثمة أناس في ذلك الوقت غير بضعة قرويين مساكين. والآن عندما أرفع رأسي، يا إلهي، أرى هذه الأبنية ذات الطوابق المتعددة والدكاكين والزحام وشبه العراة. لا تنظري إلى شاطئ السباحة يا فاطمة. ما هذا الصخب؟ الجميع فوق بعضهم بعضاً. انظر يا صلاح الدين، ها هي محبوبتك جهنم قد نزلت إلى الأرض. إذا كان هذا ما أردته، فانظر إلى هذا الزحام طبعاً. لعله هو.

"إنها تنظر بفضول شديد، أليس كذلك أيتها الجدة؟"

لا، لا أنظر أبداً. ولكن أحفادَكَ الوقحين يا صلاح الدين يقولون: "هل نطيل الطريق قليلاً، ونتنزهك أيتها الجدة؟" لعلهم يعتقدون بأن زوجتك البريئة مثلك. نعم، ماذا يفعل الأولاد المساكين؟ هكذا تربوا. لأنك يا صلاح الدين شبّهت ابنك بك. ولم يهتم ضوغان بأولاده. ورعتهم خالتهم كأم لأنني لا أمتلك طاقة. وهكذا يصبحون حين ترعاهم الخالة. يعتقدون بأن الجدّة تتوق لرؤية تلك البشاعات وهي ذاهبة إلى المقبرة. انظروا، إنني لا ألقي حتى مجرد نظرة. وبينما أنا مطرقة برأسي، أفتح حقيبتي، وأشم رائحة العجوز التي هي أنا، وتجد يداي الجافتان الصغيرتان منديلاً صغيراً وسط ظلام جلد التمساح، وألامس به عيني الجافتين لأن أفكاري مليئة بهما، بهم فقط.

"ما الذي يُبكي الآن أيتها الجدة؟ لا تبكي!"

ولكنهم لا يعرفون كم أحبكم، وأنني لا أستطيع أن أحتمل كونكم موتى في هذا اليوم المشمس. ألامس - أنا المسكينة - منديلي بعيني

مرة أخرى. حسنٌ، كفى يا فاطمة. إنني أعرف الجَلَد لأن عمري كله مرّ بالآلام. حسنٌ، هدأ كل شيء مؤقتاً. ليس ثمة شيء. انظروا! رفعتُ رأسي، أنا أنظر. أبنية ذات طوابق، جدران، كتابات بلاستيكية، ملصقات، واجهات زجاجية، ألوان... ولكني أبدأ بالاشمئزاز فوراً. رحماك يا إلهي. ما هذه القباحة؟ لا تنظري يا فاطمة.

"كيف كانت الأماكن قديماً هنا أيتها الجدة؟"

أغلقتُ نفسي على أفكاري وآلامي. لا أسمع كلماتكم كي أجيبكم. كانت حدائق هذه الأماكن أيام زمان حدائق وسط حدائق. يا لها من حدائق جميلة. أين هي الآن لأحكي لكم عنها؟ لم يكن ثمة أحد. وفي تلك السنوات الأولى، أي قبل الاستسلام لذاك الذي تسمونه شيطاناً كان يقول: تعالي يا فاطمة لنتنزه معاً. لا تؤاخذيني. حُصِرْتُ هنا. حقاً أنا لا آخذك إلى أي مكان. موسوعتي تتعبني كثيراً. أنا لا أريد أن أتصرّف كمستبد شرقي. أريد أن أسلي زوجتي وأسعدها. تعالي لنتنزه قليلاً في الحدائق. اسمعي ما قرأت اليوم. أنا أؤمن بضرورة العلم: وأعتقد أننا صرنا بهذا البؤس بسبب اللاعلم. أنا أدركت تماماً ضرورة حدوث عصر نهضة يقظة لدينا، وأمامنا مهمة عظيمة وفظيعة يجب القيام بها. وفي الحقيقة أنا شاكر لطلعت باشا لأنه نفاني إلى هذه الزاوية القفرة لأستطيع قراءة هذا والتفكير فيه. لأنني ما كنت سأصل إلى هذه الأفكار كلها وأفهم أهمية هذه المهمة التاريخية لولا هذه الوحدة وساعات الفراغ يا فاطمة. وفي الحقيقة إن أفكار روسو كلها هي خيالات شخص يتجوّل وحيداً في الحقول ووسط الطبيعة. ولكننا نتجول معاً.

"مارلبورو، مارلبورو".

خفت حين رفعت رأسي، ونظرت. بدا البائع كأنه سيدس ذراعه داخل السيارة. ستدهس أيها الطفل الصغير. في النهاية، خرجنا من الشارع، ودخلنا بين البساتين التي اصطفت على طرفي الطريق الصاعد ولله الشكر.

"الحر شديد، أليس كذلك يا أخي؟"

في السنوات الأولى، عندما كنا نسير - صلاح الدين وأنا - ونرى فلاحاً أو اثنين مسكينين هنا أو هناك، يتوقفان، ويحييان. لم يكونوا قد بدأوا بالخوف بعد. سيدي الطبيب، زوجتي مريضة جداً، هل تأتون؟ الله يرضى عليكم. لأنه لم يعد سكراناً بعد. إنهم مساكين يا فاطمة. أنا أشفق عليهم. لم أستطع أخذ النقود منهم. ماذا سأفعل؟ ولكنهم لا يأتون عندما احتاج النقود. حينئذ، خواتمي وماساتي... ترى هل أغلقتُ الخزانة؟ أغلقتها.

"هل أنت بخير يا جدتي العزيزة؟"

هؤلاء لا يتركون الإنسان يرتاح بهذه الأسئلة التافهة. مسحت عيني بمنديلي. كيف يمكن للإنسان أن يكون بخير في أثناء ذهابه إلى مقبرة زوجه وابنه. أنا أشفق عليكم.

"انظري أيتها الجدة. إننا نمرّ من أمام بيت إسماعيل. إنه هنا".

اسمع ما يقولون! يا إلهي، هنا بيت الأعرج. لا ألتفت. إنه ابن الحرام، هل يعرفون؟

"رجب! كيف حال إسماعيل؟"

أنا أعرف. أستمع بانتباه.

"جيد. يبيع اليانصيب".

إنكِ لا تسمعين يا فاطمة.

"كيف رجله؟"

أنا هنا من أجل أن أحمي نفسي وزوجي وابني من الحرام.

"كما هي يا سيد فاروق. يعرج عليها".

ترى هل يعرف أحد أن لي ذنباً في هذا. هل ذهب إليهم هذا القزم،

"كيف حال حسن؟"

أخبرهم؟ هيا لنرَ، هل سيقولون إن هؤلاء أعمامنا، ولم نكن نعرف أيتها الجدة، لأنهم تواقون للمساواة مثل أبيهم وجدهم.

دروسه سيئة. مكمل في الرياضيات واللغة الإنكليزية. وليس لديه عمل ايضاً".

التوبة يا فاطمة، لا تفكري. هل جئتِ اليوم إلى هذه الأماكن من أجل التفكير بهذه الأمور؟ ولكننا لم نصل بعد. بدأتُ مسح عيني بمنديلي. في يومي الحزين هذا، يجلس هؤلاء في السيارة، ويتحدثون بأمور تافهة كأننا نذهب في نزهة. قديماً، وذات مرة في دهر، جاء صلاح الدين بعربة ذات حصان واحد وصعدنا هذا الطريق بألف طحّة ونحة. يا لحسنِ ما فعلناه يا فاطمة. لم أجد وقتاً للقيام بعمل كهذا نتيجة عملي بالموسوعة. لو أنني أخذت زجاجة نبيذ، وبضع بيضات، وذهبنا إلى الحقل وجلسنا من أجل استنشاق الهواء فقط، ومن أجل الطبيعة فقط، وليس من أجل الأكل حتى الانفجار على الطريقة التركية. كم يبدو البحر جميلاً من هنا! يسمون هذا في أوربا (بكنك) في يوم ما سنغدوا نحن أيضاً هكذا يا فاطمة إن شاء الله. لعل أولادنا لن يشهدوا هذا، ولكن أحفادنا سيشهدوه، وسيكونون ذكوراً وإناثاً إن شاء الله.

"وصلنا. انظري أيتها الجدة! وصلنا".

في ذلك الوقت، وفي تلك الأيام التي سيكون فيها العلم مسيطراً على كل شيء، سيعيش أحفادنا سعداء في بلدنا الذي لن يكون بينه وبين دول أوربا أي فرق، أحفادي أنا. يأتون إلى قبرك يا صلاح الدين. بدأ قلبي يخفق حين أطفئ محرك السيارة. أيُّ صمتٍ هنا؟ أزيزٌ في الحرّ، وموت في التسعين من العمر. نزلوا، وفتحوا الباب.

"تعالي أيتها الجدة! هات يدك!"

يبدو أن النزول من هذا الشيء البلاستيكي أصعب من النزول من عربة الخيل. إذا سقطت - الهم احمنا - أموت فوراً، ويدفنونني فوراً، ولعلهم يفرحون،

"ها، هكذا! تأبطي ذراعي. استندي علي أيتها الجدة".

ولعلهم يحزنون. التوبة. لماذا أفكر على هذا النحو الآن؟ خرجت. في أثناء سيرنا ببطء من بين شواهد القبور، وأحدهم يمسك ذراعي هذا، والآخر ذاك، كانت هذه الشواهد رعباً في قلبي، اللهم اعف عنا.

"هل أنت على ما يرام يا جدة؟"

في يوم ما، أنا أيضاً سأدخل في أحد هذه القبور وسط الحر ورائحة العشب المحروق المهمل دون صاحب.

"أين كان؟"

لا تفكري الآن يا فاطمة.

انظروا! مازال القزم يتكلم من أجل إثبات أنه يعرف أين ينام أكثر من أحفاده. هل يريد أن يقول: أنا أيضاً ابنه.

"هنا!"

"وصلنا أيتها الجدة، هنا!"

عضني قلبي. سأبكي الآن. ها أنتم هنا يا أعزائي المساكين. أنتما أيضاً اتركا ذراعي، اتركاني معهما وحدي. مسحتُ عيني بمنديلي، وحين رأيتكما هنا: يا ربي، لماذا لم تأخذ روحي أيضاً؟ التوبة! أعرف هذا أصلاً. أنا لم أتبع الشيطان ولا مرة واحدة، ولكنني لم آتِ إلى هنا لاتهامكما. سأبكي الآن، مسحتُ أنفي. تماسكت لحظة سماعي أزيز الصرصار، فوضعت منديلي في جيبي، وفتحت يدي. سأقرأ الفاتحه لله من أجلكم. اقرؤوها. قرأتها، وانتهيت. رفعت رأسي. نظرت، فوجدتهم فاتحين أيديهم. أحسنتم. ربطت نيلفون شعرها بشكل جميل. أشمئز من فضول هذا القزم نحو المظاهر. اغفر لنا يا إلهي. أنا لا أحتمل تباهي ابن حرام. كأنه يحبك أكثر منا جميعاً يا صلاح الدين. يدعو أكثر. تستطيع خداع من بهذا؟ لو أنني جلبت عكازي. أين تركته؟ هل أغلقوا الأبواب يا ترى؟ ولكنني لم آتِ للتفكير بهذا بل للتفكير بك. هل خطر ببالك أن يأتي يوم تكون فيه هنا عند هذه الشاهدة المهملة، وأقرأ ما كتب عليها:

الدكتور صلاح الدين داروين أوغلو

١٨٨١ - ١٩٤٢

الفاتحة لروحه

قرأتها للتو يا صلاح الدين. لم تكن مؤمناً، لهذا فإن روحك تتلوى هناك في جهنم. لا أريد التفكير ولكن هل هذا ذنبي؟ كم مرة قلت لك يا صلاح الدين: قل التوبة! ولكنك رحت تسخر مني، وتصفني بامرأة غبية ومخبولة، غسلوا مخها كالجميع، لا الله موجود ولا الآخرة. الدنيا الآخرة كذبة مقرفة لفقوها لنا من أجل ضبطنا في هذه الدنيا، ولم يبق لدينا أدلة

على وجود الله غير تلك الترهات الجدلية. توجد مادة وأحداث فقط. ونحن يمكننا معرفتها ومعرفة العلاقات بينها ومهمتي هي أن أشرح للشرق كله بأن الله غير موجود. هل تسمعين يا فاطمة؟ التوبة! لا تفكري بهذا. أريد أن أفكر بالأيام الأولى تلك التي لم تكن فيها مستسلماً للشيطان بعد. لا من أجل: اذكروا محاسن موتاكم، بل لأنك كنتَ طفلاً حقيقياً، وأمامك مستقبل جيد كما قال والدي. إذا جلس في عيادته هادئاً، فيجلس، والله أعلم بما كان يفعله مع مرضاه المساكين. وكانت تأتي نساء على الطراز الأفرنجي، مكشوفات الرؤوس، ملونات، ولكن أزواجهن أيضاً كانوا يأتون. أكون في الغرفة المجاورة قلقة. لا يخطر ببالي أمر خاطئ يا فاطمة. نعم، نعم، لعل كل شيء حدث بسببهن. سكن هنا نهائياً، وكان هنالك بضعة زبائن، يسميهم مرضى، اعتادت أرجل المرضى على المكان. هذا العمل صعب جداً. اسمع يا صلاح الدين، أنا أوافقك على هذا الأمر: لا أحد يمرض، بضعة صيادين يقيمون على شاطئ رصيف مهجور ومن مخدري القرى النائية. أولئك لا يمرضون في هذا الهواء النظيف، وإذا مرضوا فلا يعرفون أنهم مرضوا، وإذا عرفوا فلا يأتون، ومن سيأتي أصلاً؟ كل ما هنالك بضعة بيوت، وبضعة قرويين مخبولين. ولكنه رغم هذا استطاع تحقيق بعض الشهرة، فكان المرضى يأتون حتى من إزميت. والأكثرية كانوا يأتون من غبزة. وثمة من يركب القارب، ويأتي من طوظلا. حين بدأ بكسب النقود، بدأ يصطدم بالمرضى هذه المرة. يا إلهي، أنا كنت أستمع من الغرفة الأخرى: بماذا دهنتَ هذا الجرح؟ وضعنا عليه تبغاً بداية يا سيدي الدكتور، بعد ذلك لففناه بفضلات البقر الجافة. هل هذا ممكن؟ هذه أدوية العجائز.

صار هنالك ما يدعى علماً. حسنٌ، ماذا حدث لهذا الولد؟ حرارته مرتفعة يا سيدي الدكتور منذ خمسة أيام. لماذا لم تأتوا به قبل ذلك؟ كانت هنالك عاصفة في البحر، أما رأيتموها يا سيدي الطبيب؟ ستقتلون الولد يا ناس. إذا كان الله قد كتب هذا فماذا سنفعل؟ أيّ اله يا هذا؟ الله غير موجود. مات الله. يا إلهي، التوبة يا صلاح الدين! أية توبة أيتها المرأة المخبولة، لا تطلقي هذا الهراء كالقرويين المخبولين. أنا أخجل منك. أقول إنني سأعقّل كل هذا العدد من البشر، ولكنني لم أستطع إدخال فكرتين فقط في رأس زوجتي. يا لحماقتك! افهمي خبالك على الأقل، وصدقيني. ولكن كنت أقول إن حمقك هذا سيطفّش المرضى يا صلاح الدين، وكان يمعن بتصرفاته عناداً. كنتُ أستمع من الغرفة المجاورة، اسمعي ما كان يقوله لتلك المرأة المريضة التي قطعت كل هذا الطريق مع زوجها لتحصل على دواء: لتكشف عن نفسها هذه المرأة! وكان هذا يوتر أعصابي. أيها القروي الغبي زوجها! قلْ لها أن تكشف. حسنٌ، لن أعاينها. انقلعا. أنا لن أطأطئ رأسي أمام معتقداتكم الغبية تلك ولكن أيها السيد الدكتور، لا تفعل هذا معنا، اعطها دواءً. إذا لم تتكشف زوجتك فليس هنالك دواء. انقلعا! إنهم خدعونا بكذبة تدعى الله. التوبة، لو أنك أمسكتَ بلسانك يا صلاح الدين، لو أنك لم تتكلم معهم على هذا النحو. لا، أنا لا أخاف من أحد. اسمعي! من يعلم ما يقولونه من وراء ظهري؟ هذا طبيب لا إله له. لا تذهبوا إليه. إنه الشيطان نفسه أما رأيتم تلك الجمجمة على طاولته؟ غرفتُه مليئة تماماً بالكتب، وتوجد آلات سحر، وعدسات تجعل الفسفسة جملاً، وأنابيب تطلق الدخان من فوهاتها، وضفادع ميتة مثبتة بدبابيس، لا تذهبوا. من

يسلّم روحه لعديم الإيمان هذا إن لم يكن مضطراً. هذا الرجل يجعل صحيحَ الجسمِ مريضاً. سيتلبس الجان من يُعتِّب بابه. قبل فترة قال لمريض قادم من (يارمجا): يبدو أنك صاحب عقل. ملأت عيني. خذ هذه النصوص، واقرأها في مقهى القرية. وقال له: كتبتُ فيها ما يجب عليه ضد مرضي التيفوئيد والسل. غير هذا، كتبتُ بأن الله غير موجود. اذهب. لعل قريتك تتحرر. لو استطعت إرسال رجل عاقل مثلك إلى كل قرية، وجمع هذا الرجل القرية كلها في المقهى، وقرأ عليهم مادة صغيرة من موسوعتي، فإن هذه الأمة ستتحرر. ولكن آه.. يجب أن أنهي هذه الموسوعة أولاً، وهذا العمل يطول مع الزمن. اللعنة، ليس هنالك نقود أيضاً. وأغلقت الأبواب بإحكام على ماسات فاطمة وخواتمها، وعلى الحظ. ولم يعد هنالك مرضى سوى بعض المضطرين الذين يندمون فور دخولهم من الباب، ويعودون وهم يمشون إلى الخلف خائفين من إغضاب الشيطان. ولكن هذا لا يهمك يا صلاح الدين. ولعله بسبب مأساتي ويقول: لم يعد يأتي مرضى أبداً، وحسناً يفعلون، لأن أعصابي تتوتر عندما أرى هؤلاء المخبولين، ويسيطر علي اليأس. صار من الصعب الإيمان بأن هؤلاء المخبولين سيتعقلون. قبل مدة، كنت أقول لأحدهم: كم درجة مجموع زوايا المثلث؟ وطبعاً أعرف بان هذا القروي الذي لم يسمع بالمثلث في حياته لن يعرف الجواب. ولكنني أخذتُ ورقة وقلماً، وبدأت أشرح له كي أعرف مدى استيعاب هؤلاء للرياضيات. ولكن الذنب ليس ذنب هؤلاء المساكين يا فاطمة، لأن الدولة لم تمد يدها إليهم أبداً. يا إلهي! شرحت له كل هذا الشرح لكي يفهم. ولكنه نظر إلي شارداً وخائفاً. آه أيتها المرأة المخبولة! نظر إلي كما تنظرين الآن

تماماً. لماذا تنظرين إلي هكذا وكأنك ترين شيطاناً؟ أنا زوجك أيتها المخلوقة المسكينة. نعم، أنت شيطان يا صلاح الدين. انظر، إنك الآن في جهنم وفي أيدي الزبانية وسط لهيب جهنم، في المراجل التي تغلي. أم أن الموت هو كما قلتَ؟ قال اكتشفتُ الموت يا فاطمة. اسمعيني! هذا أهم من كل شيء. الموت مخيف إلى حد عدم تمكني من احتماله. خفت وأنا أفكر بحالتك داخل القبر.

"هل أنت على ما يرام يا جدة؟"

وأصبت بدوار. اعتقدت بأنني سأسقط، ولكن لا تقلق يا صلاح الدين، وللمرة الأخيرة سأقرأ الفاتحة

"اجلسي هنا قليلاً يا جدة إن أردت، ارتاحي".

لروحك حتى لو لم ترد هذا. اصمتوا، اصمتوا. أسمع صوت سيارة تسير في الطريق، بعد ذلك صوت جدجد. انتهيت. آمين. أخرجت منديلي، ومسحت به عيني. بعد ذلك، ذهبت. أنت الذي في بالي أصلاً يا ابني ولكنني قلت لنفسي: لأخرج أباك من هذا الأمر بداية. آه يا ابني المسكين الغبي المنحوس.

القائمقام ضوغان دارون أوغلو

١٩١٥ - ١٩٦٧

الفاتحة لروحه

حسنٌ، اقرأها لك يا ابني البائس المنحوس. آمين. أنت أيضاً هنا. رحماك يا إلهي. شعرت فجأة كأنك لم تمت. أين منديلي؟ ولكن انظروا كيف شهقت قبل أن تصل يدي إليه.

"أيتها الجدة، لا تبكي أيتها الجدة".

شعرت أنني سأقع على الأرض باكية ومرتجفة لولا تدخلهم. يا لسوء حظي! كُتب لي أن آتي إلى هنا حيث قبر ابني. ما الذي فعلته يا ربي لتعاقبني هذا العقاب؟ التوبة! ولكنني فعلت ما بوسعي. وهل كنت أريد أن تجري الأمور على هذا النحو؟ آه يا ضوغاني. ألم أقل لك مرات ومرات بأن آخر ما يجب أن تقوم به هو موافقتك لأبيك. ألم أرسلك إلى المدارس الخارجية كي لا ترى أبيك وتتخذه مثالاً. يا صغيري، ألم أرسلك إلى أفضل المدارس مخفية عليك أنني أمسك بالبيت على قدميه بالخواتم والماسات التي كانت مخبأة في الصندوق، أعطاني إياها جدك وجدتك لأمك المرحومين ضمن جهاز العرس. كنتَ تأتي متأخراً بعد ظهر يوم السبت، ولم يكن أباك السكران يذهب إلى المحطة لجلبك. ومثلما لم يستطع كسب قرش واحد، كان يحاول سحب النقود مني لنشر كتاباته تلك المليئة بالكفر من أولها إلى آخرها. وبينما كنت أجد سلواناً بدراسة ابني في المدرسة الفرنسية نظرت، آه... لماذا سجّلتَ هناك، لماذا لا تريد أن تغدو مهندساً أو تاجراً كالجميع؟ أعرف أنك ستغدو سياسياً وأن بإمكانك أن تصبح رئيساً للحكومة، ولكن أيستحق أمثالك هذا؟ لا يمكن إصلاح هذا البلد إلا عبر العمل السياسي. وحين قلت لك: وهل تقع عليك مسؤولية إصلاحه يا ابني الغبي؟ كنت قد تعلمت ذرع المكان مهموماً كأبيك تماماً في أيام العطلة التي كنت تأتي فيها متعباً مفكراً. كم أنا سيئة الطالع يا ربي. انظر، إنك تدخن السجائر في هذا العمر. قلتُ ما سبب هذا الهم والحزن يا ابني؟ ألم أملأ جيوبك بالنقود أملاً بصلاحك يا ابني. ألم أعطك لؤلؤاتي الزهرية دون أن أريها لأبيك، وقلت

لك: خذها، وبعها، واذهب إلى اسطنبول، وتنزه، واستمتع، وتجوّل مع الفتيات. بعد ذلك، كيف لي أن أعرف أنك ستتزوج فوراً من تلك الفتاة الصغيرة التي لا معنى لها ولا لون وتجلبها إلى البيت. ألم أقل لك: عش برخاء يا ابني. ألم أقل لك تشبث بهذا العمل على الأقل لعلهم يجعلونك وزيراً، ولا تترك القائمقامية، ها هو دورك بأن تغدو محافظاً قد اقترب. لا يا أمي، لم أعد أحتمل. كل شيء مقرف وقبيح يا أمي. آه يا صغيري المسكين. لماذا لا تروح وتجيء بين عملك وبيتك كالآخرين؟ في أحد الأيام قلت لك: أعرف، وكنت غاضبة، لأنك كسول وخوّاف، أليس كذلك؟ لأنك كأبيك لا تمتلك جرأة العيش والاختلاط بالناس، أليس كذلك؟ اتهام الناس وكرههم أسهل. لا ياأمي، لا. أنت لا تعرفين. كلهم مقرفون، لم أعد احتمل حتى القائمقامية. إنهم يعملون كذا وكذا للفلاحين المساكين والفقراء هناك، ويؤذونهم. ماتت زوجتي، ولترع الأولاد خالتهم. سأقدم استقالتي، وآتي لأسكن هنا. أرجوك يا أمي لا تضغطي علي. أنا أفكر بهذا منذ سنوات في هذه الزاوية الهادئة، أريد

"هيا أيتها الجدة، صار الجو حاراً جداً".

أن أجلس وحدي، وأن أكتب الحقائق، لا، لا أسمح لك.

"انتظروا قليلاً يا سيد متين..."

لا يمكنك أن تسكن هنا. عليك أن تذهب، وتندمج بالحياة. احذر يا رجب من تقديم الطعام له. إنه رجل كبير. ليذهب لكسب لقمته بنفسه. أرجوك لا تفعلي هذا بي يا أمي، ستحطين من قدري أمام الناس بعد هذا العمر.

"لو نظّف أحدنا ما فوق هذه القبور على الأقل".

اصمتوا يا سفهاء! ألا أستطيع البقاء وحدي مع والدكم؟ وأنا أيضاً أرى قذارة الحيوانات. أهكذا سيغدو كل شيء؟ ولكنني قلت له حينئذ: هل تشرب؟ صمتَّ يا ابني. لماذا؟ إنك لم تُعدّ شاباً، لأزوجك مرة أخرى. حسنٌ، ماذا ستفعل من الصباح حتى المساء هنا في هذا المكان القفر؟ إنك تصمت، أليس كذلك؟ آه يا ابني، كيف أعلمك بأنك غير مسؤول عن هذا الذنب والحرام والظلم؟ أنا امرأة مسكينة جاهلة. انظر، إنني وحيدة ويسخرون مني. لو رأيت هذه الحياة البائسة التي أعيشها يا ابني، ستعرف كم أنا تعيسة، وكيف أبكي. ضغطتُ على منديلي، وتلويت.

"كفى أيتها الجدة، كفى. لا تبكي. سنأتي مرة أخرى".

يا إلهي، كم أنا تعيسة، يريدون أخذي. دعوني على راحتي مع ابني والمرحوم زوجي. أريد البقاء وحدي معهما. لأتمدد على القبر. ولكنني لم أتمدد. لا يا فاطمة. انظري! أحفادك أيضاً يشفقون عليك. ها هم قد رأوا كم أنا تعيسة ومسكينة. إنهم على حق. في هذا الحر.. أقول: الفاتحة للمرة الأخيرة. ولكنني رأيتُ القزم القبيح ينظر بسذاجة. إنهم لا يتركون الإنسان يرتاح. الشيطان في كل مكان، كأنه يكمن وراء ذلك الجدار من أجل أن يحرّض أحدنا ضد الآخر. حسنٌ، للمرة الأخيرة، الفاتحة.

"انظري يا جدتي العزيزة، صار وضعك سيئاً".

حين فتحت يدي، تركوني، وفتحوا أيديهم. لقراءتها للمرة الأخيرة. تمر السيارات. يا لشدة الحر. حسنٌ أنني لم ألبس كنزتي الداخلية. تركتها في خزانتي في اللحظة الأخيرة. لابد أنني أقفلت عليها. إذا لم

يدخل لص إلى البيت الفارغ حماه الله... كيف يتشتت الذهن. بالإذن منك. آمين. نحن ذاهبون.

"استندي إلي أيتها الجدة".

نستودعك الله. ها، أنتِ أيضاً موجودة. هل يتركون لدى الإنسان عقلاً؟

غول دارون أولو

١٩٢٢ - ١٩٦٤

الفاتحة لروحها

ولكنهم يأخذونني. وبهذا الحر لا طاقة لي لقراءة واحدة أخرى. قراءتي لهم تعد لك أيضاً أيتها الفتاة الصغيرة الشاحبة التي لا لون لها. أُعجب بك ضوغاني. جلبكِ، وجعلك تقبلين يدي. بعد ذلك، جاء إلى غرفتي بهدوء كيف حالك يا أمي؟ ماذا أقول يا ابني؟ قلت: هذه فتاة نحيلة باهتة. فهمتُ فوراً أنها لن تعيش طويلاً. كفاكِ وضع ثلاثة أولاد، فاستُهلكت. يا مسكينة! كنت تأكلين من طرف الصحن كقط. لقمتين. أقول: لأَضع لكِ ملعقة أَخرى يا ابنتي. تحملق عيناها اليائستين: إنها كنة صغيرة تخاف من الطعام، وعديمة اللون. أي ذنبٍ ارتكبتِه لتحتاجي لدعائي. مسكينات لا يعرفن الطعام الجيد ولا التمسك بالحياة، يعرفن كيف يمتن مصبباتٍ الدموع من أجل آلام الآخرين. انظروا! أنا ذاهبة، لأنهم تأبطوا ذراعيَّ

"هل أنتِ بحالة جيدة يا جدة؟"

ها نحن نعود إلى البيت ولله الشكر.

-٨-

لحظة ذهابهم، أرادت جدتي أن تتوجه بالدعاء مرة أخرى، وحينئذ نيلفون وحدها فتحت يديها لله معها. نعم نيلفون وحدها: أخرج فاروق منديلاً، ومسح عرقه. العم رجب أمسك بسيدته الكبيرة، ومتين أدخل يديه في جيبي بنطاله الجينز الخلفيين، ولم يعد يبدي حتى مظاهر من يتوجه بالدعاء. بعد ذلك أنهوا ذلك الدعاء الذي قرأوه مليئاً بالأخطاء. واهتزت الجدة مرة أخرى نحو اليمين ونحو اليسار، وتأبطوا ذراعيها من الجانبين، وسحبوها. أخرجتُ رأسي بشكل جيد من خلف الجدار والأكمات حين أداروا لي ظهورهم، ونظرتُ على راحتي. مشهد مضحك: في أثناء ذهابهم، البدين العملاق المدعو فاروق إلى جانب، والقزم الذي هو عمي على الجانب الآخر. بدت جدتهم كدمية مخيفة بالألبسة العريضة، ووسط المعطف الأسود المخيف الشبيه بالغطاء الأسود، ولكنها في الوقت نفسه مضحكة. رغم هذا لم أضحك، وشعرت بقشعريرة، ولعل السبب هو أنني في المقبرة. نظرتُ إليكِ يا نيلفون، وإلى غطاء رأسك الذي يليق بك، ولرأسك، بعد ذلك، نظرتُ جيداً إلى ساقيك. يا للغرابة: كبرتِ، وصرتِ فتاة كبيرة جميلة، ولكن ساقيك كعودين حتى الآن.

بعد أن ركبتم السيارة، وذهبتم، خرجتُ من حيث أختبئ كي لا تفهموني خطأ، وذهبت إلى تلك القبور الصامتة، وألقيتُ نظرة. هذا

جدكم، وهذه أمكم، وهذا أبوكم. أنا رأيت أبيكم فقط، وأتذكره: عندما كنا نلعب في الحديقة، يمدّ رأسه من بين درفتي أباجور النافذة الموارب، ويراني معكم، ولكنه لا يعترض على لعبكم معي. قرأت الفاتحة له، وتوقفت قليلاً دون أن أفعل شيئاً، معرضاً نفسي للشمس، ومستمعاً إلى صوت الجدجد، وفكرتُ بأمور غريبة، وأفكارغريبة محملةٍ بالأسرار، وارتعشت، وتداخلت الأمور في عقلي، وغدوت كأنني دخّنت سيجارة. بعد ذلك، خرجت من المقبرة، وذهبت عائداً إلى كتاب الرياضيات الذي تركته مفتوحاً على الطاولة. لأنني قبل ساعة جلستُ إلى الطاولة، وحين نظرت من النافذة كنتم تصعدون الطريق بسيارتكم الأناضول البيضاء، وفهمت إلى أين أنتم ذاهبون لوجود جدتكم معكم، وحين فكرت بالمقبرة والأموات لم تعد تدخل في عقلي هذه الرياضيات العبثَية الموترة للأعصاب التي لم تكن تدخل أصلاً، وقلت: لأذهب وألقي نظرة على هؤلاء علّني أشعر براحة حين أرى ما يفعلونه في المقبرة، ثم أعود وأدرس. خرجت من النافذة كي لا أُحْزِن أمي، وجئت إلى هنا راكضاً، وها أنا عائد إلى كتاب الرياضيات الذي تركته مفتوحاً.

انتهى الطريق الترابي، وبدأ الإسفلت. تمر سيارات من جانبي، وأشرت لها مرتين. ولكن لم يبق ضمير عند أصحاب السيارات. يمرون بأقصى سرعة نازلين الطريق دون رؤيتي. بعد ذلك وصلت إلى حيث بيت تحسين. يقطف تحسين وأمه الكرز في الخلف، ويجلس والده تحت الخيمة يبيعه. هو أيضاً بدا أنه لا يراني. حتى انه لم يرفع رأسه نحوي لأنني لست من أولئك الذين يقودون سياراتهم الفخمة بسرعة ١٠٠كم، ويضغطون فجأة على الفرامل، ويشترون فوراً خمسة كيلو غرامات بسعر ٨٠ ليرة للكيلو. في اللحظة التي كدت أقول فيها بأنه لم يبق غيري

يفكر بغير النقود، فرحت حين رأيت شاحنة خليل للزبالة. كانوا متجهين نحو الأسفل. أشرت إليهم فتوقفوا.

قال: "ماذا يفعل أبوك؟"

قلت: "ماذا سيفعل؟ اليانصيب!"

"إلى أين يذهب؟"

"صباحاً يعمل في القطار".

"وأنت؟"

قلت: "مازلت أدرس. ما هي أقصى سرعة لهذه الشاحنة؟"

قال: "ثمانون. ماذا تفعل هنا؟"

قلت: "عقلي مشوش. خرجت قليلاً".

"إذا بدأ عقلك يتشوش في هذا العمر..."

تضاحكوا. حين كان يضغط على الفرامل أمام بيتنا، قلت: "لا، سأنزل في الحي السفلي".

"ماذا يوجد هناك؟"

"لدي صديق لا تعرفه".

نظرت إلى نافذتي المفتوحة في أثناء مرورنا من أمام البيت. سأعود قبل مجيء أبي ظهراً. نزلت من الشاحنة فور دخولنا إلى الحي. سرت بسرعة كي لا يعتقد خليل أنني متسكع، وذهبت إلى الرصيف كاسر الموج، وجلست لأنني رحت أتصبب عرقاً، ونظرت إلى البحر. جاء مركب ذو محرك مسرعاً، وأنزل فتاة على الرصيف، وذهب. فكرت بكِ يا نيلفون وأنا أنظر إلى الفتاة: رأيتُك بعيني قبل قليل كيف تفتحين يديك إلى الله: غريب. كأنني أتحدث إليها. جاء في الكتاب: توجد ملائكة.

بعد ذلك فكرت: يوجد شيطان أيضاً، وأمور أخرى. أفكر بهذه الأمور لأنني أريد أن أخاف، كي أخاف، ويقشعر جلدي، وأشعر بالذنب، وأصعد الطريق راكضاً، وأجلس لدراسة الرياضيات. ولكنني مهما حصل، سأجلس بعد قليل. لأتنزه قليلاً. سرت.

فكرتُ من جديد بالذنب والحرام والشيطان عندما وصلتُ إلى شاطئ السباحة، وسمعت ذلك الضجيج الذي يفقد الإنسان صوابه، ورأيت ركام اللحم ذاك. إنه ركام لحم يغلي: ترتفع من وسط هذا الركام أحياناً كرة ملونة ببطء، ولكنها تعود، وتضيع وسطه، وكأنها تريد أن تتخلص من هذا الذنب والمحرم كله، ولكن النساء لا تدعها. أمعنت النظر أكثر في الزحام والنساء من بين الأسلاك الشائكة المليئة بالنباتات المتعرشة. أمر غريب: أحياناً تريد روحي ارتكاب سيئة، فأخجل. لأزعجهم لعلهم ينتبهون إلي: وهكذا أعاقبهم، ولا يتبعون الشيطان، ولعلهم حينئذ يخافون مني فقط: إحساس كهذا: نحن وصلنا إلى السلطة، وهم وصلوا إلى الطريق الصواب. خجلت بعد ذلك، وشردت تماماً، وفكرتُ بك يا نيلفون من أجل أن أنسى خجلي. أنت بريئة. ولحظة قلت لنفسي: لأنظر إلى الزحام الساخر قليلاً، وأعود إلى الرياضيات. قال المشرف على شاطئ السباحة:

"لماذا تقف هنا؟"

قلت: "وهل هذا ممنوع؟"

قال: "إذا كنت ستدخل، اذهب وخذ تذكرة من هناك... إذا كان لديك نقود ولباس سباحة..."

قلت: "حسنٌ. لا ضرورة لهذا. أنا ذاهب".

ذهبت. إذا كان لديك نقود. إذا كان لديك نقود، كم؟ صاروا يقولون

هذا بدل قراءة الفاتحة: إنكم مقرفون إلى حد أنني أجد نفسي وحيداً جداً: نصفهم سافل، ونصفهم الآخر مخبول. حين يفكر الإنسان بهذا الزحام يرتعد. ولكن الله رحمنا بشبابنا. وعندما أكون معهم لا أخلط بين الذنب والحرام والحلال، أعرفها، ولا أخاف: أدرك جيداً ما يجب فعله. خطر ببالي شبابنا وهم يسخرون مني في المقهى البارحة واصفيني بابن آوى فغضبتُ. حسنٌ، أنا يمكنني القيام وحدي بتلك الأعمال التي يجب أن أقوم بها أيها السادة، ويمكنني السير وحدي في ذلك الطريق، لأنني أعرف. صدقت نفسي، ووثقت بها.

مشيت، ووصلت إلى أمام بيتكم يا نيلفون. لم أنتبه لنفسي. فهمت هذا حين رأيت ذلك الجدار القديم المغطى بالطحالب. باب حديقتكم مغلق. ذهبت، وجلست تحت شجرة الكستناء على الجانب الآخر من الطريق. نظرت إلى نوافذ وأبواب بيتكم. وتقت لمعرفة ما تفعلينه في الداخل. لعلك تناولت الطعام، لعل الغطاء ما زال على رأسك، ولعلك تأخذين قيلولة. تناولتُ عوداً، ورسمت وجهك على تجمع الرمل عند طرف الإسفلت وأنا شارد. وجهُكِ أجمل وأنت نائمة. وبينما كنت أنظر إلى ذلك الوجه، نسيت الذنب والحقد والحرام الذي أعتقد أنني أغطّ فيه حتى رقبتي، ونسيت الاندفاعات الجلدية للشعور بالذنب، وفكرت بأنني لا يمكن أن أكون مذنباً، ولست من أولئك. أنا مثلك مؤمن. بعد ذلك، فكرت: لو دخلتُ سراً إلى الحديقة، ودست على ذلك المكان من الشجرة، وعلى بروز الجدار ذاك، وتسلقته دون أن يراني القزم، ودخلت من نافذتك المفتوحة كقط إلى غرفتك، وقبلتك من طرف خدك: من أنت؟ أما عرفتني؟ كنا نلعب (الغميضة). أنا احبك. أنا أحبك أكثر مما يستطيع أولئك الشباب الأكابر الذين تعرفينهم كلهم أن يحبوك! غضبت فجأة. وخربتُ الوجه المرسوم على

الرمل بقدمي. ولحظة نهوضي ومللي من هذه الأحلام العبثية، رأيت نيلفون خارجة من البيت، متجهة نحو باب الحديقة.

هؤلاء يفهمون كل شيء بشكل خاطئ، ويفسرونه بشكل سيء. ابتعدت قليلاً فوراً، وأدرت ظهري للباب. وبعد أن سمعت صوتك، عدت: خرجتْ من باب الحديقة. إلى أين؟ تأجج بي الفضول، فتبعتها.

تهتز بشكل غريب وهي تمشي: مثل الرجال. لو ركضتُ، ولامست كتفها، وقلت لها: أما عرفتني يا نيلفون؟ أنا حسن. كنا نلعب في حديقتكم عندما كنا صغاراً. وهنالك متين أيضاً. بعد ذلك كنا نصطاد سمكاً...

لم تنعطف حين وصلت إلى الزاوية. إنها تسير. هل تذهبين إلى شاطئ السباحة؟ وهل ستدخلين بينهم أنتِ أيضاً؟ غضبتُ، ولكنني لن أدعها تذهبُ مسرعة ذات الساقين الشبيهين بالأعواد. لماذا هذه العجلة؟ هل هنالك من ينتظرك؟

لم تتوقف عند شاطئ السباحة. انعطفت صاعدة الطريق. صار يمكنني أن أتوقع من ذا الذي ينتظرك. لعلك تركبين سيارته، ويمكن أن يكون لديه قارب ذو محرك. اتبعها لأنني أتوق لمعرفة أيهم، وأعرف أنك لا تختلفين عن الآخرين.

دخلتْ إلى البقالية التي هناك فجأة، وغابت. ثمة ولد يبيع المثلجات أمام دكان البقال. أعرف الولد. انتظرتُ بعيداً كي لا يفكر بأمر خاطئ. أنا لا أحب خدمة الأغنياء.

بعد قليل، خرجت نيلفون، وعادت أدراجها، وسارت نحوي في الطريق الذي جاءت منه. فجأة، أدرت ظهري، وانحنيتُ، وربطت ربطة حذائي. اقتربتْ مني وهي تحمل لفة. اقتربت، ونظرت إلي، فخجلتُ:

قلت: "مرحباً" ونهضت.

قالت: "مرحباً يا حسن. كيف حالك؟" صمتت قليلاً "رأيناك البارحة في الطريق عندما جئنا. عرفك أخي الكبير. كبرت، وتغيرت كثيراً. ماذا تفعل؟" صمتت قليلاً "مازلتم في الأعلى. عمك قال هذا. وما زال أبوك يعمل باليانصيب". صمتت قليلاً أيضاً: "إيه.. ماذا تفعل؟ إلى أي صف انتقلت؟"

قلت: "أنا؟" وفي النهاية استطعت أن أقول: "أنا مكمل هذا العام".

"ماذا؟"

"هل أنت ذاهبة إلى البحر يا نيلفون؟"

قالت: "لا، أنا قادمة من عند البقال. أخذنا الجدة إلى المقبرة. ساءت حالتها. لعل الحر هو السبب، اشتريت كولونيا".

قلت: "هذا يعني أنك لست ذاهبة إلى شاطئ السباحة ذاك".

قالت: "يزدحم المكان هناك كثيراً. سأذهب في الصباح الباكر عندما لا يكون ثمة أحد".

صمتنا قليلاً. ابتسمتْ بعد ذلك، وضحكتُ أنا أيضاً. وفكرتُ بأن وجهك مختلف عما رأيته من بعيد. أتعرق كالمخبول. ستقول من الحر. أصمتُ. خطت خطوة.

قالت: "حسنُ، سلّم على والدك. ممكن؟"

مدت يدها. يدها ناعمة وخفيفة. أنا خجلتُ من يدي المتعرقة.

قلت: "مع السلامة".

ذهبت. ولم أستطع النظر إليها. وأنا أيضاً سرتُ مفكراً نحو مكان ما كالناس الذين لديهم أعمال هامة جداً.

-٩-

تناولت الجدة الطعام معنا في الأسفل بعد عودتنا من المقبرة. أصيبت بعد ذلك بنوبة، ولكنها ليست خطيرة. كنا - نيلفون وأنا - نتضاحك. فجأة رمقتنا بنظرة سيئة، وأسقطت رأسها على صدرها. أمسكناها من ذراعيها، وأصعدناها إلى الأعلى، ومدّدناها على السرير، ومسحنا معصميها وصدغيها بالكولونيا التي جلبتها نيلفون. بعد ذلك، ذهبتُ إلى غرفتي، ودخنت سيجارتي الأولى بعد الطعام. وبعد أن فهمت أن لا خطر على الجدة، ركبتُ سيارة الأناضول الساخنة تحت الشمس، وانطلقت. لم أذهب في الطريق الرئيسي، بل ذهبت في طريق (ضارجا). عبّدوا هذا الطريق باتقان. مازالت بعض أشجار التين والكرز مكانها. في طفولتي كنت آتي مع رجب إلى هذه المناطق لصيد الغربان، أو للنزهة. يجب أن يكون البناء الذي أعتقد أنه محطة قوافل في المنطقة السفلية. أُنشئت، وتُنشأ، أحياء جديدة على السفوح. لم أر جديداً في (ضارجا): تمثال أتاتورك المقام قبل عشرة أعوام.

في غبزة صعدت إلى القائمقام مباشرة. تغير القائمقام. قبل سنتين، كان وراء هذه الطاولة شخص يائس من الحياة، أما الآن فثمة شاب يحرك يديه وذراعيه دون توقف. لم أضطر لإخراج أطروحة درجة الأستاذ المساعد التي نشرتها الكلية من الحقيبة لأريه إياها من أجل التأثير

عليه، أو القول له إنني دخلت إلى الأرشيف من قبل، وأن أبي رحمه الله كان قائمقاماً. أرسلني خلف رجل طلبه. وبحثتُ معه عن رضا الذي عرفته خلال زيارتي السابقة. لم نجده. قيل أنه ذهب إلى المستوصف. قلتُ لأتجول في السوق قليلاً ريثما يعود.

عبرتُ أزقة ضيقة تتدلى منها مشربيات، وخرجت إلى السوق. سرت باتجاه أسفل المدينة. الأزقة مقفرة. ثمة كلب يسير على غير هدى في الشارع، ورجل في دكان حداد يعبث بأسطوانة غاز. عدت دون أن أنظر إلى واجهة محل القرطاسية، وسرت ملتجئاً إلى الظل الضيق أمام الدكاكين حتى رأيت الجامع. بعد ذلك، عدت. ذهبت إلى شجرة الدلب في الساحة الصغيرة، وجلست. شربت شاياً لأطرد نعاسي. حاولت تناسي الحر بالاستماع لمذياع المقهى لا مبالياً، وسررت لعدم اهتمام أحد بي.

كان رضا قد جاء حين عدت إلى القائمقامية. تذكرني حين رآني، وأبدى سروراً. كان علي أن أقدم طلباً ريثما يجد المفتاح. نزلنا معاً إلى أسفل. فتح الباب. تذكرت فوراً رائحة العفن والغبار والرطوبة. تبادلنا الحديث في أثناء تنظيف غبار الطاولة والكرسي القديمين. تركني رضا وحدي، وذهب.

ليس ثمة الكثير في أرشيف غبزة. وكل ما هنالك يعود إلى فترة قصيرة لم يهتم بها أحد، وكانت القصبة حينئذ مركز قضاء. وقسم كبير من هذه الوثائق أرسل إلى إزميت التي كانت تدعى في ذلك الوقت (إزنيك ميت). في الصناديق ثمة فرمانات، وقيود تمليك، وسجلات محاكم، ودفاتر متداخلة فيما بينها، ومكومة ومتروكة. حاول أستاذ التاريخ في الثانوية الذي يتأجج بالشعور القومي البيروقراطي الخاص بالسنوات الأولى للجمهورية تنظيم هذا المكان قبل ثلاثين عاماً، ولكن همته بردت. وأنا قلت لنفسي قبل سنتين: لأستمر بالعمل الذي تركته

من حيث انتهى، ولكنني يئست خلال أسبوع. ثمة ضرورة لأن يكون الإنسان متواضعاً أكثر مما يكون مؤرخاً أو مؤرشفاً. ولم يعد يظهر في يومنا هذا كثير من الناس المتعلمين والمثقفين قليلاً، ويتمتعون بهذا التواضع إلى هذا الحد. لم يكن أستاذي في الثانوية على هذا النحو أيضاً. فقد سيطر عليه هوس الاستفادة من الساعات التي قضاها في الأرشيف لإصدار كتاب. أتذكر أنني قرأت الكتاب الذي تناول فيه أستاذي أبنية (غبزة) التاريخية ومشاهيرها إضافة إلى قصة حياته وحياة معارفه الغبزويين وأنا أشرب الجعّة لأسلي نفسي في الأيام التي كنت أتشاجر فيها مع سلمى. فيما بعد، ذكرت هذا الكتاب لبعض زملائي في الكلية، فأجابوني جميعهم جواباً واحداً: لا، من غير الممكن أن توجد في غبزة وثائق من هذا النوع! لقد أثبتوا عدم إمكانية وجود أي أرشيف في غبزة.

يبدو العمل في مكان يؤمن حتى الخبراء بعدم وجوده أكثر متعة من العمل في أرشيف رئاسة الحكومة مع أصدقاء غيورين. أقلّب قصاصات الورق التي تعرضت للتلف وانتشرت عليها البقع الصفراء والعفن مستمتعاً وأنا أشمها. ومع قراءتي لها أعتقد بأنني أرى الناس الذين كتبوا هذه الوثائق أم أملوها أو ارتبطت حياتهم بطرف هذه الكتابات. لعلني جئت إلى هنا من أجل هذه المتعة، وليس من أجل متابعة أثر الوباء الذي رأيته في السنة الماضية. ومع قراءة هذه الأوراق الباهتة يبدأ الانفراج ببطء. وبالطريقة التي تبدو لكم شجرة وحجر وطائر مدهش على قطعة أرض يابسة ظهرت لكم بعد سفر بحري طويل وانزياح ضباب جعلكم قانطين تظهر في عقلي فجأة حكايات الملايين وحيواتهم المتداخلة مع هذه الأوراق. حينئذ أستمتع كثيراً، وأقرر بأن التاريخ هو ذلك الشيء

الملون والحيوي المتجلي في عقلي. ولو قالوا لي اشرحه، لما استطعت. بعد قليل، سيعبر ذاهباً وتاركاً وراءه طعماً غريباً. حينئذ أخشى اليأس، وأريد التفكير بالشيء العابر. أحاول تدخين سيجارة. ولكن، اللعنة! فالتدخين في أماكن كهذه ممنوع.

في أثناء قراءتي سجل محكمة، اعتقدت بأنني يمكن أن أجد هذا الشعور من خلال كتابة ما أقرؤه. بدأت بالكتابة على الدفتر الذي أخرجته من حقيبتي. يدّعي شخص يدعى: (جلال) بأن محمداً شتمه. قال: "أه منك يا ملعون". أنكر هذا بحضور القاضي. ثمة شاهدان يدعيان: (حسن) و(قاسم): ذهب قاسم إلى بيت أدهم وهو غير موجود فيه، وتحدث مع عائلته. لا ينكر قاسم الحادثة، ولكنه يقول إنه ذهب لتناول معجنات، وأخذ بعض الزيت، وخرج. شخصان آخران ادعى أحدهما أن الآخر شدّ له لحيته. بعد ذلك، قرأت أسماء قرى غبزة الممنوح دخلها لجعفر وأحمد بسبب نجاحاتهما في الحرب. بعد ذلك، قرأتُ شكاية أهل الحي ضد امرأتين تدعيان (كوثر) و(كزبان) لأنهما تعملان بالدعارة. يطالب المدعوون بإخراج المرأتين من الحي. بعد ذلك، قرأت شهادة علي بأن كوثر قد مارست هذا العمل من قبل. ثمة شخص يدعى (صطلمش) له دين على (قلندر) قيمته اثنتين وعشرين ذهبية، ولكن (قلندر) ينكر دينه. فتاة تدعى ملك تدّعي أن رمضاناً باعها بغير حق لبهاء الدين بيك، وهي حرّة.

بعد ذلك، كتبتُ التالي: ولدٌ يدعى (محرّم) خرج من بيته لقراءة جزء من القرآن وقد قَبَضَ والده (سنان) عليه مع (رسول). يقول الأب إن رسولاً لعب بعقل ابنه، وأخرجه عن طريق الصواب، ويطلب فتح تحقيق بالأمر. يقول رسول إن محرماً أتى إليه، وذهبا معاً إلى الطاحون، وفي

طريق العودة ضاع منه محرّم لأنه ذهب لقطف تين من البساتين. بعد أن دونت تاريخ هذه القضية في دفتري فكرت بالتين الذي دخل إلى أحلام طفل، وبرسولٍ الحالم بطفل يحلم بالتين قبل حوالي أربعمائة سنة. بعد ذلك، دونت الأوامر لإلقاء القبض على جابي عشرٍ بدأ يقطع الطرق، ولإغلاق الخمارات فوراً، ولقمع شاربي الخمر. وقرأت أموراً أخرى وكتبتها: لصوصيةٌ، خلافات تجارية، قطعُ طرقٍ، طلاق بعد الزواج... بماذا تفيد هذه القصص؟ لم أخرج هذه المرة إلى الممر لتدخين سيجارة. نقلتُ إلى دفتري عدداً كبيراً من الأرقام والمعلومات حول أسعار اللحم. فجأة وقعتْ عيني على تحقيق حول ميت وجد في مقلع حجارة. العمال المحاصرون بالتحقيق تحدثوا كيف قضوا يومهم يعيدون إفاداتهم. استمتعت بداية حين قررت أن اليوم المصادف ٢٣ رجب ١٠٢٨ يتجلى أمامي. قرأت بدقةٍ وبالتفصيل ما قاله العمال وعما فعلوه في ذلك اليوم. اشتهيت تدخين سيجارة لتأكيد متعتي، ولكنني ضبطتُ نفسي، ونقلت ما قرأته بالضبط. استغرق هذا الأمر وقتاً طويلاً، ولكنه عندما انتهى، وصلتْ متعتي إلى الذروة. الشمس انخفضت، وسقطت بهدوء على حافة نافذة القبو. بدوت كأنني سأطأطئ رأسي لأقضي حياتي كلها في هذا القبو البارد قليلاً لو جلب لي أحدهم ثلاث وجبات طعام وعلبة سجائر في اليوم وعرقاً في المساء، وترك كل هذا أمام الباب. لا يبدو لي هذا واضحاً اليوم، ولكنني أتحسس وجوده قليلاً: ثمة قصص وراء قصاصات الورق هذه تكفي عمراً كاملاً، وستصل بي هذه القصص إلى اليابسة وراء الضباب. أحصيتُ عدد الصفحات التي كتبتها على دفتري كتلميذ جيد ومنضبط: تسع صفحات بالضبط! قررتُ أنني أستأهل العودة إلى البيت والجلوس إلى الشرب فنهضت.

-١٠-

كنا جالسين على الرصيف البحري لأسرة جيلان، وكنت على وشك القفز إلى البحر. اللعنة! كانت أذني منتبهة إلى أحاديثهم.

قالت غولنور: "ماذا سنفعل هذا المساء؟"

قالت فافا: "لنعمل أشياء مختلفة".

"ياه، لنذهب إلى سُعادية".

قال طورغاي: "ماذا يوجد هناك؟"

صرخت غولنور قائلة: "موسيقا!"

"هنا أيضاً توجد موسيقا"

"حسنٌ، قل أنت إذن ما ستفعله!"

قفزتُ إلى البحر فجأة. وبينما كنتُ أسبح بسرعة، فكرت بأنني سأكون في أمريكا في مثل هذا الوقت من العام القادم. فكرتُ بأمي وأبي المسكينين النائمين في قبريهما، وحلمتُ بالزنوج الذين سيعزفون موسيقا الجاز من أجلي في شوارع نيويورك الحرة، وبأنفاق المترو الطويلة غير المتناهية والتي لا يعير أحد فيها اهتماماً لأحد، وبمتاهة ما تحت الأرض التي لا تنتهي، وانتعشت. ولكنني بعد ذلك أوشكت أن أغضب متذكراً احتمال عدم استطاعتي الذهاب في السنة القادمة إذا لم أحصل

على نقود بسبب أخي وأختي. ولكن لا، أنا أفكّر فيك يا جيلان الآن: جلوسك على الرصيف البحري، ومدك ساقيك، وحبي لك، وكيف أجعلك تحبينني.

بعد قليل، أخرجتُ رأسي من الماء، ونظرت خلفي. ابتعدت عن البحر كثيراً، وسيطر عليّ خوف غريب: هم هناك، أما أنا فداخل سائل مخيف مالح أشنيّ لا بداية له ولا نهاية. اضطربتُ فجأة، وسبحت بسرعة وكأن سمكة قرش تطاردني، وخرجتُ من البحر، وذهبت، وجلست بجانب جيلان، وتحدثت لمجرد الحديث.

"البحر جميل جداً".

قالت جيلان: "ولكنك خرجت بسرعة".

استمعت لفكرت الذي راح يشرح أموراً ما. كان يتحدث عن إحدى المشاكل التي تقع للناس أصحاب الشخصيات المتميزة: كيف أصيب والده بنوبةٍ قلبية فجأة، وبات عليه القيامُ بالأعمال كلها وهو مازال في الثامنة عشرة من عمره، وكيف أدار الأمور وكل هذا العدد من الموظفين وحده حتى عاد أخوه الأكبر من ألمانيا، وما شابه ذلك. وحين قال إن أبيه قد يموت في وقت قريب من أجل أن يثبت أنه سيكون أكثر أهمية، قلت إن والديّ ماتا منذ زمن طويل، وإننا ذهبنا هذا الصباح إلى قبريهما.

قالت جيلان: "رحماكم يا شباب! فطرتم قلبي". ونهضتُ، ومشت.

"هيا نصنع شيئاً ما".

"نعم، لنذهب إلى مكان ما".

رفعت فافا رأسها عن المجلة التي بيدها: "إلى أين؟"

قالت غولنور: "إلى مكان ممتع".

قالت زينب: "إلى منطقة السور".

قال وداد: "البارحة ذهبنا إلى هناك.. ياه".

قالت جيلان: "لنذهب لصيد السمك إذن".

كان طوران يحاول فتح غطاء علبة (كريم) :"مستحيل في هذا الوقت".

"لماذا مستحيل؟"

"لنذهب إلى طوظلا".

قال فكرت: "حر شديد".

قالت جيلان غاضبة ويائسة: "سأجن"

قالت غولنور: "لا يمكن القيام بشيء معكم".

سألت جيلان: "ألن نذهب إلى مكان الآن؟"

لم يقل أحد شيئاً. بعد صمت طويل، سقط غطاء علبة الكريم التي في يد فكرت، وتدحرج على حافته، وانقلب عند قدم جيلان.

ركلته جيلان، فسقط الغطاء في البحر.

قال طوران: "لم يكن لي، إنه لهوليا".

قالت جيلان: "سأشتري واحدة جديدة لها". وجاءت، وجلست بجانبي.

فكرتُ فيما إذا كنت أحبُ جيلان أم لا، وآمنتُ بأنني أحبها: إنها أفكار فارغة وحمقاء ناجمة عن الحر المدوخ... نهض طوران، وذهب. كان ينظر إلى البحر حيث سقط الغطاء.

قفزت جيلانُ من مكانها، وقالت: "لا! لن تستطيع إخراجه يا طوران".

"حسنٌ، اخرجيه أنت إذن".

قالت جيلان: "هراء، أنا أخرجه".

قلتُ أنا: "أنا أخرجه. أنا خرجتُ من البحر للتو" ونهضتُ، وذهبت.

قالت جيلان: "أنت شاب جيد يا متين. أنت شاب جيد وعاقل".

قال طوران: "اخرجه لنر!" وأشار بإصبعه كأنه يصدر أمراً.

قلت فجأة: "لن أخرجه، البحر بارد".

أطلقت فافا قهقهة. عدتُ وجلستُ مكاني.

قال طوران: "سأشتري لكِ علبة جديدة يا هوليا".

قالت جيلان: "لا، أنا سأشتري لها واحدة جديدة".

قالت هوليا: "إنها فارغة أساساً".

قالت جيلان: "لتكن. سأشتري. أي كريم كان هذا؟" ودون أن تنتظر الجواب، أضافت متوسلة:

"هيا يا شباب! لنعمل شيئاً، وليكن ما يكون".

حينئذ قال أحمد إن (ميري) تريد الذهاب إلى الجزيرة في الطرف المقابل. وفجأة تأجج شعور الدونية برغبة إرضاء الأوربي لدى الجميع. ملأنا القوارب الآلية. أنا ركبتُ مع جيلان. بعد ذلك، ذهبتْ إلى بيتها، وعادت حاملة زجاجتين، وصرخت: "جين!"

صرخ آخر: "موسيقى"، ركض (جُنيد)، وجلب من البيت الصندوق المقرف، ومكبرات الصوت. بعد ذلك، هدرت المحركات وانطلقت. بداية، ارتفعت مقدماتها في الهواء. كادت (سما) أن تنهار وتسقط، ومع تسارع القوارب، نزلت مقدماتها إلى أسفل. بعد نصف دقيقة، ونحن وسط البحر المفتوح، كنتُ أفكّر: لا يهتمون لكسر شيء أو خدشه لأنهم

أغنيـاء. قـوارب الأغنيـاء تـسيـر بسـرعـة أربعين مـيلاً في السـاعـة، وأنا أخاف خوفاً قذراً، خوفاً تعيقني فيه أطرافي. أنا أُحبك يا جيلان: ولكن لا تخف يا مـتين! قلتُ لنفـسي: لا تـخف، أنت ذكي. أنـا أؤمن بقـوة الذكاء، نعم أؤمن.

اقـتربتْ القـوارب الآليـة من شـاطئ الجـزيرة كـأنهـا سـتـصـطدم به. وعندمـا كبحت السرعـة فجأة، ودارت في مكانهـا، توقفت. كانت تظهـر قمة المنارة التي على الطرف الآخر من الجزيرة فقط. خرج كلب من مكان مـا. بعـد ذلك خـرج آخـر لـونه أسـود، وآخـر رمـادي. نزلتْ إلـى الشـاطئ راكضة، واندست بالصخور: كانت تنبح نحونا حذرة. زجاجة الجين تنتقل من يد إلى يد. لم نتناول شيئاً. شربتُ من فمِ الزجاجة كأنني أشرب سمّاً، وبصعوبة شديدة. ما زالت الكلاب تنبح.

قالت غولنور: "هذه مسعورة!"

قالت جيلان: "انطلق يا فكرت، ولنر ما ستفعله!"

عندما انطلق، دارت الكلاب مع القوارب الآليـة حول الجزيرة بجنون. يُطلق من في القـوارب الصـراخ، ويغـنـون مـهـيـجين الـكلاب. وحين هاجت، انفعلوا أكثر! وجدت أن هذا الضجيج أكثر تسلية من بيت خالتي الدافئ والميت، وهو أكـثر حيـوية وغنى من الغـرفـة الصـغـيرة المغبرة التي يغطى فيها المذياع بقطعة أشغال يدوية.

"افتحوا الموسيقا إلى أعلى حد، لنر ما ستفعله إزاء ذلك!"

درنا حـول الجزيرة الـصـغـيـرة دورتين أخـريين والموسيـقـا مـفـتـوحة إلى أعلى حد. عندمـا بـدأنا الدورة الثـالـثـة تعلقت عيـني بالأثر الرغـوي الذي يتركه القارب خلفه، وفجـأة دهشت: في مكان بعيد من الماء الرغوي ظهر

فجأة رأس جيلان الفَرِح. رميت بنفسي إلى الماء دون تفكير بأي شيء كما لو أنني أقفز إلى كابوس.

فور إلقائي بنفسي إلى الماء، سيطر عليّ شعور غريب ومخيف: كأننا - يا جيلان وأنا - سنموت هنا، ولن ينتبه إلينا أحد ممن في القوارب. إما أن تقتلنا أسماك القرش، أو أن تسحقنا القوارب دون أن يسمعنا أحد وسط هذا الضجيج الغريب، بين هذه الكلاب التي تشبه الذئاب الجائعة! ليبعث الله لكم البلاء! لم أستطع التفكير بجيلان. عندما أخرجتُ رأسي من الماء بعد قليل، ونظرت، بُهتُّ. توقف أحد القوارب، ووصل إلى جانب جيلان، وسحبت إلى داخله. جاؤوا لإخراجي بعد أن أخرجوها.

قال فكرت: "من دفعك؟"

قالت غولنور: "لم يدفعه أحد. هو قفز".

"هل قفزت؟ لماذا قفزت؟"

قالت جيلان: "حسنٌ، من دفعني؟"

أمسكتُ بالمجداف الذي مدّه لي طورغاي، وبينما كنت أحاول الصعود إلى القارب، وفي اللحظة التي كدتُ أصعد فيها، تركَ طورغاي المجداف، فسقطتُ في الماء من جديد. حين أخرجتُ رأسي من الماء رأيت مندهشاً أن أحداً منهم لا يهتم بي. كانوا يتضاحكون، ويلهون. أردتُ أن أخرج من كابوس الوحدة هذا، والانخراط بينهم. مازالت أذناي تصغيان وأنا أتمسك بأصابعي وأظافري بجسم القارب المصنوع من (الفيبرغلاس).

"تضايقت".

"انظري يا جيلان! متين قفز إلى الماء ورائك".

قالت جيلان: "أين الكلاب؟"

في النهاية، استطعتُ الصعودَ إلى القارب. كنتُ ألهث.

"الله يبعث لكم البلاء. لا أحد منكم يعرف ما هو اللهو".

"نرميك للكلاب ها".

قال طورغاي: "علمنا إذا كنت تعرف".

صرخت غولنور: "مخبولون".

صعد أحد الكلاب التي تلاحقهم إلى أقرب صخرة، ونبح.

قالت جيلان: "مجنون!". ونظرتْ إلى أسنان الكلب البيضاء المدببة وكأنها مسحورة: "اقترب قليلاً من هذا الحيوان يا فكرت!"

"لماذا؟"

"هكذا".

"إلى ماذا ستنظرين؟" قاد فكرت المركب بهدوء نحو الكلب.

قال طورغاي: "ماذا تريدين من الكلب".

قال فكرت: "هل هو ذكر أم أنثى؟" وأطفأ المحرك.

صرخت جيلان بشكل غريب: "منحوس".

أردتُ أن أحتضن جيلان فجأة، ولكنني نظرتُ إليها فقط، وفكرتُ بما يجب أن أعمله كي أحببها بي. تداخلت الأمور في عقلي بشدة. كنت أريد أن أنطّ وأقفز وأصرخ داخل القارب، وانتابتني مشاعر غريبة، وازداد شعوري بأنني شخص سافل. أدرك أنني كلما سيطر عليّ هذا الشعور أكثر، أغدو شخصاً عادياً، وأستمتع بهذا الشعور. أردتُ أن

أنسى نفسي لأنني خشيت الخجل من أفكاري. بعد ذلك، أردت جذب الاهتمام كله نحوي، ولكن خطر ببالي أنني أفقر منهم جميعاً، ولا يمكنني إيجاد الذريعة أو الجرأة للقيام بشيء ما. كأن يديّ ورجليّ مربوطتان، وكأن قميص فقر ألبسوني إياه يضايقني: أنا أمزقك بذكائي! ينطّون، ويتصايحون. ثمة شخصان على مقدمة المراكب يتعاركان، وكل منهما يريد دفع الآخر إلى الماء. بعد ذلك، اقتربَ منا القارب، ورَشَقَنا من فيه بالماء بواسطة الدلاء. ونحن أيضاً رشقناهم. تعاركوا بالمجاديف قليلاً كأنهم يلعبون بالسيف. ثمة من سقط إلى الماء. أُفرغتْ زجاجتا الجين. تناول فكرت إحداهما، وقذفها نحو الكلب. تحطمت الزجاجة على الصخرة.

صرخت جيلان: "ماذا يحدث؟"

قالت فكرت: "حسنٌ، حسنٌ، نحن عائدون".

دار المحرّك قبل أن يجمع الساقطين في البحر. ولحقنا القارب الآخر فرشقونا بدلاء ماء.

"سباق! هيا يا حيوانات سابقونا".

بعد أن سار القاربان أحدهما بجانب الآخر وبالسرعة نفسها، انطلقا إثر صرخة غولنور. فُهم فوراً أن القارب الآخر سيسبق قاربنا. ولكن فكرت أطلق الشتائم، ونادى الجميع نحو مقدمة القارب، لنسرع أكثر. بعد قليل تجاوَزَنا الآخرون. وبينما كانوا يحتفلون بنصرهم بالتقافز، كوّرت جيلان منشفتها الرطبة، وقذفتهم بها لكنها سقطت في البحر. عدنا فوراً، ووصلنا إلى المنشفة قبل أن تغوص في الماء. تصارخوا. بعد

ذلك تبعوا عبّارة تذهب من (ضارجا) إلى (يالوفا)، ولفوا حولها لفتين وهم يتصارخون. بعد ذلك، بدؤوا لعبة أسموها "عمود التوازن": يسير القاريان أحدهما بجانب الآخر، وتُدلى بينهما عجلات الإنقاذ والمناشف، بعد ذلك، يلامس أحدهما الآخر، ويتباعدان كالسيارات المتسابقة. وتمتمت:

"ماذا لو وقعت حادثة؟"

صرخت فافا قائلة: "وهل أنت مدرس؟ هل أنت مدرس ثانوي؟"

قالت عولنور: "هل هو مدرس؟"

قالت فافا: "أنا أكره المدرسين".

قال جُنيد: "وأنا أيضاً".

قال طوران: "هو لم يشرب مشروباً. يلعب معنا لعبة الذكي".

قلت: "شربت. وشربت أكثر منك".

"حِفْظُ جدول الضرب لا يحل كل شيء".

نظرتُ إلى جيلان، لم تكن تسمع، فلا أهتم.

بعد نزهة أخرى، عادت المراكب. وبعد قليل، وصلنا إلى رصيف أسرة جيلان، ورسونا إليه. وبينما كانت المراكب تفرغ، رأيت امرأة في الخامسة والأربعين من عمرها تقريباً، ترتدي (برنصاً): أمها.

قالت: "أنتم مبللون تماماً يا شباب، من أين جئتم؟ أين منشفتك يا صغيرتي؟"

قال جيلان: "فقدتُها يا أمي".

قالت أمها: "أممكن هذا؟ ستبردين".

قامت جيلان بحركة لا معنى لها. بعد ذلك، قالت: "‏.. هذا متين يا أمي. إنهم يسكنون في ذلك البيت القديم الصامت الغريب".

قالت أمها: "أي بيت قديم؟"

تصافحنا. سألت عن عمل أبي. أخبرتها، وقلت لها إنني سأذهب إلى أمريكا للدراسة في الجامعة.

"نحن أيضاً سنشتري بيتاً في أمريكا. لا أحد يعلم ما سيحدث هنا. أين تقع أفضل الأمكنة في أمريكا؟"

قدمتُ لها بعض المعلومات الجغرافية، وتحدثتُ عن الظروف المناخية والأوضاع السكانية، وذكرتُ بعض الأرقام. ولكنني لا أستطيع فهم ما إذا كانت تصغي إليّ لأنها كانت تنظر إلى لباسي وشعري وكأنهما جزأين منفصلين عني. بعد ذلك، وفي أثناء حديثنا عن التخريب ووضع تركيا السيء، قالت جيلان:

"هل أمسكَ بكِ هذا الشاب الثرثار هذه المرة يا أمي؟"

قالت أمها: "قليلة الأدب!"

ولكنها هربت ذاهبة دون الاستماع إلى بقية حديثي. وأنا ذهبت، وجلست على مقعد شاطئ، وفكرتُ في أثناء نظري إلى جيلان والآخرين وهم يقفزون إلى البحر ويعودون، ويقفزون مجدداً ويعودون. عندما جلس الجميع على مقاعد الشاطئ والكراسي والأرض، بدأ ذلك الهمود الذي لا يصدّق تحت الشمس.

حلمتُ بساعةٍ تتدلى من وسط سيقاننا العارية الممدودة من المقاعد الشاطئية المطاولة متروكة فوق الأرض: أسندت ظهرها إلى الأرض غير

المعتنى بها، وبينما تدير وجهها نحو الشمس الثابتة بين صمتنا الذي لا بداية ولا وسط ولا عمق ولا حتى وجه له، وكلماتنا، وموسيقانا الحزينة العبثية تخلط تلك الساعات ما بين عقربيها، وتنسى ما لم تستطع قياسه، وما كانت تقيسه في الماضي، وتضطر للاعتراف بأنها فقدت الزمن.

فكرتُ بعد ذلك بأنني أحببتُ جيلان.

-١١

قُرِع باب غرفتي. أغمضتُ عيني. لم أنبس. ولكن الباب فُتح. إنها نيلفون.

"هل أنتِ بصحة جيدة يا جدتي العزيزة؟"

لم أقل شيئاً. أردتُ أن تنظر إلى وجهي الشاحب وجسدي القاسي، وتفهم أنني أتلوى ألماً.

"أنتِ أفضل يا جدة. عاد لون وجهك".

فتحت عيني، وفكرت: لن يفهموا أبداً، وسيبتسمون وبأيديهم عبوات الكولونيا البلاستيكية والنشوة المزورة، وسأبقى وحيدة مع آلامي وماضيّ وأفكاري. حسنٌ، اتركوني مع فكرة جميلة ونظيفة.

"كيف حالك يا جدة؟"

ولكنهم لا يتركونني. وأنا أيضاً لا أقول شيئاً.

"هل نمت جيداً. هل تريدين شيئاً؟"

"شراب الليمون!"

قلت هذا فجأة، وبعد ذهاب نيلفون بقيتُ مع الفكرة الجميلة والنظيفة من جديد: فكرت بالحلم، وبخيال الحلم: أنا صغيرة في قطار ينطلق من اسطنبول. ومع سير القطار أرى بساتين متداخلة، بساتين

جميلة وقديمة: اسطنبول بعيدة عندما كنا في تلك الحدائق وسط الحدائق. حينئذ فكرتُ في تلك الأيام الأولى. عربة الخيل، دلاء البئر التي تجعل البَكَرة تُصدر صوتاً، آلة الخياطة، وزمن بدالة الآلة الذي يسير بانتظام. بعد ذلك، فكرتُ بضحكته وشمسه وألوانه ونشوته المفاجئة وراهنه الممتلئ، فكرتُ بالأيام الأولى لصلاح الدين: نزولنا في غبزة عندما مرض في القطار.. نزولنا في غرف نُزل النون في غبزة، ومجيئنا الأول إلى جنة حصار لأن هواءها جيد... إنه مكان لرصيف مهجور بعد شق سكة الحديد، وبضعة بيوت قديمة، وبضعة حظائر. ولكن كم هواؤها جميل يا فاطمة، أليس كذلك؟ لا ضرورة للذهاب إلى الأمكنة البعيدة! لنسكن هنا! نكون قريبين من اسطنبول ومن أمك وأبيك فلا تحزنين من جهة، ونكون جاهزين للعودة فوراً عندما تسقط الحكومة من جهة أخرى. لننشئ بيتاً هنا!

مشينا طويلاً جداً في ذلك الوقت: كان صلاح الدين يقول: هنالك أشياء كثيرة في الحياة يجب عملها. تعالي لأريك العالم قليلاً. كيف حال الولد في بطنك؟ ألا يرفس؟ أعرف أنه سيكون ولداً، وسأسميه ضوغان(*) لكي يذكرنا بالحياة الجديدة المولودة، ولكي يعيش منتصراً وواثقاً، وكي يؤمن بأن قوته ستمكنه من مجابهة الحياة! انتبهي لصحتك يا فاطمة، ولننتبه كلانا، ولنعش طويلاً. العالم رائع جداً، أليس كذلك؟ هذه الأعشاب، وهذه الأشجار الجريئة التي تنمو وحدها: ليس بيد الإنسان ألا تسيطر عليه الحيرة أمام الطبيعة. لنعش بين أحضان الطبيعة مثل روسو. ولنبتعد عن أولئك السلاطين الأغبياء والباشاوات المرائين.

---

* – من معاني اسم ضوغان: مولود. وهو يعني أيضاً: صقر... المترجم..

ولنعِدْ النظر في كل شيء بعقولنا. كم هو جميل التفكير بكل هذه الأمور؟ هل تعبتِ يا روحي؟ تأبطي ذراعي، وانظري إلى جمال هذه الأرض وتلك السماء. أنا مرح لأنني تخلصتُ من ازدواجية اسطنبول تلك كلها إلى حدّ أنني أكاد أكتب رسالة شكرٍ لطلعت باشا! دعي عنك أولئك الذين في اسطنبول، ليتفسخوا وسط الذنوب والآلام ومناحرة أحدهم الآخر وتعذيبه! نحن هنا سنفكر بأشياء طازجة بسيطة جديدة جداً، وسنؤسس حياة جديدة من خلال عيشنا، حياة حرّة لم يشهدها الشرق بعد، جنة العقل التي نزلت إلى الأرض. أقسم لك يا فاطمة أن هذا سيحدث. وسنفعل هذا بشكل أفضل مما فعله الذين في الغرب. رأينا أخطاءهم، ولن نأخذ نواقصهم. وإذا لم نَرَ أو يَرَ أولادنا جنة العقل هذه، فإن أحفادنا سيعيشونها على هذه الأرض، وأقسم بأن هذا سيحدث! علينا أن نؤمن تعليماً جيداً لهذا الولد الذي في بطنك مهما كلف الأمر. لن أجعله يبكي ولا مرة واحدة. لن أعلّم هذا الولد ذلك المدعو خوفاً أبداً، ذلك الحزن الشرقي، والبكاء والتشاؤم والهزيمة وطأطأة الرأس المخيفة الخاصة بالشرق أبداً. سنبذلُ جهدنا معاً لتربيته. سننشئه إنساناً حرّاً. أنت تعرفين ما يعنيه هذا، أليس كذلك؟ أحسنت، أنا فخور بك يا فاطمة. أنا أحترمُك. أنا لا أراك جارية أو خادمة أو أَمَةً كما يرى الآخرون زوجاتهم. أنتِ زوجتي يا روحي، أتفهمين هذا؟ هيا لنعد. نعم، الحياة جميلة كالحلم، ولكن ثمة ضرورة للعمل على جعل الآخرين أيضاً يرون هذا الحلم. نحن عائدون.

"يا جدتي العزيزة! جلبتُ لك شراب الليمون".

رفعتُ رأسي عن المخدّة، ونظرت. قلتُ: "ضعيه هنا!" وفي أثناء ذلك، قلت: "لماذا لم يجلبه رجب؟ هل أنتِ حضّرتِهِ؟"

قالت نيلفون: "أنا حضّرته يا جدة. يدا رجب ملوثتان بالزيت. إنه يحضّر الطعام".

قطّبتُ وجهي، وأشفقت عليكِ يا ابنتي. ماذا أفعل؟ انظري، إن القزم خدعك منذ زمن؟ يخدع لأنه ماكر. فكرتُ: كيف دخل بينهم، وجذب تفكيرهم به، وخدعهم كما خدع ضوغاني من قبل بإغراقه بالشعور بالذنب والخجل ذاك بوجوده القبيح والمقرف؟ هل تشرح لهم؟ سقط رأسي على المخدّة منهكاً، وفكرتُ، أنا المسكينة بتلك الفكرة المخيفة التي تؤرقني.

فكرتُ بأن القزم رجب يشرح. يقول: نعم، أيتها السيدة الكبيرة، أنا أشرح. أنا أشرح لأحفادك بالتفصيل عما فعلتموه بي وبأمي المسكينة وبأخي يا أيتها السيدة الكبيرة كي يعرفوا. لأن المرحوم أبي.. - اخرس يا قزم - حسنٌ، السيد صلاح الدين الذي كتب وبشكل جميل إن الله غير موجود، والعِلْمُ موجود، ويمكننا معرفة كل شيء، وعلينا أن نعرف، وليعرفوا، ويعرفون. لأنني أخبرتهم، صاروا يقولون لي: رجب المسكين، هذا يعني أن جدتنا آذتك كثيراً، وما زالت. ونحن حزينون لأجلك. ويقولون له: لا تعمل، واجلس مرتاحاً، وأنت أصلاً صاحب حق في هذا البيت. لأن رجب شرح لهم. هل شرح لهم يا ترى؟ ترى هل قال لهم: يا أولاد هل تعرفون لماذا باعت جدتكم آخر ماساتها التي أراد السيد ضوغان أن يعطينا إياها؟ شعرتُ بأنني أختنق حين فكرتُ بهذا. ارتفع رأسي عن المخدة مُكْرَهاً!

"أين هو؟"

"من يا جدّة؟"

"رجب! أين؟"

"أما قلتُ لك إنه في الأسفل يحضّر الطعام يا جدة".

"ماذا قال لك؟"

قالت نيلفون: "لم يقل شيئاً يا جدة".

لا، لا يمكنه أن يحكي. لا يجرؤ يا فاطمة. لا تخافي، إنه ماكر، ولكنه جبان. تناولت شراب الليمون من جانب فمي. ولكن الخزانة خطرت ببالي مرة أخرى. سألتها فجأة:

"ماذا تفعلين أنت هنا؟"

قالت نيلفون: "أَجلس معك يا جدة. اشتقت إلى هذا المكان هذا العام".

قلتُ: "حسنٌ، اجلسي! ولكن لا تنهضي من مكانك الآن".

نهضتُ من سريري ببطء شديد، وأخذت مفتاحي من تحت المخدة وعكازي الموضوع جانباً.

قالت نيلفون: "إلى أين يا جدة؟ هل أساعدك؟"

لم أجب. توقفت عندما وصلت إلى الخزانة، وارتحت. نظرتُ مرة أخرى وأنا أدخل المفتاح في ثقب القفل. نعم، نيلفون جالسة. فتحت الخزانة، ونظرت بسرعة. انهمكت للا شيء. ها هو الصندوق مكانه، وفارغ. ليكن، إنه في مكانه، مكانه ياه. خطر ببالي وأنا أغلق الخزانة... تناولتُ السكرية من قعر الخزانة السفلية، وقفلت الخزانة، وأخذتها إلى نيلفون.

"آه يا جدتي العزيزة! أشكرك كثيراً. نهضتِ من أجلي، وتحملت المشقّة".

"خذي سكرة حمراء".

قالت: "كم هي جميلة هذه السكرية الفضية؟"

"لا تلمسيها!"

عدتُ إلى سريري. أردت أن أُحضر إلى عقلي أموراً أخرى، ولكنني لم أستطع. شردت مفكرة بواحد من تلك الأيام التي كنتُ فيها لا أتزحزح من أمام الخزانة. كان صلاح الدين يقول لي في ذلك اليوم: أليس هذا معيباً يا فاطمة؟ انظري، قام الرجل من اسطنبول وجاء إلى هنا لرؤيتنا، وأنتِ لا تخرجين من غرفتك. فوق هذا إنه رجل من الأكابر كالأوربيين، وإذا كنتِ تفعلين هذا لأنه يهودي فهذا عيب أكبر يا فاطمة. أدركت أوربا كلها أن التفكير على هذا النحو خاطئ بعد حادثة (دريفوس). بعد ذلك، نزل صلاح الدين إلى الأسفل، وأنا نظرت من بين درفتي الأباجور.

"لو تشربين الليمون يا جدتي العزيزة".

كنتُ أنظر من بين درفتي الأباجور: كان رجلاً قصيراً، ويبدو ضئيلاً بجانب صلاح الدين. إنه صائغ في السوق المسقوف! ولكنه يبدو كعالمٍ أكثر مما يبدو تاجراً صغيراً. صلاح الدين يتكلم معه، وأنا أستمع. كان صلاح الدين يقول له: إنه يا أفرام أفندي، ماذا يوجد في اسطنبول، هل الناس ممنونون من إعلان الجمهورية؟ ويقول اليهودي: هنالك كساد في العمل، كساد! ويقول صلاح الدين كجواب: "لا يا هذا، التجارة أيضاً؟ مع أن الجمهورية كانت ستفيد التجارة كما تفيد الأمور الأخرى. التجارة هي التي ستنقذ أمتنا. لن توقظ التجارة أمتنا فقط، بل الشرق كله. قبل كل شيء، علينا أن نتعلم كسب النقود، وبعد ذلك نتعلم الحساب، وهذا يعني الرياضيات. بعد ذلك عندما تجتمع التجارة والرياضيات والنقود ستؤسس المصانع. حينئذ لن نكسب مثلهم فقط، بل سنتعلم

الكثيـر مـثلهم أيضـاً! هل ترون أنتم أننا يجب أن نفكر مـثلهم، أم أن نكسب النقود مثلهم كي نعيش مثلهم؟ حينئذ قال اليهودي: من تقصد بقولك: "هم"؟ وقال صلاح الدين: من سيكونون يا عزيزي؟ الأوربيون الغربيون. وسأل قائلاً: ألا يوجد لدينا مسلمٌ وتاجر غني في آن واحد؟ من هذا جودت الضو، ألم تسمع به؟ سمعت. يقولون إن السيد جودت كسب أموالاً طائلة في أثناء الحرب. عاد صلاح الدين، وسأل: إيه، حسنٌ، ماذا هنالك في اسطنبول؟ هل لديك علاقة مع رجال الباب العالي(*)؟ ماذا يقولون أولئك الحمقى؟ من يبرزون الآن على أنه كاتب أو شاعر، جديد؟ أتعرفهم؟ حينئذ قال اليهودي: أنا لا أعرف أبداً. تعالوا، وشاهدوا بأنفسكم! بعد ذلك، سمعتُ صلاح الدين يصرخ: لا، أنا لا أذهب، ليرى الشيطان وجوههم. اللعنة! لم يعد أولئك يستطيعون فعل شيء. انظر إلى عبد الله جوت هذا! كتابه الأخير سيء. لطشه كله من (ديلاهيه)، وكتبه على أنه أفكاره الخاصة. فوق هذا، فهو مليء بالأكاذيب والأخطاء التي لا يدركها. ثم إنه لا يمكن قول شيء حول موضوع الدين والصناعة دون قراءة (بورغيفنون): هو والسيد ضيا يلطشان من آخرين دائماً، ومن دون فهم أيضاً. وفرنسية ضيا أساساً محدودة جداً، لا تمكنه من فهم ما يقرأه. قلت لنفسي لأكتب مقالاً أفضحُ فيه هؤلاء، ولكن من سيفهم؟ من ناحية أخرى هل يستحق الأمر الخوض في الكتابة من أجل أمور تافهة كهذه، وإضاعة الوقت اللازم لموسوعتي؟ أنا تركت أولئك. ليستهلك أحدُهم الآخر بشرب دماء بعضهم بعضاً في اسطنبول.

---

* – مكان في اسطنبول يعتبر مركز الطباعة والنشر والتوزيع . . . المترجم .

"رفعتُ رأسي عن المخدة، وتناولت كأس الليمون من جانب رأسي، ورشفتُ رشفة".

بعد ذلك، قال صلاح الدين لليهودي: اذهب، وقل لهم إنني أعتبرهم هكذا. وقال اليهودي: أنا لا أعرفهم أبداً. لا يعرّج أمثال هؤلاء على دكاني أبداً. وقاطعه صلاح الدين صارخاً: أعرف، أعرف، لا ضرورة لأن تقول شيئاً. أنا عندما أنهي موسوعتي ذات الثمانية وأربعين مجلداً سيكون قد قيل كل ما يجب قوله في الشرق من أفكار وكلمات. بحركة واحدة سأملأ الفراغ الفكري المذهل، وسيذهل الجميع. سيبيع الأولاد بائعو الجرائد موسوعتي على جسر (غلاطة)، وستدب الفوضى في شارع المصارف. وسيكون هنالك منتحرون بين القراء، والأمر المهم أساساً هو أن الشعب سيفهمني، والأمة ستفهمني! حينئذ سأعود إلى اسطنبول. قال صلاح الدين: سأعود في أثناء تلك اليقظة العظمى في ذلك اليوم لأضبط تلك الفوضى. وقال له اليهودي: نعم يا سيدي! اجلسوا أنتم هنا. لم يبق طعم لاسطنبول وللسوق المسقوف. كل شخص يعمل على فقء عين الآخر. سيعمل الصاغة الآخرون على تخفيض قيمة بضاعتكم. ثقوا بي فقط. في الحقيقة إن العمل كاسد، ولكنني قلتُ لنفسي لأذهب، وأرى هذه البضاعة. صار الوقت متأخراً. حبذا لو أريتموني هذا الماس. ما نوع الأقراط التي ذكرتموها في رسالتكم؟ بعد ذلك خيّم صمت. أنا أستمع لذلك الصمت، وقلبي يخفق بسرعة، وفي يدي المفتاح.

"أما أحببتِ شراب الليمون يا جدة؟"

رشفتُ رشفة أخرى. وبينما كنت أعود برأسي إلى المخدة، قلت: "أحببته. أحسنت. تسلم يدك".

"حضرتُه بسكر زيادة. بماذا تفكرين يا جدة؟"

حينئذ بدأ اليهودي يسعل على نحو سيء ومتوتر، وقال صلاح الدين بصوتٍ يثير الشفقة: ألن تبقوا للطعام؟ وسمعت اليهودي يعود إلى حديث الأقراط. بعد ذلك، صعد صلاح الدين الدرج راكضاً، وقال: فاطمة! هيا تعالي إلى الأسفل، سنجلس للطعام، عيب. ولكنه يعرف أنني لن أنزل. بعد قليل نزلا إلى الأسفل مع ضوغاني، بعد ذلك، سمعت اليهودي يقول: ياللولد (الجنتل)! وسأل عن أمه، وقال له صلاح الدين إنني مريضة. وتناول ثلاثتهم الطعام، وتلك العاهرة تخدمهم. لم أعد أسمعهم، أو أنني لا أنتبه إلى أنني أسمعهم، لأنه بدأ يحكي لليهودي عن موسوعته.

"بماذا تفكرين يا جدة؟ ألن تقولي؟"

الموسوعة: العلوم الطبيعية، العلوم كلها، العلم والله، العلم وعصر النهضة، الليل والنهار، النار والماء والشرق والزمن والموت والحياة: حياة: حياة!

سألت قائلة: "كم الساعة؟"

ما يفصله مقرقعاً: الزمن: أفكر: أرتعش.

قالت نيلفون: "الساعة تقارب السادسة والنصف" بعد ذلك، اقتربت من طاولتي، ونظرت: "كم سنة عمر هذه الساعة يا جدة؟"

لم أستمع لما قيل على المائدة. كان شيئاً مقرفاً أريد أن أنساه، أو مثل شيء نسيته. لأن اليهودي في النهاية، قال ما يلي: الطعام شهي جداً. ولكن هذه المرأة التي لديكم والتي طبخت الطعام أجمل! من هي؟ وقال صلاح الدين وهو سكران: امرأة قروية مسكينة! ليست من هنا.

تركها زوجها عندما ذهب إلى الجندية عند أقرباء بعيدين له. غرق مركب ذلك الشخص، ومات. وكانت فاطمة تتعب، وكنا نبحث عن خادمة، فأسكناها في الغرفة الصغيرة التي في الأسفل كي لا تجوع. نشيطة، ولكن المكان ضيق عليها، انشئنا لها برّاكة. لم يعد زوجها من الجندية، إما أنه هرب، وقُبض عليه، وشنق، أو أنه استشهد. أنا أقدرها كثيراً. في هذه المرأة جمال شعبي ونشاط. عرفت منها الكثير من أجل الكتابة عن الحياة الاقتصادية الريفية! لطفاً، اشربوا قدحاً آخر. أغلقت باب غرفتي كي لا أسمع، ولا أختنق من الاشمئزاز.

"لمن كانت هذه الساعة يا جدة. أخبرتنا في السنة الماضية؟"

قلت: "كانت للمرحومة جدتي لأمي" وحين ضحكت نيلفون، اعتقدتُ بأنني تكلمت دون جدوى.

بعد ذلك، صعد ضوغاني المسكين المضطر لتناول الطعام مع يهودي وسكران، جاء إلي. جعلته يغسّل يديه قبل أن أقبّله. بعد ذلك، نيمته ليأخذ قيلولته. صلاح الدين يحكي حتى ذلك الوقت في الأسفل، ولكن هذا لم يستمر. قال اليهودي إنه يريد أن يذهب. جاء صلاح الدين إلى الأعلى، وقال: سيذهب الرجل يا فاطمة. يريد رؤية قرط أو خاتم. أنا صامتة. أنت تعلمين أن هذا الرجل جاء من اسطنبول بناء على رسالتي، والآن من غير الممكن أن أرسله خالي اليدين. صمتُ... حقيبته مليئة بالنقود حتى فمها يا فاطمة، ويبدو أنه مستقيم، وسيقدم لنا سعراً جيداً. أصمتُ... يا هووو... هل يُرسل الرجل خاوي الوفاض بعد تجشمه عناء كل هذا الطريق، واستدعائه من اسطنبول؟

"هذه الصورة المعلقة على الجدار هي صورة جدّك، أليس كذلك؟"

كنت صامتة، قال صلاح الدين بصوت باك: حسن يا فاطمة. انظري لم يعد يأتي أي مريض إلى عيادتي، وهذا ليس ذنبي، وأقول هذا دون خجل لأنه ناجم عن العقائد البلهاء في هذا البلد الملعون. دخلي الآن صفر. إذا لم تخرجي إحدى هذه الأقراط أو الماسات أو الخواتم التي تملأ الصندوق حتى فمه، وإذا لم نبعها لليهودي اليوم فكيف سنقضي هذا الشتاء الطويل؟ لا، بل هذا العمر كله، هل فكرت بهذا؟ أنا بعتُ كل ما يمكنني بيعه خلال عشر سنوات يا فاطمة، وأنتِ تعرفين كم أنفقتُ من أجل هذا البيت، قطعة الأرض التي في (سراتش خانة) راحت قبل عشر سنوات. وعشنا في السنتين الماضيتين من ثمن الدكان الذي في السوق المسقوف. وتعرفين يا فاطمة أن أولئك السفلة المحسوبين أبناء عمي لن يبيعوا ذلك البيت الذي في حي (وفا) لأنني طلبت منهم ذلك، كما أنهم لم يرسلوا لي حقي من إيجاره. حسن، لأقول لك هذا، لتعلمي أيضاً. كيف تعتقدين أنني أعيش منذ سنتين؟ هل تعرفين بأية أثمان بخسةٍ بعت لشبه الحلاق التاجر في غبزة ستراتي القديمة ومجموعة أقلامي الفضية وصندوق كتبي الباقي لي ذكرى وحيدة من أمي وقفازاتي والسبحة الصوفية الباقية لي من أبي وعجلة تمرين الرجلين المضحكة واللائقة بشخصيات بيه أوغلو المهترئة؟ ولكن كفى، وصلت إلى أنفي. لا أنوي بيع كتبي وأدوات تجاربي وأدواتي الطبية. أقول لك بصراحة: لا أنوي أيضاً العودة إلى اسطنبول مطأطأ الرأس منكمشاً تاركاً عشر سنوات من الجهد قبل أن أنهي هذه الموسوعة التي ستهز الحياة في الشرق كله، وكل شيء من أُسُسِه بضربة واحدة! اليهودي ينتظر في الأسفل يا فاطمة. عليك أن تخرجي قطعة صغيرة فقط من الصندوق، ليس من أجل

إبعاد هذا الرجل عنا فقط، بل من أجل أن يستيقظ الشرق النائم منذ قرون، وكي لا يبقى ضوغاننا هذا الشتاء شبه جائع ومرتجف. هيا يا فاطمة، افتحي هذه الخزانة!

"أتعرفين يا جدة؟ أنا كنت أخاف من صورة جدي هذه عندما كنتُ صغيرة!"

فتحت الخزانة على مصراعيها، وصلاح الدين يقف على مبعدة خطوتين مني.

قلت: "هل كنتِ تخافين؟ ما الذي كان يخيفك في جدك؟"

قالت نيلفون: "إنها صورة مظلمة جداً يا جدة! وكنت أخاف من لحيته ونظرته".

بعد ذلك، أخرجت الصندوق من قعر الخزانة، وفتحته، وأمضيت فترة طويلة لم أقرر فيها أية قطعة سأضحي بها: خواتم، أساور، إبر ذات ماسات، ساعتي الصدفية، عقودي اللؤلؤية، شكلات صدري الماسية، الخواتم الماسية، الماسات، يا إلهي!

"لم تغضبي مني يا جدة لقولي إنني كنت أخاف من صورة جدي، أليس كذلك؟"

في النهاية، وضعت فردة من قرط ياقوتي بيده وأنا أصب اللعنات، فنزل صلاح الدين الدرج راكضاً وعيونه تبرق. ولحظة نزوله أدركت أن اليهوي سيخدعه: لم يستمر طويلاً. وفي أثناء ما كان اليهودي يتجه نحو باب الحديقة حاملاً تلك الحقيبة العجيبة، وعلى رأسه قبعة، قال: لا تأتوا إلى اسطنبول، اكتبوا لي رسالة أخرى، وأنا آتي إليكم.

بعد سنة، عندما جاء حاملاً الحقيبة نفسها للحصول على الفردة

الثانية من القرط كانت على رأسه القبعة نفسها أيضاً. بعد ثمانية أعوام، عندما جاء لشراء إحدى أساوري المرصعة بالماس كان المسلمون أيضاً مجبرون على وضع تلك القبعة. وعندما جاء لشراء اسورتي المرصعة بالماس الثانية لم تعد السنة ١٣٤٥ بل ١٩٢٦ . وعندما جاء من أجل إسورة أخرى كانت بيده تلك الحقيبة نفسها، واليهودي يشتكي دائماً من أوضاع العمل، ولكنه لم يعد يستطيع السؤال عن تلك الخادمة الجميلة. فخلال بضع السنوات اللاحقة اضطر صلاح الدين طهو الطعام الذي تناولاه بنفسه: أنا لم أتحرك من مكاني كما في كل مرة، وجلستُ في غرفتي، وقلت لنفسي بأن من الممكن أن يكون قد أخبر اليهودي بكل شيء. وهكذا تخلصنا من الخادمة ولقيطيها، وبقينا وحدنا في البيت حتى جلب ضوغاني ابنيّ الحرام - القزم والأعرج - من القرية. كانت تلك أفضل السنوات. استغرق صلاح الدين مساء في الجريدة التي جلبها معه اليهودي وتركها. للحظة اعتقدتُ بأن الجريدة كتبت عن كل شيء، عن الذنوب والمحرمات والعقاب الذي عوقبت به، فخفت، وألقيت نظرة. لم يكن في الجريدة غير صور المسلمين الذين يضعون على رؤوسهم قبعات المسيحيين. عند المجيء التالي لليهودي كان في الجريدة حروف المسيحيين أيضاً تحت صور المسلمين الذين على رؤوسهم قبعات المسيحيين. في ذلك اليوم قال صلاح الدين انقلب عالي موسوعتي إلى سافلها، وأعطيتُ لليهودي عقدي الماسي.

"بماذا تفكرين يا جدتي العزيزة؟ هل أنتِ على ما يرام؟"

عند مجيئه اللاحق أخرجت خاتمي الماسي. كان الثلج يندف عندما أعطيته خاتم الزمرد الذي كان ضمن جهاز جدتي لأمي. وقال اليهودي إنه جاء تحت الثلج، وأن الذئاب هاجمته، ودافع عن نفسه بالحقيبة. كنت

مدركة أنه يقول هذا كي يحصل على الخاتم بنصف ثمنه. كان الفصل خريفياً عند مجيئه الآخر. وأبكاني ضوغاني بقوله إنه سيدرس في الكلية العسكرية بدل أن يذهب إلى الجامعة. بمجيء اليهودي بعد ستة أشهر راح قرطي الياقوتي، وطقم العقد. ولم يكن صلاح الدين قد ذهب إلى غبزة بعد لتسجيل كنيته. عندما ذهب بعد ستة أشهر قال إنه تشاجر مع موظف النفوس: فهمتُ أن الموظف سخر منه حين قدّم الأوراق المدون عليها الكنية مباهياً، وقرفت، وارتجفت عندما فكرت بأن هذه الكنية ستكتب على شاهدة قبري. في الصيف الذي جاء بعد الشتاء الذي جاء فيه اليهودي لأخذ خاتمي ذي الوردة الماسية أعطيت ضوغاني لؤلؤاتي الزهرية دون علم أبيه لأنه بدأ يذرع البيت حزيناً، وطلبتُ منه أن يبيعها ويلهو في اسطنبول، لم يلهُ. إثر هذا، ذهب إلى القرية وجلب ابنيّ الحرام اللذين ماتت أمهما، وأسكنهما في بيتنا.

"بماذا تفكرين يا جدة؟ بهما أيضاً؟"

عند المجيء التالي لليهودي فهم صلاح الدين أن الصندوق يفرغ: بينما كان يأخذ شكلة الهلال والنجم الياقوتية، قال إن موسوعته على وشك أن تنجز. وكان يقضي يومه كله سكران، ولا يخرج من غرفتي. وأعرف أن شكلتي، وشكلة الصدر المنتفخة ذهبتا بنصف ثمنهما بعد سنة لأنه سكران. ولكنه لم يخفّض النقود التي يصرفها على الكتب إلى النصف. عندما دعا صلاح الدين المستسلم تماماً للشيطان اليهودي المسن مرة أخرى كانت الحرب قد اندلعت مرة أخرى. بعد ذلك جاء اليهودي مرتين. في المرة الأولى أعطيته الشكلة ذات الهلال والنجم، وفي المرة الثانية الشكلة الماسية "وهذه أيضاً تمشي ياهوووه". وبهذا باع صلاح

الدين حظّه بيده. وبعد وقت قليل، بعد ذلك الكشف العظيم الذي لا يصدق بحسب قوله، مات وهو يفكر بدعوة اليهودي. عندما أخذ ضوغاني المسكين البريء خاتميّ اللذين لكل منهما حجر ماسي ليعطيهما لابنيّ الحرام اللذين أعادهما كان الصندوق في نهايته، وبقي خاوياً تماماً. والآن أفكر بأنه يقبع خاوياً تماماً في الخزانة.

"بماذا تفكرين يا جدة؟ اخبريني!"

قلت لا مبالية: "لا شيء، لا أفكر بشيء!"

-١٢-

العودة إلى البيت مساء بعد التجول طوال النهار تشبه العودة إلى المدرسة بعد العطلة الصيفية. جلست في المقهى حتى أُغلق. وبينما كان كل شخص يعود إلى بيته، فكرتُ مرات ومرات بإمكانية ظهور من يقوم بعمل ما، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً سوى قول: "ابن آوى، ابن آوى" ولا أدري عدد المرات التي قالوها.

"هيا يا ابني حسن. دع عنك عمل ابن آوى، واذهب إلى بيتك، وادرس الرياضيات".

أنا ذاهب، أصعد الطريق، لا أبالي بأحد لأنني أحب الظلام: ظلامٌ صامت. هنالك الجداجد التي تصرُّ فقط. كنت استمع إليها، وأرى مستقبلي وسط الظلام: سفرات إلى دول بعيدة، حروب دموية، قرقعة رشاشات المتراليوز، نشوة الحرب، الأفلام التاريخية التي يجدّف فيها العبيد الأسرى، والسياط التي تُسكت الضجيج المقرف لمرتكبي المحرمات، الجيوش النظامية، المصانع، العاهرات: خجلتُ، وخفت من نفسي. سأكون رجلاً عظيماً. انتهى الطريق الصاعد.

بعد ذلك، شعرت بحرقة في قلبي: أضواء بيتنا! توقفتُ، ونظرت: بيتنا كقبر ينار فيه مصباح. ليس ثمة حركة على النوافذ. اندسست،

ونظرت: أمي غير موجودة. لابد أن أبي أيضاً تمدد على المقعد الخشبي المطاول، ونام. إنه ينتظرني. لينتظرني. أنا أدخل من نافذة غرفتي، وأنام. ذهبتُ، ونظرتُ: أغلقت نافذتي. حسنٌ! ذهبت، وقرعت على النافذة الأخرى بقوة. استيقظ أبي. جاء، وفتح النافذة بدل أن يفتح الباب.

قال صارخاً: "أين كنت؟"

لم أقل شيئاً. أنا أسمع الجداجد. صمتنا قليلاً.

قال أبي: "هيا ادخل، لا تقف هناك".

دخلتُ من النافذة. وقف أمامي ينظر إلي نظرة أب. بعد ذلك بدأ من جديد. يا ابني، يا ابني! لماذا لا تدرس؟ يا ابني، يا ابني! ماذا تفعل في الشوارع طوال اليوم؟ فجأة، فكرتُ على النحو التالي. ما العمل مع هذا الرجل الباكي يا أمي؟ لأذهب إلى أمي وأوقظها، لأغادر معها بيت هذا الرجل. فكرت بالضيق عندما شعرت بمقدار الحزن الذي أسببه لأبي. نعم، أنا أيضاً مذنب. تجولتُ طوال اليوم في الأزقة. ولكن لا تقلق يا أبي. انظر كيف سأدرس غداً. لن يصدقني إذا قلتُ له هذا. في النهاية صمتٌ، ونظر إليّ باكياً وغاضباً. ذهبت إلى غرفتي فوراً. جلست في غرفتي. انظر إليّ يا أبي، وشاهدني وأنا أدرس الرياضيات، لا تحزن يا أبي. أغلقتُ الباب أيضاً. مصباح غرفتي منار كي ينبعث الضوء من تحت الباب، ويراه، وهذا يعني أنني أدرس. بقي يحدّث نفسه حتى ذلك الوقت.

انشغل بالي عندما انقطع صوت أبي بعد قليل. فتحتُ البابَ بهدوء. غير موجود: يبدو أنه نام. يريدانني أن أدرس وهما يغطّان في

نوم هانئ. حسنٌ، لأدرس إذن طالما أن شهادة الثانوية شيء هام، لأدرس طوال الليل دون أن أنام. لأدرس صباحاً حتى أُحزن أمي. شاهدا هذا. ولكنني أعرف بأن هنالك أموراً في الحياة أهم بكثير. سأشرح لكما إن أردتم. هل تعرفين الشيوعيين والمسيحيين والصهاينة يا أمي؟ هل تعرفين الماسونيين الذين يتسللون إلى ما بيننا؟ هل تعرفين ما قاله كارتر والبابا لبرجنيف؟ لو شرحتُ هذا لما استمعا. ولو استمعا لما فهما... قلتُ: المهم، لأدرس الرياضيات قبل أن يخرب عقلي.

فتحت الكتاب. رسبتُ في مادة اللوغاريتمات. ليبعث الله لها البلاء. نعم، نكتبها Log، ونقول. alog (A.B) = alog A + alog B هذا أول شيء، وهنالك أشياء أخرى يسميها الكتاب نظرية. بداية، نقلتها بشكل جيد على دفتري. بعد ذلك، سُررت بكتابتها على نحو نظيف. كتبت أربع صفحات. أنا أعرف كيف تكون الدراسة. هذا يعني أن التي يسمونها اللوغاريتمات كلها هي هذه. قلت، لأحلّ مسألة الآن. يقول: استخرج لوغاريتم هذا: $\log \sqrt[6]{\frac{x-b}{ax-c}}$

حسنٌ، لآخذه. نظرت. بعد ذلك، قرأت ما كتبته على دفتري. مر وقت طويل ولم يخطر ببالي أبداً ما أقسّم وعلى ماذا، وما سأختزل وبماذا. قرأتها مرة أخرى. كدت أحفظها كلها. كيف حلّوا الأمثلة؟ انظروا إليها أيضاً، ولكن ذلك الشيء القبيح لم يوحِ إلي بشيء. توترت أعصابي كثيراً. نهضت. لو وجدت سيجارة لدخنتُ الآن. بعد ذلك، جلست، وتناولت القلم، وحاولت أن أحلّ التمرين. ولكن يدي لم تفعل شيئاً سوى أنها شخبطت خطوطاً. بعد قليل انظري يا نيلفون إلى ما كتبته على طرف دفتري:

لـسـتُ إلـيـكِ مـــــــــــــــــــــــائـلاً

أنـتِ جـــــــعـلـتِ عــــــــقـلـي زائـلاً

بعـد ذلك، درست قليـلاً، ولكن لم يفـد شيـئاً. بعـد ذلك، عندمـا فكرت أكثـر خطر ببالي الأمر التـالي: بماذا تـفيـد معـرفة العلاقـات بين اللوغـاريتـمـات والجذور كلهـا؟ لنفـتـرض أنني صرت في يوم ما غنيـاً، ومـشـرفـاً على أمـور الدولة إلى حـد أنني لا أسـتطيـع حـسـابـهـا دون استـخدام اللوغـاريتمات والجدور التربـيعـيـة: هل سأكـون عندئذ مخبولاً إلى حد أنـني لا أعرف كيف أسـتأجر شقـفة كاتب يعـمل هذه الحسابات لأجلي؟

رفعتُ الرياضيات جانباً، وفتحت اللغة الإنكليزية، ولكنني عقلي قد خـرب. قلت لنفـسي: ليـبـعـث الله البـلاء Mr. and Mrs. Brawn أيضـاً. الصـور نفسـهـا، ووجوه بـاردة وسعـيـدة لأناس يعرفـون كل شيء، ويفـعلون كل شيء بشكل صـحـيح. هؤلاء انـكليـز، لهـم سـتـرات مكوية وربطات عنق، وشـوارعـهم بمنتـهى النظافة. وبيـنمـا يجلس أحدهم، وينهض الآخر، يضـعـون علبـة ثقـاب لا تشـبـه علبنا فـوق الطاولة، وتحـتـهـا، وداخلهـا، وبجانبها: under, in, on وأنا مضطر لحفظ هذه الترهات وإلا سيلطم نفسه بائع اليـانصـيب المسـتـغـرق في نومـه في الداخل قـائلاً: ابني لا يدرس. غطيـتـهـا، ونظرت إلى السـقف، وحـفظتـهـا، وحـفظتـهـا، وحين توترت أعـصـابي بعـد ذلك، رميت الكتـاب عـلى الأرض. اللعـنة! نهـضتُ عن الطاولة. خرجت من النافـذة. أنا لست ذلك الإنسـان الذي يكتـفي بهـذه الأمـور. حين نظرت من زاوية الحـديقـة إلى البـحـر المظلم، وإلى منارة

الجزيرة ذات الرغوة التي تُنار وتطفأ وحدها في الظلام، ارتحت قليلاً. أُطفئت أنوار الحي السفلي كلها. ليس هنالك سوى أضواء الشارع، وأضواء مصنع الزجاج الذي يهدر بصوت عميق. بعد ذلك، ثمة ضوء أحمر لسفينة صامتة. تفوح رائحة العشب الجاف من الحديقة. ثمة رائحة تراب وصيف غير واضحة في الحديقة الصامتة: ثمة صراصير صافرة فقط. صراصير وقحة تذكّر بوجود بساتين الكرز في التلال البعيدة والزوايا المعتمة والكروم وبساتين الزيتون وبرودة ما تحت الأشجار في الظلمة. حين أصغيت بانتباه بعد ذلك، اعتقدتُ بأنني سمعت الضفادع في الماء الطيني المجاور لطريق (يلكان قايا). سافعل الكثير في الحياة! فكرت بما سأفعله: الحروب، والانتصارات، ومخاوف الهزيمة، والأمل، والنجاح، والمساكين الذين سأبدي لهم الشفقة، والآخرون الذين سأنقذهم، والطريق الذي سأنتهجه في هذا العالم الظالم. أضواء الحي السفلي مطفأة: كلهم ينامون. ينامون جميعاً. إنهم يرون أحلاماً غبية ومسكينة لا معنى لها. ويوجد هنا من هو أكثر يقظة منهم جميعاً، وهو أنا. أنا أحب العيش كثيراً، وأكره التمدد والنوم: ثمة الكثير مما يجب عمله: فكرتُ.

بعد ذلك، دَخلتُ من النافذة. تمددت على السرير دون أن أخلع ردائي لإدراكي أنني لن أستطيع الدراسة. سأنهض صباحاً، وأدرس. فكرت بأن الأيام العشرة الأخيرة تكفي للرياضيات واللغة الإنكليزية. عندما تبدأ الطيور بالزقزقة على الأغصان تذهبين إلى شاطئ السباحة براحة يا نيلفون، لأن أحداً لن يكون هناك. وأنا أيضاً سأذهب. من يمكنه

أن يتدخل؟ بدايةً اعتقدت بانني سأصاب بأرق، وأن قلبي سيخنقني مرة أخرى. بعد ذلك، فهمت أنني سأنام.

عندما استيقظتُ كانت الشمس قد سقطت على ذراعي وكان قميصي وبنطالي مبللان بالعرق. نهضت بسرعة، ونظرت: لم ينهض أبي وأمي بعد. ذهبت إلى المطبخ. كنت أتناول خبزاً وجبناً، فجاءت أمي.

"أين كنت؟"

"أين سأكون؟ هنا. ودرست طوال الليل".

قالت: "هل أنت جائع؟ لأحضّر لك شاياً، هل تريد يا ابني؟"

قلت: "لا. أنا ذاهب الآن أصلاً".

"إلى أين تذهب في الصباح الباكر، ودون أن تشبع من النوم؟"

قلت: "سأتجول قليلاً. سيتفتح ذهني. بعد ذلك، أعود إلى المذاكرة من جديد" لحظة خروجي، نظرت، وإذ بها قد بدأت تبدي شفقة نحوي، فقلت: "آآآ... أمي، ألا تعطيني خمسين ليرة؟"

نظرت مترددة قليلاً. بعد ذلك، قالت: "آه، ماذا سنفعل بالنقود؟ حسنٌ، حسن، لا تخبر أباك".

ذهبتْ إلى الغرفة الداخلية، وعادت: قطعتان من فئة العشرين، وقطعة من فئة العشرة. شكرتها، وذهبت إلى غرفتي. ارتديت لباس السباحة تحت بنطالي، وخرجت من النافذة كي لا يستيقظ أبي نتيجة الضجيج. بعد ذلك، التفت، ونظرت، فوجدت أمي تنظر إلي من طرف النافذة الأخرى. لا تقلقي يا أمي، أنا أعرف ما سأكونه في الحياة.

مشيت على الإسفلت منحدراً. كانت تمر بجانبي سيارات مسرعة صاعدة نحو الأعلى. الأشخاص الذين يربطون ربطات عنق، ويعلقون ستراتهم إلى جنب لا يرونني وهم ذاهبون إلى إسطنبول بسرعة ١٠٠ كم في الساعة من أجل حياكة الأحابيل، وخوزقة أحدهم الآخر. وأنا أيضاً لا أهتم بكم أيها السادة ذوي ربطات العنق والقرون.

ليس ثمة أحد في شاطئ السباحة بعد. دخلتُ دون دفع نقود لأن قاطع التذاكر والحارس لم يأتيا بعد. ولكي لا يملأ الرمل حذائي المطاطي مشيت بانتباه إلى الصخور حيث ينتهي شاطئ السباحة، ويبدأ جدار أحد البيوت، وجلست القرفصاء عند زاوية جدار لا تسقط عليها أشعة الشمس. يمكنني أن أرى نيلفون من هنا عندما تدخل من الباب. أنظر إلى قعر البحر الهادئ. تتأرجح أسماك الليبروس بين الطحالب، وتهرب البوري اليقظة من أقل لمسة. أمسكتُ بأنفاسي.

بعد وقت طويل، ارتدى أحدهم قناعَ ونعلي غوص، وجهز بندقيته في الماء، وبدأ يلاحق أسماك البوري. تتور أعصابي من ملاحقة هؤلاء الأشخاص للبوري! بعد ذلك، هدأ الماء من جديد، ورأيت البوري وأسماك الصخور، ثم سقطت أشعة الشمس فوقي.

عندما كنا صغاراً، ولم يكن هنا غير بيتهم القديم العجيب وبيتنا الذي فوق التلة، كنا نأتي إلى هنا - متين ونيلفون وأنا - وأدخل في الماء حتى منتصف ركبتي، وننتظر أسماك الليبروس والبليمينوس. ولكن سمك الصخور أيضاً كان يأتي، ويقول متين: ارمه. ولكنني لا أضحي به

لأنه أكل الطعم، وأضعه في صندوقي، وعندما أملأ الصندوق بالماء يسخر متين مني. كنتُ أقول: أنا لستُ بخيلاً يا ابني، ولعل نيلفون سمعتني. أنا لست بخيلاً، ولكنني سأحاسب سمك الصخور هذا على الطعم. متين يخبئ سمك الصخور، ويربط برأس صنارته برغياً، وليس قطعة رصاص. انظري يا نيلفون كم هو بخيل! كانت نيلفون تقول: ارميا هذه الأسماك في البحر، ارحماها، ألا يمكن هذا؟ من الصعب إقامة صداقة معهما، أعرف هذا. يُحضَّرُ حساء من سمك الصخور هذا، ويوضع فيه بصل وبطاطا.

بعد ذلك، رأيت سرطاناً. السرطانات سارحة ومفكرة لأنها دائماً تنهمك بشيء ما. لماذا تحرك قائمتيها وملاقطها هكذا؟ كأن السرطانات تعرف أكثر مني بكثير: إنها عجائز مخبولات منذ الولادة. حتى إن فراخ تلك السرطانات البيضاء البطون والطرية عجائز.

تحرّك سطح الماء إثر ذلك، ولم يعد يُرى القعر. وتعكر تماماً عندما بدأ الزحام بدخول البحر والخروج منه. رأيتها حينْ ألقيت نظرة نحو الباب: دخلت نيلفون وأنتِ تحملين حقيبة بيدك، وجئتِ إلى هذا الطرف من شاطئ السباحة، ومشيت نحوي.

تقدمت، وتقدمت، وتوقفت فجأة. خلعت الثوب الأصفر الذي ترتديه. وبينما كنت أخمن إن لون لباس سباحتها أزرق، لفّت حولها منشفة، وتمددت. بعد ذلك، أخرجتْ من حقيبتها كتاباً، وبدأت تقرأ. أستطيع رؤية يدها التي ترفع الكتاب، ورأسها. فكرتُ.

تعرقتُ. مر زمن طويل. بقيتْ تقرأ. رشقتُ وجهي بالماء كي أبرّده. مر زمن أطول، وبقيتْ تقرأ.

تخيلت فيما لو ذهبتُ إليها سأقول: مرحباً. أنا أتيت كي أسبح. كيف حالك؟ فكرت باحتمال أن تغضب. لسبب ما خطر ببالي أنها أكبر مني بسنة. سأذهب فيما بعد. في وقت آخر.

نهضت نيلفون بعد ذلك. مشت إلى البحر، فكّرت بجمالها. قفزت فجأة، وبدأت تسبح. تسبح بشكل مستقيم. تذهب إلى العمق دون التفكير بأن أغراضها بقيت على الشاطئ. لا تهتمي يا نيلفون، أنا أحرس تلك الأغراض. يمكن لأحد لو شاء أن يذهب إلى أغراضها، ويعبث بها، ولكنني أحرسها، فلن يحدث شيء لها.

نهضتُ بعد ذلك، وذهبت إلى حيث أغراض نيلفون. ليس ثمة من ينظر. نيلفون أساساً صديقتي. انحنيت، ونظرت إلى غلاف الكتاب الموضوع على الحقيبة. ثمة قبر مسيحي، وعجوزان يبكيان فوقه. مكتوب: "الآباء والأبناء". الثوب الأصفر تحت الكتاب. لنر ما يوجد في حقيبتها؟ بسبب فضولي فقط، وكي لا يمر أحد ويفهمني خطأ، عبثت بها بسرعة: علبة كريم، ثقاب، مفتاحُ سَخَنَ تحت الشمس، كتاب آخر، محفظة، حبسات شعر، مشط أخضر صغير، نظارة سوداء، منشفة، علبة سجائر من نوع (صامصون)، زجاجة أخرى صغيرة. نظرت، مازالت نيلفون تسبح. كنت أترك كل شيء كما كان كي لا يُفهم الأمر خطأ. فجأة أخذت ذلك المشط الأخضر الصغير، ووضعته في جيبي. لم يرني أحد.

عدتُ إلى الصخور، وانتظرت. بعد ذلك، خرجتْ نيلفون من البحر، ومشت بسرعة. التفّت بمنشفة. كأنها ليست تلك الفتاة الذكية التي تكبرني بسنة، بل فتاة صغيرة. بعدئذ نشّفت نفسها. عبثتْ في حقيبتها قليلاً، وبحثت، ثم ارتدت ثوبها الأصفر فجأة، وذهبت مسرعة.

دهشتُ للحظة، واعتقدت بأنها تهرب مني. بعدئذ، ركضت، ونظرت إليها من الخلف. إنها ذاهبة إلى البيت. انعطفتُ راكضاً لألاقيها عن طريق مختصر، ودهشت، لأنها صارت خلفي، وبدت هي التي تلاحقني هذه المرة. انعطفتُ نحو اليمين من أمام دكان البقال، واختبأتُ خلف السيارة. وبينما كنت أربط حذائي: دخلت إلى البقالية.

عبرتُ الطريق إلى الطرف الآخر. وهكذا سنبدو أننا تقابلنا في طريق عودة كل منا إلى بيته. خطر ببالي: أخرجه من جيبي، وأعطيها إياه، وأقول: هل هذا المشط لك يا نيلفون؟ تقول: نعم، أين وجدته؟ أقول لابد أنك أسقطته. تقول: كيف عرفت أنه لي؟ لا، لا أقول هذا. اقول: أسقطته في الطريق، ورأيتك عندما أسقطته. كنتُ انتظر تحت الشجرة، وتعرّقت كثيراً.

بعد قليل، خرجتْ من البقال، وجاءت نحوي. حسنٌ، وأنا أيضاً أسيرُ إلى البقال. لم أنظر إلى وجهها بل أمامي، إلى حذائي المطاطي الذي ربطته قبل قليل، ورفعت رأسي فجأة.

قلت: "مرحباً" وفكرت بأنها جميلة جداً.

قالت: "مرحباً" ولم تضحك أبداً.

أنا توقفت، ولكنها لم تتوقف.

قلت: "هل أنتِ ذاهبة إلى البيت يا نيلفون؟" وخرج صوتي غريباً.

قالت: "نعم". ومشتْ دون أن تضيف شيئاً آخر.

هتفت من خلفها قائلاً: "مع السلامة" بعد ذلك، هتفت: "سلمي على عمي رجب".

خجلتُ. لم تلتفتْ، وتقول: حسناً. وقفتُ هناك، ونظرت خلفها. لماذا فعلت هذا؟ فكرتُ بأنها يمكن أن تكون قد فهمت كل شيء، ولكن ما الذي يحتاج إلى فهم؟ ألا يسلم الإنسان على صديق طفولته إذا قابله في الطريق؟ غريب! مشيت مستغرقاً بالتفكير. وكما يقال: غدا الناس مختلفين، وصاروا لا يمنحون حتى التحية. بعد ذلك، فكرتُ بالخمسين ليرة التي في جيبي، وبأن نيلفون قد وصلت إلى بيتها: بماذا تفكر؟ قلتُ لأتصل بها، وأخبرها بكل شيء. لتسلم عليّ كما كانت تفعل في الماضي، لا أريد شيئاً آخر منك. مشيت وأنا أفكر بما سأتكلم به عبر الهاتف. أقول لها: إنني أحبّك، ماذا يوجد؟ فكرتُ بأمور أخرى أيضاً. ثمة أناس مقرفون في الشوارع ذاهبون إلى شاطئ السباحة. كم العالم ملخبط...

دخلتُ إلى مركز البريد والهاتف، وأخذتُ الدليل، ونظرت فيه. كتبوا: أسرة صلاح الدين داروين أوغلو: "جن - شارع الساحل. رقم ١٢" كتبته على ورقة كي لا أنساه. دفعت عشر ليرات، واشتريتُ قطعة معدنية للتحدث بالهاتف. دخلتُ كابينة الهاتف، ودورت القرص، ولكنني عندما وصلت إلى الرقم الأخير، دورت الرقم تسعة

مكان الرقم سبعة. لم أغلق السماعة أيضاً. رنّ الرقم الخاطئ. لم أغلق الخط، فسقطت القطعة المعدنية في الصندوق مصدرة صوتاً قوياً، وفُتح الخط.

قال صوت امرأة مجهولة: "ألو!"

قلتُ: "ألو، مع من أتكلم؟"

قالت: "بيت السيد فرهات. من أنتم؟"

قلت: "صديق! أريد أن أتحدث إليه قليلاً".

قال الصوت بفضول: "تفضل! حول ماذا ؟"

قلت: "حول موضوع مهم". وفكرتُ بما أقوله. ذهبت عشر ليراتي.

كانت تقول هي: "من أنتم؟"

قلت: "سأخبر السيد فرهات. هاتِ زوجك أنت!"

قالت: "فرهات؟ من أنتم؟"

قلت: "نعم. أعطني إياه أنتِ!" نظرتُ من زجاج الكابينة. كان الموظف مشغولاً: يعطي أحدهم طابعاً.

مازالت تقول: "من أنتم؟"

قلتُ: "أنا أحبكِ. أنا أحبكِ".

"ماذا ؟ من أنتم؟"

"يا قحبة المجتمع الراقي! الشيوعيون يسيطرون على البلد، وأنتن مازلتن أشباه عراة. يا عاهرات، أنا..."

أغلقتْ الهاتف. وأنا أيضاً أغلقتُ بهدوء. نظرتُ وإذ بالموظف يعيد النقود التي دُفعت ثمن الطابع. خرجتُ بهدوء. لم يُلْقِ إلي حتى مجرد

نظرة. لن أهتم لإضاعتي الليرات العشر. خرجت من مركز البريد، ومشيتُ، وفكرت. لدي أربعون ليرة أخرى. إذا كان الإنسان يمكن أن يلهو إلى هذا الحد بعشر ليرات، يمكنه أن يلهو أربعة أضعاف هذا بأربعين ليرة. يسمون هذا رياضيات. ولأنهم قرروا أنني لا أفهمها، يجعلونني أنتظر سنة. حسنٌ أيها السادة. أنا أعرف الانتظار، في النهاية أنتم ستندمون.

-١٣-

عـادت الآنسة نيلفـون من شاطئ السباحة، وكان السيد فاروق ينتظرها. جلسا إلى الطعام، وقدمتُ لهما إفطارهما. هي تقرأ الجريدة، والآخر يتناوم. تناولا طعامهما وهما يتحدثان، ويتضاحكان. بعد ذلك، أخذ السيد فاروق حقيبته الضخمة، وذهب إلى الأرشيف في غبزة، وانزوت نيلفون عند الخمّ، وبدأت تقرأ. صعدت إلى الأعلى قبل أن أجمع مائدة الإفطار. نقرتُ باب السيدة الكبيرة، ودخلت:

قلت: "أنا ذاهب إلى السوق أيتها السيدة الكبيرة. هل تريدين شيئاً؟"

قالت: "السوق؟ وهل يوجد هنا سوق؟"

قلت: "أنا فتحتُ دكاكينَ قبل سنوات طويلة، كما تعلمين. ماذا تريدين؟"

قالت: "لا أريد شيئاً منها".

"ماذا سنقدّم ظهراً؟"

قالت: "لا أعرف. جهّز شيئاً يؤكل!"

نزلت إلى الأسفل، وخلعتُ صدارتي. أخذتُ شبكة التسوق والزجاجات الفارغة والفلينات، وكنتُ ذاهباً. لا تقولُ ما هو الشيء الذي

يؤكل، وإنما ما ليس هو. قديماً كان عليّ أن أفكر، وأجد ما يجب تحضيره. ولكن أربعين عاماً مضت، صرتُ أعرفُ ما تأكل! ارتفعت حرارة الجو. أنا أتعرّق. بدأ الزحام في الأزقة، ولكن ما زال هنالك من يريد اللحاق بعمله في اسطنبول.

صعدت الطريق. قَلَّتِ البيوت، وبدأت أشجار الكرز والبساتين. مازالت الطيور على الشجر. أنا مستمتع، ولكنني لم أطل الطريق. دخلتُ الطريق الترابي. بعد قليل، رأيتُ بيتهم وهوائي تلفازهم على السطح.

زوجة (نوزات) والخالة (جنة) تحلبان البقرة.

ممتعة الفرجة في الشتاء والبخار يتصاعد. وها هو نوزات أيضاً هناك. ينحني على دراجته النارية المسنودة إلى الجدار الآخر للبيت.

قلتُ: "مرحباً".

قال: "مرحباً" ولكنه لم يلتفت، وينظر. أدخل إصبعه في مكان ما من الدراجة، وعبث بشيء ما.

صمتنا قليلاً. بعد ذلك، قلت لمجرد الكلام: "هل خربت؟"

قال: لا يا عزيزي. وهل تخرب هذه؟"

يباهي بدراجته وصخبها المقلق للحي كله. اشتراها قبل سنتين بالنقود التي كسبها من عمل البستنة والحليب. صباحاً يوزع الحليب عليها. كنت أقول له: لا تجلب لنا الحليب بل أنا آتي وآخذ، ونتحدث.

"جلبتَ زجاجتين؟"

قلت. نعم. جاءت أسرة السيد فاروق أيضاً."

"حسن، ضعها هناك!"

"وضعتها. جلب القمع والمكيال من الداخل. بدأ يملأ المكيال، ثم الزجاجة.

قال: "أنت لا تأتي إلى المقهى منذ يومين".

لم أجب.

قال: "هاه.. لا تهتم لأولئك الوقحين. إنهم عديمو تربية".

بعد ذلك، قال: "هل ما كتبته الجريدة صحيح؟ هل يوجد بين أقزام؟"

قرأ الجميع الجريدة.

قال: "وأنت غضبت فوراً، وذهبت. وهل يُغضب من أولئك الوقحين؟ إلى أين ذهبت؟"

"إلى السينما".

قال: "ماذا كان هناك؟ احكِ لي عنه!"

حكيت: حين انتهيت، كان قد ملأ الزجاجات كلها، وبدأ يغلقها بالفلين.

قال: "لا يوجد فلين. ارتفع ثمنه. صاروا يضعون سدادات بلاستيكية للنبيذ الرديء. وأنا أقول: لا تضيعوا الفلينات! إذا ضيعتموها تدفعون عشر ليرات. أنا لست صاحب شركة (بنار) للحليب. إذا كان هذا لا يناسبكم فاسقوا أولادكم حليباً معالجاً.

دائماً يقول هذا. كنتُ سأخرج من جيبي الفلينات التي أعطاني إياها السيد فاروق، تراجعتُ فجأة لسبب لا أعلمه. ولأفرحه فقط، قلت له: ارتفع ثمن كل شيء.

قال: "نعم" وهو يملأ الزجاجات، وانفعل. ذكر الغلاء والماضي الحَسَنَ والأوقات الجميلة. تضايقتُ، فلم أُصغِ له. بعد أن ملأ الزجاجات كلها، وركّزها في الصندوق، قال: "سأوزع هذه. لأوصلك إلى البيت إن أردت". ضغط على ذراع الدراجة، وشغّلها مصدرة الضجيج. صرخ قائلاً: "هيا".

قلت له: "لا، سأمشي".

قال: "حسنٌ" وانطلق بدراجته ذاهباً.

نظرت إلى الغبار الذي أججه خلفه حتى وصل إلى الإسفلت. كنت أسير حاملاً زجاجتي الحليب. بعد قليل، التفت خلفي. ما زالت زوجة نوزات والخالة جنة تحلبان. كانت أمي تقول إن الخالة جنة شهدت الوباء، وتحكي عن أيام الوباء، وأخاف. انتهت البساتين والجداجد. انتهت البيوت. أمكنة لم تتغير على مدى سنوات. بعدئذ بدؤوا يأتون للصيد في أيلول. كانوا يأتون مع كلابهم السمينة والغضوبة المنطلقة من سياراتهم بجنون. ولا يقترب منهم الأولاد، ويطلقون النار! ثمة سحلية عند أسفل شقّ جدار! هربت. ذات مرة قال السيد صلاح الدين: بالنسبة إلى ماذا ترخي السحليات ديولاً، بحسب أي مبدأ؟ صمت، ونظرتُ خائفاً: أب منهار. قال: قف لأكتبها لك على ورقة. وكتب: تشارلز داروين. وأعطانيها، ومازلت أحتفظ بها. في أيامه الأخيرة أعطاني ورقة أخرى: هذه قائمة ما هو زائد وما هو ناقص لدينا يا ابني. أنا أترك لك هذه يا ابني لعلك تدرك في يوم ما. أخذتُ الورقة ونظرت: كتابة قديمة. كانت عيناه دامعتين نتيجة المشروب. قضى يومه كله في غرفته يعمل في موسوعته. كان يشرب مساء، بعد ذلك، صار يُفرط في المشروب مرة في الأسبوع، ويُصبح مسعوراً. وكان يتجوّل سكران عدة

أيام في الحديقة أو في غرفته وعلى ساحل البحر حتى يخمد نائماً. في تلك الأيام، كانت السيدة الكبيرة تُغلق على نفسها غرفتها، ولا تخرج أبداً. ذهبتُ إلى البلدة. ثمة زحام. ليس ثمة امرأة جميلة سمراء.

قال محمود: "عليك أن تنتظر قليلاً يا رجب".

أتعبتني الزجاجتين، وأراحني الجلوس. بعد ذلك، عندما أجده حيث يخمد نائماً، أوقظه متوجساً كي لا تراه السيدة الكبيرة، وتبدأ من جديد، ولكي لا يبقى في البرد. كنت أقول: لماذا تنامون هنا؟ المطر قادم، ستبردون. اذهبوا إلى البيت، وناموا في غرفتكم. كان يشخر، ويحدّث نفسه، ويشتم بصوته العجوز: بلد ملعون! بلد ملعون! كل شيء دون جدوى. لو استطعتُ إنهاء هذه المجلدات، ولو أرسلتُ هذه الاستبانة منذ وقت طويل على الأقل .. كم الساعة؟ الأمة كلها تنام. الشرق كله ينام. لا، ليس دون جدوى، ولكن لا طاقة لي. لو كانت لدي امرأة كما أريد.. متى ماتت أمك يا ابني رجب؟ بعد ذلك، ينهض، ويتأبط ذراعي، وآخذه. يتمتم في الطريق. متى سيستيقظون بحسب اعتقادك؟ المخبولون ينامون بطمأنينة الحمقى الكاذبة. إنهم ينامون بفرح بدائي بالايمان المناسب للحكايات البدائية والسفسطائية التي في عقولهم. سأتناول الهراوة وأوقظهم بالضرب على رؤوسهم! أيها المخبولون. اخرجوا من هذا الكذب، استيقظوا، وافتحوا عيونكم! بعد ذلك، ونحن نصعد إلى الأعلى مستنداً إليّ، يفتح باب السيدة الكبيرة بهدوء من الداخل، وتظهر عينان فضوليتان في شبه الظلام، وتشمئزان، ثم تغيبان. حينئذ كان يقول: آه من هذه المرأة الحمقاء. امرأة حمقاء جبانة مسكينة. قرفتُ منكِ، مدني على سريري يا رجب. ولتكن قهوتي جاهزة عندما توقظني.

أريد أن أبدأ العمل فوراً. يجب أن أستعجل. فيروا الأبجدية. انقلب مخطط موسوعتي رأساً على عقب. خمسة عشر عاماً ولم توضع أمور الموسوعة في نصابها. بعد ذلك، ينام وهو يكلّم نفسه. أنظر إليه كيف ينام، وأخرج من الغرفة صامتاً.

شردتُ. انتبهتُ إلى نفسي. ابن إحدى النساء ينظر إليّ كأنه مسحور. شعرتُ بضيق. قلت: لأفكر بأمور أخرى. ولكنني لم أحتمل. نهضتُ، وأخذتُ زجاجتيّ.

"سآتي فيما بعد".

خرجت. كنت ذاهباً إلى البقال. فضول الولد لا يُحتمل. في طفولتي كنت فضولياً نحو نفسي أيضاً. كنت أعتقد أن سبب هذا هو أن أمي ولدت ولداً دون أن تتزوج. ولكن هذا صار فيما بعد، أي بعد أن قالت لي أمي بأن أبي ليس أباً.

قال أحدهم: "يا عم رجب! ألم ترني؟"

إنه حسن، قلت: "والله لم أرك. شردتُ. ما عملك أنت هنا؟"

قال: "لا شيء".

قلت: "هيا اذهب إلى بيتك، وادرس دروسك. ما عملك أنت في هذه الأماكن؟ هذه الأماكن لا تناسبك".

"لماذا لا تناسبني؟"

قلت: "لا تفهم الأمر بشكل خاطئ يا صغيري. أقول لك هذا كي تدرس دروسك".

قال: "لا أستطيع الدراسة صباحاً يا عمي. الجو حار جداً. أنا أدرسُ مساءً".

قلت: "ادرس صباحاً ومساءً أيضاً. تريد أن تدرس، أليس كذلك؟"

قال: "طبعاً. الدراسةُ ليست صعبة كما تعتقد. أنا أيضاً دارس جيد".

قلت: "إن شاء الله. هيا اذهب الآن إلى بيتك".

قال: "هل جاءت أسرة السيد فاروق. رأيت سيارة الأناضول البيضاء. كيف حالهم؟ هل أتت نيلفون، وهل أتى متين؟"

قلت: "جاؤوا، وهم جيدون؟"

قال: "سلّم لي على نيلفون ومتين. رأيتها قبل قليل. كنا أصدقاء قديماً".

قلت: "سأسلّم. هيا اذهب أنت إلى بيتك!"

قال: "أنا ذاهب الآن. ولكنني سأطلبُ منك شيئاً يا عم رجب. أيمكنك أن تعطيني خمسين ليرة؟ سأشتري دفتراً. الدفاتر غالية جداً.

قلت: "هل تدخّن؟"

"أقول: إن دفتري انتهى".

وضعتُ الزجاجتين على الأرض، وأخرجتُ عشرين ليرة، وأعطيته إياها.

قال: "هذه لا تكفي".

قلت: "هيا، هيا. سأغضب الآن هه.."

قال: "حسنٌ. ساشتري بها قلمَ رصاص، ماذا سأفعل؟" حين كان ذاهباً توقف، وقال: "لا تخبر أبي، ممكن؟ إنه يحزن للاشيء".

قلت: "ياا.. لا تُحزن أباك!"

ذهب. حملتُ زجاجتي، وذهبت إلى البقال نظمي. ليس ثمة أحد، ولكن نظمي مشغول. كان يكتب على دفتر. بعد ذلك التفتُ، وتحدثنا قليلاً.

سأل عنهم. قلت: إنهم جيدون. السيد فاروق؟ لماذا أقول إنه يشرب؟ فهو يعرف. كل مساء يأتي ويشتري زجاجات. والآخرون؟ كبروا أيضاً. قال: أنا أرى البنت. ما اسمها؟ نيلفون. تأتي صباحاً وتشتري جريدة. كبرتْ. نعم، كبرتْ. قلتُ: الآخر هو الذي كبر أساساً. نعم، إنه متين. رآه أيضاً، وحكى كيف وجده: هو هكذا. أحدنا يشرح للآخر أموراً نعرفها، وهذا يمتعني: أنا أعرف الكلمات والتعابير كلها، وأعرف أنها فارغة، ولكنني رغم هذا أُخدع، وأستمتع. وزن كل شيء ولفّه. قلت له: اكتبها على ورقة. سأنقلها على الدفتر فيما بعد، في نهاية الشهر، وكل شهرين أو ثلاثة في الشتاء أريه للسيد فاروق. أقول: ها هو الحساب يا سيد فاروق. هذا بهذا القدر، وهذا يساوي كذا. انظروا لعله يوجد خطأ في الحساب. لا ينظر. يقول: حسنٌ يا رجب، أشكرك. هذه نفقات البيت، وهذه شهريتك. ويمد لي نقوداً مجعلكة تفوح منها رائحة الجلد يخرجها من محفظته. آخذها، وأضعها في جيبي دون أن أعدّها. وأشكره، وأريد أن أتحدثَ عن أمورٍ أخرى فوراً.

كتب نظمي الحساب على ورقة، وأعطانيها. دفعت له. وبينما كنت خارجاً من الدكان قال: "ألا تذكر راسم ياه؟"

"راسم السمّاك؟"

"نعم. مات البارحة".

كان ينظر. لم أقل شيئاً. أخذتُ بقية نقودي، وشبكتي، وصرري. قال: "بسبب القلب. سيشيعه ابنه عندما يأتي الأولاد الآخرون". هكذا هي، وهذه هي كلماتنا وعباراتنا منذ القدم.

-١٤-

كانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف عندما وصلتُ إلى غبزة. غدت الشوارع حارة، ولم يبق أثر لبرودة الصباح. دخلتُ إلى القائمقامية فوراً. كتبت عريضة ووقعتها. حين رقّم الموظف ما كتبته دون أن يقرأه تخيلتُ مؤرخاً يأتي بعدي بثلاثمائة سنة، ويجد هذه العريضة بين الركام، ويحاول منحها معنى. التاريخ عمل مثابرة ومتعة.

عمل مثابر! ولكنني فكرتُ بأنه يحتاج إلى صبر. وهكذا سأباهي بصبري. وبدأتُ عملي بثقة. جذبتْ انتباهي مشاجرة بين صاحبي دكانين أدت إلى موتهما. أقرباء المتشاجرين تبادلوا الاتهامات في المحكمة. ويشرح الشهود بالتفصيل كيف طعن أحدهما الآخر بالسكين وسط السوق في ١٧ جمادى الأول ٩٩٨ . ولأنني جلبتُ هذا الصباح دليلَ تحويل التواريخ الهجرية إلى ميلادية فتحته. إنه ٢٤ آذار ١٥٩٠. هذا يعني أن الحادثة صادف وقوعها في الشتاء. في حين أن يوماً حاراً وملتهباً كان يتجلى أمام عيني وأنا أكتب عن الحادثة. لعله يوم آذاري مشمس. بعد ذلك، قرأت دعوى رفعها مشتري عبد أسود بستة آلاف أقتشة، وأراد ردّه لوجود جرح في رجله. ومن الواضح أن المشتري أملى غاضباً كيف خُدع بكلام البائع، وكم هو عميق جرح العبد. بعد ذلك،

قرأت ما كتب حول ملاّك أراض اكتسب قوة فيما بعد، وشغّل معه المركز. من مكان آخر من قيود المحكمة يُفهم أن الرجلَ نفسه كان يعمل قبل عشرين سنة في رصيف الميناء، وحوكم بتهمة الفساد. بذلت جهداً لمعرفة ما حاكه هذا الرجل المدعو (بوداق) في غبزة من خلال الفرامانات. كأنني أتابع أثره وليس أثر الوباء. في إحدى المرات، أنزل على الدفتر أرضاً غير موجودة باسمه، وبعد أن دفع ضريبة هذه الأرض من جيبه على مدى عامين، بدّلها بكرم. وفهمتُ غالباً كيف لَبَّسَ أصحاب الأرض غير الموجودة الجدد المقلب، وانسلَّ منه. أو أنني لفقتُ هذه القصة لبوداق لأن قيود المحكمة لم تثبت خطأها. صببت كمية كافية من العرق في سبيل تلفيق هذه القصة التي يبدو أن وقائع المحكمة تشير إلى صدقها. فرحتُ عندما رأيت قيوداً أخرى تثبت صحة قصتي. بدأ بوداق بإنتاج النبيذ من عنب الكرم الذي حصل عليه في حظيرة شخص آخر، وبدأ بتجارة الخمر. قرأتُ مستمتعاً هجومه الأعنف على عنف اتهامات بعض التجار الذين استخدمهم خلال المحاكمة. بعد ذلك، عرفتُ أنه أنشأ جامعاً صغيراً في غبزة. في أثناء ذلك، تذكرتُ أن مدرس التاريخ خصص عدة صفحات عن هذا الرجل والجامع في كتابه الذي يتحدث فيه عن مشاهير غبزة، ودهشت. بوداق الذي في عقله جاء مختلفاً تماماً عن بوداق الذي في عقلي: في ذلك الكتاب ثمة عثماني متوازن محترم يجب أن تدخل صورته كتبَ التاريخ للثانوية. أما بوداق الذي في عقلي فهو ماكر ومحتال ناجح. وبينما كنت أقول لنفسي ما إذا كنت أستطيع تركيب قصة أغنى وأحدث لا تتناقض مع القيود، أخبرني رضا بأن فرصة الغداء قد بدأت.

خرجتُ. عبرت من المعبر ذي المشربيات إلى السوق القديم كي أهرب من حرّ الشارع الجديد. مشيتُ حتى الجامع. الجو حار جداً، ولم يكن ثمة أحد في باحة الجامع. تُسمع أصوات مطارق مصلحي هياكل السيارات. عدتُ. ولأنني لم أرغب بتناول الطعام فوراً، ذهبت إلى المقهى. وبينما كنت أمرّ من أمام أحد الأزقة الفرعية صرخ ولد من خلفي : "سمين" ولم ألتفت لأرى ما إذا كان الأولاد الآخرون يضحكون. ذهبت، وجلست في المقهى.

طلبتُ شاياً، وأشعلت سيجارة، وبدأت أفكر بماهية التاريخ. يجب أن يكون أمراً غير كتابة المقالات، وتحويل بعض الأحداث إلى قصص. لعله على النحو التالي: نبحث عن أسباب عدد من الحوادث. ثم تشرح هذه الحوادث حوادثَ أخرى، وعمرنا لا يكفي لأن تشرح تلك الحوادث حوادثَ أخرى. ونضطر لترك هذا العمل في مكان ما، ويأتي آخرون لمتابعة العمل من حيث انتهينا. ولكنهم عندما يبدؤون العمل يرون، إننا شرحنا حوادث بحوادث خاطئة. فعلتُ الأمر نفسه عندما تحدّثت عن الذين قبلي في أطروحتي للدكتوراة وفي أطروحة نيل درجة أستاذ مساعد. وأنا مؤمن بأنني على حق. كل شخص يقول بأن القصة الحقيقية مختلفة، أو أنه يجب تفسيرها بقصة أخرى. وهذه القصة الأخرى والجديدة يعرفونها من قبل. الأمر الوحيد الذي فعلوه هو الذهاب إلى الأرشيف، والبحث عنها. وهكذا يُري أحدنا الآخر قصصه المزينة بالهوامش وأرقام الوثائق في المقالات الاستعراضية والاجتماعات الطنانة. وندافع عن قصصنا مقابل بعضنا بعضاً. ونحاول إثبات أن قصتنا أفضل من خلال إثبات صحة قصص الآخرين.

شعرتُ بالضيق. خرجت غاضباً من الولد الذي لم يجلب لي الشاي حتى الآن. بعد ذلك، ولمجرد تسلية نفسي، فكرت على النحو التالي: أنا مهموم للاشيء. ما فكرت به حول المؤرخ ليس سوى فكرة. يمكن لآخر أن يقول بكل بساطة أموراً أخرى عن المؤرخ. وهم يقولون فعلاً: يقولون إن بحثنا في الماضي يجعلنا نجد ما علينا فعله اليوم، وينتجون آيديولوجيا طارحين أفكاراً عما هو صحيح وما هو خاطئ للناس وللعالم وأنفسهم. فكرت بان عليهم القول: إننا نسلّي الناس ونمتعهم. أنا مؤمن بأن الجانب الملفت أكثر في التاريخ هو هذا اللهو. ولكن زملاء مهنتي ذوي ربطات العنق يتسترون على هذا الجانب المسلي كي لا يسيؤون لجديتهم، ويريدون التفريق بينهم وبين الأولاد. في النهاية، عندما جاء شايي ألقيت فيه السكّر، ونظرت إليه كيف يذوب. ذهبت إلى المطعم بعد أن دخّنت سيجارة.

كنتُ أتناول الطعام في هذا المطعم قبل سنتين. إنه مكان هادئ ودافئ ومحبب. في الصواني المصفوفة خلف الزجاج المغشى تنتظر اللحمة بالخضار والمسقعة ومشكلة الخضار وأنواع مأكولات الباذنجان وسط دهن كثيف. عددٌ من قطع الكفتة التي تظهر ظهرها خارج هذا الدهن في حرّ الصيف هذا تُذكّر بالجواميس الغائرة وسط الطين في الشتاء. فُتحت شهيتي للطعام. طلبتُ مسقعة الباذنجان وأرزاً ومشكّلة الخضار، وجلست. عندما سألني النادل المرتدي جورباً وبابوجاً، طلبتُ منه جعّة.

تناولت طعامي مستمتعاً بطعمه، وأنا أسقط قطع الخبز بالدهن، وشربت جعتي. شعرت بعد ذلك فجأة بأن تفكيري سيذهب إلى زوجتي

السابقة، وحزنت. ضايقتني معرفة أن زوجتي ستضع مولوداً من زوجها الجديد. كنت أعرف أن هذا سيحدث. ومعرفتي به لم تسعدني بالتأكيد. في الأشهر الأولى لزواجنا كنا منتبهين كي لا تنجب. في ما بعد، تراخى انتباهنا مع الزمن. بعد سنة تحدثت مرة عن الأولاد، وتحدثنا عن ضرورة أن يكون لدينا طفل. بدأنا هذه المرة بالانتباه لهذا الهدف. لكنه لم يحدث. بعدئذ جاءت سلمى إليّ، وقالت إننا يجب أن نستشير طبيباً، ولكي تشجعني قالت إنها ستذهب أولاً. أنا عارضتها، وقلتُ لها إنني لن أُدخل أولئك الحيوانات المدعوين أطباء في أمور كهذه. لا أدري إن كانت سلمى قد ذهبت إلى الطبيب أم لا. لعلها ذهبت خفية عني، ولكنني لم أفكر كثيراً بهذا، لأننا انفصلنا بعد فترة قصيرة.

أخذ النادل الأطباق الفارغة. سألته عما يوجد لديهم من حلويات. قال: يوجد كنافة. وجلب لي. وطلبتُ جعة أخرى. قلت للنادل: إنه جيد مع الكنافة، أليس كذلك؟ وضحكتُ. لم يضحك. أنا جلستُ، وفكرت.

خطر ببالي والداي هذه المرة. كنا في الشرق، في (كماه). ولم تكن نيلفون مولودة كما لم يكن متين. كانت أمي بصحتها، وتستطيع القيام بأعمال المنزل. كنا نسكن في طابق حجري مؤلف من طابقين، يغدو درجه كالجليد. وأخاف من أن أخرج من غرفتي ليلاً. أتردد بالنزول إلى المطبخ وحدي عندما أجوع. كان للبيت الحجري شرفة صغيرة. ويبدو منها في ليالي الشتاء الباردة الخاوية من الغيوم سهلاً أبيض يقع بين جبلين. حين يشتد البرد كنا نسمع عواء الذئاب. ويقولون إن الذئاب ستنزل إلى البلدة ليلاً، وأن الحيوانات الفظيعة تقرع الأبواب أحياناً لجوعها، لذلك عليكم ألا تفتحوا الأبواب إذا قُرعت قبل أن تسألوا: من؟ هذا ما حدث في

إحدى الليالي، فقد فتح أبي الباب وبيده المسدس. في الربيع أيضاً هرع مرة خلف الثعلب الذي هاجم قن الدجاج. لم ننتبه للثعلب، بل للصوت الذي أخرجه. أمي أيضاً كانت تقول إن الصقور تهاجم فراخ الدجاج كالثعالب. فيما بعد، فكرت بأنني لم أرَ صقراً كهذا، وحزنت. بعد قليل، أدركت أن زمن عودتي إلى الأرشيف قد حل منذ زمن طويل، فنهضت.

شعرت بالنشوة مجدداً عندما عدت إلى الأوراق العفنة، وبدأت أقلبها. أقرأ بصورة عشوائية. يوسف المديون يحصل على حماره الذي أودعه رهناً للدين بعد أن يدفع دينه. ولكنه يتقدم بشكوى عندما يلاحظ في طريق العودة أن قائمة الحمار الخلفية تعرج. وحين قرأت أنه مدعي على حسين انفلتُّ ضاحكاً. أعرف أنني أضحك منتشياً لأنني شربت ثلاث زجاجات جعة. ولكنني ضحكت مجدداً عندما قرأت الأمر نفسه. بعد ذلك، بدأت أقرأ ما يقع تحت يدي دون اهتمام بما إذا كنت قد قرأته من قبل. ولم أكتب شيئاً على الدفتر. أقرأ ورقة بعد أخرى وصفحة بعد صفحة وأضحك منتشياً. بعد ذلك، بدوت أنني انفعلت: صار ذلك أشبه باستماعي إلى قطعة موسيقية أحبها. أفكر بنفسي وبحياتي وبأمور متداخلة جداً من جهة، وأوجه اهتمامي إلى القصص المتدفقة أمامي من جهة أخرى. وقع خلاف بشأن طاحونة بين إداري الوقف والطحان فجاءا إلى المحكمة، وقدما كمية من الأرقام حول دخل الطاحون ونفقاته. دوَّن كاتب القاضي هذه الأرقام بهدوء شديد كما أدونها على دفتري الآن. عندما ملأت صفحة بأرقام توضح دخل الطاحون الشهري والموسمي وكميات القمح والشعير التي يطحنها، ودخل السنوات السابقة، نظرتُ إلى القائمة التي يبدي مستمتعاً متعة طفولية، ودهشت.

بعد ذلك، قرأتُ: سفينة محملة بالقمح اختفت، وآخر ميناء مرت به هو (قرة مورسال). ولم يظهر من يعطي خبراً عنها، كما لم تصل إلى اسطنبول. قررت بأن السفينة في مكان ما قرب طوظلا، وأنها غرقت بأحمالها بين تلك الصخور، وأن الذين على متنها لا يعرفون السباحة. قرأت محضر دعوى يتألف من أربع صفحات حول طلب عبد الله بن ضرحون أوغلو استعادة أربع قطع بطانة كان قد أعطاها للصباغيّن قدري ومحمد ليصبغاها، ولكنني لم أدونه. لم أفهم سبب طلب عبد الله استعادة البطانة. باع المخللاتي إبراهيم صوفو في ١٩ شعبان ٩٩١ (٧ أيلول ١٥٨٣) في غبزة الثلاث مخللات بأقتشة، فاشتكوا عليه، ودونوا محضراً في المحكمة. وبعد ثلاثة أيام من هذه الحادثة دخل القيود أن القصاب محمود باع لحم عجل بثلاثة عشر أقتشة، ووجد أنها ناقصة ١٤٠ درهماً. كتبت هذا في دفتري أيضاً. بعد ذلك تقت لمعرفة ما سيفكر به طلاب الكلية لو وجدوا هذا الدفتر فيما بعد، وقرأوه. سيرتبكون لأنهم لن يستطيعوا قول إنني لفقت هذه الأمور كلها. سيرتبكون تماماً لو وجدتُ قصة جيدة. في الحقيقة إن قصة بوضاق التي يعمل فيها الرجل بتجارة الخمر، ثم يحيك الحبائل، وترتفع مكانته، مفصّلة على مقاس هذا الموضوع. بدأتُ أبحث عن اسم مؤثر من أجل قصة كهذه. سأزينها بالهوامش وأرقام الوثائق: أنموذج لنظام الأعيان: بوضاق الغبزوي الكبير ليس شيئاً. ولكن ليس بوداق حاف هكذا. لو كان بوضاق باشا سيكون أفضل. ترى هل صار باشا فيما بعد؟ لعلني أكتب موضوعاً حول انتقاله إلى الباشوية. وفي بداية موضوعي أرسم مشهد جنرال ينتمي إلى الربع الأول من القرن السادس عشر. ولكن

متعتي طارت عندما فكرتُ بتفاصيل المحاكمة المملة. بعد ذلك، اعتقدت بأنني سأبكي. كنت سأعتبر هذا بتأثير الجعة، ولكن أثرها لم يبق. ماذا أفعل؟ أقرأ.

أقرأ الأمر المرسل من أجل إلقاء القبض على (السباهي)(*) طاهر بن محمد الذي بدأ قطع الطرق. أقرأ الأوامر حول عدم السماح للحيوانات القادمة من القرى المجاورة بأن تدوس كرمة أدهم باشا، وحول ما يجب فعله بنور الدين الذي ادعيّ بأنه قُتل على يد حميه ضرباً بعد أن اعتقد أنه مات بالوباء، ولكنني لم أكتبها. بعد ذلك نقلتُ على دفتري قائمة طويلة بأسعار السوق والبضائع. بعد ذلك، قرأت تعهد بير أحمد بن عمر بدفع دينه للمحامي محمد بعد ثمانية أيام أمام الكفيل الشيخ فتح الله. ثم قرأت محضراً يدعى فيه أن رائحة خمر فاحت من فم خضر بن موسى. بعد ذلك، أردت أن أضحك، ولكن كان عليّ أن أشرب بيرة أكثر من أجل الضحك. قرأت ضبوط المحكمة بشكل جدي جداً مدة طويلة، دون تفكير بأي شيء، ودون كتابة. ما أمتعني أنني أقرأ متحفزاً، وكأنني أتقصى أثراً رغم أنني مؤمن بعدم بحثي عن شيء محدد. توقفت فيما بعد عندما تعبت عيناي، ونظرت إلى نافذة القبو التي تسقط عليها أشعة الشمس. الأفكار والمشاهد تظهر من هنا وهناك، وتقف أمامي:

لماذا صرتُ مؤرخاً؟ دفعني الفضول مدة عندما كنت في السابعة عشر من عمري، وهذا كل شيء. ماتت أمي في الربيع، وبعدها أبي. وترك أبي القائمقامية قبل موعد تقاعده، وسكن في جنة حصار. وأنا

* – لقب الفارسي المكلف بجمع ضريبة العشر مقابل عشر العشر لنفسه . . . المترجم .

قضيت ذلك الصيف في جنة حصار أقلّب كتب أبي، وأفكر بما قرأته وأنا على شاطئ البحر وفي البساتين. فيما بعد، قلتُ إنني سأغدو دكتوراً. نعم، كنت أقول هذا. ذهبت في الخريف فجأة، وسجّلت في قسم التاريخ. كم شخص سجل في قسم التاريخ برغبة مثلي؟ غضبتُ فجأة: كانت سلمى تقول لي: لا تباهي بخبلك، وإن المرض جزء لا يتجزأ من شخصيتك. ولكنها كانت مسرورة من كوني مؤرخاً. أبي على الأغلب لم يُسرّ، فقد شرب عندما علم أنني سجلت في قسم التاريخ. ولعله لم يشرب بسبب هذا الأمر، لأنه كان يشرب دائماً، وكانت جدتي تؤنب أبي كي لا يشرب. عندما فكرت بجدتي، خطر ببالي البيت ونيلفون فنظرت إلى الساعة. إنها تقترب من الخامسة. لم أعد أشعر أبداً بتأثير الجعة. بعد قليل، عندما لم تبق متعة للقراءة، نهضت دون انتظار رضا، وركبت السيارة، وعدت إلى البيت. في الطريق، فكّرت بالجلوس مع نيلفون التي تقرأ كتاباً عند خم الدجاج. إذا لم تجاملني نيلفون، أفتح كتاب أوليا جلبي الموجود بجانبي، وأقرأ فأنسى. بعد ذلك، أشرب، بعد ذلك يحل وقت طعام العشاء، آكل ثم أشرب مجدداً.

-١٥-

دسست آخر لقمة بطيخ أحمر في فمي، ونهضت عن المائدة.

قالت الجدة: "إلى أين يذهب هذا قبل أن ينهي طعامه؟"

قالت نيلفون: "لا تقلقي يا جدة! أنهى متين طعامه".

قال فاروق: "خذ السيارة إن أردت".

قلت: "سآخذها إن احتجتها".

قلتَ إن سيارتي الأناضول المهلهلة تلفت النظر بشذوذها هنا، أليس كذلك؟

أطلقت نيلفون قهقهة. لم أقل شيئاً. صعدتُ. أخذت محفظتي التي تمنحني شعوراً بالثقة وتفوقاً لوجود أربع عشرة ألف ليرة فيها كسبتها من عمل شهر في حر الصيف، وأخذت مفتاحي، ولمعت حذائي مرة أخيرة، ووضعت على كتفي الكنزة الخضراء التي جلبها لي زوج خالتي هدية من لندن وحكى لنا مطولاً كيف اشتراها، ونزلت. رأيت رجب وأنا أخرج من باب المطبخ.

"إلى أين أيها السيد الصغير قبل أن تتناولوا باذنجانكم؟"

"أكلته كله، وحتى البطيخ".

"ما شاء الله".

مشيت، وفكرت: أخرجَ من باب الحديقة، ومازلتُ أسمع ضحك نيلفون وفاروق، وهذا ما سيفعلانه طوال الليل: أحدهما يجامل الآخر كي يجد ما يقوله مضحكاً، وبعد قليل يساعد الآخر ليثبت أن ما يقوله الأول مضحكاً. وهكذا يجلسان ساعات تحت ضوء المصباح الشاحب، ويقرران أن العالم غير محق، وغبي، وعبثي، متناسين عبثيتهما. وفي هذه الأثناء يكون فاروق قد أنهى زجاجة عرق. وإذا لم تنم نيلفون تحكي له عن زوجته التي تركها تهرب منه. وعلى كل حال، عندما أعود في نهاية الليل أجد فاروقاً غافياً على الطاولة، وأدهش كيف يجد شخصاً كهذا في نفسه الحق بأن يحزنني كلما أعطاني سيارته الخربة. طالما أنك ذكي وعاقل إلى هذا الحد فلماذا تركت زوجتك الجميلة والذكية تهرب منك؟ يسكنون فوق قطعة أرض لو بعتها تأتي بخمسة ملايين على الأقل، ولكن أطراف الصحون التي يتناولون فيها طعامهم مكسّرة، وليس ثمة سكين موافقة لشوكة، ويستخدمون مملحة هي زجاجة دواء ثقب القزم غطاءها بمسمار، ويتحملون تناول الجدّة المسكينة ذات التسعين عاماً طعامها وهي تسكب منه في كل مكان. مشيت، ومشيت، وإذ بي عند بيت أسرة جيلان. كان أبواها يتابعان التلفاز كالأغنياء غير المتطورين، والفقراء المساكين الذين لا متعة لهم غير التلفاز. لا يعرف الأغنياء الحمقى غير المتطورين كيف يلهون! نزلتُ إلى الشاطئ. جاء الجميع. لا ينقص سوى البستاني الذي يروي الحديقة من الصباح حتى المساء وكأن رأس الخرطوم مقيد بيده. جلستُ، واستمعت:

"ماذا نفعل الآن يا شباب؟"

"نشاهد أشرطة الفيديو بعد أن ينام أبواي بعد قليل".

"لا يا هووووه... هل سننحشر هنا طوال المساء؟"

قالت غولنور: "أنا أريد أن أرقص" وتحركت قليلاً على نغمة موسيقا خيالية.

قال فكرت: "سنلعب بوكر".

"أنا لا ألعب".

"لنذهب إلى (تشاملجا) ونشرب شاياً".

"خمسون كيلو متراً".

قالت زينب: "أنا أيضاً أريد أن أرقص".

"لنذهب لمشاهدة فيلم تركي، ونمضي الوقت بالسخرية".

"هيا احكوا لنذهب إلى مكان ما".

كنت أنظر إلى انعكاسات ضوء منارة الجزيرة وهو ينطفئ ويضيء على البحر الساكن، وأفكر أنني أشم رائحة زهر (يد الست) المعلقة في الهواء ورائحة الفتاة والعطر.

فكرتُ بأنني أحببت جيلان. ولكن شعوراً لم أستطع فهمه يبعدها عني: أعرف أنني يجب أن أحكي لها عن نفسي كما أفكر في سريري حتى الصباح. ولكنني عندما أفكر يخطر ببالي أن "أنا" الذي سأحكي عنه غير موجود أبداً. كأن "الأنا" الذي سأحكي عنه هو صندوق داخل صندوق. كأن شيئاً آخر مختلفاً موجود فيّ دائماً. لعلني - بعد هذه الأمور - أجد نفسي، وأقدمها. ولكن يظهر من كل صندوق متين آخر غير حقيقي، وصاحب الخصوصية الذي يمكن أن أعرضه لجيلان، بل يخرج صندوق آخر يخفيه. فكرتُ على النحو التالي: العشق يجر الإنسان إلى الازدواجية. مع أنني اعتقدتُ بأنني سأتخلص من الازدواجية، لأنني

مؤمن بأنني عاشق. آه لو انتهى هذا الانتظار! ولكنني أعرف أنني لا أعرف ما أنتظره. ومن أجل تهدئة نفسي تذكرتُ ميزات تفوقي، وعددتها مرات ومرات، ولكن هذا أيضاً لم يسليني.

بعد ذلك، مشيت مع الآخرين الذين توصلوا إلى قرار. ركبنا السيارات. دخلنا صالة رقص الفندق صاخبين. لم يكن ثمة أحد غير بضعة سياح مخبولين. سخروا من السياح القادمين إلى هذا المكان المحذر الذي لا روح فيه لقضاء عطلتهم تاركين العالم كله.

"(هانزات) ألمان متخلفون عقلياً".

"أريد أن ألهو يا شباب. ماذا سأفعل؟"

بعد قليل، رقصنا. رقصتُ مع جيلان. لم يحدث شيء أبداً. سألتني ٢٧ × ١٣ و ٧٩ × ٨١ وأجبتها، وضحكت لا مبالية. وبعدئذ، عندما بدأت الموسيقا السريعة، قالت: أنا متضايقة، وذهبتْ، وجلست. أنا صعدتُ إلى الأعلى، وذهبت إلى دورة المياه النظيفة إلى حد مدهش عابراً الممرات الصامتة المغطاة بالسجاد. وعندما رأيت نفسي بالمرآة، قلت: إن كل هذا بسبب إيماني بأنني أحببت فتاة، قرفتُ من نفسي. لابد أن أينشتاين لم يكن هكذا وهو في الثامنة عشرة من عمره. ولابد أن الأب روكفلر لم يكن هكذا عندما كان بعمري. بعد ذلك، ولكنني لا أفلسفها كما يفعل أغنياؤنا الحمقى. أتمرس بعملي كصاحب جريدة، وأعيش حياة كصاحب (يورطاش قانه)، وأغدو إنساناً أسطورياً يعيش وحده. ولكن، اللعنة! يشغل بالي موضوع رئاسة نادي (فنار بهتشة). فيما بعد، فكرتُ بأنني سأنسى كل هذه الخيالات السخيفة عندما أصبح غنياً، وكرهت الأغنياء. ولكن جيلان لخبطت عقلي. فيما بعد، شممت

قميصي حيث وضعت يدها وهي ترقص، وخرجتُ من دورة المياه. صادفتهم على الدرج. قالوا إننا ذاهبون إلى مكان آخر. ركبنا السيارات.

في الجزء الأمامي لسيارة فكرت موديل (آلفا -روميو) التي تشبه قمرة الطيار ثمة إبر ومؤشرات ومصابيح ملونة تضيء وتنطفئ. نظرت شارداً. وقبل أن نخرج إلى طريق اسطنبول - أنقرة، حاصرتنا سيارة طورغاي. بعد ذلك، قرر أصحاب السيارات الثلاث التسابق حتى مفرق (غوزتبة). عبرنا متسابقين من جانب الشاحنات والحافلات ومن تحت جسور المشاة ومن بين محطات الوقود والمقاهي والذين يستمتعون بالجلوس على الشرفات ومصلحي السيارات والمضربين والبطيخ والاستراحات والمطاعم، وذهبنا. كان فكرت يضغط على الزمور دائماً. وينفعلون أحياناً فيتصايحون ويتضاحكون. عندما أضيء الضوء الأحمر عند تقاطع، لم يضغط فكرت على المكابح، وغاص في الطريق الجانبي، واتجه بسرعته كلها نحو سيارة أناضول. في اللحظة الأخيرة ألقت الأناضول بنفسها إلى جانب الطريق فتخلصنا من حادث مؤكد.

"لخوفه اختلط سائل مرارته ببرازه، وتجمّد فاغراً فاه".

صرخت جيلان قائلة: "سبقناهم. سبقناهم كلهم. اضغط على الوقود يا فكرت!"

قالت زينب: "أنا لا أريد أن أموت، بل أن ألهو".

"هل تريدين أن تتزوجي؟"(*)

---

* - هنالك تشابه لفظي في المقطعين الأخيرين من كلمتي "الزواج" و"اللهو" في الأصل التركي . . . م .

"يسمون هذه ألفا - روميو. يجب أن يُعرف كيف تعطى حقها".

"حلال عليك يا أخي. اضغط أكثر. لم أعد أهتم بشيء أنا".

"الأناضول سيارة المساكين".

أفكّر بما سيحدث في النهاية. ولكن شيئاً لم يحدث. نحن كسبنا السباق، بعد ذلك، انعطفنا نحو (سعادية)، وخرجنا إلى شارع بغداد. أحب هذا الشارع كثيراً لأنه لا يخفي أنه مقرف، ويُظهر تزويره علناً. كأن هذا الشارع يريد أن يقول إن الحياة ليست سوى ازدواجية دائمة: كأن كل شيء مكتوب فوقه علناً إنه مزور! مرمر الأبنية المقرف! لوحات البلاستيك الشفاف المقرفة! الثريات المقرفة فوقه من السقوف! محلات المعجنات المقرفة المنارة جيداً. أحب قرفه الذي لا يخفي نفسه كله. إنه مزور، يا لسعادتي. كلنا مزورون. لم أنظر إلى الفتيات الماشيات في الشارع كي لا أجد واحدة جميلة فيتأسى قلبي. لو كانت لدي مارسيدس لالتقطت واحدة من الفتيات اللواتي يخرجن إلى الأرصفة ليلتقطن أحدهم. أنا أحبك يا جيلان، وأحب حتى الحياة أحياناً. أوقفنا السيارات، ودخلنا إلى صالة الرقص. لا يكتب على المكان أنه صالة رقص، بل يكتب أنه نادي. ولكن من يدفع ٢٥٠ ليرة يمكنه الدخول.

كان يغني (ديمس روسس) ورقصت مع جيلان. ولكننا لم نتحدث كثيراً. لم يحدث! نظرتْ شاردة نحو خط أفق غير مرئي وكأنها تقول: أنا متضايقة وحزينة جداً وشاردة، وكأن في عقلها أشياء كثيرة غيري. وحينئذ أشفقتُ عليها لسبب ما، وخطر ببالي أنني يمكن أن أحبها.

قلت: "بماذا تفكرين؟"

"هاا، أنا؟ لا شيء".

رقصنا مرة أخرى. كأن قطيعة بيننا يجب أن تُخفى، ويحتضن أحدنا الآخر للتستر عليها. ولكنني أشعر أن أفكاري هذه كلها مجرد جموح خيال. بعد قليل، انتهت الموسيقى التي لم تفلح إلا بأن تكون باكية رغم أنه يراد أن تكون حزينة، وبدأت موسيقى سريعة، وامتلأت ساحة الرقص بزحام حيوي يتحرق تعلقاً باللهو. بقيت جيلان بينهم. ورحت أنا أشاهد الراقصين المسرعين المتساقطة فوقهم أضواء ملونة، وأفكر: يحنون ركبهم مرتجفين، ويهزون رؤوسهم كفراخ الدجاج! حمقى! أقسم أن هؤلاء لا يعملون هذا لأنهم يستمتعون به، بل لأن الآخرين يعملون هذا! ترى هل يفكرون بأنهم يرقصون وهم يرقصون؟ لأنها حركات عجيبة، وتغدو أعجب حين لا تُسمع الموسيقا. أنا أفكر بأن الحركات التي أقوم وأنا أرقص عبثية، وأتضايق لأنني أفكر على هذا النحو، ولأنني أفكر على هذا النحو، أفكر بأنني يجب أن أقوم بهذه الحركات العجيبة مع الأسف كي أحبب هذه الفتاة بي. وهكذا يفكر وعيي بأنني أحتمل هؤلاء المجانين، ولكنني لا أحتملهم. وفي النهاية، أتمكن من أن أغدو مثل الآخرين ومثل نفسي في آن واحد. وهنالك عدد قليل جداً من الناس يتمكنون من النجاح في هذا! لقد شاركت في ذلك الرقص الغبي كي لا يقولوا إنني أمثل دور الشاب المفكر الشارد الجالس وحده.

المهم، ليس ثمة ضرورة لأعرّق نفسي كثيراً. عدنا، وجلسنا بعد قليل، وبدؤوا مرة أخرى بالقول: حر وزحام، تعرقت كثيراً، تضايقت كثيراً، لهوت كثيراً، جيد جداً، شيء جيد، ولكنهم سئموا الكلام أيضاً بسبب صخب الموسيقى الشديد. فهموا متأخرين بأن كلامهم لا يستأهل الأنفاس التي يبذلونها. بعدئذ قالوا ليس ثمة شيء مميز في جو هذا المكان أيضاً، هيا لنذهب. شعرتُ بالضيق. هيا لنذهب إلى مكان ما، هيا.

نهضنا! دفع فكرت النقود. تصرفنا - وداد وأنا - بحيث نبدو كأننا نريد تقاسم دفع النقود أو دفع حصتنا، ولكن فكرت لم يدعنا. في تلك الأثناء رأيت الآخرين يضربون زجاج سيارة طورغايBMW ويضحكون. ذهبت: هوليا وطوران يتعانقان ويناما على المقعد الخلفي للسيارة! أطلقت زينب قهقهة بسعادة وإعجاب منفعلة بقوة حب تشعر بها هي.

قالت فيما بعد: "لم ينزلا أصلاً من السيارة".

فكرت بإمكانية أن يتعانق شاب وفتاة مثل "عشاق حقيقيين" ويناما.

ركبنا السيارات، وذهبنا على طريق أنقرة حيث توقفت سيارة طورغاي عند بائع البطيخ على الزاوية. طورغاي تحدث مع بائع البطيخ تحت ضوء المصباح الغازي. التفت بائع البطيخ إلى السيارات الثلاث المنتظرة. بعد قليل جاء طورغاي، ونادى فكرت من نافذة السيارة:

"لا يعطي. يقول لا يوجد".

"الذنب ذنبنا. جئنا بعدد كبير".

قال غولنور: "ألا يوجد؟ ماذا سنفعل الآن؟"

"إذا كنتم ترضون بشرب المشروب يمكننا أن نشتري من مكان ما".

"مستحيل، لا أريد مشروباً. لنذهب إلى صيدلية".

"ماذا ستأخذين من الصيدلية؟"

سألت فكرت: "ماذا يقولون؟"

ذهب طورغاي إلى السيارة الأخرى. جاء بعد قليل: "يقولون: لنشتر مشروباً". حين كان على وشك الذهاب، توقف "لم يملؤوا جانبي الطريق حتى الآن".

قال فكرت: "حسنٌ، فهمت".

انطلقنا في الطريق. قبل وصولنا إلى (مالتبة) أبدوا إعجابهم بسيارة ذات لوحة أمريكية، ظهرها مملوء بالحقائب، ومؤخرتها مضغوطة.

صرخ فكرت: "إنها مرسيدس! هيا يا شباب!"

أشار لسيارة طورغاي بالمصابيح (الإيودية) ثم أبطأ سيارته، وبقي في الخلف قليلاً. تفرجنا: بداية، تجاوزت سيارة طورغاي الـ BMW المرسيدس، ولكنها بدل أن تتجاوزها، انحرفت قليلاً إلى اليمين دافعة المرسيدس إلى طرف الطريق. تأرجحت المرسيدس قليلاً وهي تطلق زمورها، ثم نزلت إحدى عجلاتها إلى جانب الطريق المنخفض كي لا تصدم BMW طورغاي. ضحك الجميع. شبهوها بكلب أعرج مسكين. بعد ذلك أقلعت سيارة الـ BMW ذاهبة وخلّصت المرسيدس نفسها:

"هيا دورك يا فكرت".

"ليس الآن. ليصحو أولاً".

ثمة شخص واحد في المرسيدس. قد يكون عاملاً عائداً من ألمانيا.

قال فكرت: "احذروا! لا تنظروا إلى ذلك الطرف".

وهو أيضاً تجاوز المرسيدس كما فعل طورغاي. بعد ذلك، انحرف بشكل خفيف إلى اليمين. عندها أطلقت المرسيدس زمورها بجنون، انفلتت الفتيات بالضحك، ولكنهن خفن قليلاً على الأغلب. عندما انحرف فكرت إلى اليمين أكثر، فرض على القادم من ألمانيا إنزال عجلته إلى طرف الطريق مرة أخرى. وعندما بدأت تعرج كادوا ينفجرون من الضحك مرة أخرى.

"هل استطعتم رؤية وجه الرجل".

ضغطنا على الوقود، وذهبنا. بعد قليل فعلت سيارة وداد الأمر نفسه بنجاح غالباً. لأننا سمعنا زمور المرسيدس اليائس وهو ينطلق غاضباً. بعد ذلك، التقينا في محطة وقود. أطفأوا المصابيح واختبأوا. راقبوا مرور مرسيدس الرجل القادم من ألمانيا بطيئة من أمامنا، وضحكوا، وهم يرفسون بأرجلهم.

"يا للشفقة، أشفقت على الرجل".

بعد ذلك، حكوا لبعضهم بعضاً ما جرى منفعلين ومتهيجين. وشعرتُ بالضيق عندما بدؤوا يحكوه مرة أخرى. ذهبتُ إلى دكان قريب، واشتريت زجاجة نبيذ، طلبت من البائع أن يفتحها.

قال صاحب الدكان: "هل أنت اسطنبولي؟"

واجهة الدكان منارة كمحل صياغة. لسبب ما أردت الجلوس هناك قليلاً، والاستماع للمغنية التركية من مذياع الرجل الصغير والنسيان. تمرّ في ذهني أفكار متداخلة، حول العشق، والسوء، والمحبة، والنجاح...

"نعم، اسطنبولي".

"إلى أين تذهبون؟"

"نتنزه".

هزّ صاحب الدكان رأسه المتفهم الناعس المتعب: "هاااا، مع البنات".

كنتُ سأقول شيئاً ما، وكأن هذه أمور مهمة. وهو أيضاً انتظر لا مبالياً لأقول شيئاً. ولكن السيارات بدأت تطلق زماميرها. ركضت، وركبت. كانوا يقولون: أين أنت يا هووو، لن نستطيع اللحاق بها

بسـببك؟ مع أنني كنت أعتـقد أن الأمـر قـد انتـهى. لم ينتـه. ذهبنا مسرعين، ورأيناه في منطقة (بندك). كان يصعد الطريق ببطء كشاحنة متعبة. بدأ طورغاي هذه المرة، واندسّ بجانبه من ناحية اليسار. وبينما كان يدفع المرسيدس نحو يمينها، دخل داود فوراً، وبسرعة من ورائه، واقترينا حتى كدنا نلمس مؤخرة السيارة. وهكذا أدخلناه بين شعبتين لا يمكن له التخلص منهما إلا إذا انطلق مسرعاً. بعد قليل، أسرع محاولاً التخلص، ولكنه لم يستطع الإفلات. كنا ندفعه مطلقين الزمامير إلى أعلى حد، ومشعلين المصابيح من خلفه. بعد ذلك، فتحوا النوافذ، ورفعوا أصوات الموسيقى إلى أعلى حد، ومدوا أذرعهم من النوافذ، وبدؤوا يضربون على الأبواب، وصرخوا، وغنوا. أطلقت زمورها المرسيدس المحشورة بيننا والمندهشة، ولا أدري كم سرنا بين البيوت والأحياء والمصانع وسط هذا الصخب الزائد. عندما خطر ببال القادم من ألمانيا أن يخفف السرعة تكومت خلفنا الحافلات والشاحنات، وبهذا حيّيناه للمرة الأخيرة، وتركناه. وفي أثناء عبورنا، التفت، ونظرت إلى خيال وجه العامل وسط الأضواء البعيدة: بدا كأنه لم يرنا. أنسيناه حياته وذكرياته ومستقبله.

لم أفكر. وشربتُ نبيذاً.

عبرنا مفرق جنة حصار دون أن نتوقف. بعد ذلك، قرروا حشر سيارة أناضول بداخلها زوجان مسنان ومضحكان. ولكنهم تراجعوا بعد قليل. وفي أثناء مرورنا من أمام بيوت الدعارة بعد محطة الوقود، أطلق فكرت الزمور، وأشعل الأضواء، وأطفأها. ولكن أحداً لم يظهر.

قالت جيلان: "انظروا ماذا سأفعل!"

عندما التفتُّ إلى الخلف، رأيت جيلان قد أخرجت ساقيها العاريتين من النافذة الخلفية. ساقاها الطويلتان المحروقتان تحت أضواء السيارات القادمة من الخلف كساقين محترفتين مفكرتين منتبهتين تحت أضواء خشبة المسرح، تتحركان ببطء في الفراغ كأنهما تبحثان عن شيء ما يائستين. ساقاها عاريتان بيضاوان. تحركهما حركات صغيرة جداً من أجل مجابهة الريح. بعد ذلك أمسكتها غولنور من كتفيها، وجذبتها إلى الداخل.

"سكرتِ أنت!"

قالت جيلان: "لستُ سكرانة" وأطلقت قهقهة بنشوة: "كم شربتُ! أنا ألهو كثيراً. كم هو جميل كل شيء!"

بعد ذلك، صمتنا جميعاً. سرنا مطولاً كأننا ذاهبون من اسطنبول إلى أنقرة لنلحق بمهمة جدية وسط قرى الاصطياف البائسة، والمصانع، وبساتين الكرز، وحقول الزيتون دون أن نتكلم شيئاً، وكأننا لا نسمع الموسيقا المعزوفة مطلقين زماميرنا لا لشيء، أو للتعبير عن مشاعر ما مع مرور الشاحنات والحافلات. أنا فكرتُ بجيلان. ولأنها فعلت هذا فكرتُ بأنني يمكن أن أحبها إلى آخر العمر.

توقفنا في محطة وقود بعد أن عبرنا (هيركة). نزلنا من السيارات. اشترينا من الدكان شطائر ونبيذاً رديئاً. أكلنا ما بأيدينا مختلطين بمسافرين متعبين ومتوجسين نزلوا من حافلة. رأيت جيلان ذاهبة إلى حافة الطريق، وتتناول شطيرتها وهي تنظر إلى السيارات العابرة شاردة كالذين ملؤوا بطونهم. نظرتُ إليها وانا أفكر بمستقبلي.

بعد قليل، رأيت فكرت. اقترب من جيلان ببطء في الظلام. قدّم لها سيجارة، وأشعلها، وبدأا يتحادثان. لم يكونا بعيدين كثيراً عني، ولكنني لا أسمعهما بسبب ضجيج السيارات العابرة، ولدي فضول شديد لسماعهما. بعد قليل تحوّل هذا الفضول الغريب إلى خوف عجيب. أدركتُ بسرعة أنني يجب أن أذهب إليهما كي أتغلب على الخوف. ولكنني تسمرت في الظلام بشكل يائس وسافل كما في الأحلام. ولكن شعورَ الهزيمةِ لم يستمر طويلاً كما في كل شيء. بعد قليل، ركبنا السيارات، وعبرنا الليل دون أن نتكلم شيئاً.

-١٦-

عندما يهدأ ذلك الضجيج المقرف، عندما يهدأ هدير شاطئ السباحة والقوارب ذات المحركات والأولاد والأغاني والمذياع والسكارى والشتائم والتلفازات والسيارات الذي ينفخ رأسي طوال اليوم، عندما تمر آخر سيارة من أمام باب الحديقة برفقة الصراخ، أنهض من فراشي بهدوء، وأقف خلف أباجور نافذتي، وأستمع للخارج. ليس ثمة أحد. كلهم تعبوا وناموا. ثمة ريح فقط أو تململ في البحر أو حفيف أشجار، وعندما لا تكون هذه أيضاً موجودة هنالك جدجد قريب أو غراب تائه أو كلب وقح، عندئذ أدفع الأباجور بهدوء، وأستمع إليها، وأستمع للصمت مطولاً. بعد ذلك، أرتعش عندما أفكر بأنني عشت تسعين سنة. ريح تتدفق من أعشاب يسقط عليها ظلي، وتُبرّد ساقيّ، وتخيفني: هل أعود لأغلق على نفسي ظلام اللحاف الدافئ؟ ولكنني وقفت هناك من أجل سماع الصمت أكثر قليلاً: انتظرتُ، انتظرت كأن شيئاً سيحدث، كأنني على موعد مع أحدهم، كأن العالم سيريني شيئاً جديداً، بعد ذلك، أغلقت الأباجور، وعدت إلى سريري، وجلست على حافته، وفكرت وأنا أنظر إلى تكتكة الساعة، وهي تشير إلى الواحدة وعشرين دقيقة: كان صلاح الدين مخطئاً في هذا. نعم لا يوجد أي شيء جديد!

كان صلاح الدين يقول صباحاً: كل يوم هو عالم جديد يا فاطمة. العالم مثلنا يولد من جديد كل صباح، وهذا يجعلني أنفعل إلى حد أنني أستيقظ قبل شروق الشمس، وأفكر بأن كل شيء سيكون جديداً، ومع هذه التجديدات سأكون أنا أيضاً جديداً جداً، وسأرى، وأقرأ، وأعرف ما لم أعرفه أبداً. وبعد أن أعلمُ، سأُعلّم ما أعلَمُه بشكل جيد، وأنفعل يا فاطمة إلى حد أنني أقفز من سريري، وأهرع إلى الحديقة راغباً برؤية كيف تشرق الشمس، ورؤية النباتات والحشرات وهي تتململ متغيرة، بعدئذ أريد أن أهرع إلى الأعلى دون إبطاء لأكتب عما رأيته يا فاطمة. لماذا لا تشعرين أنت هكذا؟ ولماذا لا تقولين شيئاً ولا تفكرين بشيء؟ انظري، انظري يا فاطمة! هل رأيتِ الدودة؟ ماذا فعلت؟ ستغدو فراشة ذات يوم وتطير! على الإنسان أن يكتب ما يشاهده، وما يجربه. حينئذ يمكن أن أكون كالأوربيين، مثل داروين مثلاً، يا له من شخص مدهش، ورجل علم! ولكن مع الأسف، لا يمكن للإنسان أن يغدو شيئاً في هذا الشرق المخدّر. ألا يمكن؟ لماذا، طالما لدي عينين ويدين من أجل عمل تجربة، وعقلاً جيداً يعمل أفضل من جميع العقول ولله الشكر؟ نعم: أرأيتِ يا فاطمة كيف تفتحت أزهار الدراق؟ لماذا تفوح منها هذه الرائحة باعتقادك؟ حسنٌ، ما هي الرائحة يا ترى؟ ما الذي يمنحنا هذا الشعور يا فاطمة؟ هل رأيتِ كم أن التين وقح؟ هل يتبادل النمل الإشارات يا ترى؟ هل انتبهت يا فاطمة كيف يرتفع البحر قبل الرياح الجنوبية الماطرة، وينخفض قبل الرياح الشمالية الباردة؟ على الإنسان أن ينتبه دائماً، ويراقب، لأن العلم لا يتقدم إلا هكذا. ولا يمكن لنا أن ننمي عقولنا إلا

بهذه الطريقة، وإلا سنتسكع في زوايا المقاهي كالخراف. وعندما ترعد السماء قبيل المطر يفقد صوابه، ويقفز من غرفة الشيطان، وينطّ على الدرجات اثنتين اثنتين، ويخرج إلى الحديقة، ويتمدد أرضاً على ظهره، وينظر إلى الغيوم حتى يتبلل. أفهم أنه سيكتب على الغيوم، ويبحث عن سبب للكتابة، لأنه كان يقول: عندما يعرف الجميع أن لكل شيء سبباً خاصاً به فلن يبقى في عقولهم مكانٌ لله. لأن سبب تفتح الأزهار، وبيض الدجاج، وارتفاع البحر، ورعد السماء والمطر ليس من تقدير الله كما يعتقدون، بل ما سأكتبه في موسوعتي. حينئذ سيُفهم أن المادة تنتجُ مادة أخرى، وأن الله لا يستطيع عمل شيء. وإذا كان الله موجوداً فهو لا يستطيع سوى الجلوس والفرجة، وإن معرفتنا للأمور ستسحب من يده أعماله. قولي لنر يا فاطمة، هل يمكن لأحد لا يستطيع فعل شيء، ولا تمكنه قدرته إلا على المشاهدة أن يكون الله؟ ياه.. أنتِ تسكتين، أليس كذلك؟ لأنك أنتِ أيضاً صرت تدركين عدم وجود الله. عندما يقرأ الآخرون ما أكتبه في يوم ما، ويفهمون قليلاً مثلك، سنرى ما سيحدث، هل تسمعينني؟

لا، لا أسمعك يا صلاح الدين. ولكنه لا يتكلم من أجلي: عندما يفهمون بأن ليس بيد الله شيء، ويرون أن بأيديهم كل شيء، وأن الخوف والجرأة والذنب والعقاب والخدر والحركة والحسن والسيء بأيديهم، فماذا سيحدث يا فاطمة؟ يقول هذا، وينهض على قدميه فجأة وكأنه وراء طاولة الكتابة وليس طاولة المشروب، ويبدأ بالصراخ: حينئذ سيكونون كما كنتُ في سنواتي الأولى، أي أن أيديهم وأرجلهم مربوطة، ولا

يستطيعون الإيمان بأفكارهم، وسيرتعدون مما يخطر ببالهم، وسيرتعدون لأنهم فكروا بما فكروا به، ويفهمون أن الآخرين أيضاً يفكرون بما فكروا به، وسيرتجفون خوفاً من إمساك أحدهم بخناق الآخر، وحينئذ سيغضبون ممن أوصلهم إلى هذا الرعب لأنهم لا يستطيعون عمل شيء، سيهرعون إلى كتبي، إلى موسوعتي المؤلفة من ٤٨ مجلداً. إن الأمر الإلهي الحقيقي هو هذه المجلدات يا فاطمة. نعم، لِمَ لا أكون أنا الدكتور صلاح الدين الإله الجديد للمسلمين جميعاً؟ لأن إلهنا الجديد هو العلم، هل تسمعين يا فاطمة؟

لا، لأنني أعتقد أن مجرد السماع صار حراماً، ولأنني أكلتُ البطاطا باللحم من طبخ رجب، والكراّث الذي لا طعم له، ووضعتُ حلويات عاشوراء في صحني، وانزويتُ إلى الغرفة الصغيرة الباردة الجديدة. وجلست هناك، وأضع ساقي إحداهما على الأخرى كي لا تبردان، وأتناول العاشوراء بملعقة صغيرة بهدوء. كم هو ممتع خليط حب الرمان، والفاصولياء، والحمّص، والتين الجاف، والذرة الصفراء، وزبيب العنب الأسود، والفستق، وفوقها كلها ماء ورد، وكم هو جميل...

النوم لا يأتي. نهضت عن طرف السرير. اشتهيت العاشوراء. ذهبت إلى الطاولة وجلست. عليها علبة كلونيا. ليست زجاجية ولكنها لا تحجب ما بداخلها. عندما رأيتها البارحة اعتقدت أنها زجاجية، ولكنني فهمت عندما لمستها يدي فوراً، وقرفت. قلت: ما هذه؟ قالت نيلفون: قالوا لا توجد زجاجات يا جدتي العزيزة. لو قلت إن البلاستيك هو روحكم المولودة المتفسخة لضحكوا مني.

يضحكون: يا لغرابة هؤلاء العجائز، يضحكون. كيف حالك أيتها الجدة؟ يضحكون. هل تعرفين ما هو التلفزيون؟ يضحكون. لماذا لا تنزلين إلى الأسفل وتتناولين الطعام معنا؟ يضحكون. هل ننزهك بالسيارة أيتها الجدة؟ يضحكون. كم هي جميلة تطريزات ثوبكم الصباحي؟ يضحكون. لماذا لم تدلي بصوتك الانتخابي؟ يضحكون. لماذا تعبثين بخزانتك دائماً؟ يضحكون. لو قلت لهم لماذا يضحكون هكذا وأنتم تنظرون إلي؟ فيضحكون أيضاً. يضحكون ويقولون: إننا لا نضحك يا جدة، ويضحكون مرة أخرى. وهذا بسبب أن أباكم وجدكم قضيا عمريهما كلهما باكيين. تضايقت.

ترى هل أوقظُ القزم، وأطلب عاشوراء؟ لأضرب بعكازي الأرض. تقول لك السيدة الكبيرة استيقظ يا قزم. في هذه الساعة، وهذا الفصل؟ لا تفكري الآن. نامي. ارتاحي. أنا صباحاً سأحضّر لكم... لماذا أنت هنا إذا كنت لا تلبي طلباتي؟ اغرب! يذهب فوراً، وينقل لهم: أنا أعاني كثيراً من جدتكم كثيراً! حسنٌ، لماذا أنت هنا حتى الآن إذن؟ لماذا هذا القزم هنا؟ لماذا لا ينقلع كأخيه؟ سيقول: كما تعرفين أيتها السيدة الكبيرة، إن المرحوم ضوغان قال لنا خذا هذه النقود يا رجب واسماعيل، وعيشا كما تريدان، أنا سئمت من عذاب الضمير بسبب ذنوب أبي وأمي. حين قال خذا هذه النقود، قال أخي العاقل إسماعيل: شكراً يا أخي، وأخذ النقود، واشترى لنفسه تلك الأرض التي في نهاية الطريق الصاعد، وأنشأ بيتاً. إنه ذاك الذي مررنا من أمامه عندما ذهبنا إلى المقبرة البارحة. لماذا تتجاهلين الآن أيتها السيدة الكبيرة. كأنك لستِ من

جعل أحدنا أعرجَ والآخر قزماً؟ اصمت! خفتُ فجأة! يخدع الجميع أيضاً. لأن ابني كملاك خدعتماه، ولا أدري ما قلتما له وأخذتما نقوده يا ابني الحرام. لم يعد لدي شيء لك يا ابني: تعال وانظر إلى الصندوق إن أردت، لم يبق فيه شيء بسبب والدك السكير. أرجوك يا أمي لا تتحدثي هكذا عن أبي. ليبعث الله البلاء للنقود والماس، لأن كل المساوئ بسبب النقود. هاتِ هذا الصندق لأرميه في البحر. لا، سأستخدمه بأعمال مفيدة يا أمي. انظري أتعرفين؟ أنا أكتب رسائل. أعرف وزير الزراعة، كان معي في المدرسة في صف أدنى. أحضّر مسودات مشاريع قوانين. أقسم بأن هذه المرة سيكون مفيداً يا أمي. حسنٌ، حسنٌ، ليكن الصندوق لك. لا أريده، ولكن لا تتدخلي بمشروبي. نهضت عن الطاولة، وذهبت إلى خزانتي. أخرجت مفتاحها وفتحتها. شممت رائحة الخزانة. كنت قد وضعته في الدرج الثاني. فتحت الدرج الثاني: ها هو هنا. شممته دون أن أفتحه. وبعد أنْ فتحته، شممتُ الصندوق الفارغ، وتذكرت طفولتي.

حلَّ الربيع في اسطنبول، وأنا فتاة شابة في الرابعة عشرة من عمرها، وسنخرج في نزهة بعد ظهر اليوم التالي. إلى أين ستذهبون؟ سنذهب إلى بيت (شكرو باشا) يا أبي. أنا ألهو مع بناته (توركان) و(شكران) و(نيفان) كثيراً. يعزفن على البيانو، ويتقنّ التقليد، ويقرأن لي شعراً وروايات مترجمة أحياناً: أنا أحبهن كثيراً. حسنٌ، أحسنتِ، ولكن الوقت متأخر جداً الآن. هيا نامي الآن يا فاطمة. حسنٌ، سأنام. أنام وأنا أفكر بهن. يغلق أبي الباب. هواء الباب المغلق يحمل إلي

رائحة نبات الآس. وأنا أفكر بهن في سريري وأنام. صباحاً أجد اليوم الجميل بجواري: كرائحة الصندوق. ولكنني أرتعش فجأة. يكفي أيها الصندوق المخبول، أنا أعرف ما هي الحياة. الحياة تدخل إلى داخلك، وتكويك - رحماك يا رب - وتقطّعك أيتها البنت المخبولة! فجأة، غضبتُ، وكدتُ أرمي بالصندوق، ولكنني أمسكت بنفسي: كيف سأفصل الزمن فيما بعد. خبئيه، خبئيه، لعل وقته يأتي مرة أخرى. خبأته هذه المرة في الدرج الثالث، وأغلقت الخزانة. هل أقفلتها؟ نظرتُ مرى أخرى. نعم أقفلتها. ذهبتُ بعد ذلك، وتمددت على سريري ثمة سقف فوق سريري. أنا أعرف لماذا لم أنم. لون السقف أخضر. لم تأت بعد السيارة التي تأتي بعد آخر سيارة. ولكن الطلاء الأخضر متساقط. عندما يأتي، أصغي لوقع أقدامه، وأدرك أنه نام. يظهر لون أصفر من تحته. عندما أعرف هذا، أدرك أن العالم بقي لي. أنام بعمق تحت الأصفر الذي يظهر تحت الطلاء الأخضر. ولكنني لم أستطع النوم. فكرت بالألوان، وباليوم الذي اكتشف فيه سرَّ الألوان.

قال لي صلاح الدين في أحد الأيام: سرُّ الطلاء والألوان بسيط جداً. أراني تلك الدائرة ذات الألوان السبعة، وثبتها على العجلة الخلفية للدراجة التي يركبها ضوغاني الحبيب، بعد أن قلبها، ووضعها على طاولة الطعام: هل ترين يا فاطمة؟ يوجد هنا سبعة ألوان. انظري إلى ما سيحدث الآن لألوانك السبعة. عندما دوّر ذراع حركة الدراجة بسرعة منتشياً بخبث اختلطت الألوان السبعة. رأيتُ مندهشة أنها بيضاء، وخفت، فأطلق قهقهات، وبدأ يتراكض من هنا إلى هناك داخل الغرفة.

على مائدة العشاء، أعلن مباهياً ذلك المبدأ الذي سيرميه جانباً بعد مدة قصيرة. أنا أكتب ما أراه بعيني فقط. هذا هو مبدئي. لا تدخل موسوعتي أي معلومة لا تثبتُ بالتجربة! ولكنه بعد مدة نسيّ كم قال هذه العبارة. لأنه قرر بأن الحياة قصيرة والموسوعة طويلة. وفي السنوات التي سبقت اكتشافه الموت مباشرة كان يقول: لا أحد لديه الوقت لتجريب كل شيء يا فاطمة. إن ذلك المختبر الذي أسستُه في غرفة الغسيل لم يكن سوى هوس شباب. ويقول: إن الشخص الذي يحاول تجريب ثروة المعلومات التي أوجدها الغربيون كلها لإثباتها، إما أن يكون مخبولاً، أو معجباً بنفسه. كأن صلاح الدين كان يدرك أنني أعتبره كذلك. بعد ذلك، كان يغضب من نفسه ويصرخ: لم ينه ديدرو العظيم موسوعته في سبعة عشر عاماً يا فاطمة، لأنه أُعجب بنفسه. ما الضرورة لصراع فولتير وروسو؟ رجل مخبول، إنهما رجلان عظيمان لا يقلان عظمة عنك. وإذا لم يقبل الإنسان أن بعض الأشياء سيُفكر فيها وتكتشف قبله فلن يُنهي شيئاً. أنا متواضع. أنا أقرّ بأن كل شيء في أوربا وجدوه قبلنا، وبحثوا فيه حتى أدقّ تفاصيله. أليس من العبث البحث في الأشياء نفسها، واكتشافها من جديد؟ ليس من الضروري يا فاطمة أن أزن سنتيمتراً مكعباً من الذهب لمعرفة أنه يساوي ١٩,٣ غراماً، وأن أملأ جيبي بالذهب، وأدخل بين عديمي الشرف أولئك الذين في اسطنبول من أجل معرفة أنه يمكن أن يشترى كل شيء بما في ذلك الإنسان! الحقائق وُجدت مرة: السماء في فرنسا أيضاً زرقاء، وشجر التين يعطي ثماره في شهر آب حتى في نيويورك، أقسم بأن الصيصان

تخرج من بيض الدجاج في الصين كما يجري في حظيرتنا يا فاطمة، وإذا كان بخار الماء يدوّر الآلات في لندن فهو يدورها هنا أيضاً، وإذا كان الله غير موجود في فرنسا، فهو غير موجود هنا، والإنسان واحد في كل مكان، والناس متساوون، الجمهورية دائماً هي الأفضل، والعلم رأس كل شيء.

حين قال صلاح الدين لي هذا، كان قد تخلى عن جعل الحدادين وصناع المدافئ في غبزة يصنعون له أدوات عجيبة، وعن التوسل إلي لتسديد نقوده، وعن استدعاء اليهودي. لم يعد يقضي وقته بسكب دلاء الماء في الأواني المترابطة التي صنعها من اسطوانات المدافئ لعرض كيفية عمل النافورة كالمجانين الذين يبحثون عن الطمأنينة بالفرجة على بركة الماء في مستشفى الأمراض العقلية، وتخلى عن تطيير الطائرات التي تبتل وتسقط مثل العجين بسبب المطر، واللعب بالمكبرات الزجاجية والمخروطات، والأنابيب التي ينطلق من فوهاتها الدخان، والزجاجات الملونة والمناظير من أجل تبيان ما هي الكهرباء. كلّفتُك مصروفاً كبيراً من أجل العبثيات التي في غرفةِ الغسيل يا فاطمة. كنتِ على حق بقولك بأن كل هذا طفولة، أنا آسف. الاعتقاد بأن تأسيس مختبر الهواة هذا في بيتنا مساهمة في العلم لا غير هوسَ شباب وهو في الوقت نفسه طفولة ينتج عنها عدم فهم كم أن العلمَ مقدسٌ. خذي هذا المفتاح، وخذي الحاجيات أنت ورجب، ارمياها في البحر، بيعاها إن أردتما، افعلا بهما ما تريدان. هاه، خذا تلك اللوحات أيضاً، ومجموعة الحشرات، وهياكل السمك، وهذه الأزهار والأوراق التي جففتها بخبل، وجثث الفأرة

والخفاش والأفعى والضفدع الموضوعات في الدوارق. هات، امسكي هذه المطربانات يا فاطمة. يا الله، ما المقرف أو المخيف الآن؟ حسنٌ، حسنٌ، نادي رجباً لأتخلص من هذه الترهات فوراً. لم يبق مكان لكتبي أصلاً. جيد ما حدث. لأن اعتقادنا بأننا سنعتكف لاكتشاف شيء ما في الشرق، وقول هذا، ليس سوى نوع من السخف. أولئك الناس اكتشفوا كل شيء، ولم يبق ما يمكن قوله: اسمعي هذه العبارة: ليس ثمة جديد تحت الشمس! اسمعي يا فاطمة، حتى هذه العبارة ليست جديدة. هذه أيضاً تعلمناها منهم، اللعنة! هل تفهمين؟ لم يبق لديّ وقت أيضاً. أدرك بانني لا أستطيع تحديد موسوعتي في ثمانية وأربعين مجلداً، الأفضل جعل هذه المواد في أربعة وخمسين مجلداً. وأنا من جهة أخرى أتململ لأجعل هذا العمل ملكاً للجماهير. كم هو منهك كتابة عمل حقيقي. وأعرف يا فاطمة أن ليس من حقي الاختصار. لأنني لا أكتفي يا فاطمة بكتابة كتيب صغير في ١٠٠ صفحة عن زاوية ما، ثم أنفخ نفسي كأولئك المخبولين ذوي النفوس الساذجة. انظري إلى طروحات عبد الله جودت! إنه رجل ساذج وسطحي. وهل هذه هي الحقيقة كلها؟ ثم أنه أخطأ بفهم (بيزت)، فوق هذا، فهو لم يقرأ (بونيسانس)، وزاد الطين بلة بانه يستخدم مفردة fraternite خطأ، ولكن ما الذي سنصححه لهؤلاء الناس؟ فوق هذا، إذا صححت فمن سيفهم؟ مخبولون. ينبغي تبسيط كل شيء لهذا الشعب الأحمق كي يفهم. وأتذكر أن صلاح الدين صرخ قائلاً: أخرج عن ديني من أجل شرح المكتشفات العلمية، وأضمّن كتاباتي بالأمثال الشعبية والأقوال المأثورة كي تفهم الحيوانات. فجأة، سمعتُ هدير السيارة التالية لآخر سيارة.

وقفتْ أمام باب الحديقة. سمعتُها مع هدير السيارة عندما انفتح بابها: ما هذه الموسيقا الغربية! بعد ذلك، تحدثوا، وسمعتهم.

صرخ أحدهم قائلاً: "في بيت أسرة جيلان غداً صباحاً. حسنٌ".

صرخ متين قائلاً: "حسنٌ".

بعد ذلك، أقلعت السيارة صارخة وكأنها تتلوى ألماً. بعدئذ، عبر متين الحديقة. وتك تك، فتح باب المطبخ، ودخل. صعد الدرج بخمس خطوات، ومرّ من هناك حيث يسمي صلاح الدين المكان غرفة الطعام، وصعد الدرج المؤدي إلى الأعلى وهو تسع عشرة درجة. وبينما كان يعبر من أمام غرفتي، فكرتُ فجأة بمناداته: متين، متين، تعال إلى هنا، تعال يا صغيري! احكِ لي أين كنت. ماذا يوجد في الخارج، وفي هذه الساعة من الليل؟ ماذا يوجد في العالم؟ هيا احك لي! إلى أين ذهبتم؟ ماذا رأيتم؟ وأقول له: أجج فضولي وانفعالاتي ولهوي، ولكنه كان قد دخل إلى غرفته. وحين عددتُ إلى الخمسة، كان قد خلع ثيابه ورمى بنفسه على السرير بقوة على نحو حرك البيت. وأُقسم أنه سينام قبل أن أعدَّ إلى الخمسة... ثلاثة، أربعة، خمسة، يا لجمال نوم الشباب. إذا كنتَ شاباً فيالجمال نومك، أليس كذلك يا فاطمة؟

ولكنني لم أنم هكذا حتى عندما كنتُ في الخامسة عشرة. كنت أنتظر أشياء ما. مثلاً: نزهتُنا بعربة الخيل مهتزين، عزفُنا على البيانو، مجيء بنات خالتي، وبعد ذلك ذهاب القادمين، تناوُلنا الطعام ونهوضُنا عن المائدة، وانتظارٌ أعمق يُنهي انتظارَنا هذا، وما ننتظره داخل هذا الانتظار ولا نعرف ماهيته. في ما بعد، أي بعد مرور تسعين عاماً، أفهم

أن كل هذا ملأ عقلي كقطرات الماء المتلامعة المتراكمة في بركة في صمت ليل الصيف هذا الحار والمتصنم، أرى نفسي فيها، وأرى أن نفسي مليئة بي، وكأنني أنفخ نفسي في الهواء كي لا يتسخ ماء البركة، وكي لا يسقط الغبار في ماء البركة البرّاق. كنت فتاة خفيفة وصغيرة وميساء.

أحياناً أتوق لمعرفة ما إذا كان الإنسان يمكنه البقاء صغيراً طوال عمره: إذا كانت الفتاة مثلي لا تريد أن تكبر، أو تغوص في الحرام، وكان هذا هو الأمر الوحيد الذي تريده فيجب أن تستحق البقاء هكذا، وتري كيف يمكنها أن تحققه؟ حين كنتُ طفلة، وأذهب لزيارة (نيفان) و(توركان) و(شكران) في اسطنبول، استمعت منهن على التوالي لرواية فرنسية مترجمة إلى التركية: لدى المسيحيون أديرة. لا يُراد لها أن تتسخ، فتذهب صاعداً إلى القمة، وتدخلها، وتنتظر. ولكنني اعتقدتُ أن هذا أمر عجيب وبشع. في أثناء استماعي لذلك الكتاب الذي قَرَأَتْهُ نيفان، تصورتهن مصطفات إحداهن بجانب الأخرى مثل الدجاجات الكسولة والمسكينة التي لا تريد أن تبيض. بعد ذلك، حين أفكّرُ بأنهن يتقدمن بالسن، ويشخن، أشمئز: المسيحية هي صليب وصنم وخوارنة ذوو لحى سوداء وعيون حمراء يتفسخون بين جدران حجرية باردة! أنا لا أريد هذا: أنا أريد البقاء كما أنا دون أن أظهر لأحد.

لا، لا أستطيع النوم! أنظر إلى السقف دون جدوى. انقلبتُ، ونهضت ببطء، ومشيت نحو الطاولة، ونظرت إلى الصينية وكأنني أراها أول مرة. وضع القزم هذا المساء درّاقاً وكرزاً حامضاً. تناولت حبة كرز حامض، ووضعتها في فمي، وأمسكت عليها بين فكيّ كما لو أنها حبة ياقوت كبيرة، وبعد ذلك عضضْتُ عليها، ومضغتُها ببطء منتظرة أن

يأخذني عصيرها وطعمها إلى مكان ما، ولكن دون جدوى. ها أنا هنا. أخرجتُ عجوتها، وجرّبتُ حبة أخرى، بعد ذلك، واحدة أخرى، وبعد ذلك ثلاث حبات أخرى. وعندما أخرجت عجواتها كنت هنا أيضاً. من الواضح أن هذه الليلة ستمر بصعوبة.

-١٧-

عندما استيقظتُ، نظرتُ فإذا بالشمس قد ارتفعت حتى سقطت أشعتها على كتفي، والطيور على الأشجار، وأبي وأمي بدءا اسطوانتهما في الداخل.

أبي يقول: "متى جاء حسن البارحة؟"

تقول أمي: "لا أدري. أنا نمت. هل تريد مزيداً من الخبز؟"

قال أبي: "لا. سآتي ظهراً، لأرى ما إذا كان في البيت".

بعد ذلك، سكتا، ولكن الطيور لم تسكت: استمعت من السرير الذي أنام فيه للطيور والسيارات الهارعة إلى اسطنبول. بعدئذ، نهضتُ، وأخذتُ مشطَ نيلفون من جيب بنطالي، وعدتُ إلى الاضطجاع. تمددتُ هكذا وأنا أنظر إلى المشط تحت ضوء الشمس الداخل من النافذة، وفكرتُ: شعرتُ بغرابة عندما خطر ببالي أن الشيء الذي أمسكه بيدي قد تجوّل في أعمق أعماق زوايا غابة شعر نيلفون.

بعد ذلك، خرجتُ من النافذة بهدوء. رشقت على نفسي ماءً من البئر، وشعرتُ بأنني أفضل: لم أعد أعتقد بأنني لن أستطيع أن أكون مع نيلفون، وبأننا إنسانان ينتميان إلى عالمين مختلفين كما كنت أفكر في منتصف الليلة الماضية. دخلتُ، وارتديتُ لباس السباحة وبنطالي

وحذائي المطاطي. وضعتُ المشط في جيبي، ولحظة قررت الخروج، سمعتُ جلبة عند الباب. حسنٌ: أبي ذاهب. وهذا يعني أنني لن أستمع لمقولتي: كم الحياة صعبة، وكم شهادة الثانوية مهمة؟ مع إفطار الجبن والزيتون. كانا يتكلمان عند الباب.

كان أبي يقول: "اخبريه! إذا لم يجلس اليوم، ويدرس..."

قالت أمي: "جلسَ مساء البارحة، ودرس".

قال أبي: "أنا خرجتُ إلى الحديقة، ونظرتُ إلى غرفته عبر النافذة. كان جالساً إلى الطاولة ولكنه لا يدرس. من الواضح أن عقله كان في الخارج".

قالت أمي: "سيدرس، سيدرس".

قال بائع اليانصيب الأعرج: "هو يعرف. إذا لم يدرس سأرسله إلى الحلاق ليكون إجيراً".

بعد ذلك، سمعت وقع قدمين إحداهما قوية والثانية ضعيفة تبتعدان. حين ابتعد مصدراً صوتَ طاق تيكر، خرجتُ إلى المطبخ، وبدأتُ تناول الطعام.

قالت أمي: "اجلس، لماذا تأكل واقفاً".

قلت: "أنا ذاهب الآن. كيفما كان لا ينتبه مهما درستُ. سمعتُ أبي".

قالت: "لا تلتفت إليه. هيا اجلس، وتناول طعامك بشكل جيد. لأصب لك الشاي، هل تريد؟"

كانت تنظر إلي بحب. فجأة فكرت بأنني أحب أمي كثيراً، ولا أحب أبي. أشفقتُ على أمي، وخطر ببالي أنه لم يصبح لي أخ بسبب

قيام أبي بضرب أمي. هذا عقاب، أي ذنب؟ ولكن أمي هي أختي. فكّرت: كأننا - أمي وأنا - أخوان، وأسكنونا في بيت هذا الأعرج عقاباً لنا، وقالوا لنا: هيا عيشا بالنقود التي يكسبها من بيع اليانصيب، إن كنتما تستطيعا. نعم، حالتنا ليست سيئة جداً. يوجد في صفنا من هم أفقر مني بكثير، ولكننا لا نمتلك ولا دكان. ولو لم يكن في حديقتنا بندورة وفاصولياء وفلفل أخضر وبصل لكانت أمي بائعة يانصيب من أجل أن تضع شيئاً ما في القدر وتغليه، وما كانت تستطيع أن تأخذ نقوداً من هذا الرجل البخيل، ولعلنا سنبقى جائعين. حين خطرت هذه الأمور ببالي، قلت لنفسي لأخبر أمي بكل شيء: العالم، وكيف أصبحنا لعبةً بيد الدولِ الكبرى، والشيوعيين، والماويين، والامبرياليين، والآخرين، وكيف أَصبحنا مضطرين لمدّ يدنا لأقوام كانت خدماً لنا في يوم من الأيام. ولكنها لا تفهم هذا: تشتكي من قلة حظها، ولا تفكر بسبب كونها هكذا. مازالت تنظر. تضايقتُ.

قلت: "لا يا أمي. أنا سأذهب فوراً. لدي عمل".

قالت: "حسنٌ يا ابني، كما تريد".

حسنٌ أيتها الأم الجميلة! ولكن بعد ذلك...

قالت: "لا تتأخر إذن، وتعال ادرس قبل أن يأتي أبوك ظهراً".

للحظة فكرتُ بطلب نقود، ولكنني لم أطلب. خرجت، ونزلتُ في الطريق. البارحة أعطتني خمسين ليرة. وأعطاني العم رجب عشرين ليرة. اتصلتُ مرتين بالهاتف: ٢٠ ليرة، ولحم بالعجين: ١٥ ليرة، بقي خمس وثلاثون ليرة. أخرجتها من جيبي، ونظرتُ إليها. نعم، لدي خمس وثلاثون ليرة، ولا حاجة للوغاريتم والجذر التربيعي لعمل هذا الحساب.

ولكن نيّة الذين يرسبونني في صفي وأولئك الأساتذة والسادة مختلفة: يريدون إخراجي وجرجرتي وتعليمي طأطاة الرأس لكثرة الجرجرة كي أعتاد على الاكتفاء بالقليل. أعرف أنكم ستفرحون يوم ترونني اعتدتُ. وستقولون: إنه تعلّم الحياة. ولكنني لن أتعلم حياتكم أيها السادة. سأتناول مسدساً وأعلمكم: حينئذ سأشرح لكم العمل الذي أريد أن أعمله. كانوا يمرون بسياراتهم صاعدين الطريق مسرعين. نظرتُ، ولوجود إضراب في المصنع المقابل. توترت أعصابي، وأردتُ أن أعمل شيئاً ما. أردتُ الذهاب إلى الرابطة على الأقل. ولكنني خفتُ من البقاء وحدي هناك: ماذا يحدث لو ذهبتُ من دون مصطفى وسردار؟ فكرتُ: يمكنني الذهاب حتى إلى أسكوجار وحدي، وأن أقول لهم: كلفوني بمهمة جيدة ونظيفة. بيع بطاقات الدعوة في السوق والكتابة على الجدران لا تلبي طموحي، كلفوني بمهمة كبيرة. ستذكرني التلفزات والصحف في يوم ما. فكرتْ.

نظرتُ من بين الأسلاك حين وصلتُ إلى شاطئ السباحة. لم تكن نيلفون هناك. مشيتُ قليلاً، وفكرتُ من جديد. بعد ذلك، تجولّت في الشوارع، وفكرت أكثر قليلاً. ثمة أمهات وبنات وأبناء يجلسون في الشرفات والحدائق الصغيرة، ويتناولون الإفطار: حدائق بعضهم صغيرة، وطاولاتهم صغيرة إلى حدّ أنني أستطيع عدّ حبات الزيتون في الصحن. لو أجمعهم في شاطئ السباحة، وأقول لهم: هيا اصطفي أيتها المخلوقات الكسولة، ثم أصعدُ إلى مكانٍ مرتفع، وأشرحُ كل شيء: ألا تخجلون؟ أفهم إنكم لا تخافون من جهنم، ولكن أليس لديكم ضمائر. أيها المنحلون السافلون عديمو الأخلاق. أنا لا أفهم كيف يمكنكم العيش

دون تفكير بغير مزاجكم والربح الذي تحققونه في دكاكينكم ومعاملكم. ولكنني سأريكم. نار، ورشاشات أتوماتيكية. إنهم لم يعودوا يجلبون حتى الأفلام التاريخية. لأعمل شيئاً أؤثر عليهم جميعاً فلا ينسونني. وصلتُ إلى بيت أهل نيلفون. نظرتُ، لم يكن هنالك أحد. لو اتصلتُ بهم، وشرحتُ لهم هذا: خيال. عدت إلى شاطئ السباحة، لم تكن موجودة أيضاً. بعد قليل، رأيتُ عمي رجب. في يده شبكة تسوّق. عندما رآني، غير طريقه، وجاء إلي.

قال: "ماذا تفعل أنت هنا من جديد؟"

قلت: "لا شيء. درستُ البارحة كثيراً، والآن أتنزه قليلاً".

قال: "هيا عد إلى بيتك يا صغيري. ليس لديك عمل هنا".

قلتُ: "ها... بالنسبة إلى العشرين ليرة التي أعطيتني إياها البارحة يا عمي. إنهم لا يعطون دفتراً بعشرين ليرة. ثمن الدفتر خمسون ليرة". دسست يدي إلى جيبي، ووجدتُ العشرين ليرة، وأخرجتُها، ومددتها له معيدها.

قال: "لا أريد. أنا أعطيتك إياها كي تدرس. ادرس، وصرْ رجلاً عظيماً".

قلت: "لا يغدو الإنسان رجلاً عظيماً بلا مقابل، لأن الدفتر بخمسين ليرة".

قال: "حسنٌ" وأخرجَ ثلاثين ليرة، وأعطانيها، وأضاف: "ولكن لا تدخن".

قلت: "إذا كنت تظن أنني أدخن فلن آخذها. انتظرتُ قليلاً، بعد ذلك، أخذتُها. قلت: "حسنٌ، أشكرك. سلّم لي على متين ونيلفون. جاؤوا أليس كذلك؟ علي أن أذهب، وأدرس. اللغة الإنكليزية صعبة جداً".

قال القزم: "صعبة ياه. وهل تظن أن الحياة سهلة؟"

مشيتُ قليلاً كي لا يعيد الأسطوانة كأبي. بعد ذلك، التفتُ ونظرتُ: التفتَ وهو ذاهب ببطء مهتزاً. تألمتُ من أجله. الجميع يمسكون الشبكة من مقبضها، إلا هو يمسكها من فمها كيلا تدقَّ بالأرض. قزم مسكين. ولكنه قال لي: ما عملك أنت هنا؟ يريدون ارتكاب الحرام براحة دون أن يقلقوا عندما يرونني. مشيتُ قليلاً أيضاً كيلا أقابل القزم مرة أخرى. بعد ذلك، توقفت. انتظرتُ قليلاً، وعندما مشيت قليلاً إلى شاطئ السباحة خفق قلبي: كانت نيلفون قد جاءت منذ زمن، وتمددت على الرمل. متى جئتِ؟ إنها تتمدد كما كانت بالأمس. وتنظر إلى الكتاب الموضوع بجانب ذراعها دون أن تحرك رأسها. كنتُ مندهشاً عندما صرخ أحدهم.

"هيييييه. ستسقط فيها".

خفتُ. التفت، ونظرت: إنه سردار الذي أعرفه.

قال: "ما الأخبار يا هذا. ما عملك أنت هنا؟"

"لا شيء".

"هل تراقب البنات؟"

قلتُ: "لا، لدي عمل".

قال: "لا تكذب! إنك تنظر إلى الداخل وكأنك ستأكلهن. أليس هذا معيباً. لأخبر مصطفى، وسترى مساءً".

قلت مجدداً: "لا، انتظر أحد المعارف. ماذا تفعل أنت؟"

قال: "أنا ذاهب إلى التصليح" وأشار إلى الحقيبة بيده. "مَنْ أحد المعارف هذا؟"

قلت: "لا تعرفه".

قـال: "لـيس لديك من تعـرفـه. أنت تتـجـسَّس على الفـتـيـات دون خجل. حسن من تعرف إذن؟"

قلتُ: "حسنٌ! سأريك مَنْ. انظر دون أن تلفت انتباه أحد".

أشرت إليها برأس أنفي. نظر.

قال: "إنها تقرأ كتاباً. من أين تعرفها أنت الآن؟"

قلت له: "أعـرفها من هنا". وشرحت له: "قديماً عندما لم يكن يوجد أي بيت اسمنتي هنا، كان هنالك بيتنا الحجري في آخر الطريق وبيتـهم القديم العجيب والدكان الأخضر الصغير الذي في السوق الآن. لم يكن ثمـة أحـد، ولم يكن الحي العلوي مـوجـوداً، والمعـامل أيضـاً لم تكن موجودة، والحي الجديد وحي (إسان تبة) لم يكونا موجودين، لم تكن هذه المصـايف وشـاطئ السـبـاحـة مـوجـودة، والقطار لا يمرّ بين المعـامل والمستودعات، بل بين البساتين والكروم، ياه!"

قال شارداً: "هل كان المكان جميلاً حينذاك؟"

قلتُ: "كان جميلاً. كانت أشجار الكرز تتفتح بشكل مختلف في الربيع. كنت تمد يدك إلى البحـر، فإذا لم تأتِ إلى يدك سمكة بوري، تصطاد سمكة العين السوداء وتدخل إلى راحة كفك.

قال: "أنت فرامة كذب. قل لي: لماذا تنتظر تلك الفتاة؟"

قلتُ: "سأعطيها شيئاً. بقي غرض لها معي".

"ما هو؟"

أخرجته، وأريته إياه: "هذا المشط لها".

قال: "هذا مشط رخيص. هم لا يستخدمون أمشاطاً كهذه. هاته لأراه"

أعطيته إياه لينظر، ويفهم، ويغضب. أخذه، وبدأ يثني المشط. الله يبعث له البلاء.

"هل أنت عاشق لهذه الفتاة؟"

قلت: "لا، انتبه! ستكسره".

"احمرَّ وجهك. هذا يعني أنك عاشق لفتاة الطبقة الراقية هذه".

"لا تحنه وتثنه! لا تهدر المشط! حرام".

قال: "لماذا؟" وضع المشط في جيبه فجأة، واستدار ذاهباً.

ركضت خلفه.

قلتُ: "هيا يا سردار، كفى مزاحاً إلى هذا الحد!" لم يُجب. "دع الأمور في حدودها، وهات هذا المشط!" لم يجب أيضاً: "هل هذا وقته الآن؟ عيب".

نظرت يميناً ويساراً، ولم يكن ثمة أحد من حولنا. ركضتُ، وأمسكتُ بذراعه، ولويته. بدأ يتلوى. لويت ذراعَهُ هذه المرة إلى الأعلى أكثر ليتألم جيداً.

صرخ: "آخ يا حيوان". وسقطت حقيبة الأدوات. "قف! سأعطيك إياه".

أخرج المشط من جيبه، ورماه على الأرض.

كان يقول: "ماذا تفهم أنت من المزاح يا تيس؟"

أخذتُ المشط. المهم لم يحدث لي شيء. وضعتُه في جيبي.

"أنت لا تفهم شيئاً. يا متخلف عقلياً يا ابن آوى!"

سألكمه لكمة على وجهه. ماذا سيحدث؟ عدتُ، سرتُ إلى شاطئ

السباحة. بدأ يشتمني من خلفي. بعد ذلك، صرخ قائلاً إنني عاشق لفتاة راقية. لا أدري إن كان قد سمعه أحد المارة. خجلت.

عندما وصلتُ إلى شاطئ السباحة، نظرت. ذهبت نيلفون. أنا مرتبك. رأيتُها: لا، لم تذهب. انظر! مازالت حقيبتها هناك. أخرجتُ المشط من جيبي، وانتظرتُ خروجها من البحر.

أذهبُ عندما تخرج، وأقول: أسقطتِ هذا المشط يا نيلفون. وجدته في الطريق، فجلبتُه. ألا تأخذه؟ ليس لك؟ تأخذه، وتشكرني. أقول: غير مهم. لا ضرورة للشكر. الآن تشكرينني، ولكنك البارحة حرمتِني حتى من التحية في الطريق. تعتذر. أقول: لا حاجة لاعتذارك أيضاً. أعرف أنك إنسانه جيدة. رأيتك بأم عيني تقرأين الفاتحة في المقبرة مع جدتك. أقول هذا. وعندما تسألني عما أفعله، أقول لها إنني راسب في مادتي اللغة الإنكليزية والرياضيات. أقول: هل تذهبين إلى الجامعة؟ إذا كنتِ تعرفين هاتين المادتين، فهل تعلمينني قليلاً؟ تقول: طبعاً، تعال إلينا. وهكذا يمكن أن أذهب إلى بيتهم، ونجلس معاً إلى طاولة واحدة، ولا يخطر ببال من يرانا ندرس اننا من عالمين مختلفين. نحن معاً. نجلس إلى الطاولة نفسها. نجلس. شردتُ.

بعد ذلك، رأيتها وسط الزحام: خَرَجَتْ من البحر. تجفف نفسها. كأن رجليّ تريدان الركض فوراً. عندما ارتدت ثوبها الأصفر وتناولت حقيبتها ومشت نحو الباب، خرجتُ من شاطئ السباحة وسرتُ مسرعاً إلى البقال. بعد قليل، التفتُ ناظراً إلى الخلف، رأيت نيلفون قادمة إلى البقال من خلفي. حسنٌ، عندما دخلتُ إلى دكان البقال، قلت: "اعطني كوكا كولا!"

قال البقال: "الآن!"

ولكن البقال ذهب، وبدأ يحاسب المرأة العجوز هناك وكأنه تركني لتجدني نيلفون هنا أقف دون عمل. المهم، صرف المرأة العجوز، وفتح زجاجة، وهو ينظر إليّ نظرة غريبة. اختطفتُ الزجاجة من يده بسرعة، وانزويت في إحدى زوايا الدكان أنتظر. أنت تدخلين إلى البقالية، وأنا أشرب من زجاجتي. يا للمصادفة، نحن نلتقي عند البقال. أقول: مرحباً كيف حالك؟ أقول: هل تعلمينني اللغة الإنكليزية؟ انتظرتُ، وانتظرت. وعندما دخلتِ يا نيلفون لم أستطع رؤيتك لأنني كنتُ أنظر إلى الزجاجة التي بيدي. حسنٌ، هل أنتِ أيضاً لم ترينني؟ أم أنكِ تمتنعين عن تحيتي؟ ولكنني لم أكن أنظر.

فجأة، قلتِ يا نيلفون: "هل لديكم مشط؟"

قال البقال: "كيف المشط؟"

نفر الدم إلى وجهي.

قلتِ: "مشطي ضاع. أريد أيّ مشط".

قال البقال: "يوجد من هذه فقط. هل تفيدك؟"

قلتِ: "دعني أرى".

بعد ذلك، خيّم صمت. التفتُّ، ونظرت إليك يا نيلفون. رأيت وجهك من جانب واحد: كم أنت جميلة! أنت عميقة، وبشرتك كبشرة طفل، وأنفك صغير أيضاً.

قلتِ: "حسنٌ، سآخذ واحداً منها!"

لم يجب البقال، وذهب إلى المرأة التي دخلت إلى الدكان. حينئذ تلفّت فيما حولك، وأنا خفتُ. وخشية من اعتقادك بأنني أتجاهلك بادرتُ بالقول: "مرحباً" وقلت لي أنت: "مرحباً".

ولكن قلبيً اكتوى. لأنك عندما رأيتني لم يبدُ على وجهي السرور، بل الضيق. رأيتُه، وفكرت بأنكِ لا تحبينني. وهذا يعني أنني أضايقك. وهكذا تسمّرت هناك حاملاً زجاجة الكوكاكولا. نحن الآن نقف عند البقال كغريبين.

فكرتُ بأنكِ على حق. أنت محقة بألا ترغبي حتى بتقابل نظراتنا، لأن محيطينا مختلفين! ولكنني مندهش. لماذا يمنع الإنسان التحية؟ لماذا ينظر الإنسان بعداء دون سبب؟ هذا ما يُدهشني: كل شيء نقود، وكل شيء قَــــذِر، وكل شي سيء! اللعنة! فكرتُ بأنني يجب أن أدرس الرياضيات. حسنٌ يا أبي. سأذهب، وأدرس الرياضيات، وأحصلُ على شهادة الثانوية، وألقيها أمامك!

اشترت نيلفون مشطاً أحمر، وبعدئذ اعتقدتُ بأنني سأبكي. ولكنني بعد ذلك، دُهِشتُ أكثر، لأنها قالت:

"أريد جريدة (جمهوريت)!"

دهشت كثيراً. نظرت كمخبول. كنتُ أنظر كيف تخرج من الباب مرتاحة كطفل لم يسمع أبداً بالذنب أو الحرام. وفجأة، ركضتُ حاملاً الزجاجة.

قلتُ: "هذا يعني أنك تقرأين جريدة شيوعية!"

قالت نيلفون: "نعم؟" ونظرت إلي نظرة غير سيئة. نظرت لتفهم شيئاً فقط. وفجأة، فهمتْ ما قلتُ، وتوجست، وتراجعت ذاهبة دون أن تقول شيئاً.

ولكنني فكرت بعدم تركها. أريد منها أن تشرح لي كل شيء، وأشرح لها. أردت الذهاب خلفها، نظرتُ وإذا بزجاجة الكوكاكولا اللعينة

بيدي. لعنها الله. عدت، وأخرجتُ ثمنها، ودفعته. وانتظرت كمخبول أن يعطيني بقية النقود. ولكن الرجل جعلني انتظر قصداً كي أفوّتك. لا أدري.

حين خرجتُ من دكان البقال، ونظرت، كانت نيلفون قد ذهبت، وانعطفت من الزاوية. لو ركضتُ خلفها للحقتُ بها في الحقيقة، ولكنني لا أركض، وأسير بخطوات سريعة. لأن هنالك من ينظر. ثمة زحام أحمق يتجه إلى شاطئ السباحة أو السوق أو تناول المثلجات. سرتُ مسرعاً، وصعدت الطريق، ونزلت، وخطوت خطوات راكضة قليلاً. بعد ذلك، مشيت من جديد، وركضت عندما لم يكن هنالك أحد. ولكنني رأيتها عندما انعطفتُ من الزاوية: لم أعد أستطيع اللحاق بها حتى لو ركضتُ بكل قوتي. رغم هذا، ذهبتُ، وسرت حتى باب بيتها، ونظرت من خلف الحديد: دخلتْ إلى البيت من الحديقة.

جلستُ هناك تحت شجرة الكستناء، وفكرتُ قليلاً. فكرتُ بالشيوعيين وبالشخصيات التي يتقمصونها وبمن يستطيعون خداعهم، وتوجست. بعد ذلك، نهضت، ودسستُ يدي في جيبي، وكنت سأعود: مازال المشط الأخضر في جيبيّ أخرجته، ونظرت إليه. قلتُ: أكسره! لا، لا أجد في نفسي حتى ما يدفعني إلى كسره. ثمة صفيحة زبالة عند بداية الرصيف. رميتُ فيها مشطك الأخضر يا نيلفون. ومشيت إلى البقال دون أن أنظر خلفي. خطر هذا ببالي.

إيه، سنتحدث يا سيد بقال. ألم نقل لك: لا تبع هذه الجريدة؟ أية عقوبة تريد؟ اختر! لعله يقول هذا بصراحة: أنا شيوعي، وتلك الفتاة شيوعية، ولأنني مؤمن بهذه الجريدة أبيعها! فجأة حزنتُ من أجل نيلفون. لأنها كانت جيدة جداً في طفولتها. دخلت إلى البقالية غاضباً.

قال البقال: "أنتَ مرة أخرى، ماذا تريد؟"

انتظرتُ قليلاً لوجود زبائن آخرين. ولكن البقال سأل مرة أخرى، وكان الزبائن ينظرون إلي.

قلت: "أنا؟ شيء... أريد مشطاً... من أجل الشعر".

قال: "حسنٌ. أنت ابن إسماعيل بائع اليانصيب، أليس كذلك؟" أَخرجَ الصندوق، وأراني إياه.

قال: "أخذت تلك البنت الأحمرَ قبل قليل".

قلت: "أية بنت؟ أنا أريد أي مشط".

قال: "حسنٌ، حسنٌ. اختر اللون الذي تريد لنر".

"بكم تبيع الواحد؟"

نظرتُ إلى الأمشاط التي في الصندوق براحة لأن الزبائن الآخرين ذهبوا وتركوني. بعد ذلك، اشتريتُ مشطاً أحمر بلون مشطك بالضبط يا نيلفون. ثمنه ٢٥ ليرة. أعطيته الثمن وخرجتُ من البقالية، وفكرت قائلاً لنفسي: مشطانا متماثلان. بعد ذلك، مشيتُ، ومشيت، ووصلت إلى نهاية الرصيف. صفيحة الزبالة هناك. لا يوجد من ينظر. أدخلتُ ذراعي إليها، وأخرجتُ المشط الأخضر من هناك. لم يتسخ. لم يرني أحد. ماذا يحدث لو رأوني؟ يوجد الآن مشطان في جيبي. أحدهما لك، والثاني مماثل لمشطك. استمتعتُ بالتفكير على هذا النحو. فكرت بأن أحداً من أولئك الناس أو أي شخص مخبول رأى ما فعلته، سيشفق علي ويضحك مني في آن واحد. ولكنني لن أتخلى عن هذا العمل، لأنني لا أريد لأولئك الحمقى المخبولين الذين لا روح فيهم أن يضحكوا علي. أنا حر. أنا أتجول في الشوارع مفكراً بك.

-١٨-

تقترب الساعة من الخامسة. مضى وقت طويل على سقوط أشعة الشمس على نوافذ غرفة القبو العفنة. بعد قليل، سأجمع حقيبتي، وأبحث عن الوباء في الهواء الطلق. عقلي ملخبط جداً. قبل قليل، كنت أعتقد أنني أستطيع التجوّل بين الوثائق دون هدف، ويمكنني أن أنجح دون أن أقصد. والآن بهذا النجاح العجيب كان التاريخ قبل قليل كتلة شبه دخانية شكّلتها ملايين الأحداث التي لا علاقة لها بالآخر.. لعلني أستطيع استعادة هذا الشعور إذا أعدتُ قراءة ما كتبته بسرعة ! ها هو:

أقرأ نتائج الإحصاء غير الاعتيادي الذي أجري لأملاك الوزير إسماعيل باشا (تشاير أوفا) و(إسكي حصار) و(طوظلا) وفي ست قرى تابعة لقضاء غبزة. أقرأ بان خضراً يدعي على إبراهيم وعبد القادر وأولادهما لأنهم أحرقوا بيته، ونهبوا أغراضه. أقرأ الفرمانات المرسلة من أجل إنشاء رصيف رسو في (إسكي حصار). أقرأ عن ضرورة سحب دخل قرية مجاورة لغبزة يبلغ سبعة عشر ألف أقتشة من الفارس الموظف عليها، ومنحه لحبيب لأن الأول لم يلب النفير، ثم سَحْبها من حبيب ومنحها لآخر، لظهور أن حبيباً أيضاً لم يلب النفير. أقرأ أن عيسى أخذ ثلاثين ألف أقتشة وسرجاً وحصاناً وسيفين وترساً عائدة لسيده أحمد،

ولجأ إلى شخص يدعى رمضان، وأن رمضاناً حمى عيسى، وادعى أحمد عليهما. أقرأ عن موت المدعو سنان، وبسبب دعوى الإرث سجّل المدعوون مال وملك عثمان تشلبي أوغلو، وهو أحد المدعوين. أقرأ شهادات مصطفى ويعقوب وهدى وردي بشأن الحصان المأخوذ من اللصوص، والموضوع في اسطبل اللواء عائد لسليمان بن ضرصون الغبزوي، وأعتقدُ بأن ذلك الإحساس المانح للسعادة قد تأجج في داخلي: بدأ يتململ في عقلي الربع الأخير للقرن السابع عشر. كانت تقف نتائج الربع الأخير للقرن بين تلافيف مخي دون ربط أحدها بالآخر سببياً. بينما كنتُ أتناول طعام غذائي شبهتها بحجرة ديدان ممتدة في فراغ لا نهائي دون جاذبية أرضية. كانت ديدان النتائج تتحرك داخل عقلي كأنها في فراغ، كأنها لا تترابط، ولا تلامس إحداها الأخرى. فكرتُ بأن عقلي جوزة تتجول فيها الديدان. كأنهم سيرون الديدان المتجولة بين تلافيف مخي لو كسروا جمجمتي ورأوا ما بداخلها.

ولكن هذا الانفعال لم يستمر طويلاً أيضاً. فقد تبددت المجرّة شبه الدخانية. ها هو عقلي العنيد يتوقع مني الأمر نفسه انطلاقاً من عادته القديمة: كأنني يجب أن أجد قصة تلخّص هذه النتائج، وأن أركِّبَ قصة مقنعة! كأن بنية عقلنا يجب أن تتغير كي نرى الحياة على ما هي عليه، ونفهمها، وليس التاريخ فقط، آه، إن التعلق بالاستماع إلى قصة يخدعنا جميعاً، ويجرنا إلى عالم خيالي، رغم أننا جميعنا نعيش في حياة ذات دم وروح...

بينما كنتُ أتناول طعام غذائي، فكرت في إحدى اللحظات بأنني وجدتُ حلاً لهذه القضية. أفكّر بقصة بوضاق التي تشغل عقلي منذ

البارحة. اكتسبتْ هذه القصة بعداً جديداً عبر ما قرأته في بعض النصوص هذا الصباح: كنت أعتقد أن بوضاق وجد طريقة ما، ودخل بها تحت جناح أحد باشوات اسطنبول. كان في عقلي ثمة تفاصيل أخرى استخرجتها من الكتاب الذي كتبه مدرس التاريخ في الثانوية: كلها من النوعية المقنعة للمتعلقين بالقصص وللعاملين على فهم العالم عبر القصص.

-١٩-

جلسوا حول الطاولة في ضوء المصباح الشاحب. يتناولون الطعام صامتين. طعام العشاء الصامت: بدايةً يتحدث السيد فاروق ونيلفون، يتضاحكان. بعد ذلك، ينهض السيد متين قبل أن يُنهي لقمته. وتسأل السيدة الكبيرة: إلى أين يذهب؟ وبعد ذلك، تريد أن تتحدث مع الآخرين دون أن تتلقى جواباً ولا بكلمة واحدة. يقولون: كيف حالك يا جدة، كيف حالك؟ ولأنه لم يبق ما يتكلمون به، يقولون: لنُركِّبك غداً في السيارة، وننزهك. أُنشئت أبنية سكنية، وبيوت، وأبنية من الإسمنت المسلح، وشُقت طرق، وبنيت جسور في كل مكان، تعالي لنريك إياها. ولكن السيدة الكبيرة تصمت. تهمهم أحياناً، ولكنهم لا يجدون كلمة بين تلك الهمهمة. لأن السيدة الكبيرة تهمهم كأنها مذنبة وهي تنظر أمامها، وتهمهم دون اختيار كلمة. إذا رفعت رأسها عن الصحن، فترفعه دهشة، لأنها لا تستطيع فعل شيء سوى إبداء الاشمئزاز وتدهش لعدم فهمهم حتى الآن. حينئذ فهموا معي ضرورة الصمت، ولكنهم نسوا مرة أخرى، وأغضبوها. وعندما يتذكرون ضرورة عدم إغضابها، يتهامسون.

قالت نيلفون: "أنت تشرب كثيراً من جديد يا أخي!"

قالت السيدة الكبيرة: "بماذا تهمسون هكذا؟"

قالت نيلفون: "لا شيء. لماذا لا تتناولين الباذنجان يا جدة؟ قلاه رجب هذا المساء، أليس كذلك يا رجب؟"

قلت: "نعم، أيتها السيدة الكبيرة".

قطبتْ السيدة الكبيرة وجهها لتظهر أنها غير مسرورة، ومشمئزة، وبعد ذلك، بقي وجهها هكذا نتيجة الاعتياد. نسيتْ لماذا اشمئزت. ولكن وجهها العجوز الحاد لا ينسى أبداً أن عليه أن يشمئز... يصمتون، وأنا أقف على مبعدة خطوتين أو ثلاثة عن الطاولة. الأمور نفسها: طعام العشاء الذي لا يُسمع خلاله غير قرقعة السكاكين والشوكات تحت ضوء المصباح الشاحب الذي تدور حوله مروحة غبية. الحديقة أيضاً تغدو صامتة، وهنالك أحياناً صوتُ جدجد، وحفيف أشجار، وفي البعيد طوال الصيف تبادلُ تحياتٍ للناس الذين يعيشون خلف جدران حدائقهم ومصابيحهم الملونة المعلقة على الأشجار وسياراتهم ومثلجاتهم... هؤلاء لا يكونون هنا في الشتاء، ويجعلني صمتُ ظلام الأشجار ما وراء الجدران أتوجّس. حينئذ أريد أن أصرخ فلا أستطيع. أريد أن أتحدث مع السيدة الكبيرة، ولكنها لا تتحدث. أصمتُ، وأنظر مندهشاً إلى إمكانية بقاء الإنسان صامتاً هكذا، وأخاف من حركات يدها الثقيلة فوق الطاولة. أشعر برغبة داخلية للصراخ: عجوز. يداك كعنكبين خائنين أيتها السيدة الكبيرة! قديماً كان يخيّم صمتُ السيد ضوغان، وكان مطأطأ الرأس مسحوقاً كطفل، وكانت تؤنبه أيضاً. وكان يوجد صخبُ السيد صلاح الدين الذي غدا صخب رجل عجوز أكثر من أن يكون صخباً قوياً. كان يكيل اللعنات وهو يحاول إيصال الهواء إلى رئتيه بصعوبة، ويكيلها... هذه الدولة، هذه الدولة الملعونة!...

"رجب!"

يريدون فاكهة. أخذتُ الصحون القذرة. أخذت البطيخة التي قسّمتها، وحضرتها، وأخرجتها، وتركتها. أكلوا دون أن يُصدروا أصواتاً. بعد ذلك، نزلت إلى المطبخ، وصببت ماءً ساخناً من أجل الجلي. عندما صعدتُ إلى الأعلى، وجدتهم مازالوا يأكلون دون كلام. لعل هذا بسبب فهمهم أن الكلمات لا تفيد بشيء، ولعلهم لا يريدون هدرَ أنفاسهم دون سبب كالذين في المقهى. ولكن هنالك زمن تجعل الكلمات فيه الإنسان ينفعل. أعرف هذا. أحدهم يقول: مرحباً، ويستمع إليك، ويحكي عن حياته، ثم تحكي عن حياتكَ. أنا أستمع، وهكذا يرى كل منا بعينه حياة الآخر. نيلفون تأكل بذور البطيخ كأمها. مدت السيدة الكبيرة رأسها نحوي:

"فك".

قال السيد فاروق: "لو تجلسين قليلاً يا جدّة".

كانت نيلفون تقول: "أنا آخذها يا رجب. لا تفعل شيئاً أنت" ولكنها استندت إلي عندما فككتُ منديلها.

صعدنا الدرجات. توقفنا عند التاسعة.

قالت: "فاروق يشرب من جديد، أليس كذلك؟"

قلت: "لا، أيتها السيدة الكبيرة. من أين تستنتجين هذا؟"

قالت: "لا تحمهم" وارتفعت يدها ذات العكاز تلقائياً في الهواء وكأنها ستضرب طفلاً، ولكن ليس نحوي. بعد ذلك، صعدنا من جديد.

قالت: "تسع عشرة ولله الشكر!" دخلتُ إلى غرفتها. ساعدتها على التمدد. سألتُها إن كانت تريد فاكهة. لا تريد.

"إغلق الباب!"

أغلقته، ونزلتُ. أخرج السيد فاروق الزجاجة التي كان يُخبئها، ووضعها فوق الطاولة. ويتحادثان.

قال: "ثمة أفكار غريبة تتقافز في عقلي".

قالت نيلفون: "هل هي ما تذكره كل مساء؟"

قال السيد فاروق: "ولكنني لم أذكرها كلها بعد".

قالت نيلفون: "حسنٌ، العب بالكلمات لنرى".

نظر إليها السيد فاروق كأنه حَزِنَ. بعد ذلك، قال: "رأسي يشبه جوزة تتجول فيها الديدان".

قالت نيلفون: "ماذا؟"

قال السيد فاروق: "نعم، كأن ديداناً وحلزونات تتجول في مخي".

أخذت الصحون القذرة، ونزلت إلى المطبخ. أجلي الصحون. كان السيد صلاح الدين يقول ستتجول الديدان في أمعائكم إذا أكلتم لحماً نيئاً، ومشيتم حفاة، هل فهمتم؟ نحن جئنا للتو من القرية، ولا نفهم ماتت أمي فأشفق علينا السيد ضوغان، وجلبنا إلى هنا: أنت يا رجب تساعد أمي بأعمال البيت، وليسكن معك إسماعيل في الطابق السفلي. اجلسا في هذه الغرفة. وأنا سأعمل شيئاً ما من أجلكما. لماذا تدفعان أنتما كفارة ذنوبهما، لماذا؟ أنا كنتُ صامتاً... سترعى والدي أيضاً لأنه يشرب كثيراً، أممكن هذا يا رجب؟ صمتُّ أيضاً. لم أستطع القول: حسن، يا سيد ضوغان. بعد ذلك، تركنا هنا وذهب إلى الخدمة في الجيش. كانت السيدة الكبيرة تحدّث نفسها، وأنا كنت أتعلم أعمال المطبخ. وكان السيد صلاح الدين يأتي أحياناً، ويسأل: كيف كانت الحياة في القرية يا رجب؟ اخبرني، ماذا يفعلون هناك؟ هل يوجد هناك جامع؟

هل كنت تذهب إليه؟ ما هو سبب الزلزال برأيك؟ ما الذي يُحدث الفضول؟ هل تخاف مني يا ابني؟ لا تخف أنا أبوك. كم عمرك، هل تعرف؟ أنت لا تعرف حتى عمرك. حسن، أنت في الثالثة عشرة من عمرك، وأخوك إسماعيل في الثانية عشرة. أنت محق بخوفك وصمتك. نعم، لم أعمل شيئاً من أجلكما. اضطررت لإرسالكما إلى القرية، إلى أولئك الأغبياء. ولكنني كنت مضطراً. كنت أكتب عملاً عظيماً فيه المعلومات كلها. هل سمعت بالموسوعة؟ آه يا للأسف، من أين ستسمع بها؟ حسن، حسن. لا تخف. احك لي كيف ماتت أمكما؟ كم كانت طيبة. كان فيها جمال أمتنا. هل أخبرتك بكل شيء، أم لم تقل لك شيئاً؟ حسن، أنت اغسل الصحون، وإذا فعلت فاطمة بكَ شيئاً سيئاً، فتعال فوراً إلي في غرفة عملي في الأعلى، واخبرني، ممكن هذا؟ لا تخف! لم أخف. جليتُ، وعملت أربعين عاماً. شردت. وضعت الجلي في مكانه. وتعبت أيضاً، ونزعت صدارتي، وجلست. قلت لنفسي: ارتح. نهضت حين خطر المقهى ببالي. ذهبتُ إليهما في الخارج. مازالا يتكلمان.

قالت نيلفون: "لا أفهم نظرك إلى ما داخل عقلك عندما تأتي مساء إلى البيت بعد أن تقرأ كل تلك النصوص والوثائق".

قال السيد فاروق: "إلى أين أنظر إذن؟"

قالت نيلفون: "انظر إلى النتائج، وأسباب الحدث.."

"ولكن هذا في الأوراق".

"ولكن هنالك في العالم الخارجي ما يقابل الذي في الأوراق.. ألا يوجد؟"

"يوجد".

"اكتب هذا!"

"ولكنني عندما أقرأ، لا يكون ما أقرأه في العالم الخارجي، بل في عقلي، واضطر لكتابة ما في عقلي، وثمة ديدان في عقلي".

قالت نيلفون: "هذا هراء".

لم يستطيعا التفاهم. يصمتان، وينظران إلى الحديقة. هما حزينان ومكدران قليلاً، ولكنهما فضوليان تقريباً. كأنهما ينظران إلى أفكارهما دون أن يريا ما ينظران إليه، ودون أن ينظرا إلى شجرة التين، والأعشاب التي تندس بينها الجداجد. ماذا تريان داخل الفكرة؟ ستبقى الأمور نفسها في النهاية: ألم وكدر وأمل وفضول وانتظار، وإذا لم تضع شيئاً في الوسط - لا أدري أين سمعت بهذا - فسينهي عقلكما نفسه كحجر الطاحون الذي يطحن نفسه. حينئذ: يجنّ! يقال إن الدكتور صلاح الدين كان بحالة جيدة، وحين انخرط في السياسة نفيّ من اسطنبول، فدفن نفسه في الكتب، وجن. كذابون، نمامون، لا، إنه ليس مجنوناً. رأيته بعيني. لا ذنوب لديه غير جلوسه إلى المشروب بعد طعام العشاء، والإفراط قليلاً. في بعض الأحيان كان يجلس طوال اليوم إلى طاولته ويكتب. بعد ذلك، كان يأتي إلي أحياناً، ويتكلم معي. قال لي في أحد الأيام: إن الحياة مثل تلك التفاحة المحرمة. أنت لا تمد يدك إليها لأنك مؤمن بالكذب الفارغ، وخائف. اقطف تفاحة المعرفة من غصنها. لا تخف يا ابني رجب! انظر، أنا قطفتها، وتحررت. هيا، يمكنك أن تحصل على العالم. أجب! خفتُ، وصمتّ. أنا أعرف نفسي. أنا لا أخاف من الشيطان. أنا لا أعرف كيف تغلبوا على هذا الخوف، ولا أعرف لماذا تغلبوا عليه. هل أخرج، وأتنزه قليلاً؟ هل أذهب إلى المقهى؟

قالت نيلفون وكأنها غاضبة: "كيف تكون هذه الديدان؟"

قال السيد فاروق: "عادية. مجموعة كبيرة من الأحداث لا سبب لها. تتحرك داخل عقلي بعد أن أقرأ كثيراً، وأفكر".

قالت نيلفون: "يقول: لا سبب لها".

قال السيد فاروق: "لا أستطيع تأسيس علاقات بإيمان. أقول: لترتبط الأسباب بالنتائج تلقائياً دون أن يُلقى هذا العمل على كاهلي، فلا يحدث هذا. حين أجدُ سبباً، أشعر فوراً أن هذا تلفيق قام به عقلي. حينئذ تشبه النتائجُ الديدانَ والحلزوناتِ المريعة. وتتحرك بين تلافيف مخي كما لو أنها تتأرجح في الهواء..."

قالت نيلفون: "حسن، ما سبب هذا بالنسبة إليك؟"

قال السيد فاروق: "اسمعي ما سأقول. أعتقد أنني فهمت اليوم. علينا أن نغيّر بنية عقولنا من أجل أن نتمكن من رؤية الحياة والتاريخ كما هما".

قالت نيلفون: "كيف؟"

قال السيد فاروق: "لا أعرف. ولكن عقولنا دائماً تبحث عن قصص، وتحتويها كصناديق. علينا أن نتخلص من تعلقنا هذا بالقصص! حينئذ سنتحرر، ونرى العالم كما هو، هل تفهمين؟"

"لا".

قال السيد فاروق: "ينبغي أن تكون هنالك طريقة لشرح هذا، ولكنني لا أستطيع.."

قالت نيلفون: "ابحث عنها وجدها!"

صمت السيد فاروق بداية، بعد ذلك، أنهى ما في قدحه، ثم قال فجأة: "أنا تقدمت في السن".

صمتا: مسروران لا لأنهما لم يستطيعا التفاهم، بل لأنهما فهما أن

عدم تفاهمها هو الأمر الذي تفاهما عليه. صمتُ شخصين متقابلين يُصبح أحياناً أعمقَ معنى من تحدثهما. لو وجد شخص كهذا، لأصبح صديقي.

قلت: "سيد فاروق، أنا ذاهب إلى المقهى. هل تريدون شيئاً؟"

قال: "نعم؟ تسلم يا رجب".

نزلت إلى الحديقة. شعرت ببرودة الأعشاب. وفور عبوري باب الحديقة أدركتُ أنني لن أستطيع الذهاب إلى المقهى. ثمة زحام خاص بيوم الجمعة. لا يبدو عليّ أنني مستعد لتحمل الضيق نفسه، لأتخلى عن الذهاب إليها. رغم هذا مشيت. مشيت حتى المقهى دون أن أري نفسي لأحد بمن في ذلك إسماعيل الذي يبيع أوراق اليانصيب. اندسست باتجاه رصيف كاسر الموج قبل أن أندس عند النوافذ المنارة. لا يوجد أحد. جلستُ، وفكرتُ وأنا أنظر إلى تراقص ألوان المصابيح الملتفة حول الأشجار في الماء. شردت، ثم نهضت. صعدت الطريق، ونظرت إلى الصيدلية: السيد كمال هناك. إنه يجلس خلف طاولة البيع وهو ينظر إلى خالي الهموم الذين يتناولون الشطائر في ضوء المحل المقابل. لم يرني. علي إلا أزعجه! عدتُ إلى البيت مسرعاً دون رؤية أحد أو تبادل التحية مع أحد. بعد أن أغلقتُ باب الحديقة رأيتهما عند الطرف الآخر من الضجيج والأشجار تحت مصباح الشرفة الصغير والباهت. هي مستندة إلى الطاولة، وهو مبتعد قليلاًعنها، يسند نفسه راخياً ثقله على القائمتين الخلفيتين للكرسي الذي يحمله بصعوبة. أخت وأخوها الكبير. كأنهما يخشيان من الحركة أو إصدار ضجيج كي لا يخيفان غمامة الحياة غير المرحة التي جمعاها حول رأسيهما لكي لا تهرب، ويستنشقان

مـزيـداً من التـعـاسـة. لعـل هذا من أجل عـدم إغـضـاب النظرة العـجـوز المتـجـولة في الأعلى خلف الأباجورالمفـتـوح. بعـد ذلك، أعـتـقـد أن تلك النظرة رأتـني أيضـاً، ولكنـهـا لم ترني: ظهـر للحظة ظل السـيـدة الكبـيـرة بشـكل سـافل وظالم في النافـذة. كـان العكاز بيـدهـا، سـقـط ظله عـلى الحديقة. بعد ذلك، انسحبت فجأة، كأنها تنسحب من ارتكاب الحرام. صعدتُ درج الشرفة بهدوء.

قـالت نيـلفـون: "مـا تسميه قـصـة هو أصـلاً حقيـقـة، وهذه الحـقـيـقـة ضرورية لتفسير الحياة".

قـال السـيـد فـاروق: "أنـا أعـرف تلك القـصـص، والقـصـص المتناقـضـة لها كلها" وكأنه تكدّر قليلاً.

قـالت نيـلفـون: "إيه، مـاذا حدث إذن؟ ليس لديك قـصـة ذات قـيـمـة أكبر".

قـال السـيـد فـاروق: "نعم، أعـرف أنه لا يـوجـد، ولكن هذه لـيـسـت ذريعة من أجل أن أخدع منفعلاً بالقصص الأخرى".

قالت نيلفون: "لماذا؟"

قـالت السـيـد فـاروق: "يجب أن نتـخلّص من كل القصصِ". يبـدو أنه انفعل قليلاً.

قلت: "الله يعطيكم العافية. أنا سأنام".

قالت نيلفون: "طبعاً، نم أنت يا رجب. أنا أجمع المائدة صباحاً".

قـال السـيـد فـاروق: "سيـأتي قط. أنا أعـرف. هنالك قطط تأتي في الصباح الباكر. إنها وقحة لا تأبه لي".

نزلت إلى المطبخ. أخرجتُ مشـمـشـاً من البراد. كـان هنالك قـليـل من الكرز الحامض في البراد. غسلته، وأوصلته إلى الأعلى.

"جلبتُ لك فواكهك أيتها السيدة الكبيرة".

لم تقل شيئاً. تركت الصحن فوق الطاولة. أغلقتُ باب غرفتها، ونزلت إلى الأسفل. اغتسلتُ، ونظفت نفسي، وذهبت إلى غرفتي. أحياناً أشعر فوراً بأن رائحة تفوح مني. ارتديت منامتي. أطفأت المصباح. بعد ذلك، فتحت النافذة بهدوء، ودخلت إلى السرير. رأسي على المخدة أنتظر الصباح.

في الصباح سأخرج باكراً، وأمشي. بعد ذلك أذهب إلى السوق. لعلني أرى حسناً مرة أخرى، لعلني أرى غيره بعد ذلك، فنتحدث، ولعله يستمع إلي. آه لو أنني أتكلم بشكل جميل! كانوا حينئذ سيستمعون إلي. كنت سأقول: يا سيد فاروق! إنكم تفرطون بالشراب، إذا بقيتم هكذا ستموتون بنزيف المعدة كأبيكم وجدكم! خطر ببالي: مات راسم. غداً ظهراً سأخرج في جنازته. سنصعد ذلك الطريق وراء التابوت في حر الظهيرة. سأرى إسماعيل. سيقول: مرحباً يا أخي الكبير، لماذا لا تمر علينا أبداً؟ الكلمات نفسها. تذكرتُ حين أمي وأبي الذي في القرية أخذاني مع إسماعيل إلى الطبيب. قال الطبيب: إصابة بالقزامة ناجمة عن الضرب في الصغر. اخرجا هذين إلى الشمس. بتعرض ساق الصغير إلى الشمس لعلها تشفى. قالت أمي: وماذا عن أخيه الأكبر؟ أنا كنت استمع بانتباه. قال الطبيب: لم يعد الشفاء ممكناً. سيبقى صغيراً هكذا دائماً. وليأخذ هذه الحبات من الممكن أن تفيده. ابتلعتُ الحبات ولكنها لم تفدني. فكرت قليلاً بالسيدة الكبيرة وعكازها وغدرها، ولكن لا تفكر يا رجب! بعد ذلك، فكرتُ بتلك المرأة الجميلة. كانت المرأة الجميلة تأتي إلى البقالية كل صباح في التاسعة والنصف، بعد ذلك، تكون عند

القصاب. لم تعد موجودة في هذه الأيام. طويلة، دقيقة الخصر، سمراء، وتفوح منها رائحة طيبة أيضاً. كنتُ أريد أن أتكلم معها: أليس لديكم خادم يا حضرة السيدة لتقوموا بالتسوق بأنفسكم؟ زوجكم ليس غنياً؟ كم كانت جميلة وهي تنظر إلى الفرامة في أثناء فرم اللحم! لا تفكر يا رجب! أمي أيضاً كانت سمراء. أمي المسكينة! هكذا صرنا نحن. ها أنذا في البيت. انظري، انظري، مازلتُ في هذا البيت. إنكَ تفكر كثيراً، هيا نم! أنا لا أفكر صباحاً. لو نمت! تثاءبتُ ببطء. وفجأة انتبهتُ مرتعشاً: ما من صمت أبداً، ولا نبسة. غريب! مثل ليالي الشتاء. أفكر بقصةٍ عندما تجعلني ليالي الشتاء الباردة أرتعش. فكر من جديد! هل هي من الجرائد؟ لا، إنها قصة حكتها لي أمي: في أحد الأيام، كان لدى أحد السلاطين ثلاثة أبناء من الاناث، وكان حزيناً جداً لعدم وجود ابن له. وتوسل إلى الله. عندما تحكي أمي هذه الحكاية، أفكر: هل هو مثلنا؟ أليس لدى السلطان أولاد ذكور مثلنا؟ آه، يا للسلطان المسكين. كنتُ أشفق عليه، ونحبه كثيراً، أمي وإسماعيل وأنا. لو صارت غرفتنا وأغراضنا... كتاباً مثل حكايات أمي، ولو كانت حروفه كبيرة، ولو قرأتُه وقرأته، وأفكّر بها وأنا أقرأ، وأنام، ورأيتها، ورأيت السلطان المسكين. هل هم سعداء؟ كانوا سعداء. وكلهم من الماضي. يغدو الإنسان سعيداً في أحلامه. أحياناً تخاف أيضاً. ليكن، ستحب ذلك الخوف عندما تفكر به صباحاً، تحب خوف الحلم، أليس كذلك؟ تحبه كما تحب التفكير بالمرأة الجميلة السمراء التي رأيتها عند البقال. هيا نم نومتك الجميلة وأنت تفكر بالمرأة السمراء الجميلة.

-٢٠-

بعد تناولنا الطعام، خرج أبي ببطاقاته إلى الملاهي باكراً، وأنا خرجتُ من البيت دون أن أقول لأمي شيئاً. عندما ذهبت إلى المقهى، نظرت، فوجدت أن الجميع قد جاؤوا، وهنالك شابان جديدان أيضاً. مصطفى يشرح لهم. جلست دون أن ألفت انتباه أحد، واستمعت. قال مصطفى: نعم، يُراد تقسيم العالم بين دولتين عظميين. واليهودي ماركس يكذب. لأن الذي يوجه سير العالم ليس صراعه الطبقي، بل القومية. وأكثر القوميين قومية روسيا والامبريالية. بعد ذلك، شرح بأن الشرق الأوسط هو مركز العالم، وأن تركيا مفتاح الشرق الأوسط. بعد ذلك، يعملون بواسطة عملائهم على تقسيمنا بالطريقة التي يقسمون بها جبهتنا الموحدة ضد الشيوعية بطرح نقاش: "أنت مسلم أولاً، أم تركي أولاً؟" وقال: إن هؤلاء العملاء في كل مكان، وتسللوا إلى داخلنا، وقال: نعم، مع الأسف يمكن أن يكونوا بيننا. حينئذ صمتنا قليلاً. بعد ذلك، شرح مصطفى كيف كنا موحدين، ولهذا السبب جعلنا الإمبرياليين الأوربيين المفترين الغدارين القائلين: إن العشب لا ينبتُ حيث يمر البربري التركي، يتقيؤون دماً، وشعرتُ بأنني أسمع وقع الحوافر التي تجعل المسيحيين يرتجفون في ليالي الشتاء. بعد ذلك غضبتُ فوراً، لأن أحدَ المخبولين الغضّين المنضمين حديثاً إلى الحركة، قال التالي:

"حسنٌ يا أخي الكبير. لو ظهر البترول لدينا أيضاً، فهل نغدو أغنياء كالعرب، ونتطور؟"

كأن كل شيء نقود ومادة! ولكن مصطفى يشرح مجدداً بصبر. لم أستمع. أعرف هذا. لم أعد جديداً. كانت هنالك جريدة. قرأتها، وألقيت نظرة على إعلانات طلبات العمال. بعد ذلك قال لهما مصطفى أن يأتيا في ساعة متأخرة. وقدما تحية باحترام لإعطاء صورة عن أن الانضباط هو طاعة لا متناهية، وذهبا.

قلتُ: "هل سنكتب هذا المساء؟"

قال مصطفى: "في الليلة الماضية كتبنا، أين كنت أنت؟"

قلتُ: "كنت في البيت.. أدرس".

قال سردار: "هل كنت تدرس أم تبصبص على النساء؟"

وابتسم بشكل قذر. أنا لا أهتم بكلامه، ولكنني خشيت أن يأخذ مصطفى الأمر على محمل الجدّ.

قال سردار: "أمسكته هذا الصباح أمام شاطئ السباحة. كان يراقب فتاة. والفتاة ابنة الطبقة الراقية، ووقع في حبها، وسرق مشطها أيضاً".

"هل سرقه؟"

قلت: "انظر يا سردار. لا تقل عني لصاً، ستخرب بيننا!"

"حسن، أيعني هذا أن تلك الفتاة أعطتك المشط؟"

قلت: "نعم، طبعاً هي أعطتني إياه".

"لِمَ ستعطيك فتاة كهذه ذلك المشط؟"

"عقلك لا يدرك أموراً كهذه يا ابني".

قال: "سرقه. الغبي عاشق. سرقه".

توترت أعصابي فجأة. أخرجتُ المشطين من جيبي، وقلت: "انظر. اليوم أيضاً أعطتني مشطاً آخر. أمازلت غير مصدق؟"

قال سردار: "أرينيه".

قلت: "خذ!" ومددت له المشط الأحمر "إن شاء الله تكون قد تعلمت من هذا الصباح ما سأفعله إذا لم تُعده!"

قال: "هذا مختلف كثيراً عن المشط الأخضر. هذا ليس من النوع الذي تستخدمه تلك الفتاة".

قلت: "رأيتها بعيني تستخدمه. ويوجد في حقيبتها واحد من هذه".

قال: "إذن لم تعطك إياه هي".

قلت: "لماذا؟ ألا يمكن أن تكون قد اشترت مشطين من هذا النوع؟"

قال سردار: "مسكين. العشق أفقده صوابه فلا يدرك ما يقول".

قلت صارخاً: "ألا تصدّق أنني أعرف تلك البنت؟"

قال مصطفى فجأة: "من هي هذه البنت؟"

ارتبكتُ. هذا يعني أن مصطفى يستمع إلينا.

قال سردار: "عشق هذا واحدة من الطبقة الراقية".

قال مصطفى: "أهذا صحيح؟"

قال سردار: "الوضع سيء جداً يا أخي".

قال مصطفى: "من هي هذه البنت؟"

قال سردار: "لأنه يسرق أمشاط البنت".

قلتُ أنا: "لا!"

قال مصطفى: "ما هي اللا؟"

"هي أعطتني هذا المشط".

قال مصطفى: "لماذا أعطتك إياه؟"

قلتُ: "أنا أيضاً لا أعرف. ليكون هدية على كل حال".

قال مصطفى: "من هي هذه البنت؟"

قلت: "عندما اهدتني هذا المشط أردتُ أن أهديها شيئاً، فاشتريتُ هذا الأحمر. ولكن هذا الأحمر مشط أردأ كما قال سردار، غير متناسب مع الأخضر".

قال سردار: "ألم تكن هي التي أعطتك الإثنين؟"

قال مصطفى صارخاً: "أسألك من هي هذه البنت؟"

قلت خجلاً: "أعرفها من الطفولة، تكبرني بسنة".

قال سردار: "ابنة البيت الذي يخدم فيه عمه".

قال مصطفى: "أهذا صحيح؟ تكلّم!"

قلت: "نعم، عمي يعمل لديهم".

"يعني أن ابنة الطبقة الراقية تلك أعطتك المشط هكذا دون مقدمات".

قلت: "ألا يمكن هذا؟ أقول إنني أعرفها".

صرخ مصطفى فجأة: "ولاه، هل تسرق يا غبي؟"

تشوش عقلي. سمع الجميع أيضاً. تعرقتُ. صمت. طأطأت رأسي، وفكرت لو لم أكن هنا الآن. لو كنت الآن في البيت لما تدخل بشأني أحد. أخرج إلى الحديقة، وأنظر إلى الأضواء البعيدة، وأتفرجُ على المصابيح المقشعرة في السفن الصامتة الذاهبة بعيداً، وأنفعل.

"هل أنت لص؟ أجب!"

قلت: "لا، أنا لست لصاً". بعد ذلك، خطر هذا ببالي. وضحكت

قليلاً بداية، بعد ذلك قلت: "حسنٌ، سأقول الحقيقة! كل ذلك كان مزاحاً. مازحت سردار صباحاً لأرى ما سيقوله، ولكنه لم يفهم. نعم، أنا اشتريتُ هذا المشط الأحمر من عند البقال. ليذهب من يريد إلى البقال، ويسأله عما إذا كان عنده مثله. أما هذا المشط الأخضر فلها. أَسْقَطَتْهُ في الطريق، ووجدتُه، وكنت أنتظرها لأعطيها إياه".

"وهل أنت خادمها لتنتظرها هكذا؟"

قلت: "لا، صديقُها. عندما كنا صغاراً.."

قال سردار: "المخبول عاشق لابنة الطبقة الراقية".

قلت: "لا، لست هكذا".

"إذا لم تكن كذلك، فلماذا تنتظر عند بابها؟"

قلت: "لأنني إذا أخذتُ شيئاً ليس لي، ولم أعطه لصاحبه، حينئذ سأكون لصاً. وهذا هو السبب".

قال مصطفى: "يبدو أن هذا يعتقد أننا أغبياء مثله".

قال سردار: "كما ترى، إنه عاشق بشكل سيء".

كنتُ أقول: "لا".

فجأة صرخ مصطفى: "اخرس يا غبي. وهو وقح أيضاً. كنتُ أعتقد أنه سيكون رجلاً. خُدعت به عندما جاءني، وقال: كلفني بمهمة أكبر، واعتقدتُ أنه سيحقق شيئاً. وها نحن نفاجأ به يغدو خادماً مطيعاً لبنات الطبقة الراقية".

"لستُ هكذا".

قال مصطفى: "منذ عدة أيام وأنت كالماشي في نومه. هل كنتَ عند باب بيتها عندما كنا نكتب؟"

"لم أكن".

قال مصطفى: "ستلوثنا بلصوصيتك. كفى، انقلع من هنا!"

صمتنا قليلاً. كنتُ أفكر فيما لو أنني في البيت الآن. كنت سأدرس الرياضيات مطمئناً الآن.

قال مصطفى: "مازال الوقح جالساً. لم أعد أريد هذا الشخص".

نظرتُ.

قال سردار: "لا تهتم يا أخي، ولا تكبّر الأمر".

نظرتُ.

"خذوا هذا الرجل من أمامي. أنا لا أريد عاشق ابنة طبقة راقية أمامي!"

قال سردار: "اعف عنه. انظر إنه يرتجف. أنا سأعمل منه رجلاً. اجلس يا مصطفى".

"لا، أنا ذاهب".

قال سردار: "مستحيل يا أخي. أنت ستجلس".

نهض مصطفى. كان يلعب بحزامه. قلت لنفسي: لأنهض وأكيله واحدة. أنا أقتله! ولكنك في النهاية إذا لم ترد أن تبقى وحيداً عليك أن تحكي لهم كي لا يفهمونك خطأ.

قلت: "أنا لا أستطيع أن أعشقها يا مصطفى".

قال لهم مصطفى: "أنتم تأتون هذا المساء" بعد ذلك، التفت إلي: "أنت لا تظهر في هذه الأمكنة. لا تعرفنا، ولم ترنا".

فكرتُ قليلاً. بعد ذلك، قلت فجأة: "قف". ودون إعارة اهتمام لارتجاف صوتي، قلت: "اسمعني يا مصطفى، ستفهم الآن".

"ماذا؟"

قلت: "أنا لا أستطيع أن أكون عاشقاً لها. تلك البنت شيوعية".

قال مرة أخرى: "ماذا؟"

قلت: "نعم، أقسم أنني رأيتها بعينيّ".

صرخ قائلاً: "ماذا رأيت؟" واقترب مني خطوة.

قلت: "الجريدة. كانت تقرأ (جمهوريت). كل يوم تشتري جريدة (جمهوريت) من عند البقال وتقرأها. اجلس يا مصطفى لأشرح لك". وصمتُّ كي لا يرتجف صوتي.

قال صارخاً: "ولاه، متخلف عقلياً، هل عشقت شيوعية؟"

للحظة اعتقدتُ أنه سيضربني. لو ضربني لقتلته.

قلت: "لا. أنا لا أستطيع أن أعشق شيوعية أو أمثالها. وعندما كنت كذلك، لم أعرف بعد أنها شيوعية"

"ماذا كنت؟"

قلت: "عندما كنتُ معتقداً أنني عشقتها. اجلس يا مصطفى لأشرح لك".

قال: "حسنٌ، سأجلس. أتعرف أنه سيحدث أمر سيء إذا كذبت؟"

قلت: "اجلس أولاً، واسمعني. لا أريدك أن تفهمني خطأ. سأحكي". صمتُّ قليلاً بعد ذلك، وقلت: "اعطني سيجارة".

قال سردار: "هل بدأت التدخين؟".

قال مصطفى: "اسكتوا، واعطوا هذا سيجارة" وجلس في النهاية.

أعطاني يشار سيجارة، ولم يرَ أن يدي ترتجف، لأنه أشعل الثقاب هو. بعد ذلك فكرتُ قليلاً عندما رأيت الثلاثة ينتظرونني بفضول.

بدأت قائلاً: "أنا حين رأيتها في المقبرة كانت تقرأ الأدعية. وهكذا فكرت بأنها لن تكون كبنات الطبقة الراقية فرأسها كان مغطى، ويداها مفتوحتين إلى الله بشكلٍ..."

قال سردار: "ماذا يقول هذا؟"

قال له مصطفى: "اخرس. وأنت، ماذا كنتَ تعمل في المقبرة؟"

قلت: "أحياناً يصنعون أزهاراً هناك. ويقول والدي إن الناس يشترون منه بطاقاتٍ أكثر عندما يضع قرنفلة على ياقته ليلاً، اذهب، وانظر".

"حسنٌ".

"عندما ذهبت إلى هناك من أجل الأزهار صباحاً، رأيتُها عند قبر أبيها. كان رأسها مغطى، وكانت يداها مفتوحتين لله".

قال سردار: "إنه يكذب. رأيت البنت هذا الصباح في شاطئ السباحة، وكانت عارية تماماً".

قلت: "لا، كانت ترتدي لباس السباحة، ولكنني لم أعرف أنها هكذا عندما رأيتُها في المقبرة".

قال مصطفى: "حسنٌ. الآن، هل هذه البنت شيوعية، أم أنك تبددُ وقتي؟"

قلت: "لا. إنها هكذا. أنا أحكي لكم ياه... عندما رأيتها تقرأ الأدعية هناك، أعترف بأنني ارتبكتُ قليلاً، لأنها لم تكن هكذا في طفولتها. أنا أعرف طفولة هذه الفتاة. لم تكن سيئة، ولكنها لم تكن جيدة أيضاً. أنتم لا تعرفونهم لكثرة ما فكرت بهم تلخبط عقلي أيضاً. كنتُ فضولياً لمعرفة كيف صارت الآن، أو شيء كهذا. وهكذا لحقتها نتيجة الفضول، وبدأتُ ألاحقها لألهو قليلاً".

قال مصطفى: "متسكع لا عمل له".

قال يشار: "إنه عاشق".

قال له مصطفى: "اسكت. كيف عرفت أنها شيوعية؟"

قلت: "وأنا ألاحقها. لا، لم أعد ألاحقها. في تلك الأثناء دخلت مصادفة إلى البقالية التي كنتُ أشرب فيها كوكاكولا، واشترتْ جريدة (جمهوريت). فهمتُ الأمر من هذا؟"

قلت: "لا، ليس من هذا فقط". وصمتُّ قليلاً، وبعد ذلك، قلت: "كل صباح تأتي وتشتري (جمهوريت) ولا تشتري جريدة أخرى. لم أشك أبداً، ثم إنها قطعت علاقتها بالمجتمع الراقي هنا".

قال مصطفى: "كل صباح تشتري (جمهوريت) وتخفي عنا هذا. لأنك مازلت عاشقاً لها، وتلاحقها، أليس كذلك؟"

قلت: "لا، هذا الصباح اشترت جريدة جمهوريت".

قال مصطفى: "لا تكذب. أنا أكشفك. الآن قلت إنها تشتري الجمهوريت كل صباح".

قلت: "كل صباح تذهب إلى البقالية، وتشتري شيئاً، ولكنني لم أعرف ما كانت تشتريه. هذا الصباح رأيت أن ما تشتريه جريدة جمهوريت".

قال سردار: "هذا يكذب".

قال مصطفى: "لا أعرف. سأسحقه بعد قليل. لاحقَ البنت وهو يعرف أنها شيوعية. ما هذان المشطان إذن؟ قل الحقيقة!"

قلت: "أحدهما أسقطته في أثناء ملاحقتي لها. حينئذ أخذته من الأرض. أي أنني لم أسرقه.. والآخر هو مشط أمي، أقسم على هذا".

"لماذا تحمل مشط أمك معك؟"

سحبتُ نفساً آخر من سيجارتي، وصمتُّ لمعرفتي أنهم ينوون عدم تصديقي مهما قلت.

قال: "أنا أتكلم معك!"

قلت: "حسن، ولكنكم لا تصدقون. أقسم أنني الآن أقول الحقيقة. نعم، لم يكن هذا المشط الأحمر لأمي. قلت قبل قليل إنه لأمي لأنني خجلت. هذا المشط الأحمر اشترته هي اليوم من عند البقال".

"مع الجريدة؟"

"مع الجريدة، ويمكنكم أن تسألوا البقال".

"بعد ذلك؟ هل أعطتك هذا المشط؟"

قلت: "لا" وصمتُّ قليلاً، ثم قلت: "اشتريت لنفسي واحداً من تلك الأمشاط بعد أن ذهبت".

قال مصطفى صارخاً: "لماذا؟"

قلتُ: "أتقول لماذا؟ ألا تفهم لماذا؟"

قال سردار: "سأضربه على فمه".

لو لم يكن مصطفى موجوداً لأريته، ولكن مصطفى صرخ.

"ألأنك عاشق يا غبي؟ صرتَ تعرفُ أنها شيوعية. هل أنت جاسوس؟"

فكرتُ بأنه لن يصدّق حتى ولو قلتُ له الحقيقة، فصمتُّ قليلاً، ولكنه بعد ذلك صرخ كثيراً، فقلت لنفسي: لأقل له للمرة الأخيرة إنني لا أستطيع عشق شيوعية كي يفهم جيداً. ألقيت بعقب سيجارتي على الأرض، وعفسته بقدمي كالناس المطمئنين. بعد ذلك، أخذتُ المشط الأحمر من سردار، وأحنيته قليلاً، ولويته.

قلت: "أنت أيضاً لا تفوّت فرصة الحصول على مشط جميل ورخيص بخمس وعشرين ليرة إن وجدته على كل حال".

صرخ مصطفى قائلاً: "الله يبعث لك البلاء يا متخلف عقلياً ويا كذاب".

وهكذا قررت أن أصمت بالتأكيد. لا نية لي أن أتحدث معكم يا سادة، حسنٌ؟ سأذهب بعد قليل إلى البيت قبلتموني بينكم أم لا. سأجلس إلى الرياضيات. وسأذهب في يوم ما إلى أسكودار، وأطلب منهم تكليفي بعمل كبير: إن الذين في جنة حصار لا يفعلون شيئاً غير اتهام أحدهم الآخر بالجاسوسية. كلفوني بعمل كبير؛ أنا سأذهب إلى البيت بعد قليل. الآن، أقرأ الجريدة التي كنتُ أقرؤها. فتحتُها. أقرأ الجريدة دون أن أعيرهم أي اهتمام.

قال مصطفى: "ماذا سنفعل الآن يا شباب؟"

قال سردار: "أتقصد البقال الذي مازال يبيع جريدة جمهوريت؟"

قال مصطفى: "لا، لا أقصد البقال. ماذا سنفعل بهذه الشيوعية السافلة؟"

قال سردار: "عفواً يا أخي. لا تأخذ الأمر على محمل الجد. إنه نادم منذ زمن".

قال مصطفى صارخاً: "أنتركه ليكون طعماً للشيوعيين؟ سيذهب راكضاً، ويحكي كل شيء للبنت".

همس سردار قائلاً: "أنضربه؟"

قال يشار: "ألن نفعل شيئاً بتلك البنت الشيوعية؟"

"لنفعل بها ما فعلوه بالبنت التي في أسكودار".

قال سردار: "يجب أن نلقن البقال أيضاً درساً جيداً".

تحدثوا متهامسين، وحكوا عما فعله الشيوعيون بجماعتنا في طوظلا، وذكروني كأنهم يتحدثون عن متخلف عقلي. تحدثوا كثيراً، ولكنني لم أعرهم اهتماماً، حتى إنني لم أستمع إليهم: كنت أقرأ الجريدة، وأقول لنفسي: لست سائقاً محترفاً لديك رخصة، ولست فنياً يعرف الإنكليزية والتلكس، ولست صاحب خبرة بأعمال منجور الألمنيوم، ولست عامل صيدلية يفهم بالنظارات، ولا كهربائياً أنهى جنديته ويرد على الهاتف، ولا فنياً خياطَ بنطالات. تباً، رغم هذا سأذهب إلى اسطنبول، وعندما سأعمل عملاً كبيراً.. نعم، نعم، أفكر بذلك العمل، ولأنني لا أعرف هذا العمل بالضبط، أردتُ إلقاء نظرة على الصفحة الأولى من الجريدة، وكأنني سأجد اسمي، والعمل الذي سأعمله. ولكن الجريدة ممزقة، وأبحث عن الصفحة فلا أجدها، وكأنني لم أفقد الصفحة الأولى بل مستقبلي. كنتُ أخفي يدي كي لا ينتبهوا إلى ارتجافهما، وإذا بمصطفى يصرخ قائلاً: "أكلمك يا غبي. متى تذهب هذه البنت إلى البقال؟"

قلت: "ها، بعد شاطئ السباحة".

"غبي. من أين أعرف متى تذهب إلى شاطئ السباحة؟"

"تذهب إلى شاطئ السباحة في الساعة التاسعة أو التاسعة والنصف".

"ستنظف قذارتك بنفسك".

قال يشار: "حسنٌ. ليضرب البنت".

قال مصطفى: "لا، لن يضربها. البنت تعرفك، أليس كذلك؟"

قلت: "طبعاً، نتبادل التحية".

قال مصطفى: "لهذا أقول: اعف عنه".

قال مصطفى: "لا، ليس إلى هذا الحد". التفت إلي، وقال: "اسمعني! سأكون هناك غداً في التاسعة والنصف. ستنتظرني! أي بقال هذا؟ ستريني إياه! سأرى بعيني أنها تشتري جريدة جمهوريت".

قلت: "تشتريها كل صباح".

قال: "اخرس. إذا اشترتها أعطيك إشارة. حينئذ تذهب أولاً، وتأخذ الجريدة من البنت. وتقول لها إننا لن ندخل الشيوعيين إلى هنا. بعد ذلك، تمزق الجريدة، وترميها. هل فهمت؟"

لم أقل شيئاً.

قال: "مفهوم، هل تسمعني؟"

"أسمعك".

قال: "أحسنت. أنا لا أدع من الشيوعيين سوى كسوتهم المثقبة حتى لو كانوا مثلك بنات آوى متخلفين عقلياً. ستكون عيني عليك دائماً. ستأتي معنا هذا المساء للكتابة، لن تعود إلى البيت".

أردتُ أن أقتل مصطفى هناك فوراً. ولكن البلاء سيقع في النهاية على رأسك يا حسن! لم أقل شيئاً. طلبتُ سيجارة أخرى بعد ذلك. أعطوني.

-٢١-

فتح جُنيد النافذة فجأة، وصرخ باتجاه الظلام: كل المعلمين مخبولين. كان يئن قليلاً: كل المعلمين، كل المدرسين، أطلقتْ غولنور قهقهة، وقالت: ملأ رأسه، إنه يطير، هل ترونه يا شباب؟ كان جنيد يصرخ: الملعوب بأسفلهم رسبوني هذا العام فوراً. ولاه، من أين تحصلون على حقّ التلاعب بحياتي؟ فجأة، لحقتْ به فوندا، وجيلان، وقالتا: "صه صه صه يا جنيد، ماذا تفعل في هذا الوقت؟ انظر إنها الثالثة ليلاً. وحين قالتا: الجيران والجميع ينامون، قال جنيد: الله يبعث البلاء للجيران. دعيني يا أختي، فالجيران متحالفون مع المعلمين. وقالت جيلان: إبطل هذا، وحاولت أخذ سيجارة الحشيشة من يده، ولكنّ جنيداً لم يعطها، وقال: كل شخص يأخذ نفساً، لماذا الذنب ذنبي فقط؟ وقالت فوندا رافعة صوتها لإسماعه وسط الموسيقا والصخب المقرف: اسكت إذن، اسكت، ولا تصرخ، حسنٌ. وفجأة، هدأ جنيد، وكأنه نسي كل كرهه وحقده، وبدأ يهتز ببطء مع موسيقا (البوب - روك) التي تطن في أذني. بعد ذلك، ذهبوا تحت المصابيح التي تضيء وتنطفئ التي وضعها طوران ليشبّه المكان بصالة الرقص. نظرتُ إلى جيلان، تبدو غير مهمومة كثيراً، جميلة ومبتسمة بشكل خفيف، وهي مكدرة وحزينة أيضاً في آن واحد. يا

إلهي، أنا أحب هذه الفتاة، ولا أعرف ما يجب أن أفعله، ساعدني. ما هذا الوضع البائس. وهل سأكون في النهاية كالعشاق الأتراك الشباب المحجبي الوجوه، والمسلوبي الإرادة المساكين الذين يعشقون، ويتزوجون فوراً، أو مثل المحرومين من الفتيات في مدرستنا يستهينون بي، ثم يرددون أشعار العشق إلى درجة الهيام حتى الصباح، ويحفظون ملفات يُخفونها عن الجميع مليئةً بهذه المشاعر المسكينة، وصباحاً يباهون برجولتهم مرتاحي الضمير؟ كفى، لا تفكر يا متين. أنا أقرف منهم جميعاً. لن أُشبههم في أي وقت. أنا سأكون زير نساء غني عالمي. نعم، نعم، تُنشر لي صورة مع الكونتس دي روش فولتين. وفي السنة التالية، تنشر الحياة الخاصة اليومية لعالم الفيزياء التركي الكبير في أمريكا، ألب إيطاليا. يا إلهي، وحين ترين يا جيلان صورتي الضخمة على الصفحة الأولى لجريدة (حريت) مع زوجتي الثالثة ابنة مليونير البترول المكسيكي الوحيدة الجميلة عندما آتي إلى تركيا (بيختي) الخاص، هل ستفكرين بأنك تحبين متين في ذلك اليوم؟ كم أفرطتُ بالشرب! نظرتُ مجدداً إلى جيلان، وبينما كنتُ أنظر إلى وجهها الجميل الذي حمرته الحشيشة التي سَحَبَتْ منها نفساً أو اثنين، سمعت فجأة بعضهم يخور وسط زحام مُتهيج ومخدر ومنفعل. يا إلهي! أسمعهم يعوون ولا أدري لماذا. أجد دافعاً في داخلي للخوار والصراخ، وها أنا أصرخ معهم. بداية يخرج من بلعومي صراخ لا معنى له، بعد ذلك، وبينما كنت أطلق خواراً شبه حيواني، قالت غولنور فجأة: أنت لا تسحب. ابتسمتُ وكأن الأمر نوع من المزاح، ثم قلت باتزان: أنا أنهيت زجاجة وسكي، حسنٌ يا صديقتي؟ في زجاجة الوسكي أكثر مما في سجائركم ذات القليل من

الحشيشة. فوق هذا، أنا لا أنقلها من يد إلى يد، أنا أشفطها كلها وحدي. ولكنها لم تستمع إليّ. كانت تقول لي: أنت واحد خواف ومحتاط؟ لماذا لا تسحب؟ اخجلْ من طوران على الأقل، وبأي حق تخرّب آخر ليلة له قبل ذهابه إلى الجندية؟ قلت حينئذ: حسن، ومددت نفسي، وأخذت السيجارة من يدها، وسحبت قليلاً قائلاً بيني وبين نفسي: انظري يا جيلان كيف أسحب الدخان مثلك. أنا أحبك. قالت غولنور: هاا، هكذا. وسحبت قليلاً أيضاً ثم أعدتها. حينئذ فهمت غولنور أنني أنظر إليك يا جيلان، فأطلقت قهقهة، وقالت: انظر يا متين! فتاتك تطير أيضاً، عليك أن تسحب كثيراً كي تلحقها. وقالتْ عنك: فتاتُك. وفكرت بهذا وصمتّ. وقالت غولنور: هل ستجذبها؟ وصمت. وقالت غولنور: إذا لم تسرع يا متين فإن فكرت سيختطفها منك، وسأدون لك هذا. وعملت حركة بدت فيها تكتب برأس السيجارة الغليظة. وصمت. وبينما كانت تقول: أين فكرت؟ قلبت القدح الذي بيدي، وأنهيته. وحين كنت هارباً خشية حدوث سفالة ما، قائلاً: أنا ذاهب لأملأ كأسي! أطلقت غولنور قهقهة. وبينما كنت أبحث عن الزجاجة في الظلام، احتضنتني زينب التي لم أعرف من أين خرجت فجأة، وقالت: هيا لنرقص! أرجوك يا متين، الموسيقا جميلة جداً. وقلت: حسنٌ. وبينما كانت تقترب مني لأحتضنها، كنت أقول: انظروا، لا تعتقدوا أنني أفكر بجيلان من الصباح حتى المساء، انظروا، ها أنا أرقص مع هذه البدينة المدعوة زينب! ولكنني تضايقت بسرعة لأنها ذبلت عينيها كقطة ملأت بطنها للتو، وبدأت تلعب لعبة التظاهر بالشاعرية. وبينما كنتُ أفكر كيفَ سأخلّص نفسي، ركلني أحدهم على مؤخرتي.

لعنهم الله، فقد أطفأوا النور، وبدأوا بالصراخ: تبادلوا القبل، تبادلوا القبل. دفعتُ عني ذلك الشيء الساخن الشبيه بالمخدة الضخمة، وهربت. وبينما كنت أبحث عن الوسكي والكؤوس، صفعت وجهي هذه المرة مخدة حقيقية. حسن، هكذا إذن. وجهت لكمة قوية نحو الظلام، وسمعت طورفاي يئن. وصادفت وداداً عند باب المطبخ. رأيته ينظر إلي نظرة غبية. بعد ذلك، تمدد، وقال: كم هي حادثة جميلة يا أخي الكبير، أليس كذلك؟ قلت له: ما الجميل؟ قال مندهشاً: ألا تعرف يا أخي؟ نحن خطبنا الآن. وكزوج متوازن يعرف مسؤولياته، وضع يده على كتف (سما) بشفقة، وقال: أليس هذا جيد جداً يا أخي؟ قلت: جيد جداً. قال: نعم، هذه حادثة رائعة. خطبنا، ألن تبارك لنا؟ نتعانق، وتبدو (سما) على وشك البكاء. وبينما كنت مندهشاً، ولحظة محاولتي الهرب، قبض علي وداد من جديد. وتعانقنا مرة أخرى. كنت خائفاً من أن ترى الفتاة الإنكليزية هذا العناق فتعتقد أني منيوك، وأتذكر أن همّ كل شخص في مهجع المدرسة أن يجعل الآخر منيوكاً. الله يبعث البلاء لأولئك الحمقى والمرضى المتخلفين عقلياً والمنحرفين الذين يعاملون الآخرين معاملة اللوطيين الحلس الملس. الحمد لله أنني مشعر، ألست مشعراً؟ طبعاً أعدّ مشعراً، حتى إنني أستطيع إطلاق شارب إن أردت، ولن يكون سيئاً. أنا مشعر. مع أن الدب سليمان بعصني ذات مرة، ولكنني صعدت فوقه وهو نائم، وجعلته يدفع الثمن بأن أهنته أمام كل من في المهجع. لأن جياع العيون والوحشيين أولئك سيفعلون بك ما فعلوه بـ (جم) المسكين. ولكن إهدأ يا متين، لِمَ تهتم بهذا؟ أنت في أمريكا في العام القادم. أمامك عام يجب أن تحتمله في بلد المتخلفين عقلياً. وفكرت بأنني إذا لم أذهب

إلى أمريكا بسبب عدم توفر النقود، فإنكما يا فاروق ونيلفون ستعانيان مني كثيراً. في النهاية، وجدتُ المطبخ ولله الشكر. وجدت هناك هوليا وطوران. بكت هوليا، وأدخل طوران رأسه الحليق تحت الصنبور. وقف حين رآني، ولكمني فجأة لكمة قوية. وعندما سألت: أين الزجاجات والكؤوس؟ أجاب: هناك. ولكنه لم يشر إلى أي مكان. وفي النهاية، حين بدأت أبحث في الخزائن، عانق طوران هوليا، وتبادلا القبل بحرص وقوة، وكأن أحدهما يقلع سن الآخر. وأنا أفكر باحتمال أن نفعل هذا يا جيلان. بعد ذلك، صدرتْ عنهم أصوات غريبة. قالت هوليا بعد أن خلّصت فمها من فم طوران وهي تلهث: تمرُّ يا روحي، تمرّ وتنتهي. اهتاج طوران فجأة، وقال: ماذا تفهمين أنت من الجندية؟ الرجال فقط يخدمون في الجندية. ثم انفعل أكثر، وتملّص من بين يدي هوليا، وزأر قائلاً: ليس رجلاً من لا يخدم في الجندية. وأنزل لكمة على ظهري، وقال: هل أنت رجل ولاه؟ هل أنت رجل؟ وتضحك أيضاً، ليس كذلك، هل أنت واثق جداً من نفسك؟ تعال إذن لنتقايس، ولنفهم كم أنت رجل، ومد يده إلى أزرار بنطالي، وقالت هوليا: ماذا تفعل؟ أرجوك لا تفعل يا طوران. قال: حسنٌ، سأذهب بعد يومين، ولكننا سنلهوا مساء الغد أيضاً. تقول هوليا: ماذا يحدث لو قال أبوك شيئاً؟ صرخ طوران: ساتبرز في فم ذلك السافل. كفى ياه؟ إذا كنت أباً فاعرف أبوتك. هل أنا مجبرٌ على إنهاء الثانوية لمجرد أنك تريد هذا، فترسلني إلى الجندية. كم تلخبط رأسي؟ رجل أحمق. افهم ابنك. أي أب أنت؟ ها أنا ذا لن أكون رجلاً، حسن؟ سأجعل سياراتك خردة أيضاً، وسآخذ المرسيدس أيضاً، وأقسم لكِ يا هوليا أنني سأصدمها بعمود ليفهمَ. قالت هوليا وهي تئن: لا، لا تفعل

هذا يا طوران، أرجوك. ولكمني طوران لكمة أخرى، وفجأة، بدأ يهتز متناغماً مع موسيقا الروك بوب وكأنه نسينا جميعاً. وبدأ يضيع وسط الدخان والألوان التي تضاء وتنطفئ، وتركض هوليا خلفه. وأنا في النهاية أحضّر مشروبي، وفي النهاية صادفتُ طورغاي، قال لي: هيا، أنت أيضاً تعال. سنسبح عراة، وأنا انفعلت فجأة، وقلت: مَنْ، من؟ ضحك، وقال: طبعاً البنات غير موجودات. وعندما قال: جيلان أيضاً غير موجودة، دهشت، وفكرتُ بكِ يا جيلان. كيف فهم الجميع فوراً أنني أحببتك، وكيف فهموا أنني لا أفكر بشيء غيرك؟ أين أنت يا جيلان؟ وسط الدخان والضباب والموسيقى. لو فتحوا النوافذ! بحثتُ عنك يا جيلان، أين أنت؟ اللعنة، بحثت عنك، وبحثت، ولم أرتبك، وفي النهاية عندما وجدتك ترقصين مع فكرت، قلت: إهدأ يا متين! لا تعطي الأمر أهمية، وذهبتَ كأني غير مهتم، وجلست في مكان ما. كنتُ أفكر بأنني سكرت وأنا أشرب ويسكي، وإذْ بالموسيقى تتوقف فجأة، يا إلهي. أحدهم أوقفها، ووضع موسيقى رقص شرقي. ما هذا، ما هذا؟ نهض الجميع متناغمين مع موسيقى الرقص الجديدة لأنهم متدربون في أعراس الطبقة الوسطى المتخلفة. تأبط أحدنا بذراع الآخر. أنا متأبط بذراعكِ يا جيلان. نظرت دون لفت انتباه أحد. تأبط فكرت ذراعك الآخر طبعاً، وبدأنا الدوران. يا إلهي، ما هذا الطراز التركي؟ إنه كأعراس الخالات والأقرباء البعيدين. وعندما انقطعت الحلقة، صرنا كالقطار. ندور في البهو. بعد ذلك، خرجَ رأسُ القطار إلى الحديقة. خرجنا. دخلنا من الباب الآخر، وشعرت بيد جيلان الجميلة على كتفي. وأفكّر بما يمكن أن يقوله الجيران. دخلوا إلى المطبخ، وانفصلنا عن القطار هناك، ولكن فكرت لم

ينفصل، وبقينا وحدنا يا جيلان. رأينا (سما) تفتح الثلاجة، وتنظر إليها باكية. وسمعنا وداداً يقول كزوج متزن: "هيا يا روحي، لأوصلكِ إلى البيت. وتنظر (سما) إلى الثلاجة وكأن فيها ما يبكي، وتبكي. يقول وداد: تأخر الوقت، ماذا ستقول أمك؟ وتقول سما: أنا أكره أمي، ولكنك اتفقت معها منذ الآن. عندما قال وداد: اعطني هذه السكين إذن! ألقت (سما) السكين التي بيدها فجأة على الأرض. وضعتُ يدي على كتفك يا جيلان، وأخرجتك من المطبخ وكأنني أحميك من المخاطر، وكأن هذا أمر عادي. وأنتِ استندت إلي. نعم، نعم. نحن معاً. شاهدونا. دخلنا إلى الداخل. الجميع يصرخون، ويتقافزون، وأنا كنت سعيداً جداً لأنك استندت إلي. فجأة، نزعت جيلان نفسها عني، وذهبت راكضة. إلى أين ذهبت؟ لا أدري. لحظة قلت: لألحقها. نظرت، وإذ أنني بجانبها. نظرت، وإذ بنا جميعنا نرقص. نظرت، وإذ بي أمسك يدها. نظرت بعد ذلك، وإذ هي غير موجودة مرة أخرى. ولكن، ما أهمية هذا بعد الآن؟ فُهم كل شيء، وأنا سعيد جداً، وبصعوبة أقف على قدمي. وفجأة اعتقدتُ أنني لن أراك أبداً. وحينئذ خفت كثيراً يا جيلان. ولسبب ما اعتقدت وأنا أبحث عنك يا جيلان أنني لن أستطيع جعلك أن تحبينني. أين أنت؟ أريدك. جيلان، يا جيلان، أين أنت؟ أحبك كثيراً. جيلان، جيلان، أين أنت وسط هذا الدخان المقرف والضباب والألوان والمخدات واللكمات، وسط الصراخ والموسيقا؟ أين أنت يا روحي؟ أنا أبحث عنك. أشعر أنني مأزوم ومسكين، فأنا أفكر بأن للجميع أمهات تقبلهم عند عودتهم إلى البيت مساء، وأنا ليس لي أم، أو كما أكون عندما أشعر بالوحدة في عطلة نهاية الأسبوع في المهجع وأكره نفسي

والوحدة، وأعتقد بأنه لا يوجد من يحبني في بيت خالتي، وعندما أفكر بأن لدى الجميع نقود، وأنا ليس لدي، لهذا يجب أن أخترع مخترعات عظيمة وأن أكون غنياً بإبداعي وذكائي. وأحلم بأن جيلان تقول: ما الضرورة لكل هذه المتاعب وأمريكا؟ نسكن حيث تريد، نسكن هنا إن أردت. تركيا ليست دولة سيئة، ثمة أمكنة جديدة، ودكاكين جديدة تُفتح، وفي يوم ما سينتهي هذا التخريب الأعمى الذي لا معنى له، وسنجد في دكاكين اسطنبول كل ما نجده في دكاكين أمريكا وأوربا. لنتزوج. أنا عقلي يعمل بشكل جيد جداً، وفي جيبي أربعة عشر ألف ليرة بالضبط، وليس لدى أحد كل هذا المبلغ. سأعمل في مكان ما، وأتدرج بالترقية إن أردتِ، ونؤمن بعدم أهمية النقود إن أردتِ، أليس كذلك يا جيلان؟ أين أنت؟ ندرس في الجامعة معاً. أين أنت يا جيلان. أم أنك ركبتِ سيارة فكرت، وذهبتما؟ لا، هذا غير ممكن، أنا أحبك كثيراً ها أنت، يا إلهي! أراكِ هناك في الزاوية تجلسين وحدك. أردت أن أقول: يا وحيدتي وصغيرتي ويأسي وجميلتي وملاكي، ماذا حدث؟ ما هو همّك؟ احكي لي! هل يغضبك أبوك وأمك أيضاً؟ أخبريني! أجلسُ بجانبها. لماذا أنتِ حزينة ويائسة هكذا؟ ولكنني لا أستطيع القول، وأصمت. وفي النهاية، عندما أتكلم لمجرد الكلام، تخرج من لساني الكلمات الأقل حيوية وأقول: هل أنتِ متعبة كثيراً؟ وتأخذين كلامي بجدية، وتقولين: أنا، نعم، أشعر بألم خفيف في رأسي. أجلس دون أن أقولَ شيئاً مدة طويلة، لأنني لا أجد حديثاً. ولحظة شعوري بالجمود نتيجة صخب الموسيقا والضيق، تطلق جيلان قهقهة نشوة مفعمة بالحيوية، وتنظر إلى وجهي المتغابي كثيراً، وتقول: عندما تكون هكذا

تغدو محبباً وقريباً من القلب يا متين. قل لنر: سبعة وعشرون ضرب سبعة عشر؟ حينئذ غضبتُ فجأة من نفسي، ومما لا أعرف، ومددتُ يدي إلى كتفك وبعد ذلك، اهتز رأسُكِ، وسقط، ليستند على صدري، وأشعر برأسك. أغدو في وضع غير معقول مع هذه السعادة. أشعر بشعرك، ورائحة بشرتك، بعد ذلك، تقولين فجأة: المكان هنا خانق يا متين، أنخرجُ قليلاً؟ ثم ننهض فوراً. يا إلهي! نحن نخرج معاً من داخل هذا الصخب القذر، ها نحن، نعم، ها نحن نخرج ويدي على كتفك، ويسند أحدُنا الآخر، ويستند أحدنا إلى الآخر، ونهرب من هذه الموسيقا والزحام المقرف كعاشقين وحيدين ويائسين يدعم أحدنا الآخر بالحب في هذا العالم العادي والمخيف والقذر. تركنا كل هذا خلفنا، ومشينا معاً تحت الأشجار في الشوارع الساكنة والخاوية والحزينة، ونحن ننظر إلى أضواء المقاصف البعيدة الملونة والساكنة، ويفهم أحدنا الآخر ليس كعاشقين فقط، بل كمحبين يُغيظان الآخرين بصداقتهما، ونتكلم فاهمين العمق، وأقول لك: يا لجمال الهواء النظيف! وتقول جيلان إنها لا تخاف إلى هذا الحد من أبيها وأمها، وإن أباها إنسان طيب في الحقيقة، ولكنه تركي الطراز زيادة قليلاً عن الحد. وأقول إنني مع الأسف لم أستطع معرفتهما كثيراً فقد ماتا. وتقول جيلان إنها تريد رؤية العالم، ودراسة الصحافة وأن تكون صحفية. وتقول: لا تنظر إلى حالتي هذه، نحن نلهو هنا، ولا نفعل شيئاً، ولكنني لا أريد أن أكون هكذا. أنا أريد أن أكون كتلك المرأة، ماذا كان اسمها؟ تلك المرأة الصحفية الإيطالية التي تُجري حوارات مع المشاهير دائماً، وحاورتْ كسينجر وأنور السادات. نعم، أعرف أنني يجب أن أكون مثقفة جداً من أجل أن أكون مثلها. أنت هكذا إلى حد ما

يا متين. ولكنني لا أستطيع قراءة الكتب من الصباح حتى المساء. من حقي أيضاً أن أعيش. انظر، أريد أن ألهو لأنني نجحت في صفي مباشرة دون حمل أية مادة. لا يمكن أن أقرأ الكتب دائماً. كان ثمة ولد في مدرستنا، وكان يقرأ الكتب كثيراً، وجنَّ في النهاية، وأدخلوه مستشفى الأمراض العقلية. ما رأيك بهذا يا متين؟ أنا لا أقول شيئاً. أفكّر بأنك جميلة فقط، ومازلت تتحدثين عن أبيك ومدرستك وأصدقائك ومخططاتك حول مستقبلك، وما تفكّرين به حول تركيا وأوربا، وما شابه ذلك. أنت جميلة. أنت جميلة عندما يتسلل ضوء مصابيح الشارع الشاحب من بين أوراق الشجر، ويسقط على وجهك. أنت جميلة حين تسحبين دخان السيجارة بوجه مهموم وكأنه طافح بقضايا الحياة المعقدة. أنت جميلة حين تسحبين دخان السيجارة بوجه مهموم وكأنه طافح بقضايا الحياة المعقدة. أنت جميلة حين ترفعين خصلة شعرك النازلة على جبينك إلى الخلف. يا إلهي، إنها جميلة إلى حدّ أن الرجل يريد أن تلد له ولداً فوراً. وقلت فجأة: أندخل إلى شاطئ السباحة؟ انظري كم هو جميل وهادئ لا أحد فيه! قالت: نعم حسنٌ. ودخلنا إلى شاطئ السباحة. وبينما كنا نسير على الرمل الساكن خلعت جيلان حذاءها، وحملته بيدها، وبينما كانت تلتمع آثار قدميها بضوء لا أعرف مصدره، مشينا على طول الشاطئ، وحكت المزيد عن مدرستها، وعما تريد أن تفعله في الحياة. بعد ذلك، غطتْ قدميها الجميلتين بهدوء في الماء المظلم والمفعم بالأسرار. وحينئذ كنتُ بجانبها من جهة، وكانت في موقع لا يمكن الوصول إليه من جهة أخرى. وبينما كانت تتكلم، وتحرّك الماء بقدميها، وجدتُها فظة وجذابة، جامدة وقاهرة، عادية وخارقة وقاتلة. ولم أر غير

قدميها تماوجان الماء كسمكتين محببتين. وحين قالت إنها تريد أن تعيش كأوربية كنتُ لا أستمع إليها، وأشم رائحة الحرّ الرطب واللزج ورائحة الطحالب والبحر، ورائحة بشرتها، وأنظر إلى قدميها الحيويتين المتململتين الجنسيتين المتلامعتين في الماء كعاج الفيل مفكراً بوحدتنا. فجأة، دخلتُ الماء بحذائي، واحتضنتك، وأنا أحبك يا جيلان. بداية قالت: ماذا تفعل؟ وهي تضحك. قلت: أنا أحبكِ. وأردتُ تقبيلها من خدها. قالت: أنت سكران يا متين؟. بعد ذلك، خافت غالباً. سحبتها بالقوة إلى الشاطئ، وأرخيت نفسي فوقها، وانقلبنا على الرمل، وكانت تتململ تحتي. وبينما كانت يدي تبحث عن ثديها وتعصره، كانت تقول: لا، لا يا متين، ماذا تفعل؟ هل جُننت؟ أنت سكران. وأنا قلت: أحبك كثيراً. وقالت جيلان: مستحيل. وأنا قبلتُ خديها وأذنيها وعنقها، وشممت رائحتها الرائعة. دفعتني، ورغم هذا، قلت لها: أحبك كثيراً. وعندما دفعتني مرة أخرى، شعرت بالضيق. بأي حق تدفعينني وكأنني شخص سافل؟ حينئذ ضغطتُ عليها أكثر. رفعت ثوبها، وغدا فخذاها الطويلان المحروقان الرائعان تحت أصعابعي، والجسد الدافئ الذي اعتقدتُ أنه بعيد لا يمكن الوصول إليه هو الآن بين فخذي. لم أصدق وكأنني في حلم. فككت سحاب بنطالي، ومازالت تقول لي: مستحيل. لماذا يا جيلان، أنا أحبك كثيراً جداً؟ وحين دفعتني مرة أخرى، غدونا كقط وكلب يتدافعان على رمل، ونتقلب. كم هذا عبثي؟ كم أن كل شيء يائس؟ هي مازالت تقول: أنت سكران. حسنٌ، حسن، أنا لست رجلاً سافلاً إلى هذا الحد، ها أنا أتركك؟ ولكن ماذا سيحدث لو نهضنا. ولكن، لا، لست مغتصباً. أنا لا أريد سوى تقبيلك قليلاً، وأن تفهمين

أنني أحبك. لم أستطع ضبط نفسي بسبب الحر. وهذا كل شيء. كم كان كل شيء منحطاً وعبثياً وغبياً؟ حسن، لينسحب جسدك من تحت جسدي، ولينغرز أيري في الرمل البارد الذي لا معني له، وليهدأ دون كبح جماحه وإيجاده طمأنينة. حسن، حسن، أنا أتركك أغلق سحابي، وألتفتُ ناظراً إلى النجوم في السماء شارداً. دعيني وشأني، حسن؟ اركضي، واذهبي بسرعة إلى أصدقائك، وقولي لهم إن متين هذا شخص غريب، هاجمني وهو غير مهذب وفظ. وكان هذا واضحاً. لا فرق بينه وبين المغتصبين الذين تُنشر صورهم في الصحافة. يا إلهي، سأبكي يا جيلان. حسن، سأحمل حقيبتي، أعود إلى اسطنبول، فقد انتهت مغامرة جنة حصار هذه. في تركيا، يجب أن يكون الإنسان مليونيراً من أجل أن يضاجع جميلة أو يتزوجها. حسن، عرفت هذا. أنا سأكون في أمريكا في العام القادم. وحتى نهاية هذا الصيف أعطي دروس رياضيات ولغة إنكليزية لطلاب المدارس الخاصة. تفضلوا يا أغبياء، الساعة بمائتين وخمسين ليرة. ويكون فكرت مع جيلان هنا وأنا أجمع النقود في بيت خالتي الخانق والحار. لا، لا، لِمَ الظلم؟ يجب ألا تُميَّل رؤوس الفتيات بالنقود، بل بالذكاء والموهبة والوسامة. ولكن لا تبالي يا متين، انظر إلى هذه النجوم، وهذا اللمعان! ترى ما معنى ارتجاف النجوم إلى هذا الحد؟ إنهم ينظرون إليها ويلقون شعراً، وترى لماذا يلقون شعراً؟ إنهم يسمعون شيئاً ما. هذا عبث. تختلط الأمور في عقولهم، ويسمون لخبطة العقل إحساساً. لا، لا أعلم لماذا يلقون شعراً. القضية كلها تكمن في جذب امرأة، وكسب نقود. نعم، إنهم مخبولون. الأمر كله يكمن في تشغيل العقل. عندما أذهب إلى أمريكا سأخترع اختراعاً فيزيائياً

بسيطاً، ولكنه أساسي جداً، وأنشره فوراً في مجلة "Annalen Der physik" التي نشر فيها أينشتاين أولى مخترعاته. وبعد الشهرة والنقود التي سأكسبها فوراً، ستأتي جماعتي طالبة أسرار ومعادلات الصاروخ الذي اخترعته قائلين: هيا اعطها لمواطنيك كي نمطر رأس اليونانيين بالصواريخ، وأنا حينئذ آتي إلى (فيلاي) الأكبر من فيلا (إرتاغون) والأغنى، والتي لا أستطيع أن آتي إليها لمدة تزيد عن أسبوع في السنة لانشغالي. ولعل فكرت وجيلان - يا إلهي - يكونان قد تزوجا. من أين تستنتج هذا؟ ليس بينهما أي شيء. فجأة خفت. جيلان، أين أنت يا جيلان؟ لعلها تركتني وذهبت راكضة، وهي تحكي لهم لاهثة: كاد أن يغتصبني، ولكن لا. لم أسمح له بأن يدنسني. ولعل الأمر ليس بهذا السوء، ولكن يمكن أن تكون قد ذهبت وأخبرتهم. سأغدو سافلاً، ولكن لعلها لم تذهب، وتنتظرني كي أعتذر لها وأتوسل إليها. ليس لدي طاقة تمكنني من رفع رأسي، والنظر إليها. أكاد أغفو. ما هذا البؤس؟ أنا وحيد على الرمل، ليس لي أحد. وكل هذا بسببكما يا أبي وأمي. لماذا متما باكراً؟ ليس ثمة أب وأم يذهبان هكذا تاركين ابنهما. لو تركتما لي إرثاً جيداً على الأقل، كنتُ سأشبه أولئك بنقودي. ولكنكما لم تتركا لي مالاً، كل ما تركتماه لي أخاً بديناً وأختاً أيديولوجية، وطبعاً هنالك جدة خرفانة مع قزمها، وذلك البيت السخيف العفن المقرف المهلهل الذي لا تقدمون على هدمه. لا، سأجعلهم يهدمونه. الله يبعث لكم البلاء. أنا أعرف سبب عدم كسبكم النقود. أنتم جبناء. خفتم من الحياة. لم تكونوا جريئين بما يكفي للقيام بقلة شرف تمكنكم من كسب النقود. ثمة ضرورة للجرأة والإقدام والموهبة من أجل كسب النقود. وهذه موجودة لدي،

وسأكسب. ولكنني أشفق عليكم رغم هذا. وكنت أفكّر بحالتي، وبكم، وبوحدتي، وأفكر، وأخاف أن أبكي، وفجأة سمعت صوت جيلان. قالت: هل تبكي يا متين؟ لم تذهب. قلت: أنا لا، لِمَ أبكي؟ اختلطت الأمور علي كثيراً. قالت جيلان: حسن إذن. وقالت: هيا لننهض ونعد يا متين! قلت: حسنٌ، حسن، سأنهض الآن، ولكنني تمددت دون حركة، ونظرت إلى النجوم بغباء. قالت جيلان مرة أخرى: هيا يا متين، انهض! وعندما مدت يدها إلي، وجذبتني، نهضت. أقف على قدمي بصعوبة، وأهتز. أنظر إلى جيلان. هذه هي الفتاة التي هاجمتها إذن. يالغرابة الأمر، إنها تدخن سيجارة وكأن شيئاً لم يحدث. قلت لمجرد قول شيء: كيف حالك؟ قالت: جيدة، وقالت: تقطعت أزرار قميصي ولكنها لم تقل هذا وهي غاضبة. حينئذ شعرت بالخجل وأنا أفكر بدفئها وطيبها. يا إلهي! أنا لا أعرف ما سأفعله. صمتُ قليلاً، وقلت لها: هل غضبت مني؟ كنت سكراناً جداً لا تؤاخذينني. قالت: لا، لا، لم أغضب. هذه أمور يمكن أن تحدث. كلانا سكران. أنا دُهشتُ. قلت: حسنٌ، بماذا تفكرين يا جيلان؟ قالت: لا أفكر بشيء. هيا لنعد. وحين كنا عائدين، رأتْ حذائي المبتل، وضحكت. حينئذ أردت احتضانها مجدداً. لم أستطع فهم أي شيء. قالت جيلان: لنذهب إلى بيتكم لتغير حذاءك إن أردت. وأنا دهشت أكثر. وخرجنا من شاطئ السباحة، ومشينا في الشوارع الصامتة دون أن نتحدث بشيء. مشينا ونحن نشم رائحة البيتون الساخن وزهرة (ذراع الست) والعشب الجاف القادمة من الحدائق المظلمة الباردة. وحين وصلنا إلى باب حديقة بيتنا، خجلت من بؤس البيت الخرب المهلهل. وغضبتُ من المخدرين، ونظرت إلى ضوء غرفة جدتي المنار حتى الآن. يا إلهي!

أخي الكبير يغفو على الشرفة خلف الطاولة. مازال يجلس في الظلام. بعد ذلك، تحرّك ظله. إنه لا ينام بل يتكئ على القائمتين الخلفيتين للكرسي في هذه الساعة من الليل، لا، بل من الصباح. قلتُ له: مرحباً، لأعرفكما: جيلان. فاروق. إنه أخي الكبير. وشممت رائحة الكحول المقرفة التي تفوح من فم أخي. وكي لا أتركهما وحدهما طويلاً، صعدتُ راكضاً، وغيرت جوربي وحذائي بسرعة، وحينَ نزلتُ، كان فاروق قد بدأ يقول:

حظي بتشريف ذلك الليل خطوة خطوة
ألا يستحق هذا انتظار الألم عالماً عالماً؟

فهمتم أنهما للشاعر نائلي. ولكنه بعد أن قرأهما، نفخَ رقبته ونفشَ نفسه كديك وكأن البيتين له، وبعد ذلك قرأ قائلاً:

إذا لم أدرك ما هو العالم فأنا سكران
من أنا والساقي، وما هي صحبة الشراب؟

وقال: أنا لا أعرف لمن هذين البيتين: إنهما من (سياحة نامة) للجلبي. وكانت جيلان تنظر إلى برميل المشروب العثماني مبتسمة، وتجهز نفسها لسماع المزيد، وكي لا يطيل الأمر، قلت: هل تعطيني مفتاح السيارة؟ نحن ذاهبان. وقال هو: بكل سرور يا سيدي، ولكن بشرط واحد، وهو أن تجيب ابنتي الآنسة الجميلة على سؤال واحد أطرحه. نعم، ما هو العالم الذي لم أدركه؟ اجيبي يا آنسة جيلان لطفاً. اسمك جيلان، أليس كذلك؟ يا لجمال الاسم. قولي يا آنسة جيلان، ما هو العالم؟ ما هو الشيء الذي تشير إليه هذه الأمور كلها، وهذه الأشجار، وهذه السماء والنجوم، وهذه الطاولة والزجاجات الفارغة؟ نعم، ماذا

تقـولين، وجهتْ إليه جيـلان نظرة محببـة قريبـة من الروح، ولـم تقل له شيـئاً. بعد ذلك، وجهتْ إليه نظرة خجلة، وكأنها تقول: "أنت أعـرف". ولمجرد قـول شيء، وكي لا يلح أخي السكران كثيراً، قلت: مازال ضوء الجدة مناراً. وللحظة، التفتنا جميعاً، ونظرنا إلى الأعلى، وفكرنا بها. بعد ذلك، قلت: هيا يا جيلان، لنذهب. وذهبنا. ركبنا سيارة الأناضول البلاستيكية، وحين دورت محركها، وانطلقنا، خطر ببالي ما يمكن أن تفكر فيه جيلان حول هذه الحديقة التي تفوح منها رائحة المقبرة، وهذا البيت المهلهل والأخ البدين الغافي، وحولي فاقشعر جسدي. نعم، لا يمكن لأحد لديه بيت وسيارة وعائلة كهذه، وليس له أحد، أن يهاجم البنات في منتصف الليل في شاطئ السباحة. ولكن لا يا جيلان، أريد أن أشرح لك كل شي، لا وقت لدي. ها نحن نقترب من بيت طوران، ولكن لا، يجب عليك أن تصغي إلي. وانعطف بالسيارة صاعداً الطريق. وعندما سألتني جيلان: إلى أين؟ قلت: لنتنفس الهواء قليلاً. ولم تقل شيئاً. ها نحن ذاهبان، وأفكر أنني سأشرح لها، ولكنني أضغط على الوقود فقط، لأنني لا أعرف من أين أبدا. وحين نزلنا من أعلى الطريق إلى الأسفل، كنت أفكر كيف سأبدأ. بعد ذلك، بدأ الطريق الصاعد، وعندما نزلنا من جديد لم أستطع البدء بعد، ولكنني أضغط على الوقود إلى حد أن سيارة الأناضول بدأت ترتجف مقرقعة، ولكن جيلان لم تقل شيئاً. حسنٌ إذن ضغطتُ على الوقود أكثر، وحين انعطفت عند المنعطف، شردتْ مؤخرة السيارة، ولكن جيلان لم تقل شيئاً. وصلنا إلى طريق اسطنبول ?انقرة، وقلت لها ونحن ننظر إلى السيارات الذاهبة والآيبة لمجرد أن أقول شيئاً: أنضايق السيارات؟ وقالت جيلان: لنعد، أنتَ

سكران جداً. فكرتُ. حسنٌ، هل تريدين التخلص مني؟ ولكن استمعي إلي على الأقل، أريد أن أحكي لك. سأحكي لك، وستفهمينني. أنا شخص جيد، وأعرف جيداً القواعد التي تلزمون بها، وكيف تفكرون وإن لم أكن غنياً. أنا مثلكم يا جيلان. أنا أريد أن أحكي لكِ عن كل هذا، ولكنني عندما أحضّر نفسي لأقوله، أجد كل شيء دونيّ وازدواجي، ولا أجد أنني أستطيع فعل شيء سوى الضغط على الوقود. ولكن على الأقل عليك أن تري أنني لست شخصاً سافلاً، لأن السفلة جبناء، وأنا لست جباناً. انظري، أنا أسير بسرعة ١٣٠ كم بهذه السيارة المهلهلة، فهل أخاف؟ لعلنا نموت. أضغط أكثر على الوقود.. وعندما بدأ الطريق النازل كان هنالك احتمال أن نطير ونموت، وحينئذ سينظم زملائي في المهجع مسابقة بالبوكر تخليداً لذكراي. احفروا على الأقل شاهدة قبري من المرمر بالنقود التي تشفطونها من أولاد الحرام الأغنياء يا حمير أبناء الحمير. ضغطتُ على الوقود أكثر. مازالت جيلان صامتة، وشعرت حينئذ بأن الموت قريب جداً. الرحمة يا إلهي! رأيت بعض الماشين على الطريق متأرجحين، وكأنهم يمشون على شاطئ السباحة. وحين ضغطت على المكابح منهمكاً، استدارت السيارة جانباً وكأنها زورق. وفي أثناء توجهي نحوهم هربوا حاملين الصفائح التي بأيديهم. وتزحلقت السيارة أكثر، ودخلت إلى الحقل. وسكت محرك السيارة عندما اصطدمت بشيء ما، وسمعنا الجداجد. قلتُ: هل خفت يا جيلان؟ هل أُصبتِ؟ وقالت: لا، كدنا ندهسهم. وحين رأيتهم قادمين راكضين حاملين صفائح الطلاء فهمت الأمر. إنهم يكتبون على الجدران، وهم مخربون، أنا لا نية لي أبداً في الدخول في نقاش: "الحمد لله على السلامة يا أخي. لماذا لا تنتبه

ولاه؟" مع ثلاثة متسكعين. قلت: لأدوّر محرك السيارة، ولكنه لم يدر. جربت مرة أخرى فدار المحرك. وبينما كنت أحرّك السيارة إلى الأمام وإلى الخلف من أجل الخروج، وصل المتسكعون الثلاثة، وبدؤوا بتوجيه الشتائم. قلت: اقفلي بابك يا جيلان. وفي أثناء توجيههم الشتائم كنت أتقدم بالسيارة وأتراجع محاولاً الخروج. وفي هذه الأثناء اصطدم أحد أولئك الحمقى بالسيارة على الأرجح. لأنه صرخ، وبدؤوا يلكمون مؤخرة السيارة. ولكنكم تأخرتم يا أغبياء، ها أنا أخرج إلى الطريق. هيا، مع السلامة. لقد أنقذنا، ورأينا إلى الأمام قليلاً الذين مازالوا يكتبون على الجدار: (يني محلة) ستكون قبراً للشيوعيين، وإنهم سيحررون الأتراك. حسنٌ، حسن، احسنتم. إنهم ليسوا شيوعيين على الأقل. ابتعدنا بسرعة، وقلت: هل خفتِ يا جيلان؟ قالت: لا. وأردتُ أن أتحدث قليلاً، وأن يحكي أحدنا للآخر عن الحادثة، ولكنها أعطت أجوبة ذات كلمة واحدة. وفي طريق العودة لم نتحدث. وحين أوقفنا السيارة أمام بيت طوران في النهاية، قفزت جيلان فوراً من السيارة، وركضت إلى الداخل. وأنا نظرت إلى السيارة. لم يحدث لها شيء كثير. لو أن أخي البدين غيّر الإطارات الخارجية بدل إنفاق راتبه على العرق، لما وقع لنا هذا البلاء. المهم، نفدنا بأقل ضرر. دخلت، ورأيتهم. تمددوا على الأرائك والديوانات والأرض، وينامون شبه مخدرين. الجميع تحت تأثير دخان الحشيش. كأنهم ينتظرون شيئاً، كأنه الموت، أو جنازة، أو صدور نتيجة أمر هام. ولكنهم ليسوا يائسين من ذلك الأمر غير العارفين به فقط، بل من كل تلك البيوت التي يمتلكونها وقواربهم ذات المحركات وسياراتهم ومصانعهم وأغراضهم. نعم، سيطر عليهم اليأس. وهم ينتظرون بفراغ

كامل ذلك الشيء الذي لا يعرفونه. ها هو أحمد يخرج من فمه عبوات الكرزات التي يأكلها ببطء شديد، وعناية، وكأن هذا آخر شيء ذي معنى يفعله في الحياة، ويرميها فوق رأس طورغاي بدقة. وطورغاي المتمدد مبتلاً على الأرض يوجه شتيمة مع كل عجوة تسقط على رأسه مبدياً الصبر، ويئن يائساً. بعد ذلك، رأيتُ أن البحيرات المتشكلة على الأرض ناجمة من ماء الخرطوم الداخل إلى الغرفة عبر النافذة، وما زال الماء يسيل من فوهته ومن الزجاجات المقلوبة، ومن الإقياء. وأرى زينب نائمة، وفافا مدفونة بمجلة أزياء بنظرة متجمدة، وهوليل تقبّل رأس طوران النائم مفتوحَ الفم وهو يشخر، والآخرين يستمعون لجيلان وهي تحكي عن المغامرة وفي فمها سيجارة. وحينئذ، لا أجد ما أفكر فيه، وكيف، ولماذا أفكر. ويتداخل كل شيء بكل شيء. وبينما كنت أرخي نفسي متعباً على إحدى الأرائك مدركاً أنني لن أستطيع إيجاد علاقة لأي شيء بأي شيء، قالت فافا بعد أن رفعت رأسها عن المجلة التي بيدها: هيا يا شباب، الشمس تشرق، هيا لنفعل شيئاً. لنذهب إلى بائع حساء قوائم الغنم، أو لنخرج إلى صيد السمك، هيا يا شباب، هيا، هيا..

-٢٢-

قال مصطفى: "هل أخذتم رقم لوحة السيارة؟"

قال سردار: "أناضول بيضاء. إذا رأيتُها مرة أخرى أعرفها".

"هل رأيت من بداخلها جيداً؟"

قال يشار: "بنتٌ مع شخص".

قال مصطفى: "هل رأيتم وجهيهما جيداً؟"

لم أقل شيئاً عندما لم يقل أحدٌ شيئاً: لأنني عرفت متين. ولكنني لا أعرف إن كنتِ أنت الأخرى أم لا يا نيلفون. كدتما أن تدهسانا في هذه الساعة من الصباح. لم أرد التفكير أكثر عندما سمعتُ الشتائم التي شتمكما إياها شبابنا: أنا أكتب حروفاً ضخمة جداً على الجدران فقط، وأقوم بمهمتي. يجلس سردار ومصطفى والولدان الآخران الجديدان في زاوية، ولم يعودوا يفعلون شيئاً سوى تدخين السجائر. ولكن، انظروا إلي، مازلتُ أكتب. أنا أكتب على الجدران: سنجعل هذا المكان قبراً للشيوعيين، قبراً، نعم!

بعد قليل، قال مصطفى: "حسنٌ، كفى يا سادة! غداً ليلاً سنتابع". صمت قليلاً، ثم قال لي: "حسنٌ، عملت جيداً".

لم أردّ. الآخرون يتمطون.

قال: "ولكنك ستكون هناك غداً صباحاً. سأرى ما ستفعله للبنت".

لم أجب أيضاً. بعد أن تفرّق الجميع، فكرتُ وأنا عائد إلى البيت، وأقرأ العبارات التي كتبناها. هل كنتِ أنت التي تجلسين في السيارة بجانب متين؟ من أين كنتما عائدين؟ يمكن أن تكون جدتهما مريضة، وذهبت مع متين للبحث عن دواء... لعلكما تتنزهان عند الفجر، فأنتما غير معروفين. ماذا كنتما تفعلان غداً صباحاً سأسألك. بعد ذلك، خفتُ من مصطفى حين خطر ببالي.

كان الجو قد أضيء. وعندما وصلتُ، وجدت أضواء بيتنا مازالت منارة. حسن يا أبي اقفل الأبواب والنوافذ، ونم هناك، ليس في سريرك بل على المقعد المطاول. أعرج مسكين! أشفقتُ عليه أولاً، بعد ذلك، غضبت قليلاً. نقرتُ على النافذة.

نهض، وفتح. صرخَ، وعربد. اعتقدتُ أنه سيضربني من جديد. لا، بدأ فوراً بشرح مصاعب الحياة، وأهمية الشهادة. وهو لا يضرب عندما يشرح هذه الأمور. نظرتُ أمامي وهو يشرح. لن ينتهي هذا الأمر بالاستماع. لم أعد أستطيع الاستماع إليك بعد أن عملتُ طوال الليل، وجرى لي ما جرى: ذهبتُ إلى الداخل. أخذت كمشة كرز من الثلاجة. كنتُ آكل، فجأة كاد يصفعني، فانسحبت. واستطاع ضربي على يدي، فتناثرت الكرزات وعجواتها.

شرح لي وأنا أجمعُها. بعد ذلك، بدأ يشتكي هذه المرة عندما فهم أنني لا أصغي: يا ابني، يا ابني، لماذا لا تدرس.. الخ. تألمت، وحزنت، ولكنني ماذا سأفعل؟ بعد ذلك، غضبتُ حين ضربني على كتفي.

قلتُ: "إذا ضربتني مرة أخرى، سأهرب من البيت".

قال: "اذهب، وانقلع من هنا. ولن أفتح النافذة بعد ذلك".

قال: "لا تكذب! ماذا تفعل في هذه الساعة في الشوارع؟" بعد ذلك، حين جاءت أمي من الداخل، قال: "سيهرب هذا. نعم، لن يعود مرة أخرى".

صار صوتُه أيضاً غريباً. ارتجف. كأنه ارتجاف ما قبل البكاء، وكنباح كلب وحيد عجوز لا صاحب له. كأن ذلك الكلب المسكين ينادي كلاباً لا يعرفها، ولم يرها لألمه وجوعه. تضايقتُ. كان يشير لأمي بعينيه وحاجبيه أن تغادر إلى الداخل. دخلت من دون أن تقول شيئاً. تكلّم بائع اليانصيب الأعرج قليلاً أيضاً، وصرخ. تحدثا. المهم، أطفأا النور بعد ذلك، وصمتا.

ذهبتُ، وتمددت على سريري عندما كانت أشعة الشمس تسقط على حافة نافذتي. لكنني لم أخلع بنطالي. تمددت هكذا، ونظرت إلى السقف. نظرت إلى تلك البقعة من شق في السقف يدلف منه الماء عندما تمطر بغزارة. قديماً، كنت أشبّه تلك البقعة التي في السقف بنسر. كأن ذلك النسر القديم يفتح جناحيه لينقض علي، ويأخذني. حينئذ كنت لا أشعر أنني صبي، بل بنت! فكرتُ.

أذهب إليها في شاطئ السباحة في التاسعة والنصف، وأقول لها: مرحباً يا نيلفون. هل عرفتني؟ وأقول لها: انظري إنك لم تعرفيني مجدداً، وتعبسين. وأقول لها: لم يعد لدينا متسع من الوقت لأننا في خطر مع الأسف. أنت أخطأتِ بفهمي، وهم أيضاً أخطأوا بفهمي، ويجب أن أشرح لك كل شيء الآن. وأقول: يريدونني أن أصرخ في وجهك، وأن أمزّق الجريدة التي بيدك. وأقول لها: أريهم أن لا ضرورة لكل هذه الأمور. وحينئذ تذهب نيلفون إلى مصطفى الذي يراقبنا من بعيد،

وتشرح له حقيقتها. يخجل مصطفى. ولعل نيلفون تقول لهم إنني أحبها، ولعلها لا تغضب، وحتى ممكن أن تفرح. لأن كل شيء ممكن حدوثه في الحياة، هذا لا يمكن أن تعرفه.

مازلتُ أنظر إلى جناحي النسر الذي في السقف. إنه يشبه نسر أو صقر. ويدلف الماء من داخله ولكنه لم يكن موجوداً قديماً. لأن أبي لم يكن قد أنشأ هذه الغرفة بعد.

لم أكن حينئذ أخجل إلى هذا الحد لأن بيتنا صغير، وأبي بائع يانصيب، وعمي خادم قزم. لا، أنا لا أقول إنني لم أخجل نهائياً. كنتُ أخشى أن ترينا يا نيلفو عندما لم يكن لدينا بئر، ونذهب - أمي وأنا - إلى الصنبور، لأنكما - أنت ومتين - قد بدأتما تذهبان إلى الصيد، وكنا أصدقاء جيدين، ولأنكم تبقون هنا عندما يذهب الجميع في أول تشرين الأول، ويذهب من في حي (بيش إفلر) حيث الأبنية المنشأة حديثاً، والمتطابقة، ولفتها العرائش فيما بعد إلى اسطنبول. في ذلك الوقت، جئتِ مع متين إلى بيتنا حاملين بندقية فاروق الهوائية كي نذهب إلى صيد الغربان. وكنتما قد تعرقتما لأنكما صعدتما طريق بيتنا. وقدمتْ لكما أمي الماء، الماء النظيف في كؤوسنا الجديدة ماركة (باشا بهتشة) غير القابلة للكسر، وشربتِ من ذلك الماء بمحبة يا نيلفون. ولكن متينْ لم يشرب، ولعله وجد كؤوسنا غير نظيفة، أو أنه وجد الماء قذراً. بعد ذلك، قالت أمي: اذهبوا واقطفوا عنباً إن أردتم يا أولاد. ولكن متين، عندما سأل، قالت له: ذلك الكرم ليس لنا، ولكن ماذا سيحدث؟ إنهم جيراننا. اذهبوا وكلوا. ولكنكما أنتما الأخوان لم توافقا. وعندما قلتُ لك يا نيلفون: هل أذهب. وأقطف لك؟ قلت: لا. لأنه ليس لنا. ولكنكِ شربت يا نيلفون بكأسنا الجديد على الأقل، أَما متين فلم يشرب.

ارتفعت الشمس أكثر. أسمعُ العصافير تزقزق على الأشجار. ماذا يفعل مصطفى يا ترى؟ هو هو مضطجع أم نائم؟ فكرتُ.

بعد الآن ليس بكثير، في أحد الأيام بعد خمسة عشر عاماً، وفي أثناء عملي في مصنعي، ستدخل عليّ المساعدة المسلمة، وليست السكرتيرة، وتقول لي: يوجد شخصان من تنظيم المثاليين يريدان لقاءكم. وحين تقول إنهما يدعيان: سردار ومصطفى، أقول لها. سأنهي عملي هذا، ثم أقابلهما. أجعلهما ينتظران قليلاً، وأنهي عملي، ثم أضغط على الزر الآلي، وأطلبهما، قائلاً: يمكنني قبولهما الآن، ليأتيا. وفوراً يشرح مصطفى وسردار وهما خجلان ومتضايقان، وأقول لهما: إنني أتفهمهما. تريدون مساعدة، حسن! سأشتري منكما بطاقات دعوة بعشرة ملايين. أنا لا أشتري منكما هذه البطاقات لأنني أكره الشيوعيين، بل لأنني أشفق عليكما، لأنني لا أخاف من الشيوعيين. أنا مستقيم، ولم أنحرف إلى الاحتيال في التجارة أبداً. وأدفع فطرتي وزكاتي كل سنة بانتظام، وجعلت عمالي شركاء صغار لي. إنهم يحبونني لأنني إنسان شهم، فلِمَ سيخدعون بالنقابات والشيوعيين؟ إنهم يعرفون بقدر ما أعرف أن هذا المصنع مصدر خبزنا جميعاً. وهم يعرفون أيضاً أن لا فرق بيني وبينهم. تفضلا أنتما أيضاً إلى مائدة الإفطار الرمضانية التي أقدمها هنا. أنا صادق معهم. سيُدهش مصطفى وسردار عندما يعلمان أن سبعة آلاف عامل يعمل تحت أمري، ويفهمان أي شخص أنا، يفهمان أليس كذلك؟

عرفتُها من صوتها: شاحنة خليل للزبالة تصعد الطريق. سكتت الطيور. سئمت من النسر الذي على السقف. انقلبت على السرير، ونظرت إلى الأرض. ثمة نملة تسير على الأرض. نملة، يا نملة، مسكينة يا

نملة! مددتُ إصبعي ولمستها بشكل خفيف. تصرفتْ بغباء. ثمة من هم أقوى منك بكثير، وأنت لا تعلمين. آه يا نملة! هل دهشتِ؟ ركضت، وركضت، وعندما وضعت إصبعي أمامك، انعطفت من جديد، وهربت. لعبتُ فترة، ثم أشفقت عليك، وقرفت، وصرتُ غبياً. تضايقت. أردتُ أن أفكّر بأشياء جميلة، وفكرتُ بيوم انتصاري الجميل ذاك.

في ذلك اليوم، أهرع من هاتف إلى هاتف، وفي أثناء إصداري الأوامر المتتالية أتناول سماعة هاتف وأقول: ألو، هل تتكلمون من (طونجلي)؟ في يوم النصر ذاك، أقول: ألو كيف الوضع عندكم؟ يقول الصوتُ القادم من الهاتف: على ما يرام يا سيدي (الباش بوغ)(*)، نظّفنا المكان هنا. ويشكرني. وفي النهاية أتصل بـ (قارص)، وأقول: "كيف الوضع هناك؟ يقولون يكاد يصبح على ما يرام. نحن على وشك إنهائهم جميعهم. أقول: حسن، قمتم بمهمتكم جيداً، أشكركم. أُغلق الهاتف، وأخرج من الغرفة. وفي أثناء انتظارهم تقديمي تصريحاً، أقول عبر المايكريفون: أيها الأصدقاء حققت "حركة برق المثاليين" هدفها الآن. علمتُ الآن بأن أوكار المقاومة الحمراء قد سُحقت في مدينتي طونجلي وسرهات، وهي تُسحق الآن في قارص. أيها الأصدقاء! لم تعد "جنة المثاليين" حلماً. لم يبق في تركيا شيوعي واحد. وحينئذ يهمسُ مساعدي بأذني. وأقول أنا: ياه، هكذا إذن. حسنٌ، سآتي حالاً. وبعد أن أعبر ممرات لا تنتهي من المرمر، وفي زاوية منارة بأضواء قوية لغرفة داخل أربعين غرفة تنفتح إحداها على الأخرى، ويحرسها حراس مسلحون، أراكِ مربوطة إلى كرسي. ويقول لي مساعدي: ألقي القبضُ عليها قبل

* – لقب تركي قديم بمعنى الزعيم ، ويستخدمه التيار القومي المتطرف . . . المترجم .

قليل، وهذه الإمرأة الحمراء زعيمة الشيوعيين كلهم. أقول: فكوها بسرعة. لا يليق بنا ربط امرأة من معصميها. يفكونك. واقول: اتركونا وحدنا لطفاً. وعندما ينتهي مساعدي ورجالي من فكك، يضربون أخذيتهم العسكرية أحداها بالأخرى محيين، ويخرجون. وعندما يغلقون الأبواب، أنظر إليك. في الأربعين من عمرك، صرتِ امرأة أجمل وأنضج. أقدّم لك سيجارة، أقول: هل عرفتني يا رفيقتي نيلفون خانم؟ تقولين بخجل: نعم. ويخيم صمت للحظة. ويرمق كل منا الآخر بنظرة. بعد ذلك، أقول فجأة: "نحن انتصرنا، نحن انتصرنا. ولم نترك تركيا لكم أنتم الشيوعيون. هل أنت نادمة؟ تقولين: نعم، أنا نادمة. وحين أرى يدك الممتدة إلى السيجارة ترتجف، أقول لك: إهدئي. أنا وأصدقائي لا نُسيء للنساء والبنات في أي وقت. إهدئي لطفاً. نحن مرتبطون حتى النهاية بهذا التقليد التركي المستمر عبر آلاف السنين. لهذا لا تخافي أبداً. وأقول: لست أنا من سيعاقبك، بل محكمة التاريخ والأمة هي التي ستعاقبك. وتقولين أنتِ: أنا نادمة، نادمة يا حسن. وأقول أنا: مع الأسف. الندم المتأخر لا يفيد. ومع الأسف أنني لا يمكن أن أنجرف وراء مشاعري، وأعفو عنك. وأقول لها: لأنني قبل كل شيء مسؤول أمام أمتي. وأراك قد بدأت تتعرين فجأة يا نيلفون. تتعرين، وتقتربين مني كما في الفيلم الجنسي ذاك الذي ذهبتُ إلى (بندك) وشاهدته فيها سراً دون أن يراني أحد. صرتِ مثل النساء اللواتي لا حياء ولا عار لهن. يا إلهي! تقول إنها تحبني أيضاً. أنتِ تحاولين خداعي، ولكنني كالجليد. قرفتُ منكِ، وبردت نحوك. وفي أثناء توسلك، أنادي الحراس، وأقول:

خذوا (كاترينا)(*) هذه من هنا. ليس لدي نية تكرار خطأ (محمد باشا البلطجي). عانت أمتي كثيراً بسبب هذا البلطجي الضعيف. ولكن الأيام كانت قد انتهت. يمكن أن أنزوي في غرفة، وأبكي عندما يأخذونك. ولعلي أتصرف مع الشيوعيين بقسوة شديدة منجرفاً وراء مشاعري لأنهم حولوا فتاة مثلك إلى هذه الحال. ولكن دموعي في النهاية تجف، وأسلي نفسي بالتفكير بأنني عانيت من تلك الآلام كلها للاشيء. وأكون قد نسيت تماماً حين أشارك باحتفالات النصر.

تضايقت من هذه الأحلام العبثية، وانقلبت على سريري، ونظرت من طرف السرير. ذهبتْ النملة، ولم تعد موجودة. متى هربت؟ ارتفعت الشمس. خطر الأمر ببالي فجأة، فقفزتُ من السرير. تأخرت.

ذهبت إلى المطبخ، وتناولت بعض الأشياء، وخرجتُ من النافذة دون أن يراني أحد. مازالت العصافير على الأغصان. أسرة تحسين تصفُّ سلال الكرز على طرف الطريق. عندما وصلت إلى شاطئ السباحة بعد وقت طويل، كان الحارس وقاطع التذاطر قد أتيا، ولكن نيلفون غير موجودة بعد. ذهبتُ إلى رصيف كاسر الموج ونظرتُ إلى المراكب الشراعية. أنا نعسان جداً. جلستُ.

نعم، سأتصلُ الآن بك، وأقول: ألو، أنتِ في خطر يا آنسة نيلفون. لا تأتي اليوم إلى شاطئ السباحة والبقالية، ولا تخرجي بعد الآن من البيت. أتسألين من أنا؟ صديق قديم! وطاااق، أغلق الهاتف في وجهها بصوت حازم. هل تفهم من أكون، وأردتُ حمايتها من الخطر؟ هل تفهم؟

لا، أنا أعرف أننا يجب أن نحترم النساء، ولا نسحب الجريدة من

---

* – اسم يطلق على المرأة الروسية في تركيا بمعنى: "أي امرأة روسية"... المترجم.

أيديهن، ونمزقـها! المرأة مخلوق مسكين يجب ألا نتصرف معه بسوء. يا لطيب أمي. أنا لا أحب الذين ينظرون إلى النسـاء بسـوء، والذين ينظرون إليـهن ويفكرون بمضاجعتـهم فقط. كما أن الجائعين للنسـاء المحجبات، والأغنياء الماديين سيئون أيضاً. أنا أعرف أن الإنسان يجب أن يكون ظريفاً ومهذباً مع المرأة. كيف حالكم؟ أنتم تفضلوا من الباب أولاً. إذا ظهر باب وأنت تمشي مع آنسة تبطئ قدميك تلقائياً، ودون التفكير بشيء، تمدّ يدك من الخلف، وتفتح الباب تلقائياً، وتقول تفضلي أولاً. أنا أعرف كيف يحكى مع البنات... أووه، هل تدخنين؟ وتدخنين في الشارع أيضاً. طبعاً يمكنكِ أن تدخني، هذا حقك أيضاً. أنا لستُ صاحب عقلية متخلفة، و(تاك) أشعل سيجارتها بمحاولة واحدة، بقداحة ذات شكل رأس قطار. يمكنني أن أتحدث مع فتاة كما أتحدث مع زميلي في الصف: براحة، ودون أن يحمر وجهي إذا بذلتُ بعض الجهد. حينئذ ستخجل الفتيات عندما يرين أي شخص أنا، ويدركن أنهن أخطأن بفهمي. لا أخطف الجريدة من أيديهن، وأمزقها! لعل مصطفى لم يكن جاداً بحديثه.

نظرتُ إلى البحر، وإلى المراكب الشراعية. أنا الآن عائد إلى شاطئ السباحة. لابد أن مصطفى قد قال ذلك من قبيل الممازحة، لأنه يعرف ضرورة عدم التصرف بسوء مع الفتيات مهما كان. سيقول لي: أنا فعلتُ هذا الأمر لأجربك، وأرى ما إذا كنت قد تعلمت بأن الانضباط هو طاعة لا متناهية! لا ضرورة لأن تعامل تلك الفتاة التي تحبها بشكل سيء.

عندما وصلت إلى شاطئ السباحة، وجدت أن نيلفون قد أتت، وتمددت كما في كل مرة. كنت نعساناً إلى حد أنني لم أنفعل. نظرت إليها كأنني أنظر إلى تمثال. بعد ذلك، جلست. أنا انتظرك يا نيلفون.

فكرت باحتمال عدم مجيء مصطفى. لابد أنه نسي. لم يهتم، أو

غطّ في النوم. الجموع القادمة إلى شاطئ السباحة تركض. هنالك سيارات قادمة من اسطنبول. آباء وأمهات وأولاد يحملون سلالاً وكرات بحر، عائلات حمقى مقرفة: كلكم مذنبون، وكلكم ستعاقبون. أشعر بالاشمئزاز.

فكرت بعدم عمل هذا. أنا لست هكذا. سيقولون حينئذ أنني لم أستطع أخذ جريدة من شيوعية، فكيف تمزيقها؟ حتى إنهم سيقولون إنه مثالي سابق، وهو الآن شيوعي. انتبهوا يا أهالي جنة حصار، ولا تصاحبوا حسن قرة طاش هذا! حينئذ لن أخاف، وسأقوم وحدي بأعمال عظيمة، وسترون كلكم.

"هييه! استيقظ ولاه!"

خفت. إنه مصطفى. نهضت فوراً.

قال: "هل جاءت البنت؟"

قلت: "نعم، هناك. ذات لباس السباحة الأزرق".

قال: "هل التي تقرأ كتاباً؟" ونظر إليك بسوء يا نيلفون. بعد ذلك قال: "تعرف ما ستفعله. من هو البقال؟" أشرتُ إليه، وطلبت منه سيجارة. أعطاني، وذهب، وانتظر بعيداً.

أشعلت سيجارتي، وفكرت وأنا أنظر إلى رأسها منتظراً. سأقول لها: أنا لست مغفلاً يا نيلفون أنا صاحب قيم مثلى ومعتقدات. في الليلة الماضية خاطرنا، وكتبنا على الجدران. انظري، لم ينظف الطلاء من يدي بعد!

"انظر! إنك تدخن. ألا تأسف على نفسك؟ أنت شاب".

العم رجب، وفي يده شبكة التسوق.

قلت: "هذه المرة الأولى التي أدخن فيها".

قال: "الق هذه السيجارة، وعد إلى بيتك يا صغيري. ما عملك أنت هنا مرة أخرى؟"

رميتُ السيجارة لأصرفه عني، وقلت: "لدي صديق سأدرس معه. إنني أنتظره" ولم أطلب منه نقوداً.

قال: "سيأتي والدك إلى الجنازة، أليس كذلك؟"

توقف قليلاً، بعد ذلك، ذهب وهو يتمايل بشكل غريب كعربة ذات حصان واحد تصعد الطريق: تيك، طق، تيك، طق، قزم مسكين.

نظرت بعد قليل، فوجدتُ أن نيلفون قد سبحت، وخرجت، وهي قادمة. ذهبت إلى مصطفى، وأخبرته.

قال: "سأدخل إلى البقالية. اذا اشترت جريدة جمهوريت كما قلت، سأخرج أولاً وأسعل. تعرف حينذاك ما ستفعله، أليس كذلك؟"

لم أقل شيئاً.

قال: "اسمع! عيني عليك". وذهب.

انعطف إلى الزقاق الفرعي، وانتظرت. بداية دخل مصطفى إلى البقالية. بعد قليل، دخلتِ أنت يا نيلفون. انفعلتُ. قلت لنفسي: اربط حذاءك المطاطي بقوة أكبر. يداي ترتجفان. فكّرت وأنا أنتظر: كل شيء ممكن في الحياة. كأنني خفت حين خطر هذا ببالي: ممكن أن أستيقظ ذات صباح، فأرى البحر قد غدا أحمر قانياً، أو حدث زلزال، أو انشقت جنة حصار إلى نصفين، أو اندلع اللهب من شاطئ السباحة. ارتعدت.

خرج مصطفى بداية، ونظر نحوي، وسعل. بعدئذ، خرجت نيلفون وفي يدها الجريدة. لحقتُها. إنها تمشي مسرعة. أنظر إلى قدميها اللتين تحطان على الأرض وتقفزان كعصفورتين: أنتِ مخطئة إن اعتقدتِ بأنك ستخدعينني بجمال ساقيك. ابتعدنا عن الزحام. نظرت خلفي، لا أحدَ غير مصطفى. عندما اقتربتُ سمعتني نيلفون، والتفتت. قلت: "مرحباً نيلفون".

قالت: "مرحباً" والتفتت، ومشت.

قلت: "دقيقة. لنتحدث قليلاً".

تمشي وكأنها لم تسمع. ركضت خلفها. قلت: "قفي! لماذا لا تكلمينني؟" لا جواب "أم أنك تخجلين لأنك ارتكبت ذنباً؟" لا جواب. تمشي "ألا يمكننا أن نتحدث كإنسانين حضاريين؟" لا جواب أيضاً "أم أنك لم تعرفيني يا نيلفون؟"

حين مشت بسرعة أكبر أدركت عدم جوى الاستمرار في الحديث، فركضت، وذهبت إلى جانبها. والآن نمشي متجاورين كصديقين، وأنا أتحدث. أقول لها: "لماذا تهربين، ماذا فعلتُ لك؟" تصمت. "هل رأيت سوءاً مني؟ اخبريني!" لا تقول شيئاً. "احكي، لماذا لا تفتحين فمك؟" لا تقول شيئاً أيضاً. قلت: "حسنٌ أنا أعرف سبب عدم كلامك، أأخبرك به؟" لم تقل شيئاً، وأنا غضبت. قلت: "أنتِ تعتقدين بأنني على خطأ، أليس كذلك؟" وقلت: "أنت تعتقدين أنني هكذا، ولكنك مخطئة يا ابنتي، مخطئة. والآن ستفهمين لماذا أنت مخطئة". ولكنني لم أفعل شيئاً، لأنني خجلت. وفجأة، أردت أن أصرخ لأنني خفت من قول ما هو هراء. في تلك اللحظة بالضبط رأيتُ ذانيك الشابين الأنيقين قادمين من الطرف المقابل.

انتظرتُ كيلا يتدخل هذان المضحكان المرتديان سترتين بربطتي عنق رغم هذا الحر. تراجعت، وتخلفتُ قليلاً كيلا يفهمان الأمور بشكل خاطئ. نظرت وإذا نيلفون تركض. أنا أيضاً بدأت أركض لأنه لم يبق إلا منعطف واحد لبيتها. مصطفى أيضاً يركض خلفي. ارتبكت عندما انعطفتْ: ركضتْ، وذهبت إلى القزم المتمايل والحامل شبكة التسوق، وتأبطت ذراعه. قلت: لأذهب، وأعمل شيئاً ما لكليهما. توقفت خلفهما هكذا كالمخبول، ونظرت. جاء مصطفى.

قال: "جبان. سأريك".

قلت: "أنا سأريهم. غداً سأريهم".

"هل ستفعل هذا غداً؟"

ولكنني كنت أريد أن أفعل هذا الآن! أمر سيء. لو وجهت ضربة لمصطفى! لو ضربته، سينهار، ويبقى هناك. أمر سيء، وليفهم الجميع، ولا يفكر أحد أو يرى أنني جبان لأركله على وجهه. لأنني لا أريد أن يعتقد أحد أنني كما يعتقد هو. أنا مختلف تماماً، هل تعرفون هذا؟ انظروا إلى قبضتي. صرت مختلفاً. أنا لست أنا. غضبت إلى حد أنني أنظر إلى غضبي المتدفق من داخلي، فأخاف من هذا المختلف. لم يعد مصطفى يستطيع قول شيء لأنه فهم الأمر. نمشي صامتين. لأنك ستندم فيما بعد. فهمتَ، أليس كذلك؟

لم يكن في الدكان أحد غير البقال. عندما طلبنا جريدة (جمهوريت) اعتقد أننا نطلب واحدة، فأعطانا. ولكنه فهم عندما قلت: كلها. أعطانيها لأنه خافَ مني كمصطفى. ليس لديه صفيحة زبالة. نثرت الجرائد بعد أن مزقتها. نثرت كل أربع أو خمس قطع وحدها. نزعتُ صور العاريات التي يُثبّتها البقال على الواجهة بالملاقط والمجلات الأسبوعية السافلة بمحرماتها وقرفها وقذارتها... ومزقتها. هذا يعني أنه وقع على عاتقي تنظيف هذه القذارات كلها! حتى مصطفى دُهش.

كان يقول: "حسنٌ، كفى، كفى" وأخرجني من البقالية، وقال: "تعال إلى المقهى مساء. وستكون هنا صباح غد".

لم أقل شيئاً بداية. بعد ذلك، عندما همّ بالذهاب، طلبت منه سيجارة. أعطاني.

-٢٣-

ذهب رجب إلى السوق بعد أن أخذ صينية إفطاري. كان معه شخص آخر حين عاد. من وقعِ الأقدام الشبيه بالزغب فهمتُ أنها نيلفون. صعدتْ الدرج، وفتحت بابي، ونظرت إليّ. كان شعرها رطباً، فقد سبحت في البحر. ذهبت. ولم يعرّج غيرها على غرفتي حتى ماتت. تمددت على سريري، وتنصت على العالم. بداية، سمعت نيلفون وفاروقاً يتحدثان في الأسفل. بعد ذلك، ارتفع صخب شاطئ السباحة المقرف الخاص بيوم السبت إلى درجة لم أعد معها أسمعهما. جافاني النوم، وكنت أقول نزل جهنم، جهنمك يا صلاح الدين الذي كنت تسميه جنة على الأرض. انظر، فالناس جميعهم متساوون. من يدفع المبلغ المعين يستطيع أن يتعرى في الداخل. إنهم يتمددون متجاورين، اسمع! نهضتُ، وأغلقت النافذة والأباجور كي لا أسمع. انتظرت طويلاً طعام الغداء ونوم الظهيرة. تأخر رجب. ذهب إلى جنازة سماك. لم أنزل لتناول طعام الغداء. أخذ رجب صينيتي، وأغلقَ بابي، وذهب. أنتظر القيلولة.

كانت تقول أمي إن أجمل النوم هو القيلولة. ترين أجمل الأحلام بعد طعام الغداء، وتغدين جميلة. نعم، كنت أتعرق قليلاً، وأرتخي، وأخفّ كأنني عصفورة صغيرة تتقافز. كنا بعد ذلك نفتح النافذة كي يخرج

الهواء الفاسد، ويدخل الهواء النظيف، وتمتد أغصان حديقة (نيشان طاش) الخضراء إلى داخل الغرفة، وتخرج أحلامي خارجها. كنت أؤمن أحياناً بأن حلمي ينفصل عني، ويذهب تلقائياً بعد أن أنام. ولعل هذا يحدث عندما أموت أيضاً. تتجول أفكاري داخل غرفتي، وبين أغراضي، وبين درفات الأباجور المغلقة بإحكام، وتتجرجر على وجوه طاولتي وسريري وجدراني وسقفي، وأغدو كأنني أرى ظلالَ أحلامي عندما يوارب أحدهم الباب بشكل خفيف: أغلق الباب كيلا يخرب صفاء أفكاري وتتسمم ذكرياتي، ولتبقى فكرتي النظيفة حتى القيامة هنا تحت سقفي في هذا البيت الصامت متأرجحة كالملائكة كي تخجلكم. ولكنني أعرف ما سيفعلونه حينذاك: آه يا أحفاد إبليس! انزلق هذا عن لسان أحدهم، وهو أصغرهم. عتق هذا المكان كثيراً يا جدة، لنهدمه، وننشئ مكانه بناء طابقياً. لأنني أعرف أن رؤية البريء تؤلمكم أكثر من انغماسكم في المحرمات حتى بلعومكم.

كان صلاح الدين يقول: يجب عليكِ أن تتجاوزي هذا المنع السخيف الذي تسمينه حراماً. اشربي أنتِ أيضاً رشفة من العرق. ألا يدفعك الفضول إلى هذا؟ ليس فيه أي ضرر، على العكس فهو مفيد. إنه يفتح الذهن. التوبة! حسنٌ، قولي هذا ولو لمرة واحدة يا فاطمة، وحرامُه برقبةِ زوجك. قولي إن الله غير موجود يا فاطمة، هيا. التوبة! حسن، استمعي إذن لهذا! اسمعي، إنها أهم مادة في موسوعتي، وقد كتبتها للتو. إنها في باب المعلومات، وبحسب الترتيب الهجائي تقع في فصل "B"، وسأقرؤها باختصار، اسمعي: التجربة هي مصدر معلوماتنا.. ليس ثمة معلومة مقبولة لا تعتمد على التجربة، ولا تثبت إلا بالتجربة.. تعتبر

هذه الجملة مستنداً للمعلومات العلمية التي تحيّد وجود الله بعملية واحدة. لأن هذه القضية لا تثبت بالتجربة... الاثبات السفسطائي لعلم الوجود عبارة عن ثرثرة.. الإله فكرة يلعب بها الميتافيزيقيون.. في هذه الحال - مع الأسف - ليس لله وجود بين تفاحنا وإجاصنا وفاطماتنا... ها ها ها! لم يعد الله خاصتك موجوداً، هل تفهمين؟ أنا أفكر بنشر هذه المعلومات فوراً! لا أستطيع الصبر حتى انتهاء موسوعتي. كتبتُ لصاحب المطبعة (إستيفان). سأعمل طبعة مفصلة لهذا، وأنشرها. طلبتُ الصائغ (إفرام) أيضاً. تصرفي على هذا الأساس. أنا لا أستطيع تحمل دلالك، ودلال الشابات هذا في هذه القضية الهامة. ستعطيني من صندوقك قطعة جيدة، وأقسمُ أن فائدتها ستعم على البلد كله. وإذالم يسمح رجال الدين الحمقى ببيعها، أنا مصمم على الذهاب إلى منطقة (سيركجي) وبيعها بنفسي. سترين أنهم سيتخاطفونها! لأنني قضيت سنوات عمري من أجل تقديم هذه الأفكار، واستخراجها من الكتب الفرنسية، وكتابتها بلغة يتمكن الشعب من فهمها. وأنت تعلمين يا فاطمة! ما أتوقُ لمعرفته ليس إن كانوا سيقرؤونها أم لا، بل الحال التي سيغدون فيها بعد أن يقرؤونها.

لله الشكر أن أحداً لم يقرأ تلك الأكاذيب المقرفة غيره سوى القزم على الأرجح، وأنا وحدي قرأتُ مشمئزة تصويره جهنم الذي أغواه الشيطان ليشرحه منفعلاً بوصفه "جنة المستقبل الجميلة" وتخبط كثيراً من أجل أن تنزل إلى الأرض فوراً.

بعد سبعة أشهر من اكتشافِ صلاح الدين الموتَ، وثلاثة أشهر من موته كان ضوغاني في بلدة (كماه) وكان الوقت منتصف الشتاء، ولم

يكن ثمة أحد في البيت غيري سوى القزم: ندف الثلج في منتصف الليل، وأنا أفكّر بأن الثلج تراكم فوق القبر. ارتعشت فجأة، وخطر ببالي أن أدفئ نفسي جيداً. فقد صارت قدماي كالجليد في غرفتي التي انزويت فيها بسبب عدم احتمالي رائحة المشروب المنبعثة من فمه، وأجلسُ وحدي بردانة. ضوء المصباح الشاحب والملل لا يسليني، والثلج يندفُ على النوافذ، ولم أكن أبكي، فأردت أن أدفئ نفسي، فصعدت إلى الأعلى. اعتقدتُ أنني أستطيع الدخول إلى الغرفة التي لم أدخلها في أثناء حياة صلاح الدين، والتي لم يهدأ فيها وقع الأقدام ذهاباً ومجيئاً. دفعتُ الباب بهدوء: انتشرت أوراق متناثرة وتمددتْ بفظاظة على الطاولات والأرائك والكراسي، وفي الخزانات والدروج، وعلى الكتب وفي داخلها، وعلى الأرض، وفي النافذة، أوراق، أوراق، أوراق مكتوب ومرسوم عليها. كومات من الورق. فتحت غطاء المدفأة الضخمة، وبدأتُ أدسها فيها. رميت عود الثقاب بعد قليل، فابتلعت المدفأة الأوراق والكتابات والجرائد.. وذنوبكَ يا صلاح الدين! بات قلبي يتدفأ مع زوال ذنوبك! أثَرِي الذي وهبته حياتي كلها: محرمي الحبيب! لنر ما كتب إبليس؟ قرأت وأنا أمزق وأمزق وألقي إلى المدفأة. كتبتَ في البدايات ملاحظات صغيرة: الجمهورية: شكل الإدارة الضروري لنا... هنالك أنواع مختلفة للجمهوريات... في كتاب (ديه بيزيه) حول هذا الموضوع... ١٣٤٢.. الجرائد المرسلة إلينا تقول إنها تأسست في أنقرة خلال هذا الأسبوع... جيد.. ولكن حبذا لو لم يشبهوها بهم. قارن نظرية دارون بالقرآن، واشرح لهم تفوق العلم بمسائل بسيطة يفهمهما حتى الحمقى... الزلزال: حادثة جيولوجية، وهي اهتزاز القشرة

الأرضية... المرأة متممة للرجل.. وتنقسم النساء إلى قسمين. الأول: الطبيعيات، وهن يمنحن المتعة التي وهبتهن إياها الطبيعة. وهن عفويات، غير مهمومات، غير متوترات، غير غضوبات، على طبيعتهن، وغالبيتهن يخرجن من الشعب، من الطبقة الدنيا.. كقرينة روسو التي لم يعقد عليها.. كانت خادمة، ومنحت روسو ستة أولاد.. نساء النوع الثاني: متوترات، آمرات، متعاليات، مضطرات للانخداع بعقائد عمياء، باردات، غير متفهمات.. كماري أنطوانيت... النوع الثاني من النساء باردات وغير متفهمات مما جعل كثيراً من العلماء والفلاسفة يبحثون عن حرارة العشق والتفهم في الطبقة لدنيا... خادمة لدى روسو، ابنة خباز لدى غوته، وخادمة أيضاً لدى العالِم الشيوعي ماركس.. وصار له ولد منها.. وتبناه أنجلز، ما الدافع إلى الخجل؟ إنها حقيقة الحياة.. الأمثلة أيضاً كثيرة. وهكذ عانى هؤلاء الرجال العظماء من آلام هؤلاء دون إنهاء كتبهم أو فلسفاتهم، أو موسوعاتهم... ويعتبر الأولاد الذين يعدّهم القانون والمجتمع لقطاء ألماً مختلفاً! .. فكرتُ وأنا أنظر إلى جناحي اللقلق: ترى هل يمكن صنع منطاد بشكل اللقلق تماماً، ولا تكون في مؤخرته مروحة؟.. غدت الطائرة سلاح حربي... رجل يُدعى ليندبيرغ نجح بعبور الأطلس طائراً في الأسبوع الماضي... إنه في الثالثة والعشرين من عمره... السلاطين جميعهم حمقى.. أكثرهم حمقاً هو السلطان رشاد دمية الاتحاديين. ليس معجزة أن تشكّل زواحف حديقتنا ذيولها بحسب نظرية داروين رغم أنها لم تقرأ داروين، ويجب أن يُرى هذا نصر لفكر الإنسان! إذا ثبت أن الانتقال من الإسلام إلى المسيحية سيساهم في تسريع تصنيعنا، فسأكتب فوراً عن ضرورة انتقالنا.

أقرأ، وأقرأ، وأرمي في فوهة المدفأة مشمئزة، وأدفأ. وحين لم أعد أعرف مقدار ما قرأته، ومقدار ما رميته، فُتح الباب فجأة. نظرتُ، إنه القزم. كان في السابعة عشرة من عمره، ولكن: ماذا تفعلين أيتها السيدة الكبيرة؟ أليس هذ مؤسف؟ اخرس أنت! أليس هذا مؤسف وحرام؟ أقول لك: اخرس! أليس هذا حرام؟ لم يخرس بعد! أين عكازي؟ صمت. هل يوجد مزيد من الأوراق؟ هل خبأت شيئاً منها؟ قل الحقيقة يا قزم، هل هذه هي كلها؟ إنه صامت. هذا يعني أنك خبأت بعضها يا قزم. أنت لست ابنه، بل لقيطة فقط، وليس لك حق بشيء. هل فهمت؟ اعطني إياها، سأحرق هذه الأوراق كلها. هل فهمت؟ احضرها بسرعة. انظر، مازلت تقول لي: هذا مؤسف، أليس كذلك؟ أين عكازي؟ أسير نحوه. إنه خبيث. نزل الدرج بسرعة. يصرخُ من الأسفل: ليس لدي شيء أيتها السيدة الكبيرة، أقسم أنني لم أخبئ شيئاً! حسنٌ، لم أقل شيئاً. داهمتُ غرفته فجأة في منتصف الليل. أيقظتُه، ورميته خارجها. فتشت كل مكان من غرفته التي تفوح منها رائحة غريبة. فتشت كل مكان حتى داخل سرير الطفل الصغير، والغطاء الصغير. لا توجد أوراق أخرى، نعم.

ولكنني كنتُ خائفة دائماً. أخشى أن يكون قد خبأ شيئاً ما، أو أن قصاصة ورق غابت عن نظري، وأن يكون ضوغان ابن أبيه قد بحث عنها، ووجدها، وطبعها، لأنه كان يأتي كثيراً ويسأل: أمي، أين النصوص التي كتبها أبي؟ أنا لا أسمعك يا صغيري. ألم يكتب طيلة سنوات؟ أين هي يا أمي؟ أنا لا أسمع يا ابني. أقول: موسوعة أبي غير المنتهية يا عزيزتي. لا أسمع. يمكن أن يكون لها قيمة، فقد منحها أبي

عمره كله، أنا أتوق لمعرفة ما فيها يا أمي، هيا اعطنيها. لا أسمع ولدي. يمكن أن ننشرها في مكان ما كما أراد أبي. انظري، تقترب ذكرى ٢٧ أيار، ويقولون إن الجيش سينفذ انقلاباً جديداً. أنا لا أسمعك يا ضوغاني. يقال إن عودة أخرى للكمالية ستتحقق بعد الانقلاب، ويمكننا على الأقل نشر بعض الأجزاء الغريبة من الموسوعة. اخرجيها من حيث هي، وهاتها يا أمي! أذناي لا تسمعان جيداً. أين تلك الأوراق؟ يا إلهي، أبحث عنها، وأبحث، فلا أجدها. لا يوجد سوى تلك الأدوات العجيبة المرمية في غرفة الغسيل. آه يا أمي، ماذا فعلتِ بالأوراق والكتب؟ هل رميتِها؟ صمتّ. مزقتِها، وحرقتِها، ورميتِها، أليس كذلك؟ ويبدأ البكاء، وبعد قليل، يَعْلَقُ بالعرق. أنا أيضاً سأكتبُ، أنا أيضاً مثل أبي: انظري، كل شيء يسير إلى أسوأ. يجب القيام بشيء لإيقاف هذا المسير السيء، والخبل. لا يمكن أن يكون هؤلاء الناس سيئي النية أو حمقى إلى هذه الدرجة، لابد من وجود جيدين بينهم يا أمي. أنا أعرف وزير الزراعة من أيام المدرسة. كنا عاشقين للفتاة نفسها، ولكننا صديقان جيدان جداً. كان في الصف الأدنى من صفي، ولكننا معاً في فريق ألعاب القوى. كان يرمي الكرة الحديدية، وكان بديناً جداً، ولكن قلبه كالماس. سأكتبُ له الآن تقريراً طويلاً: الباشا الفلاني نائب رئيس الأركان الحالي كان نقيباً عندما كنتُ وكيل قائمقام في (زيلة)، وهو: إنسان جيد جداً، وكان يتحرق لعمل شيء جيد من أجل البلد. سأرسل له أيضاً نسخةً من هذا التقرير. أنت لا تعرفين يا أمي، ولكن يوجد كثير من المظلومين. حسنٌ، لماذا أنت مسؤول عن هؤلاء يا ابني؟ لأننا سنكون

مسؤولين عن الظلم إذا لم نتدخل يا أمي. أنا سأجلس إلى الطاولة، وأكتب عن هذه الأمور كي لا أكون مسؤولاً.. أنتَ مسكين أكثر من أبيك، وخواف أكثر منه!.. لستُ هكذا ياأمي، يا أمي لستُ هكذا. لو كنت خوافاً لانضممت إليهم، وقد جاء دوري بأن أكون محافظاً، ولكن الأمور وصلت إلى أنفي. هل تعرفين ما يفعلونه بأولئك القرويين المساكين؟ أنتِ لست فضولية يا أمي. هم في أطراف جبال لا طير فيها يطير ولا قافلة تسير. المرحوم أبوك علمني أن الفضول لا يفيد بشيء! يهملونهم، وليس لديهم طبيب أو معلم.. مع الأسف إنني لم أستطع تعليمك ما علمني إياه أبي يا ضوغاني! هذا لكي يأخذوا محاصيلهم من بين أيديهم بسعر بخس كل سنة.. مع الأسف يا ابني إنني لم أستطع منحك شيئاً مني، يا ابني. بعد ذلك، يتركونهم في ذلك الظلام المخيف، وينسونهم يا أمي.. وكان يتمادى بالشرح وأنا لا أستمع، وأنزوي في غرفتي، وأفكر: يا للغرابة. كأن هنالك من خدعهما كيلا يكونان كالآخرين، ويذهبان ويرجعان بين عملها والبيت! كنت أفْكر. كأن ذلك الذي خدعهما ينظر الآن إلى آلامي، ويضحك بمكر! شعرت بالاشمئزاز، ونظرت إلى ساعتي. تشير إلى الثالثة، ولكنني لا أستطيع النوم حتى الآن. أنا لا أسمع صخب شاطئ السباحة. فكرت بالقزمِ بعد ذلك، وارتعشت.

فكرتُ بأنهما كتبا رسالة من القرية لضوغاني، وأثارا شفقته. ولعل والد ضوغاني أخبره. ولكن صلاح الدين لم يكن في وضعٍ يجعله يرى غير كتاباته. في الصيف الذي تلا إنهاءه الجامعة، بدأ ضوغاني يسأل عنهما بإلحاح. لماذا ذهب رجب وإسماعيل يا أمي؟ فيما بعد، وفي أحد

الأيام ذهب. وعندما عاد بعد أسبوع، كانا معه، وقد خرجا من الطفولة حديثاً: قزم وأعرج في حال رثة. قلت: لماذا جلبتهما من قريتهما إلى هنا يا ابني؟ ما عملهما في بيتنا؟ قال: أنت تعرفين سبب جلبي لهما. وأسكن الإثنان في الغرفة التي يسكن بها القزم الآن. بعد ذلك، وضع الأعرج عينه على نقود الماس الذي بَيَّعَهُ إياه لضوغاني، وأُخذهُ، وانقلع، ولكن ليس بعيداً: في طريقنا إلى المقبرة كل سنة يرونني بيته الذي في أعلى الطريق الصاعد. أتوق دائماً لمعرفة سبب بقاء القزم. يقولون إنه يخجل، ولأنه يخشى الخروج إلى الناس. خلصني القزم من أعمال البيت والمطبخ، ولكنه يثير اشمئزازي. بعد ذهاب ضوغاني، كنتُ أضبط صلاح الدين والقزم وحدهما يتحدثان أحياناً. كان صلاح الدين يقول: احك لي يا ابني، كيف حياة القرية؟ هل عانيتم كثيراً؟ هل فرضوا عليك أن تصلي؟ قل لي هل تؤمن بالله؟ احك لي كيف ماتت أمك؟ كم كانت امرأة جيدة، لديها جمال أمتي، ولكن مع الأسف علي أن أنهي موسوعتي هذه. كان القزم صامتاً، وأنا لا أحتمل المزيد، فأهرب إلى غرفتي، وأحاول أن أنسى، ولكنني أتذكر مشمئزة: كم كانت امرأة جيدة، لديها جمال أمتي، كم كانت امرأة جيدة، كم كانت امرأة جيدة!

لا يا صلاح الدين، فقد كانت مجرد امرأة ترتكب المحرم فقط: خادمة. هربت مع زوجها من القرية بسبب قضية ثأر، وجاءا إلى غبزة. رأيتها عدة مرات عند أنقاض رصيف الميناء هناك بعد أن ذهب زوجها إلى الجندية، وبعد أن انقلب مركب صيد زوجها الذي تركه هنا، وغرق. كانت مسكينة يسيل مخاطها من أنفها بائسة، من يعلم كيف تعيش.

قبلها أقدمَ الطباخ (غردة لي) على فظاظة بحق صلاح الدين، إذ قال له: أنتم لا تؤمنون بالله، وسنريكم! وجلب هذه المخّاطة المقرفة إلى البيت، وقال: ماذا سنفعل يا فاطمة، لا يوجد رجل؟ وأنا قلت له: لا دخل لي. وعلمها بسرعة كبيرة أعمال المنزل. وحين بدأت بلف أول محشية ورق عنب، قال صلاح الدين: يا لها من امرأة ماهرة، أليس كذلك يا فاطمة؟ وفهمت حينئذ ما سيحدث. يا للغرابة، فكرت بأن أمي جاءت بي إلى هذا العالم لأشهد ذنوب، ومحرمات الآخرين، وأشمئز.

نعم، شعرت بالاشمئزاز: في ليالي الشتاء الباردة، وفي أثناء فوحان روائح قبيحة من فم صلاح الدين بسبب رائحة العرق، يعتقد أنني نمت، فينزل الدرج بهدوء أولاً، وتنتظره في غرفة القزم الآن المرأة التي كانت أمه - يا إلهي، ما أسفل هذا الأمر - ويمشي بهدوء. وأراه، وأشمئز. بعد ذلك، كنت أراه يعمل تلك البراكة الخشبية التي عند خم الدجاج ليستطيع اللهو معها براحة أكبر، أو بشكل "حر وتلقائي" كما يذكر هاتين الكلمتين في موسوعته كثيراً، وأشمئز: عندما يخرج من غرفة عمله سكران في منتصف الليل، ويذهب إلى هناك، كنت أجلس دون حراك، وفي يدي صنارة الحبك، وأفكر فيما كانا يفعلانه هناك.

كنتُ أفكر بأنه يجعل تلك المرأة تفعل ما لم يتمكن من جعلي أفعله. ويعطيها مشروباً أولاً كي يغرقها في الحرام، بعد ذلك يجعلها تقول: إن الله غير موجود. ومن أجل إسعاد الشيطان تقول هي: غير موجود، غير موجود. أنا لا أخاف من الحرام، غير موجود، الله غير موجود. التوبة يا فاطمة، لا تفكري! أحياناً، أخرجُ دون أن أتحرك،

وأذهبُ إلى الغرفة الخلفية، وأفكّر في أثناء النظر إلى البراكة، وأضوائها الباهتة، وأتمتم: هما هناك، ها هما هناك الآن.. لابد أنه يُقبّل لقيطه، ولابد أنه يشرح لهما عدم وجود الله، ولعلهم يتضاحكون، ولعلهم.. لا تفكري يا فاطمة، لا تفكري! يعود بعد ذلك إلى غرفتي خجلاً مما فعل. وأتناول صنارتي وحبكتي لصدرية ضوغاني، وأنتظر. ولم يكن ثمة ضرورة لأنتظر كثيراً: بعد ساعة، كنت أسمع صلاح الدين خارجاً من البراكة، وفي أثناء صعوده الدرج متمايلاً، وهو يقرقع لا مبالياً بالصمت، أوارب باب غرفتي بمقدار إصبع، وأتابع الشيطان حتى دخوله إلى غرفته بفضول وخوف واشمئزاز.

ذات مرة، توقف لحظة وهو يصعد الدرج متمايلاً: حينئذ رأيته ينظر إلى فاصل الباب، وإلى عيني، فخفتُ، وأردت أن أغلق الباب، وأن ألجأ إلى غرفتي بهدوء، ولكنني تأخرتُ، لأن صلاح الدين بدأ بالصراخ: لماذا تمدين أنفك من هناك، وتنظرين أيتها المخلوقة الجبانة؟ لماذا تراقبينني كل ليلة من فاصل الباب! كأنك لا تعرفين إلى أين ذهبت، وماذا فعلتُ؟ كنت أريد إغلاق الباب والهرب، ولكنني لم أستطع ترك مقبضه، كأنني سأكون شريكة بالحرام فيما لو تركته! بعدئذ، صرخ أكثر: أنا لا أخجل من أي شيء يا فاطمة، من أي شيء! أنا لا تهمني مخاوفك وعقائدك البائسة التي تلفّ عقلك كالعنكبوت: أنا متجاوز كل خبل الشرق والذنب والحرام يا فاطمة، هل تفهمين؟ أنت تراقبينني دون جدوى: أنا أباهي بما تستمتعين بالاتهام به والاشمئزاز منه! بعد ذلك، صعد عدة درجات متأرجحاً، وصرخ نحو فاصل الباب الذي مازال مفتوحاً بمقدار

إصبع: أنا أباهي بتلك المرأة وطفليها اللذين ولدتهما لي أيضاً... تلك المرأة مجدة وصادقة وشريفة وصريحة وجميلة! هي لا تعيش مثلك خائفة من الذنب والمحرّم فقط، لأنها لم تتعلم كيف تمسك الشوكة والسكين، وتتظاهر بالرقي مثلك! اسمعي ما سأقوله لك الآن، واسمعيني جيداً! لم يعد صوته مؤنباً، بل مختالاً. وكان بيننا ذلك الباب الذي أمسك مقبضه بحكم الاعتياد، وأستمع. لا يوجد ما يخجل أو يقرف أو يعتبر تهمة يا فاطمة، نحن أحرار. الآخرون هم الذين يحددون حرياتنا. لا يوجد هنا غيرنا يا فاطمة، وكما تعلمين، إننا نعيش في مكان يشبه جزيرة مقطوعة، مثل روبنسون. تركنا الأمر الملعون المدعو مجتمعاً في اسطنبول، ولن أعود إلى هناك إلا يوم أقلب الشرق رأساً على عقب بموسوعتي. اسمعي الآن: طالما هنالك إمكانية للعيش مستمتعين بطعم حريتنا، ومتخلصين من الذنب والحرام والخجل، فلماذا نسيء لكل شيء بسُمِّ الأخلاق والعقائد التافهة التي تلتقي بها مثل مدمن مريض؟ إذا اخترت التعاسة، وليس الحرية، فهذا في النهاية خيارك: ولكن هل صحيح أن يتعس الآخرون بسببكِ؟ وهل من المناسب أن يعاني الآخرون بسبب عقائدك الروحية التافهة؟ اسمعي ما سأقوله: أنا قادم الآن من تلك البراكة، ما الضرورة لإخفاء هذا؟ أنا قادم من عند الخادمة وطفلي رجب وإسماعيل كما تعرفين. اشتريت لهم مدفأة من غبزة، ولكنها لم تفدهم، فهم يتجمدون هناك من البرد يا فاطمة. لم يعد ضميري مرتاح لتركهم يرتجفون من البرد هناك بسبب عقائدك التافهة، هل تسمعينني؟

فهمت، وخفتُ. استمعت أيضاً لما قاله وهو يلكم الباب، ويتوسل

كـأنه يبكي، وصـمت. بعـد قليل سـمعـتـه يصل إلى غـرفـتـه وهو يئن، ودهشت عندما سمعت شخير السكر العميق المطمئن بعد قليل أيضاً، وفكرتُ حـتى الصـبـاح. كـان الثلج يندف، وأنظر من النافـذة. وعلى الإفطار أيضاً أخبرني بما فكرتُ به، وفهمته.

كنا نتناول إفطارنا، والمرأة تخدمنا، ثم نزلتُ إلى المطبخ كأنها ملّت الخدمة كما يفعل القزم الآن. وقـال صلاح الدين هامسـاً: أنتِ تقـولين عنهما لقيطين، ولكنهما إنسانان. كان يتكلّم بصوت مهذب وخفيض بشكل لا يصدّق، وكأنه يعطيني سراً، ويرجو مني شيئاً. الطفلان المسكينان يبردان في تلك البراكة. مازال أحدهما في الثانية والآخر في الثالثة من عمره. قررت إسكانهما مع أمهما في هذا البيت يا فاطمة! لم تعد الغرفة الصغيرة تتسعُ لهم. سأسكنهم في هذه الغرفة الجانبية. لا تنسي أنهما في النهاية طفلاي. لا تعارضي بعد الآن بعقائدك العبثية! أنا كنت صامتة، وأفكر. حين نزل ظهراً لتناول الغداء، قال ذلك بصوت مرتفع هذه المرة، وأضاف: لم يعد ضميري يرضى بنومهم على فراش الأرض، والتفافهم بتلك الخرق التي يعتقدون أنها بطانيات. عندما سأذهب غداً إلى غبزة للتسوق الشهري.. أنا فكرت بأن هذا يعني أنه سيذهب غداً إلى غبزة! وبعد الظهر فكرت على النحو التالي: لعله يقول على العشاء: إننا سنجلس جميعاً على مائدة واحدة بعد الآن. ألا يقول إننا جميعاً متساوون؟ ولكنه لم يقل. شرب عرقه، وقال إنه سيذهب صباحاً إلى غبزة، وذهبتُ دون تردد، وصعدت فوراً، وهرعت إلى الغرفة الخلفية، ونظرت من خلفه: امش يا شيطان، امش إلى ضوء براكة الحرام

متمايلاً فوق الثلج المتلامع تحت ضوء القمر، وسترى غداً. تفرجتُ على الحديقة الثلجية حتى عاد. كانت عيناي على المصباح الشاحب البشع. عندما عاد، دخل هذه المرة غرفتي، وقال هذا في وجهي: لا تنفخي نفسك لأنني صرت منذ سنتين أحتاج إلى قرار محكمة من أجل خلعك، ولا أستطيع الزواج وأنتِ على ذمتي إن أردت هذا! لم يبق بيننا سوى تلك الاتفاقية المضحكة المسماة زواجاً يا فاطمة! فوق هذا، فإنني أستطيع أن أطلقك بكلمتين أو أتزوج واحدة غيرك بسبب ظروف الزمن الذي عقدنا فيه تلك الاتفاقية. ولكنني لم أشعر بضرورة فعل هذا في ذلك الوقت! هل تفهمين؟ وحكى أكثر، واستمعت. بعد ذلك قال إنه سيذهب إلى غبزة صباحاً، وذهب متأرجحاً، وخمد. نظرت إلى الحديقة المغطاة بالثلج، وفكرت، وفكرت طوال الليل.

ولكن كفى يا فاطمة، لا تفكري بعد هذا، تعرّقت تحت لحافي. خطر ببالي: ترى هل يحكي القزم لهم؟ لابد أنه يقول: يا أولاد.. جدتكم حملت ذلك العكاز، و.. خفتُ، وأردت ألا أفكر، ولم أرد أن أنام، ولكنني لا أستطيع النوم أصلاً وأنا أسمع صخب شاطئ السباحة ليوم السبت.

سحبتُ اللحاف إلى جبهتي، ومازلت أسمع، وفكرتُ بأنني فهمت الآن. الآن فهمت كم كانت جميلة ليالي الوحدة الشتوية: حين يغدو صمتُ الليل لي، وكل شيء حاد ومتجمد: أسندتُ أذني إلى ظلام المخدة الناعم، وأحلم بذلك الصمت الوحيد العميق، وكأنني قادمة من داخل التراب وخارج الزمان. ويقول لي العالم الذي يُسمعني ذاته بشكل بطيء

من تحت مخدتي: ذهب صلاح الدين إلى غبزة في اليوم التالي. كم كان يوم القيامة بعيداً حينئذ! كنتُ وحدي في البيت؟ ما أبعد الموتى غير المتفسخين في قبورهم! حملت عكازي كما فكرت، ونزلت الدرج، وخرجتُ إلى الحديقة المغطاة بالثلج. ما أبعد مراجل جهنم التي تغلي، وآلام العذاب! مشيت مسرعة إلى عش الحرام الذي يسميه الشيطان براكة، تاركة ورائي آثار أقدامي على الثلج الذائب. ما أبعد الخفافيش والأفاعي ذات الأجراس والجثث! وصلتُ إلى البراكة، وقرعتُ بابها، وانتظرت قليلاً. فتحتْ المرأة البائسة السافلة الخادمة الغبية الباب فوراً. يا بوم وجان وجثث فئران! دفعتُها، ودخلت. لقيطاك هنا. حاولت إمساك يدي! يا أنابيب المجاري والصراصير ومخاوف الموت! لا تفعلي أيتها السيدة الكبيرة! لا تفعلي هذا. ما ذنب الأولاد؟ يا عبيد الحبشة، يا زنوج، يا حديداً صدئاً! اضربيني أنا أيتها السيدة، ما ذنب الأولاد؟ رحمتك يا رب، اهربوا يا أولاد، اهربوا! لم يستطيعا الهرب! يا متفسخين، وفطائس، ولقطاء! لم يستطيعا الهرب، وضربتهما. وفي تلك الأثناء، ترفعين يدك علي، ها؟ وضربتُ أمهما. وضربتها أكثر حين حاولت ضربي. وفي النهاية يا صلاح الدين انهارت امرأتك التي تقول إنها مجدة وقوية، ولم أنهر أنا طبعاً! حينئذ شاهدتُ في عش الحرام المقرف والذي تسميه براكة، والمنصوب في طرف الحديقة منذ خمس سنوات مستمعة لبكاء لقيطيك ملاعقَ خشبية وسكاكين من صفيح، وصحونَ أمي المكسَرة والمتشققة. انظري يا فاطمة! صندوقك السليم المفقود أيضاً هنا، وصناديق تُستعمل بوصفها طاولات، وخرق، وقماش

ممزق، وأنابيب مدفأة، وفرشات أرض، ومزق جرائد محشورة تحت الأبواب والنوافذ. الرحمة يا إلهي، كم هذا مقرف؟ قطع قماش خشن بشع مبقع، أكوام ورق، أعواد ثقاب محروقة، ملقط صدىء مكسور، قطع حطب في صفائح على شكل صناديق، كراسي قديمة مقلوبة، ملاقط غسيل، زجاجات نبيذ وعرق فارغة، ركام زجاج في الأرض، ودم يا ربي، ولقيطان مازالا يبكيان. أنا مشمئزة. وعندما جاء صلاح الدين في ذلك المساء، بكى قليلاً بداية، وبعد عشرة أيام، أخذهم إلى تلك القرية البعيدة.

كان يقول: حسنٌ يا فاطمة، ليكن ما أردتِ، ولكن هذا الذي فعلته ليس إنسانياً. كسرت رجل الصغير، ولم أفهم ما حدث للكبير. جسمه كله أزرق كحلي، ويجب أن يكون قد تعرّض لصدمة. أنا أحتمل كل هذا من أجل موسوعتي. وأرسَلهم إلى تلك القرية البعيدة. وجدتُ رجلاً مسناً مسكيناً رضي تبني ذانيك الولدين، ولأنني أعطيته نقوداً كثيرة، فأنا مضطر لدعوة اليهودي في زمن قريب. إيه، ماذا سنفعل؟ لتكن كفارة ذنوبنا. حسن، حسن، لا تبدئي من جديد! أنت بريئة. من أجل ذنوبي فقط. لا تسأليني بعد الآن عن سبب إفراطي بالشرب. ستتركيني براحتي، وستعملين في المطبخ الذي بقي خاوياً. سأصعد الآن لأعمل، لا تؤججي غضبي الآن، اغربي عن وجهي، اغلقي على نفسك غرفتك، وتمددي دون نوم وأنت تنظرين إلى السقف كالبوم.

مازلت أتمدد، ولا أنام. أنتظرُ الليل. ليأتِ الليل الذي لا قوة له أن يوسخ أحدكم لأنكم تمددتم في فرشكم، ونمتم! عندما أبقى وحدي كنتُ

ألمسه وأتذوقه وأسمعه وأفكر: الماء، الإبريق، المفتاح، المنديل، الدراق، الكولونيا، الصحن، الطاولة، الساعة.. كانت تقف هناك كلها من أجلي. تقف هناك مثلي ومن أجلي معلقةً في الفراغ، وبشكل مريح ومفهوم في محيطي، وتقرقع، وتتشقق في صمت الليل كأنها تتمطى معي، وتتطهر من الذنب والحرام. حينذاك كان الزمان زماناً، وهم أقرب إلي، وأنا أقرب إلى نفسي.

-٢٤-

استيقظتُ فجأة وأنا أرى أشياء غريبة ومثيرة للفضول، وتكدرتُ حين عرفت أن ما أراه حلماً. كنت أرى في حلمي شيخاً يرتدي عباءة، يدور حول رأسي، ويناديني: "فاروق، فاروق". كان سيخبرني بسر التاريخ غالباً، ولكنه يعذبني قليلاً قبل أن يخبرني به. أنا المؤمن بضرورة دفع ثمن لكل شيء، أتحمل التعذيب من أجل المعلومة، وأشعر بخجل غريب، وأقول لأضغط على نفسي قليلاً لاتعلم هذا. وفجأة يغدو الخجل غير محتمل، وأستيقظ، وأنا أتصبب عرقاً. أسمع الآن صخب شاطئ السباحة، وأصوات المحركات والسيارات القادمة من عند باب الحديقة. لم تفدني القيلولة الطويلة: مازلتُ ناعساً لأنني قضيت الليلة الماضية كلها أشرب. نظرت، فوجدت الساعة تشير إلى الرابعة إلا ربعاً. لم يحل وقت المشروب بعد، ولكنني نهضت.

خرجتُ من الغرفة. البيت صامت. نزلت الدرج. ذهبتُ إلى المطبخ: حين أمسكتُ مقبض باب الثلاجة باعتياد، شعرتُ بالتوقع نفسه: شيء جديد هو انفعال ومغامرة غير متوقعة. لو يحدث شيء في حياتي ينسيني الأرشيف والقصص والتاريخ. فتحت الثلاجة، ونظرت إلى البريق، كأنني أنظر إلى واجهة دكان صائغ: سلّني أيتها الزبديات

والزجاجات والألوان والبندورات والبيضات والكرزات. ولكن يبدو أنها تقول: لا، لا يمكنك اللهو معنا بعد الآن. أنت تلهو بمتعة رفع يدك عن الحياة، وتظاهرت بأنك ترفع يدك. بعد ذلك، تكمل هذه المتعة والألام كلها بالمشروب تاركاً نفسك على هواها. زجاجة العرق نصفها. لو أذهب إلى البقالية، وأشتري واحدة جديدة؟ أغلقتُ باب الثلاجة، وفكرتُ فجأة على النحو التالي: لو أفعل مثلهما - أي جدي وأبي - وأترك كل شيء، وأغلق على نفسي هنا، وأذهب إلى غبزة، وأعود يومياً، وأجلس إلى الطاولة من أجل كتابة تصل إلى ملايين الكلمات حول ما يدعى تاريخاً، ولا بداية لها ولا نهاية. لو أعمل هذا من أجل قول ما حدث فقط، وليس من أجل تهذيب العالم.

تسارعت الريح الباردة. نظرتُ وإذا الغيوم أيضاً قد اقتربت. هواء جنوبي شديد محمّل بالمطر قادم. في أثناء نظري إلى أباجور نافذة غرفة رجب المغلق، فكرت بكيفية نومه. نيلفون تجلس عند الخم وتقرأ. مشيت في الحديقة على غير هدى بداية. ولعبت بالبئر والمضخة كولد لا هدف له. وفكرت بشبابي، وبطفولتي أيضاً. بعد قليل، عندما فكرت بزوجتي، قلت: لآكل شيئاً ما، ودخلت. ولكنني لم أدخل إلى المطبخ، بل صعدت الدرج. وبينما كنت أنظر شارداً من النافذة تمتمت قليلاً: هل يوجد فيما فكرت فيه ما يستحق الذهاب خلفه ومتابعته؟ هل أستطيع التفكير بشيء يمكن متابعته؟ ألقيت بنفسي على السرير كي لا أفكّر أكثر، وفتحت كتاب أوليا جلبي، وبدأت أقرأ عشوائياً.

يحكي عن رحلة له إلى غرب الأناضول: (آق حصار) و(قصبة مرمرة)، وبعد ذلك منابع مياه ساخنة لقرية صغيرة وقصبة: تمنح منابع

المياه الساخنة جسم الإنسان لمعاناً كالزيت. وإذا شُرب منها طوال أربعين يوماً فتفيد مرضى الجذام. بعد ذلك، قرأت كيف رُمّمت بركة الماء، ونُظّفت ثم دخلها مستمتعاً. قرأت نص متعة البركة ذاك مرة أخرى، وتقت لمتعة أوليا جلبي التي لا تعرف الذنب، أو الحرام، وأردت أن أضع نفسي مكانه. بعد هذا كتب تاريخ ترميم أحد الأعمدة. بعدئذ عبر (غديز) راكباً حصانه، وذهب. كتب كل هذا وهم مفعم بنشوة من لا يخشى شيئاً، واثق من نفسه، ومطمئن، كقارع الطبل في الفرقة العسكرية لا يخفي هذه النشوة. أغلقت الكتاب، وفكرت كيف استطاع عمل هذا، وكيف استطاع مقاطعة ما فعله مع ما كتبه، وكيف استطاع رؤية نفسه وكأنه يرى شخصاً آخر. لو فعلت الشيء نفسه - أكتب رسالة لصديق أشرح فيها شيئاً ما على سبيل المثال - فلن أستطيع أن أكون مجرداً ومنتشياً إلى هذه الدرجة: كنتُ سأدس نفسي في ذلك العمل، وسيغطي عقلي المرتبك والمذنب عمريَ الأحدث، وسيختلط ما فعلته مع ما نويت أن أفعله، وما حدث مع حكمي على ما حدث. سأضطر لقبول الواقع، وللشعور بالألم دون تمكني من تأسيس علاقة بين الأشياء، كتلك العلاقة الحقيقية وغير المباشرة التي أسسها أوليا جلبي.

فتحت الكتاب، وعدتُ إلى القراءة: مدينة (طورغوطلو)، ومدينة (نيف) و(أولوجاقلي)، والعوالم المختلفة هناك: "نصبنا خيامنا على شاطئ نبع خالد، واشترينا خروفاً مكتنز اللحم من أحد الرعاة، وصنعنا منه كباباً، وأكلناه". هكذا، المتعة والكيف عارية كالعالم الخارجي. والعالم مكان موجود يُصوّر بطمأنينة، وفي أحيان قليلة بانفعال، وفي أحيان بنشوة وحزن، وهو معاش، وليس مكاناً يُدخل إليه بغضب من أجل نقده وتغييره.

بعد ذلك، فكرت بأن أوليا يطرق الاحتيال من أجل خداع قارئه. ولعله شخصاً مثلي، ولكنه يعرف كيف يكتب جيداً، ويحيك الكذب بإتقان. لعله يرى الأشجار والطيور والبيوت والجدران كما أراها، ولكنه يخدعني بمهاراته الكتابية فقط. ولكنني لم أستطع إقناع نفسي. بعد أن قرأت قليلاً، قررتُ أن الأمر ليس مهارة بل وعياً. وعي أوليا الذي يرى العالم والبيوت والأشجار والناس يختلف عن وعينا. فجأة تأجج لدي فضول معرفة كيفية حصول هذا، وكيفية تأسيس وعي أوليا بهذا الشكل. عندما أشرب كثيراً، وأستحضر همومي كلها، وأفكر بزوجتي، أنادي البعض يائساً من عالم حلم لا أستطيع بأي شكل الاستيقاظ والتخلص منه. فكرت وكأنني أنادي باليأس ذاته: ألا يمكنني أن أكون مثله؟ ألا يمكنني أن أشبّه فكري وبنية عقلي لفكره وبنية عقله؟ ألا يمكنني الدخول بتصوير العالم من البداية حتى النهاية كما هو، مجرداً مثلما يفعل؟

أغلقتُ الكتاب، وقذفته جانباً. هيجت نفسي قائلاً: يمكنك أن تفعل هذا، أو على الأقل، يمكنك أن تعمل مانحاً حياتك بإيمان لهذا العمل. يمكنني أن أبدأ بتصوير العالم والتاريخ من حيث يظهر أمامي أول مرة مثله. يمكنني أن أسلسل الأحداث كما كتب هو عن (مانيسا) ولمن تعود أملاكها، ودخل كل إملاكية، وعدد الأراضي المخصص دخلها لموظفي الدولة، ودخل كل منها. إن هذه الأمور موجودة أصلاً في الأرشيف. أنا أيضاً لا أدخل حكمي الخاص في حديثي عنها كما يفعل هو. وكما يكتب عن جامع ما بأنه مغطى بالقرميد أو الرصاص، يمكنني أن أضيف تفاصيل الحادثة كما هي. وهكذا لا يتعدى تاريخي التصوير

اللامتناهي للأحداث كما في سياحة نامة أوليا. ولأنني أعرف هذا أتوقف أحياناً مثله، وأتذكر أن أشياء أخرى موجودة في العالم، وأكتب على ورقة:

قصة

فتغدو أحداثي منتظمة من أجل توق الإنسان وانفعالاته، وأُشْعِرُ القارئ بأنها محررة من التركيبات الجميلة والمسلية. وإذا قرأ أحدهم صفحاتي التي ستكون أثقل من صفحات أوليا جلبي البالغة ٦٠٠٠ صفحة، سيرى كتلة التاريخ الضبابية التي في رأسي كما هي. وستكون على الورق كما كتب أوليا جلبي، وكالأشياء الطبيعية، وكشجر أو طائر أو حجر. وسَيشْعُرُ القارئ أن حادثة تكمن وراء هذه الطبيعية ذاتها. وهكذا تتساقط ديدان التاريخ الغريبة تلك التي أفكر بأنها تتجول بين تلافيف مخي، وأتخلص منها. لعلني أذهب في يوم التحرر ذاك إلى البحر وأسبح، وتغدو المتعة التي سأحصل عليها من البحر تساوي المتعة التي حصل عليها أوليا من البِركَة. وارتعشت فجأة في أثناء قولي هذا: زمور سيارة ينطلق بشكل فظ، وترّ أعصابي فجأة صخب "المعاصرة" الناشز المقرف القاطع للأحلام والماسح للذكريات.

نهضت من السرير بسرعة، ونزلت الدرج على عجل، وخرجت إلى الحديقة. تسرّع الريح، واقتربت الغيوم: المطر قادم. أشعلت سيجارتي، وعبرت الحديقة، وخرجت إلى الشارع، ومشيت. نعم، أريني ما سترينني إياه الآن أيتها الجدران، والنوافذ، والسيارات، والشرفات، والأشباح التي على الشرفات، والكرات البلاستيكية، والنعال، والعجلات البلاستيكية،

والأحذية الكاشفة للأقدام، والزجاجات، والقرميدات، والصناديق، والقمصان، والمناشف، والحقائب، والسيقان، والتنورات. أروني أيها الرجال والنساء والأولاد والصراصير وجوهكم المتجمدة الميتة، وأكتافكم المحروقة، وأثدائكم الخبيثة، وأذرعكم النحيلة غير الواثقة، ونظراتكم غير الناضجة، أروني، أروني الألوان كلها والسطوح، لأنني أريد أيضاً نسيان تلك الوجوه متأملاً. أريد أن أطير، أريد نسيان نفسي، وأنا أوجّه نظري إلى مصابيح النيون وإعلانات البلاستيك المضاءة، والشعارات السياسية، والتلفزات، والنساء العاريات الملصقات على الجدران، وزوايا البقاليات، وصور الجرائد، والملصقات الرديئة، هيا أروني ما تريدون أن تروني إياه... كفى! سرتُ حتى رصيف كاسر الموج. أنفعلُ للاشيء، وأخدع نفسي! أعرف أنني جزء مما أحببته كله سراً، وما تقت إليه في أعماقي مما أعرفه جامداً ورديئاً، وما أردت أن أؤمن بأنني أشمئز منه. أقنعت نفسي فجأة أنني أريد العيش قبل قرنين أو بعدهما، ولكن هذا كذب: أعرف أنني أدوخ حتى في السكر السطحي المقرف. أدوخ بإعلانات المياه الغازية والصابون والغسالات والسمن النباتي. أشعر أنني لا أرى القرن الذي أعيشه، وأنني وضعت على عيني نظارة تكسر كل مشهد وتماوجه، ولكن - اللعنة عليها - أحب ما أراه.

ثمة مركب شراعي يقترب من رصيف كاسر الموج، ويهتز ببطء فوق الأمواج. كأنه لا يعرف أن لا وعياً يهزه ويحركه في أثناء اهتزازه: مركب شراعي سعيد! مشيت نحو المقهى. ثمة زحام. الريح ترفع أطراف أغطية الطاولات، ولكن المطاط الذي أحيطت به الأغطية يؤمن النظام

كي يشرب الآباء والأمهات شايهم ومياههم الغازية براحة. يُنزل المركب شراعه بصعوبة مستمتعاً بالهواء. مع نزول القماش الأبيض، يرتجف، ولكن دون جدوى كطائر حمام يخفق بجناحيه يائساً بعد الإمساك به: ها هم في النهاية أنزلوا الشراع. ماذا يحدث لو رميت جانباً لعبة: ما هو التاريخ؟ لأذهب، وأقرأ دفتري، وألهو بهدوء مع ذكريات الأرشيف. لو أجلس، وأشرب شاياً؟ ليس ثمة طاولة فارغة. ذهبت، ونظرت إلى داخل المقهى عبر النافذة. ثمة من يلعب الورق، وطاولات خاوية. رجب يأتي إلى هنا! أوراق اللعب بأيديهم ينظرون إليها، بعد ذلك تركوها لأنهم تعبوا، ويرتاحون. أحدهم جمع الأوراق المتروكة، ويخلطها. بينما كنت أنظر إليه شارداً كيف يخلط الأوراق، خطر ببالي هذا فجأة، وانفعلت. نعم، نعم: مجموعة أوراق لعب يمكن أن تحلّ كل شيء.

أعود إلى البيت، وأفكر هكذا:

أكتب على أوراق بحجم أوراق اللعب تلك الجرائم والسرقات والحروب والفلاحين والباشاوات والأحابيل والأحداث كلها التي تنام في صمت الأرشيف، ثم أخلط تلك المجموعة المؤلفة من مئات الأوراق، لا بل من ملايين الأوراق كما تُخلط أوراق اللعب، وطبعاً بصعوبة أكبر، تُخلط بآلات خاصة كآلات اليانصيب التي تُستخدم بحضور كاتب العدل، وأدسها بيد قارئي! وبعد ذلك، أقول: ها هي، ليس لإحداها علاقة بالأخرى، كما ليس لها قبل أو بعد، خلف أو أمام، سبب ونتيجة: تفضّل أيها القارئ الشاب، هذا هو التاريخ، وهذه هي الحياة، اقرأها كما تشاء. موجودة كلها فقط، وفيها كل ما حدث، ولكن ليس ثمة قصة تربط

إحداها بالأخرى. لفقوا لها تلك القصة إن شئتم. حينذاك، سيسأل القارئ الشاب بحزن: ألا توجد قصة؟ ألا توجد قصة أبداً؟ سأعطيه الحق حينئذ، وأقول: طبعاً، أتفهمكم، فأنتم شباب، لابد لكم من قصة لتعيشون بطمأنينة، ولتؤمنوا وأن تعيشوا بأنكم تمكسون الحياة من طرف، وتجذبونها إلى أية جهة تريدون، وإلا فإن الإنسان يفقد صوابه في هذا العمر. أقول: معكم حق، وأبدأ بدس أوراق مكتوبة، وفيها

قصة

كأنني أدس ورقة (جوكر) بين أوراق اللعب البالغ عددها ملايين. حسن، سيسأل القارئ الشاب مرة أخرى: ما معنى هذا كله؟ ما النتيجة التي تؤدي إليها كلها؟ ماذا يجب أن يُفعل؟ وبماذا يجب أن يؤمن؟ ما هو الخطأ، وما هو الصواب؟ من أجل ماذا يجب أن نعمل في الحياة؟ ما هي الحياة؟ من أين يجب أن يبدأ؟ ما جوهر كل شيء؟ ماذا نستنتج من هذا؟ ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟ اللعنة! شعرت بضيق شديد. أعود...

حين دخلت الشمس بين الغيوم فجأة وأنا مار من أمام شاطئ السباحة، تحوّلت أكوام الناس المغطية الرمل إلى أكوام لا هدف لها. حاولت تخيلهم يتمددون على الجليد، وليس على الرمل، وأنهم يريدون تدفئة الجليد كالدجاج الذي يدفئ بيضه ولا يتشمسون. ولكنني أعرف سبب هذا الجهد: من أجل كسر سلسلة السببية، والتخلص من صدق الأخلاق الاضطراري. فلو كان ما يتمددون عليه جليداً وليس رملاً، فأنا بريء وحر، ويمكنني عمل كل شيء، ويمكن أن يحدث أي شيء. مشيت.

ظهرت الشمس. ذهبت إلى البقالية. طلبت ثلاث زجاجات جعة. وبينما كان إجير البقال يضع الزجاجات في كيس ورقي، حاولت - لسبب ما - تشبيه رجل مسن، قصير، كبير الفم، قبيح بإدوارد ج. روبنسون. أمر مدهش، إنه يشبهه بشكل لا يصدق. أنفه مدبب، وأسنانه صغيرة، وعلى خده خال لحمي مثله تماماً. لكنه فارع، وله شارب. هذا هو علم الاجتماع اليائس لدولة نامية: من أي جانب يمكن الفصل بين البنية الأصلية والبنية التقليدية السيئة الملموسة بين أيدينا؟ الرأس الأقرع والشارب من زاوية الديمقراطية والصناعة؟ تواجهنا إدوارد ج. روبنسون وأنا. كأنه يفضفض عن نفسه فجأة: أتعرفون كم يصعب علي قضاء عمر كامل كنسخة باهتة لرجل آخر؟ ينظر أولادي وزوجتي إلى ج. روبنسون الأصلي دائماً، ويصفعونني بجوانبي التي لا تشبهه وكأنها عيوب. وهل عدم الشبه به ذنب؟ قولوا لي من أجل الله! ألا يمكن للإنسان أن يبقى كما هو؟ إن لم يكن ذلك الرجل ممثلاً شهيراً فماذا سيكون؟ حينئذ كيف سيجدون جوانب العيب في؟ فكرت بأنهم سيجدون مثالاً آخر، وينتقدونك هذه المرة لأنك تشبهه. صحيح، معكم حق يا سيدي. ترى هل حضرتك عالم اجتماع أو أستاذ جامعي؟ لا، أستاذ مساعد! أخذ روبنسون المسن جبناً وخرج ببطء. وأنا أخذت الزجاجات، وعدت إلى البيت مفكراً بأن هذا يكفي. الريح السريعة جداً تدوّر ألبسة السباحة المعلقة على الشرفات حول حبال الغسيل دون هدف، وثمة ردفة تصفّق دون جدوى.

ذهبت إلى البيت. وضعت الزجاجات في الثلاجة. أغواني الشيطان

وأنا أغلقها فلم أستطع الإمساك بنفسي، فشربت قدحاً من العرق كأنني أشرب دواء على معدة خاوية، وذهبت إلى نيلفون. كانت تنتظرني من أجل أن نتنزه. شعرها وصفحات كتابها تتراكض في الريح. قلت لها: لا يوجد ما يستحق المشاهدة في الحي. قررنا التنزه بالسيارة. صعدت إلى الأعلى لجلب المفاتيح، وأخذت دفتري، وأخذت من المطبخ زجاجة ماء وزجاجة عرق، وزجاجات الجعة، ولم أنس الفتّاحة أيضاً. نظرت إلي نيلفون وكأنها سيغمى عليها حين رأت ما أخذته. بعد ذلك، ذهبت راكضة، وعادت بعد أن جلبت المذياع. دارت السيارة وهي تئن وتكح. مررنا ببطء وسط الزحام الخارج من شاطئ السباحة. وبينما كنا خارجين سقطت صاعقة صامتة بعيداً جداً، ووصل رعدها بعد زمن طويل.

قلت فيما بعد: "إلى أين نذهب؟" قالت نيلفون: "إلى محطة قوافلك العائدة للمصابين بالوباء، إلى دولة الوباء". قلت: "لست واثقاً من وجود مكان كهذا" قالت نيلفون: "حسن، تذهب، وترى، وتصل إلى قرار نهائي". وبينما كنت أفكر قائلاً: "قرار نهائي". أضافت قائلة: "أم أنك تخشى من الوصول إلى قرار نهائي؟" تمتمت قائلاً: "ليالي الوباء، وأيام الجنة". قالت نيلفون مبهوتة: "هل تقرأ رواية؟" قلت منفعلاً: "أتعرفين؟ فكرة الوباء هذه تسيطر علي تدريجياً. خطرت ببالي في الليلة الماضية. قرأت عنها في مكان ما. يكمن الوباء وراء انتصار (كورتز) على (الأزتكيين) بجيش صغير جداً، واحتلاله مدينة مكسيكو. حين ظهر الوباء في المدينة قرر الأزتكيون بأن الرب مع كورتز". قالت نيلفون: "هذا جميل جداً. يمكنك أيضاً أن تجد الوباء

وتربطه بأمور أخرى، وتتابعه". "ولكن ماذا سيحدث لو لم يكن ثمة شيء كهذ؟" "لن تتابعه حينذاك" "ماذا أفعل إن لم أتابع؟" "تعمل ما تعمله دائماً. تنشغل بالتاريخ". "أخاف ألا أستطيع الإنشغال". "لماذا لا تؤمن أنك يمكن أن تغدو مؤرخاً جيداً؟" "لأنني أعلم أن الإنسان لا يمكنه أن يغدو جيداً بشيء في تركيا". "لا يا عزيزي". "نعم، اعلمي هذا. هذه هي دولتنا. هاتي عرقاً". "لا، انظر ما أجمل هذه الأمكنة! أبقار. إنها بقرات الخالة جنة" صرخت فجأة: "بقر، رجال بقر. مخلوقات رديئة. الله يبعث لهم البلاء". بعد ذلك، أطلقت قهقهة. ولكنني أضغط على نفسي قليلاً على الأغلب. قالت نيلفون: "أنت تبحث عن ذريعة كي تهمل تفسك، أليس كذلك؟" "أبحث. هيا اعطني عرقاً!" قالت نيلفون: "أليس هذا مؤسف من أجلك؟" "لماذا سيكون مؤسفاً؟ بماذا اختلف عن أولئك الذين يهملون أنفسهم؟" ولكن نيلفون قالت بنبرة ساخرة: "ولكنك درست كل هذه الدراسة يا سيد". "في الحقيقة، لديك رغبة بقولِ هذا جدياً، ولكنك لا تجرؤين، أليس كذلك؟" قالت نيلفون بنبرة خارقة: "نعم، نعم، لماذا يُهمل الإنسان نفسه دون هدف؟" قلت: "ليس دون هدف. عندما أهمل نفسي أغدو سعيداً. سأكون واقعياً حينذاك". قالت بشك: "والآن أنت واقعي". "سأكون حقيقياً، هل تفهمين؟ أنا لست حقيقياً الآن! الإنسان الذي يسيطر على نفسه، والمسائل نفسه في كل لحظة، يخرج عن كونه حقيقياً، ويفقد صوابه في تركيا بالتأكيد. وعلى الإنسان أن يهمل نفسه في تركيا كيلا يفقد صوابه. ألن تعطيني عرقاً؟" "خذ لنر" "هه، هكذا. افتحي مذياعك أيضاً!" "أنت تسرُّ من لعب دور الأخ الكبير"

قلت: "لا ألعب دوراً. أنا هكذا. أنا تركي". "إلى أين تذهب؟" قلت فجأة منفعلاً: "إلى الأعلى. إلى مكان يمكننا أن نرى منه كل شيء بشكل أفضل. كلها.." "كل ماذا؟" "إذا استطعت رؤية كل شيء، يمكن.." سألت نيلفون: "يمكن؟"، ولكنني صمتُّ.

صمت. صمتنا. صعدنا الطريق من أمام بيت إسماعيل. انعطفت إلى طريق (ضارجا). عبرنا من أمام المقبرة. دخلت الطريق الترابي المؤدي إلى خلف مصنع الإسمنت. صعدنا الطريق الذي جعلتْهُ الأمطار سيئاً جداً. بدأ المطر يتناثر عندما وصلنا إلى القمة. دوّرت مقدمة سيارة الأناضول نحو المنظر. وقفنا كالشباب الذين يأتون من (جنة حصار) إلى هنا في منتصف الليل لتبادل القبل ونسيان أنهم يعيشون في تركيا، ونظرنا: الشاطئ المتعرج الممتد من طوظلا إلى جنة حصار، والمصانع، وقرى الاصطياف، ومخيمات الصوف، وبساتين الزيتون الضائعة، وأشجار الكرز، والثانوية الزراعية، والسهل الذي مات فيه الفاتح، ومركب شحن في البحر، وأشجار، وبيوت، وظلال تدخل ببطء داخل مطر يقترب بطيئاً من رأس طوظلا. كنا نرى الأثر الأبيض للمطر على البحر وهو يتقدم. صببت ما تبقى في قعر زجاجة العرق في كأسي، وشربته.

قالت نيلفون:"ستتلف معدتك". قلت: "ما سبب ترك زوجتي لي برأيك؟" صمت قصير، بعد ذلك، قالت نيلفون حذرة ومترددة: "كنت أعتقد أن كلاً منكما ترك الآخر". "لا، هي تركتني، لأنني لم أستطع الوصول إلى حيث تريد بأي شكل.. لابد أنها أدركت أنني سأكون

رديئاً". "لا يا عزيزي". قلت: "الأمر هكذا، الأمر هكذا. انظري إلى المطر!" "أنا أفهم الأمر". "ما هو؟ المطر؟" قالت نيلفون جادة: "لا" "هل تعرفين من هو إدوارد ج. روبنسون؟" "من هو؟" "إنه الممثل الذي رأيت تقليده في تركيا. سئمت من حياة الازدواجية. هل فهمت؟" "لا". "ستفهمين إذا شربتِ. لماذا لا تشربين؟ أنت تعتقدين بأنّ المشروب رمز الهزيمة، أليس كذلك؟" "لا، أنا لا أعتقد هذا". "تعتقدين. أعرف هذا. اعتقدي. أنا أستسلم.." قالت نيلفون: "ولكنك لم تخض حرباً بعد". "أستسلمُ لأنني لا أحتمل حياة بروحين. هل يحدث لك هذا أحياناً: أفكر أحياناً أنني شخصان". قالت نيلفون: "لا، لا يحدث أبداً". قلت: "يحدث هذا لي. ولكنني اتخذت قراري. لن يحدث هذا. سأكون شخصاً واحداً، وإنساناً متكاملاً، وبكامل صحته. أنا أحب الثلاجات المملوءة التي يعرضها التلفاز، وإعلانات السجاد، وطلابي الذين يرفعون أصابعهم في الامتحان، ويقولون: أستاذ، هل يمكن أن نبدأ بالسؤال الثاني؟ والذين يحتسون المشروب ويتبادلون القبل، وإعلانات مدارس الدورات الخاصة، و(السجق) المعلقة في الحافلات. هل فهمت؟ قالت نيلفون بحزن: "قليلاً". "لأصمت إذا تضايقت؟" "لا، أنا ألهو". "المطر قادم بشكل سيء، أليس كذلك؟" "نعم" "سكرتُ" "لا يُسكر بهذا القدر من المشروب" تناولت إحدى زجاجات الجعة، وفتحتها، وبينما كنت أشرب من فمها، سألت قائلاً: "حسن، بماذا تفكرين حين ترين كل شيء في الأعلى؟" قالت نيلفون منتشية: "لا يبدو كل شيء..." "فيما لو رأيتِ؟ قرأت في (مديح الجنون) مقطعاً على النحو التالي: بماذا سيفكر

الإنسان إذا صعد إلى القمر، ونظر إلى الأرض، ورأى كل هذه الحركة في آن واحد؟" "لعله يفكر بأن الأمر متداخل". قلت: "نعم" وخطر ببالي فجأة: "تصورُ هذه الهيولى يبدو مشوشاً.." "لمن هذا البيت؟" قلت: "لنديم، وهو من بحر الغزل المخمّس. علق في ذهني وأنا أقرأ بغباء لمجرد القراءة". "إقرأ مزيداً منه!" "ليس لدي الكثير. لا توجد ذاكرة! وأنا أقرأ أوليا جلبي أساساً. لماذا لسنا مثله برأيك؟" "كيف؟" "لذلك الرجل روح شخص واحد. ينجح بأن يكون نفسه. أنا لا أستطيع. وأنت؟" قالت نيلفون: "لا أعرف". قلت: "آه، كم أنتِ حذرة! ترتعدين من خطو خطوة خارج كتبك. أحسنتِ، صدقيها، صدقيها! هم أيضاً يصدقونها، يصدقونها... ولكنهم لم يؤمنوا في يوم ما. انظري! المصنع أيضاً دخل المطر. يا لعجب هذا العالم!" "لماذا؟" "لا أدري. هل أضايقك؟" "لا!" "لو أننا جلبنا رجباً معنا". "لم يأت" "نعم، خجول". قالت نيلفون: "أحبُّ رجباً كثيراً". "تشوبس!" "ماذا؟" "القزم الماكر في إحدى روايات ديكنز.." "أنت قاس جداً يا أخي". "كان سيسألني البارحة عن شيء يتعلق بأسكودار غالباً!" "ماذا سأل؟" "لم يسأل. فور قوله: أسكودار، خطر ببالي أوليا جلبي، فقلتُ إن اسمها يأتي من تحريف كلمة (إسكي دار)، أما (إسكي) فمعناها: قديم، و(دار): ضيّق، والمقصود: زنزانة مكشوفة" "ماذا قال؟" "فهم معنى أسكودار غالباً، فخجل تشوبس، وصمت! ولكن، انظري ما أرانيه اليوم؟" "أنت قاس جداً". "قائمة كتبها جدي". "جدنا؟" "الزائد في تركيا إلى درجة عدم وجود ضرورة له، وما ينقصنا إلى درجة أنه لا يلزمنا". مددتُ نفسي، وأخذتها من داخل

دفتري "من أين ظهرت هذه الورقة؟" قلت: "ألم أقل إن رجباً أعطانيها؟" وقرأت: "عِلْمٌ، قبعة، تصوير، تجارة، غواصة..." "ماذا؟" "هذه قائمة النواقص لدينا.." "تعرف حسناً ابن شقيق رجب!" "غير الموجود!" "حسن هذا يلاحقني يا أخي" "هل أقرأ لك القائمة؟" "أقول إنه يلاحقني"."لماذا يلاحقك؟.. غواصة، بورجوازية، فن الرسم، بخاء ماء، شطرنج، حديقة حيوانات" "أنا أيضاً أفهم..." "أنت لا تخرجين من البيت ليتعقبك... مصنع، أستاذ جامعي، انضباط... إنه مضحك، أليس كذلك؟" "مضحك" "لا، مأساوي!" "المهم، حسن هذا ورائي كلما خرجتُ من شاطئ السباحة" "ممكن أنه يريد المصاحبة". "نعم، هذا ما قاله". "أرأيتِ؟ استمعي إذن.. بكم سنة قبلنا فكر الرجل بنواقصنا، ووجدها، انظري!" "ولكن هذا مضايق!" "ما هو؟ حديقة حيوانات، أستاذ جامعي، أنا أرى الآن يوجد عدد كاف من الأساتذة الجامعيين. بعد ذلك، انضباط، رياضيات، كتاب، مبادئ، ورصيف أيضاً. وبقلم مختلف كتب: خوف من الموت، وشعور بلا شيء. بعد ذلك، كونسروة، حرية.." "كفى يا أخي.." "يجب إضافة المجتمع المدني أيضاً. لعله يعشقك". "ممكن" "ما هو غير لازم، وزائد لدينا: رجل، فلاح، موظف، مسلم، جندي، امرأة، ولد.." "لا يبدو لي هذا مضحكاً.." "مقهى، واسطة، كسل، فظاظة، رشوة، خدر، خوف، جمال.." "هذا الشخص ليس ديمقراطياً على الأقل". "مئذنة، شرفة مئذنة، قط، كلب، ضيف، صديق، فسفس، قَسَمٌ، كلمة ولاه، متسوّل.." "كفى" "ثوم، بصل، خادم، بائع.. كل هذه زائدة.." "كفى" "... دكان، إمام جامع.." "أنت تلفق هذا". "لا، خذي، وانظري".

"هذه كتابة قديمة". "أراني إياها رجب اليوم. قال لي: إقرأها! أعطاه إياها جدنا". "لماذا أعطاه إياها؟" "لا أدري". "انظر إلى المطر! أليس هذا هدير طائرة؟" "نعم!" "في هذا الجو؟" "كم الطائرة مدهشة!" "نعم!" "لو كنّا بداخلها الآن!" "تضايقت يا أخي، لنعد". "ممكن أن تسقط"؟. "لنعد" "ممكن أن تسقط، ونموت. وهناك الدنيا الآخرة". "يا أخي، أقول إنني تضايقت". "إنها موجودة، وسأحاسب هنا. لماذا لم تقم بمهمتك؟ ما هي مهمتنا؟ بسيطة: إعطاء الأمل للناس". "صحيح!" "نعم، أختى الصغيرة أيضاً ذكرتني بهذه المهمة. ولكنني أهمل نفسي". "لا، تتظاهر بأنك تهمل نفسك". "لا، كنت أتظاهر، فقد مللت". "أقود السيارة أنا إن أردت". "وهل تعرفين قيادتها؟" "ألم تعلمني مرة في السنة الماضية.." "وهل كنتُ موجوداً في السنة الماضية؟" "لابد أن رجباً ينتظر". "تشويس. هو أيضاً ينظر إلي بغرابة". "كفى يا أخي". "زوجتي أيضاً كانت تقول لي هذا بالشكل نفسه: كفى يا فاروق!" "أنا لا أصدّق أنك سكران إلى هذا الحد". أنتِ على حق. ليس ثمة ما يصدق. هيا لنذهب إلى المقبرة". "لنعد يا أخي. صار الطريق طينياً" "سنبقى فترة طويلة جداً وسط الطين". "سأنزل أنا". "ماذا؟" "سأنزل، وأعود ماشية". "لا تهذي!" "لنعد إذن". "ما رأيك فيّ؟" "أنا أحبك كثيراً يا أخي". "غير هذا" "لا أريدك أن تشرب إلى هذا الحد". "غير هذا. "لماذا أنت هكذا؟" "ماذا تعنين بهكذا؟" "أريد أن أعود إلى البيت" "أنت لا تجدينني مسلياً، أليس كذلك؟ قفي، أريد أن أسليك. أين دفتري؟ هاته، اسمعي الآن: وُزِنَ لحم العجل المشترى من عند القصاب خليل بإحدى

وعشرين أقتشة، فوجد أنه ناقص ١٢٠ درهماً. التاريخ ٢١ ذي الحجة ١٠٢٣ . ما معنى هذا؟" "معناه واضح جداً". "سرق الخادم عيسى ٣٠ ألف أقتشة، وسرجاً، وحصاناً، وسيفين، وترساً من سيده أحمد، ولجأ إلى شخص يدعى رمضان" "غريب!" "غريب؟ أين الغرابة؟" "سأنزل وأمشي". "أتوافقين على الجلوس معي؟" "ماذا؟" "ليس هنا في السيارة. أنا جاد جداً الآن. اسمعي! اسكني معي يا نيلفون بدل سكناك عند خالتك في اسطنبول. في بيتي غرفة فارغة كبيرة، وأنا وحيد" صمتٌ، قالت نيلفون: "لم يخطر هذا ببالي" "ما قولك؟" "أفكر فيما إذا كان معيباً أمام بيت خالتي" قلت فجأة "حسنٌ، سنعود". أدرت المحرك، وشغّلت ماسحات الزجاج.

-٢٥-

كنا جالسين في بيت طوران لأنهم قرروا أنهم لهوا كثيراً الليلة الماضية، ويريدون تكرار الأمر هذه الليلة أيضاً.

سأل طورغان: "من يريد شيكولا؟"

قالت زينب: "أنا!"

قالت غولنور: "يقول شيكولا. أنا سأنفجر". ونهضت على قدميها غاضبة: "لماذا الجميع هكذا هذه الليلة؟ أنا أعرف الحقيقة: لأنكم مخدرون! ليس ثمة لهو هنا".

مشت متوترة وسط الموسيقا البطيئة التي كان من المفروض أن تكون حزينة، والأضواء الملونة، وضاعت.

كان فم زينب مليئاً بالشيكولا. أطلقت قهقهة، وقالت: "جُنّتْ!"

قالت فوندا: "لا، أنا أيضاً متضايقة".

"من المطر!"

"ما أجمل التجوّل بالسيارات في الظلام. هيا يا شباب!"

قالت فوندا: "ليضعوا موسيقا أخرى على الأقل. قلت: لديك أسطوانة قديمة لإلفس برسلي.."

قالت جيلان: "أتقصدين Best of Elvis؟"

"نعم! هيا اجلبيها لنستمع إليها!"

"في هذا المطر؟"

قلت فجأة: "معي سيارة يا جيلان. لأوصلك!"

"لا تهتم.."

كانت فوندا تقول: "هيا اذهبي، واجلبي هذه الأسطوانة. ما أجمل أن نستمع إليها؟"

قلت: "هيا يا بنت، انهضي! لنذهب، ونجلب هذه الأسطوانة".

قالت جيلان ضاحكة: "حسن يا بنت!"

وهكذا خرجنا - جيلان وأنا - من البيت، ومن وسط الموسيقا الحزينة والرديئة تاركين خلفنا أولئك الحزانى المخدرين بالتسمم، وركضنا، وركبنا سيارة أخي الكبير الأناضول. ذهبنا معاً ونحن نتفرج على قطيرات الماء الساقطة من أوراق الشجر، وعلى الطريق الرطب الذي تنيره المصابيح الشاردة للسيارة القديمة، وعلى الظلام ومساحات الزجاج التي تتململ مصدرة أنيناً. أوقفتُ السيارة أمام بيت جيلان. نظرت إلى ذهاب جيلان راكضة متلامعة في ضوء السيارة بتنورتها البرتقالية. بعد ذلك، حاولت أن أجسّد أمام عيني عبور جيلان من غرفة إلى غرفة، وما تفعله هناك مع إنارة الأضواء في بيتها. بعد ذلك، فكرت بالآتي: ما أغرب العشق! كأنني لا أستطيع عيش الحاضر! أفكر بما يمكن أن يحدث في المستقبل دون كلل أو ملل من جهة، وأعيش في الماضي مفكراً مرات ومرات بما يحدث من أجل إعطاء معنى لحركاتها كلها وكلماتها من جهة أخرى. فوق هذا فأنا لا أعرف ما إذا كان هذا هو العشق الذي يباهي به السافلون مبالغين. ولكن ما أهمية هذا؟ لننهي ليالي القلق التي سأحاول

فيها إنعاش أفكاري وخداي الساخنان يبحثان عن الجانب البارد للمخدة!
بعد قليل، جاءت جيلان راكضة وبيدها أسطوانة، وركبت السيارة.

قالت: "تشاجرت مع أمي. تسأل إلى أين أذهب في هذا الوقت".

صمتنا قليلاً. عبرت من أمام بيت طوران دون توقيف العربة. سألت جيلان مرتبكة وشاكة: "إلى أين؟

قلت شاعراً بالذنب: "الضيق يخنقني هناك. لا أريد أن أعود. لنتنزه قليلاً يا جيلان. تضايقت كثيراً. نستنشق قليلاً من الهواء، ونتنزه قليلاً!"

"حسن، ولكن لنعد بسرعة، لأنهم ينتظروننا".

صمتُّ. ذهبت من الشوارع الفرعية بطيئاً ومسروراً. ومع رؤيتي للأضواء الشاحبة لأناس البيوت الصغيرة المتواضعين الذين ينظرون إلى المطر المتوقف. الشرفات الصغيرة والأشجار، وفكرتُ بمقدار خبلي، وبأننا يمكن أن نكون هذا أيضاً، ونتنزوج، ويكون لنا أولاد! بعد ذلك، حين حل وقت العودة، تصرفت بطفولة، ولم أعد إلى بيت طوران، بل خرجت من الحي بالسيارة، صعدت الطريق مسرعاً.

سألت: "ماذا تفعل؟"

بداية لم أجب، وقدت السيارة في الطريق كمتسابق في سباق سيارات دون أن أرفع رأسي. بعد ذلك، قلت: يجب أن أشتري وقوداً، عارفاً أن كذبتي ستنكشف. وجدتُ نفسي سيئاً جداً.

قالت: "لا، لنعد. إنهم ينتظروننا".

"أريد أن أبقى معكِ وحدنا قليلاً لنتكلم يا جيلان".

قالت بحدة: "ماذا؟"

"بماذا تفكرين حول ما جرى الليلة الماضية؟"

"لا شيء! تحدثُ أمور كهذه. كنا سكارى".

قلت متمرداً: "أهذا كل ما ستقولينه؟" وضغطت على الوقود: "أهذا كل شيء؟"

قلت يائساً، ومشمئزاً من نفسي ومن بؤس كلماتي: "أنا لن أنسى الليلة الماضية في أي وقت!"

"نعم، شربتَ كثيراً، ولن نشرب إلى هذا الحد مرة أخرى".

"لا، لا، ليس من هذا!"

قالت: "لماذا إذن؟" بلا مبالاة لا تُصدق.

حينئذ أمسكتْ يدي يدَها المسترخية على المقعد. كانت يدها الصغيرة دافئة. لم تسحبها كما خشيت.

قالت: "هيا، لنعد!"

قلت خجلاً: "أنا أحبك".

"لنعد!"

فجأة غدوت وكأنني سأبكي، وضغطت على يدها أكثر. ولسبب ما، فكرتُ بأمي التي لا أتذكرها أبداً، وخشيت أن تغرورق عيناي، وحين أردت أن أحتضنها، صرختْ: "انتبه!"

مصباحان قويان حادان جذبا عيني، وكانا قادمين نحونا. دوّرت المقود إلى اليمين فوراً. شاحنة طويلة عبرت من جانبنا مطلقة زمورها المقرف محدثة صخباً مخيفاً. ولأنني ضغطتُ بقوتي كلها على المكابح ناسياً الضغط على (الدبرياج) توقفتْ الأناضول مهتزة، وسكتَ المحرك. لم يعد يُسمع إلا صرير الجداجد.

قلت: "هل خفتِ؟"

قالت: "هيا، لنعد بسرعة، تأخرنا".

أدرت المفتاح، ولكن المحرك لم يدر. انفعلتُ، وجرّبتُ من جديد، ولكنه لم يدر. نزلتُ من السيارة، أردت دفعها لأسرعها، وأدورّها، ولكنها لم تدر أيضاً. صرت أتصبب عرقاً وكأنه الدم، حتى تمكنت من دفع السيارة إلى الطريق السهل. ركبت بعد ذلك، وأطفأتُ المصابيح كيلا تتأثر البطارية، وتركتُ السيارة تنزلق من الأعلى نحو الأسفل بسرعة وصمت.

عندها تسارعت العجلات مصدرة صوتاً ممتعاً فوق الإسفلت الرطب ذهبنا منزلقين من الأعلى إلى السفل كسفينة تمخر الظلام الدامس لبحر مفتوح. قلتُ عدة مرات: لأدورّ المحرك! ولكنه لم يدر. عندما قدح برق في مكان بعيد، وأنيرت السماء بضوء أصفر، رأينا الذين يكتبون على الجدران. ودون ضغط على الفرامل انعطفنا مع المنعطف، وبالسرعة المكتسبة من نزول الطريق، وصلنا إلى جسر القطار، ومن هناك، انزلقنا ببطء على طريق أنقرة إلى محطة الوقود، ولم نتكلم شيئاً. نزلتُ من السيارة عندما وصلنا إلى محطة الوقود. ذهبتُ إلى المكتب. أيقظتُ عامل المضخة الذي يغفو على الطاولة، وقلتُ له: ضاغطُ الاقلاع لا يعمل، والدبرياج خربان. هل يوجد من يفهم بالأناضول؟

قال عامل المحطة: "ليس شرطاً أن يكون اختصاصي أناضول. انتظر قليلاً. نظرتُ إلى ملصق (موبيل أويل) على الجدار مندهشاً. العارضة التي تحمل صفيحة زيت تشبه جيلان بشكل لا يصدّق. عدتُ إلى السيارة وكأنني أصبت بالخبال.

"أنا أحبك يا جيلان".

كانت تدخن بعصبية.

"نحن نتأخر".

"أقول: إنني أحبك".

تبادلنا نظرات شاردة. نزلتُ من السيارة، ومشيتُ بسرعة كأن شيئاً ما في عقلي أسرع، وابتعدتُ من هناك. انزويت في زاوية مظلمة، ونظرت. ثمة ضوء نيون موتر للأعصاب يشعل وينطفئ فوقه. هو ظل يدخن سيجارة. جمّد فكرتي. كنت خائفاً ومتعرقاً، وأرى رأس سيجارته الأحمر الذي يلمع في فتراتٍ قصيرة يجب أن أكون قد توقفت نصف ساعة تقريباً وأنا أنظر إليه هكذا شاعراً بنفسي أنني ماكر وسافل. بعد ذلك، ذهبتُ إلى الدكان الواقع إلى الأمام قليلاً، واشتريتُ من الشيكولا التي يُقدّم التلفاز دعايتها كثيراً، وعدتُ إلى السيارة، وجلستُ إلى جانبها.

قالت: "أين بقيتَ، انشغل بالي. تأخرنا".

"اشتريتُ لك هدية، انظري!"

"آآآ، بالبندق؟ أنا لا أحب هذه".

قلتُ لها مرة أخرى إنني أحبها، ولكن الكلمات لم تكن قبيحة فقط، بل بائسة وفارغة أيضاً. جرّبت مرة أخرى. بعد ذلك، سقط رأسي فجأة فوق يدها الموضوعة في حضنها. وقبلتُ يدها المتململة والمتوترة عدة مرات على عجل وكأنني أخشى من تفويت شيء ما. ووضعتُ يدها بين يدي وأنا أقول لها الكلمات الفارغة والبشعة نفسها. كأنني غرقتُ باليأس والهزيمة إلى حد كبير، لأنني لم أفهم ما إذا كان الطعم المالح

ناجم عن طعم العرق أو الدموع! بعد أن قبلتها قليلاً، وتمتمتُ بالكلمات الفارغة نفسها، نهضتُ كيلا أختنق باليأس، والتفتُ نحو الهواء النظيف.

كانت تقول: "سيروننا".

خرجت مرة أخرى. ذهبتُ. تفرجتُ على عائلة قادمة من ألمانيا تملأ سيارتها بالنقود. كأن عينيّ قد خرجتا من صحن دم. لابد أن مصباحَ النيون الذي يعلو المضخة معطلاً. فهو يضيء وينطفئ، ثم يشتعل. فكرتُ بأن الإنسان يمكن أن يكون غنياً أو فقيراً، فهذه مسألة خط، وهذا ما يطبع حياته حتى نهايتها. لم أعد أريد هذا، ولكن قدميّ قادتاني إلى هناك مرة أخرى وفي السيارة، بدأ الحمق نفسه الذي لا جدوى منه.

"أنا أحبك".

"هيا، أرجوك، لنعد يا متين!"

"لننتظر قليلاً، لطفاً يا جيلان".

"لو أنك تحبني حقيقة لما أمسكتَ بي بالقوة في رأس هذا الجبل".

"أنا أحبُّك حقيقة".

بعد ذلك، بحثتُ عن كلماتٍ أخرى أقولها، كلمات تفيد بتقديم نفسي كما أنا، ولكنني مع الإمعان بالتفكير فهمت: الكلمات تخفينا أكثر، ولا ترفع الغطاء الذي فوقنا. بينما كنتُ أتلفّت فيما حولي يائساً، رأيت شيئاً على المقعد الخلفي. أخذتُه، ونظرت إليه: دفتر. يجب أن يكون أخي السكران قد نسيه. نظرتُ إليه قليلاً في ضوء النيون، ثم أعطيته لجيلان كي لا تنفجر من الضيق والغضب، وقلت

لها: اقرئي. قرأت قليلاً وهي تعضّ على شفتيها، بعد ذلك، رمت دفتر التاريخ إلى المقعد الخلفي. حين جاء عامل الصيانة الشاب، سحبتُ السيارة إلى الضوء. وفي الضوء، رأيتُ وجه جيلان الفارغ والصارم.

بعد زمن طويل، بعد أن نظرتُ مع عامل الصيانة إلى المحرك، وبعد أن ذهبَ الشاب لجلب قطعة تبديل ضرورية، وعدت، ونظرت، رأيت في وجه جيلان الضوء الفارغ والصارم ذاته. فكرت برغبة غريبة بالألم من أجل معاقبتها ومعاقبة نفسي: هذا هو إذن شباب المخلوقة المسكينة المدعوة ربة منزل! اللعنة! أنا أحبها أيضاً! ابتعدتُ قليلاً عن الأناضول الخربة. مرّرت بعقلي أفكاراً متشابكة حول العشق تحت المطر الذي بدأ بالهطول مجدداً. صببت اللعنات على الشعراء والمغنين لأنهم يقدسون شعور الانهيار والكارثة هذا. ولكنني بعد ذلك، شعرتُ بأن جانباً من هذا الشعور يريد الإنسان أن يحبه ويعتاد عليه: كأن الفضول يدفعني لمعرفة ما سيحدث لاحقاً، فأريد سراً أن يموت شخص عرفته عن قرب، وأحببته، أو يُحرق بيته من أجل متعة الفرجة فقط، وأشعر بالذنب نتيجة هذه المشاعر المنحرفة. ومع مرور زمن على شعور الكارثة، أنتبهُ إلى أنني أدخّن أكثر. ابتعدتُ عن السيارة لأنني لم أحتمل نظرات جيلان الغاضبة والاتهامية، ودخلتُ بعد ذلك مع عامل الصيانة إلى تحت السيارة. وبينما كنتُ هناك مع إجير معلم الصيانة متمدداً في الظلام الزيتي القذر الذي يغطي السيارة القديمة، شعرتُ بأن جيلان تعلوني بخمسين سنتيمتراً، ولكنها بعيدة جداً. بعد زمن طويل اهتزت السيارة،

ومن حيث أتمدد، رأيت قدمي جيلان المحببتين وساقيها الطويلتين الجميلتين إلى جانب رأسي. تحرّك الحذاء الأحمر ذو الكعبين يميناً ويساراً، توتّر، ونفد صبره، وتقدم إلى مكان ما بغضب وإصرار.

أدركت أنها ذاهبة إلى المكتب بعد أن دخلت تنورتها البرتقالية وظهرها العريض زاوية رؤيتي. خرجتُ من تحت السيارة مسرعاً. وفي أثناء خروجي وأنا أزحف، قلت للأجير صارخاً: "اعمل هذا بسرعة!" وركضتُ: عندما وصلت إلى المكتب، كانت جيلان تنظر إلى الهاتف الموضوع على الطاولة، بينما عامل المضخة يغفو على الطاولة.

قلتُ هاتفاً: "قفي أنتِ يا جيلان. أنا سأتصل!" قالت جيلان: "الآن خطر هذا ببالك؟ تأخرنا كثيراً، لابد أنهم قلقوا. من يعلم بماذا يفكرون.. الساعة الثانية.." كانت تتمادى بالكلام، ولكن الله أرسل سيارة اقتربت من المضخة، فخرج العامل من المكتب، وتخلصتُ من مزيد من الخجل، وفتحتُ الدليل، ووجدت فوراً رقم هاتف طوران. دورتُ الأرقام. كانت جيلان تقول: "أنت لا تحسن التفكير أبداً. أخطأت بتقييمك". وقلت لها إنني أحبها مرة أخرى. ودون تفكير بشيء أضفت بإيمان وارتباك: "أريد أن نتزوج!" ولكن الكلمات لم تعد تغيّر شيئاً. وقفت جيلان بجانب المرأة التي تشبهها في الملصق، ونظرت غاضبة فقط، ليس إلي، بل إلى الهاتف الذي بيدي. لا أدري إن كنت خائفاً من الكره الذي في وجهها أم من الشبه السحري مع المرأة التي في ملصق (موبيل أويل). ولكنني تهيأتُ للكارثة المخيفة. فُتح الهاتف بعد قليل. عرفتُ صوتَ فكرت فوراً، عليه اللعنة. قلت: "هذا أنت؟ نحن نتصل كيلا ينشغل بالكم

علينا". في الوقت نفسه، فكرت لماذا رد هو بالذات على الهاتف رغم وجود كل أولئك الناس في بيت طوران. قال فكرت فجأة: "من حضرتكم؟" "أنا يا عزيزي، متين". "فهمناك. من معك؟" قلتُ مندهشاً: "جيلان" للحظة فكرت باتفاق الإثنين علي، والسخرية مني. ولكن وجه جيلان فارغ، وتسأل كل برهة: "من رد على الهاتف؟". قال فكرت: "أنا كنتُ أعتقد أنك أوصلتها إلى البيت فقط". قلتُ: "لا، نحن معاً في محطة الوقود. ونعلمكم كيلا تقلقوا. هيا، مع السلامة". كانت جيلان تسأل: "من هذا؟ من الذي يتكلم؟ هات هذا الهاتف!" ولكنني لم اعطها إياه، وأحاول الردّ على أسئلة فكرت المقرفة: "ماذا تفعلان في محطة الوقود؟" قلتُ: "صيانة صغيرة" وأضفتُ مسرعاً: "نحن عائدان الآن. مع السلامة!" ولكن جيلان صرخت من أجل إسماع صوتها: "قف، قف! لا تدعه يغلق الخط! من هو؟" كنتُ سأغلق، ولكن فكرت سأل بصوته البارد والناشز: "يبدو أن جيلان تريد أن تتكلم معي". لم أستطع إظهار جرأة إغلاق الهاتف. وجدتُ نفسي مرتبكاً لا أفعل شيئاً، فمددت السماعة لجيلان، وصرختُ من المكتب إلى الظلام والمطر القذر شاعراً بالكارثة والسفالة.

بعد أن مشيتُ قليلاً، لم أستطع الإمساك بنفسي، ونظرت إلى الغرفة المضاءة والرفوف والملصقات، وإلى جيلان التي تعبث بشعرها بين صفائح موبيل أويل، وتتحدث بالهاتف، وفكرت بأنني سأنسى كل هذا عندما أذهب إلى أمريكا، ولكنني لم أعد أريد الذهاب إلى أمريكا. بينما كانت جيلان تتكلم وهي تتحرك حركات متوترة مرخية ثقلها على

إحدى ساقيها الجميلتين، ثم ناقلة له إلى الأخرى، تمتمتُ وأنا مهزوم: إنها أجمل من كل الفتيات اللواتي عرفتهن ورأيتهن في حياتي! وقفتُ منتظراً هناك تحت المطر يائساً ومطمئناً، كأنني هيأتُ نفسي لتلقي عقوبة صدرت بحقي. بعد قليل، أغلقت جيلان الهاتف، وخرجت فرحة.

"سيأتي فكرت الآن".

"لا، أنا الذي أحبك".

ذهبتُ راكضاً إلى السيارة، وناديت على الإجير، وصرخت، وقلت له، إنني سأعطيه كل النقود التي في جيبي إذا دوّر السيارة فوراً.

قال الإجير: "أدورها، ولكن هذا الدبرياج سينقطع مرة أخرى في الطريق".

"لا، لن يقطعني، دورها أنت".

بعد أن عمل الإجير قليلاً، طلب مني أن أضغط على ذراع الإقلاع. ضغطتُ، ولكنها لم تدر. طلب مني أن أضغط عليه من جديد بعد أن عمل قليلاً، ولكنه لم يدر. لابد أنني فقدتُ توازني نتيجة التوتر والغضب واليأس بعد أن كرر هذا عدة مرات.

"جيلان، جيلان، لا تتركيني وتذهبين! لا تتركيني أرجوك!"

قالت جيلان: "توترت أعصابي".

بعد قليل، عندما دخلتْ سيارة فكرت (آلفا - روميو) إلى محطة الوقود، استجمعتُ نفسي.

قالت جيلان: "هيا لنذهب نحن من هنا فوراً".

قال فكرت: "ما عطل هذه الأناضول؟"

قلت: "ستدور الآن. سأكون في جنة حصار قبله يا جيلان. لنتسابق إن أردت!"

قال فكرت: "حسنٌ، لنتسابق"

ذهبت جيلان، وجلست في سيارة فكرت (آلفا - روميو). ضغطتُ على ذراع الإقلاع بقوة، ودار المحرك لله الشكر. أعطيتُ الإجير ألف ليرة، بعد ذلك واحدة أخرى. صففنا السيارتين إحداهما بجانب الأخرى".

قالت جيلان: "انتبه يا فكرت! أعصابُ متين متوترة".

"حتى بيت طوران". وعدّ فكرت قائلاً: "واحد، اثنان..."

أصدرت سيارتانا ما يشبه الخوار قافزتين كالسهم عندما قال: ثلاثة. هيا لنر. حسنٌ، ضغطت على الوقود حتى النهاية. ولكنه تقدمني منذ البداية لأنه انطلق قبلي. وهذا أفضل، لأنني ضغطت على الزمور، ووجهت الأضواء البعيدة إلى رقبته، ولا أبتعد عنه بأناضول مهلهلة. لن أتركك وحدكِ معه! اقتربتُ منه أكثر عندما عبرنا الجسر، وعند أول منعطف الطريق ضغطت على الوقود أكثر في حين أنني يجب أن أهدئ السرعة. لأنني يمكن أن أسقط في مطب مضحك، وأعرف أنني يجب أن آخذ الموت بعين الاعتبار من أجل جعل فتاةٍ مثلك تحبني. ولكن ما هذا الظلم؟ أنتِ في سيارة ذلك الخواف. انظري إلى هذا الخواف فقط ضغط على المكابح عندما دخلنا المنعطف، وأنيرت أضواءه الحمراء. تصرّف بغدر حين أردت تجاوزه، ولم يفسح لي الطريق. هل فهمتِ؟ ولحظة قلتُ إنني أيضاً مجرد مسكين، يا إلهي! دُهشت كثيراً جداً: أنزل ذراع علبة السرعة بداية، وعندما ضغط على الوقود تحولت (الفا - روميو) إلى

صاروخ. وعندما صعدتْ الطريق بسرعة لا تصدق، غابت أضواؤها الحمراء التي صغرت تدريجياً خلال دقيقتين. أضغط على الوقود حتى النهاية، ولكن السيارة التي تحتي تصعد الطريق متأرجحة كعربة خيل تطح وتنح. بعد قليل، بدأت تئن، ولم تعد العجلات تستجيب للمحرك بسبب الدبرياج الملعون. أسكتُّ المحرك كيلا يحترق، علقتُ هناك. أنا صامت وسط الطريق الصاعد وحدي هكذا بجنون. لا يوجد غير بليات الله الجداجد.

بعد أن جربّتُ تدوير المحرك عدة مرات، أدركت أن الحل الوحيد للحاق بهما هو دفع السيارة حتى نهاية الطريق الصاعدة، وإلى ما بعد السهل، وبعد ذلك، أجعلها تنزلق من الأعلى إلى الأسفل حتى جنة حصار. كان المطر قد توقف عندما بدأتُ أدفعها، وأنا أطلق الشتائم. بعد قليل، تصبب عرقي كالدم. وجربتُ دفعها مرة أخرى متحملاً ألم ظهري. عندما بدأ زخ المطر كان ألم الظهر لا يُطاق. شددت ذراع الكبح اليدوي، وركلتُ السيارة بحقد. بعد ذلك، أشرتُ بأمل لسيارة تصعد الطريق، ولكنها عبرتْ دون توقف وهي تطلق زمورها. بدأت بدفعها مرة أخرى عندما أرعدت السماء في مكان بعيد. صار ألمُ ظهري يدفع دموعي إلى الانهمار. كنتُ أفكر بهما بحقد كي أنسى الألم في أثناء ذلك.

بعد هذا، شعرت بدوار حين رأيت أنني قطعتُ طريقاً قصيراً جداً مقابل كل هذه المصاعب، وبدأت أركض على طول الطريق، فالمطر بدأ يهطل بغزارة. دخلتُ بساتين الكرز كي أذهب من الطريق المختصر،

فغصتُ في الكروم ولم أستطع الركض في الظلام الدامس والطين! بعد قليل، انحنيتُ نتيجة آلام ظهري وطحالي في أثناء تنفسي. كانت قدماي مغروزتان في الطين. عدتُّ حين سمعت أن نباح الكلاب المنحوسة تنبح من بعيد وقد اقتربت كثيراً. دخلتُ إلى السيارة كيلا أبتلُّ أكثر، وجلستُ. أسندت رأسي إلى المقود: أنا أحبّكِ.

بعد قليل رأيت ثلاثة أشخاص ينزلون الطريق وهم يتبادلون الحديث. قفزتُ من السيارة فرحاً من أجل طلب المساعدة. تذكرتهم خائفاً عندما تبينت ظلالهم: كان الضخم حاملاً صفيحة طلاء، والآخر له شنب، والثالث يرتدي سترة.

قال ذو الشنب: "ماذا تفعل هنا في ظلام الليل؟"

"تعطلت سيارتي. هل تدفعونني قليلاً؟"

"وهل تعتقد أننا بغال، أم أننا خدم أبيك؟ دعها تنزلق نحو الأسفل".

قال ذو السترة: "دقيقة، دقيقة. أنا الآن عرفتكم يا حضرة السيد. هل تذكرتم؟ كدتم تدهسونا هذا الصباح".

"كيف؟ ها، نعم! أنتم؟ لا تؤاخذني يا أخي".

تكلم ذو السترة مقلداً امرأة أكثر مما يقلدني: "لا تؤاخذني يا أخي، كدتُ أدهسكم هذا الصباح. ماذا يحدث لو دهستنا؟"

قال ذو الشنب: "امشوا يا شباب، ستبتلون".

قال ذو السترة: "أنا سأبقى هنا معه". وذهب، وجلس في السيارة "هيا يا شباب. تعالا أنتما أيضاً".

بعد تردد قصير، دخل إلى المقعد الخلفي للسيارة ذو الشنب وحامل صفيحة الطلاء، وجلسا. وأنا جلستُ خلف المقود بجانب ذي السترة. انهمر المطر في الخارج بغزارة.

قال ذو السترة: "نحن لا نزعجك، أليس كذلك يا حلو؟"

ابتسمتُ رداً على سؤاله.

"أحسنت! أنا أحببته. إنه يفهم بالمزاح. ولد نبيه. ما اسمك؟"

قلته.

"أنا مسرور جداً يا سيد متين. أنا سردار، وهذا مصطفى، ونادي هذا الدب الغبي ابن آوى، واسمه الحقيقي حسن.

قال حسن: "اسمع، ستكون في وضع سيء مرة أخرى".

قال سردار: "ماذا هنالك؟ ألن نتعرف؟ أليس كذلك يا سيد متين؟"

مدّ يده. عندما مددت يدي أيضاً، التقَطَها، وبدأ يعصرها بكل قوته. حين كادتْ دموعي تنهمر، بدأتُ أعصر يده دون أي خيار آخر. حينئذ ترك يدي.

"أحسنت! تبدو قوياً، ولكنك لستَ أقوى مني!"

قال مصطفى: "أين تدرس أنت؟"

"في الثانوية الأمريكية".

قال سردار: "في ثانوية المجتمع الراقي، ها؟ ابن آوى هذا تعلّق بواحدة من طبقتكم".

قال حسن: "لا تبدأ من جديد!"

"قف لنرى، لعله يدلّك على الطريق، لأنه منها، أليس كذلك؟ لماذا تضحك؟"

قلت: "لا شيء!"

قال سردار: "أعرف لماذا تضحك! أنت تسخر من هذا المسكين لأنه عشق فتاة غنية. أليس كذلك ولاه؟"

قلتُ: "أنت أيضاً كنت تضحك".

قال سردار صارخاً: "أنا أضحك. أنا صديقُه. أنا لا أراه أدنى مني. أما أنت فتراه أدنى منك. ماذا يوجد يا حمار ابن الحمار، ألم تعشق في حياتك؟"

شتم أكثر، وغضب أكثر عندما لم أقل شيئاً. بدأ يفتّش هنا وهناك غاضباً، وفتح غطاء الفجوة الأمامية، وقرأ ما كُتب في أوراق التأمين بصوت مرتفع مطلقاً القهقهات، وكأنها أشياء مضحكة، واستهان بي عندما عرف أن السيارة لأخي، وليست لي، ثم سأل بشكل مفاجئ:

"ماذا تفعلون في تلك السيارات مع الفتيات؟"

لم أُجب. وابتسمت بفظاظة كشخص سافل.

"أنتم أشخاص عديمو الشرف! ولكنكم تحسنون هذا الأمر. هل التي كانت معك في الليلة الماضية حبيبتك؟"

قلت مرتبكاً: "لا، لم تكن حبيبتي".

قال سردار: "لا تكذب".

فكرت لحظة، وقلت: "كانت أختي. جدتي مريضة، وكنا نبحث عن دواء".

"لماذا لم تشتروا من الصيدلية التي تقع على الطريق الصاعد مقابل شاطئ السباحة؟"

"كانت مغلقة".

"كذّاب! تفتح تلك الصيدلية كل مساء! أم أنك تعرف أن الصيدلي شيوعي؟"

"لا أعرف".

"ماذا تعرف أنت غير التجوّل مع فتيات الطبقة الراقية؟"

قال مصطفى: "هل تعرف من نحن؟"

قلتُ: "أعرف. أنتم مثاليون؟"

قال مصطفى: "وهل تعرف ما نهتم به؟"

"القومية وما شابهها".

"ماذا تعني ما شابهها هذه ولاه؟"

قال سردار: "يبدو أن الولد ليس تركيا. هل أنت تركي ولاه؟ أبواك تركيان؟"

"أنا تركي".

"ما هذه إذن ولاه؟" وأشار إلى الأسطوانة التي نستها جيلان. تهجا سردار الكلمات: "Best of Elvis".

قلت: "هذه أسطوانة".

قال سردار: "لا تتساخف! أضربك. ما عمل أسطوانة المنايك هذه في سيارة تركي؟"

قلت: "أنا لا أحبها. هذه أسطوانة أختي، نستها في السيارة".

قال سردار: "يعني أنك لا تذهب إلى صالات الرقص أبداً؟"

"ذهبتُ قليلاً جداً".

قال مصطفى: "هل أنتَ ضد الشيوعية؟"

"ضدها".

"لماذا أنت ضدها؟ قل لنرى".

"كما تعرف.."

"لاا.. أنا لا أعرف شيئاً. أنت ستقول لنا، وسنتعلم منك..."

قال سردار: "يبدو أن هذا الصديق خجول جداً، فهو صامت".

قال مصطفى: "هل أنت جبان؟"

"لا أعتقد".

قال مصطفى: "يقول إنه لا يعتقد! سخيف! لماذا لا تناضل في مواجهة الشيوعيين إذا كنتَ ضدهم؟"

قلتُ: "لم تُتح لي الفرصة. أنتم أول من أراه من المثاليين".

قال سردار: "كيف وجدتنا؟ هل أحببتنا؟"

"أحببتكم".

"أنت منا. هل نأخذك معنا عندما سنخرج غداً؟"

"طبعاً، تعالوا وخذوني.."

"اخرس يا مراوغ وخواف. ستذهب إلى الشرطة فور تخلصك منا، أليس كذلك؟"

قال مصطفى: "إهدأ يا سردار. إنه ليس ولداً سيئاً. انظر، سيشتري منا الآن بطاقات دعوة!"

قال سردار: "سننظم أمسية في صالة الرياضة والمعارض. هل تذهب؟"

"أذهب. بِكم؟"

"هل ذكر أحد النقود؟"

"حسنٌ يا سردار! طالما يبد أن يذهب مقابل النقود، فليدفع الولد! ستكون هذه مساعدة".

سأل سردار بتهذيب: "كم واحدة تريد يا حضرة السيد؟"

"بخمسمائة ليرة".

كنتُ أخرج من محفظتي خمسمائة ليرة بسرعة.

قال مصطفى: "هل هذه المحفظة من جلد الأفعى؟"

"لا!" ومددت الخمسمائة ليرة إلى سردار مرتبكاً. لم يأخذ سردار النقود: "دعني أرى جلد الأفعي هذا".

قلت: "إنها ليست من جلد الأفعى".

"هات هذه المحفظة لنراها يا هذا".

أعطيته المحفظة المملوءة بالنقود التي جمعتُها بالعمل طوال شهر في حرّ الصيف.

قال سردار: "أحسنت! هذه المحفظة ليست من جلد الأفعى، أنت خدعتنا".

قال مصطفى: "هات كي أرى، أنا أفهم بالأمر". أخذ المحفظة، وفتشها: "هل يلزمك دفتر العناوين هذا؟ لا... ما أكثر معارفك، ولديهم جميعاً هواتف.. لا ضرورة لأن يحمل شخص مثلك هوية ليعرّف بنفسه، ولديه هؤلاء المعارف كلهم. أنا أخذت هذه الهوية... اثنا عشر ألف ليرة! أبوك يعطيك كل هذه النقود؟"

قلتُ: "لا، كسبتها بنفسي. أنا أعطي دروس رياضيات ولغة إنكليزية".

قال سردار: "انظر يا ابن آوى، إنه يناسبك تماماً. هل تعطيه دروساً؟ مجاناً طبعاً.."

قلت: "أُعطيه" وحينئذ فهمت من يكون حسنُ هذا المدعو ابن آوى.

قال مصطفى: "أحسنت! فهمت أنك ولد طيب. بإمكانك أخذ أربع وعشرين بطاقة دعوة بالضبط بهذه الاثني عشر ألفاً، ستوزعها على أصدقائك".

قلت: "اتركوا لي ألف ليرة على الأقل".

صرخ سردار قائلاً: "ولكنك توتر أعصابنا، هاه".

قال مصطفى: "لا، إنه غير متذمر. أنت تدفع اثني عشر ألفاً بإرادتك، أليس كذلك؟"

"هذا الكلام لك ولاه، يا ناعم".

"كفى يا سردار! لا تزعج الولد".

"ما هذا الدفتر؟" فتح سردار دفتر فاروق الذي وجده في المقعد الخلفي، وقرأ: "قرية ذات دخلٍ يبلغ سبعة عشر ألف أقتشة قرب غبزة، كانت عائدة للفارس الموظف علي، ثم أخذت منه لأنه لم يذهب إلى الحرب، وأعطيت لحبيب. ما هذا؟ لا يُقرأ! شكوى ولي بحق مصطفى لأنه لم يدفع ثمن البغل الذي اشتراه.."

قال مصطفى: "ما هذه الأمور؟"

قلت: "أخي الكبير مؤرخ".

قال سردار: "مسكين!"

قال مصطفى: "هيا لنذهب. هدأ المطر".

قلت: "اعطوني الهوية على الأقل!"

قال سردار: "ماذا تعني بقولك: على الأقل، ولاه؟ هل أسأنا لك؟ أجب!" نَظر إلى داخل السيارة في محاولة للقيام بإساءة. رأى Best of Elvis "وآخذ هذا". وأخذ دفتر فاروق "قد سيارتك بهدوء بعد الآن. لا تعتقد أن أبناء الأمة عبيدَ أبيك! يا سافل وحقير!"

صفع الباب، وذهب مع الآخرين. حين أدركتُ أنهم ابتعدوا جيداً، نزلتُ من السيارة، وبدأتُ أدفعها إلى الأعلى.

-٢٦-

قال سردار: "لقنّا هذا البائس درساً جيداً".

قال مصطفى: "أنت تنفلتُ أحياناً. ماذا لو ذهب إلى الشرطة؟"

قال سردار: "لن يذهب. أما رأيته؟ إنه مجرد شخص جبان".

قال مصطفى: "لماذا أخذتَ الأسطوانة والدفتر؟"

حينئذ رأيت الأسطوانة يا نيلفون: أخذ سردار أسطوانتك التي في السيارة ودفتر فاروق. حين وصلنا إلى الحي السفلي، وقفَ تحت مصباح الشارع ونظر إلى الأسطوانة.

قال: "أخذتُها لأنني مرضت من اعتباره الجميع عبيد أبيه!"

قال مصطفى: "لم تفعل حسناً، أغضبتَهُ للاشيء".

قلت أنا: "اعطوني الأسطوانة لأعيدها إلى السيارة إن أردتما".

قال سردار: "هذا غبي يا ناس!"

قال مصطفى: "لن تقول لحسن أمام أي شخص: غبي وابن آوى".

سكتَ سردار. مشينا نزولاً دون أن نتكلم. فكرتُ بإمكانية شراء موسى ذات مقبض صدفي رأيتها في (بندك) وحذاء شتوياً جلدياً أرضه من المطاط بالاثني عشر ألفاً التي في جيب مصطفى. ولو وضعتَ فوقها قليلاً من النقود يمكنك أن تشتري حتى مسدساً. توقفا عندما وصلا إلى حيث المقهى.

قال مصطفى: "نعم، علينا أن نفترق الآن".

قلتُ: "ألن نكتب؟"

قال مصطفى: "لا، ستمطر مرة أخرى. نتبلل. ليبق الطلاء والفراشي عندك هذه الليلة يا حسن، حسن؟"

سيذهبان نحو البيوت السفلية، وأنا سأصعد الطريق، و٣/ ١٢٠٠ = ٤٠٠٠ ليرة. وهنالك أسطوانة نيلفون والدفتر.

قال مصطفى: "ماذا حدث؟ لماذا تصمت هكذا؟ هيا سنفترق" بعد ذلك، تظاهر أن شيئاً خطر بباله، فقال: "هيا، خذ يا حسن هذه السجائر والثقاب. يمكنك أن تدخن".

لم أرغب بأخذها، ولكنه رمقني بنظرة، فأخذتها.

قال: "ألن تشكرني؟"

"أشكرك".

التفتا، وذهبا. نظرتُ إليهما من الخلف قليلاً: يمكن شراء الكثير من الأشياء بأربعة آلاف ليرة أيضاً! عبرا من النور الذي أمام المختبر، وغابا. بعد ذلك، ناديت فجأة: "مصطفى!" إثر ندائي، سمعتُ توقف وقع أقدامهما.

نادى قائلاً: "ماذا هنالك؟"

توقفتُ قليلاً، وبعد ذلك، ذهبت إليهما راكضاً.

قلت وأنا ألهث: "أيمكنني أن آخذ الأسطوانة والدفتر؟"

قال سردار: "ماذا ستفعل بهما. هل ستعيدهما بجدّ؟"

قلت: "لا أريد شيئاً آخر. أعطياني إياهما، وكفى".

قال مصطفى: "اعطه إياهما".

أعطاني إياهما سردار، وقال: "أنت غبي".

قال له مصطفى: "اخرس!" ثم قال لي: "انظر يا حسن! قررنا استخدام الاثني عشر ألفاً في النفقات المحلية. لا تفهم هذا خطأ. نصيبنا منها قليل جداً. خذ هذه الخمسمائة ليرة الآن، وهي نصيبك".

قلت: "لا، لتذهب كلها إلى الرابطة، ولتستخدم كلها من أجل النضال. أنا لا أريد شيئاً لنفسي".

صرخ سردار قائلاً: "ولكنك تأخذ الأسطوانة!"

ارتبكتُ حينئذ، وأخذتُ الخمسمائة ليرة نصيبي، ووضعتها في جيبي.

قال سردار: "حسن! لم يبق لك أي حق بهذه الاثني عشر ألف. ولن تخبر أحداً إن شاء الله!"

قال مصطفى: "لا يخبر أحداً. ليس غبياً كما تعتقد، كالجنّ، ولكنه لا يبدي هذا. انظر كيف عاد ليأخذ نصيبه".

قال سردار: "هيا لنر". واستدارا، وذهبا.

نظرت من خلفهما، وسمعتهما يتحدثان. لعلهما يسخران مني. نظرتُ قليلاً أيضاً، وأشعلت سيجارةً، واستدرت حاملاً الطلاء والفراشي بيد، والاسطوانة والدفتر بالأخرى، وصعدت الطريق. سأذهب غداً صباحاً إلى شاطئ السباحة، وإذا جاء مصطفى سيراني. وإذا لم يأتِ، سأقول له غداً مساءً: أنا جئتُ صباحاً بانتظار الفتاة، ولكنك لم تأتِ يا مصطفى: سيفهم أنني تعلمتُ الانضباط. ليبعث لهم البلاء.

بعد أن صعدتُ الطريق قليلاً، ارتبكتُ عندما سمعت متين يصرخ: هناك إلى الأمام. وفي مكان ما من الظلام الذي لا نهاية له، متين وحده يشتم. اقتربتُ وأنا أدوس على الإسفلت الرطب بصمت، وحاولت رؤيته، ولكنني سمعتُه يوجّه الشتائم الثقيلة، وكأن شخصاً مربّطٌ الأطراف أمامه. بعدئذ، ارتبكتُ عندما سمعت صوتاً غير طبيعي، فانزويت على طرف الطريق، وحين اقتربتُ، فهمت أنه يركل سيارته. يضربها وهو يشتمها، وكأنه ركب حصاناً متمرداً. ولكن السيارة البلاستيكية لا تردّ عليه، وهذا ما يجعله يشتما أكثر. فكرتُ بأشياء غريبة. يمكنني أن أذهب إلى متين، وأضربه! فكرتُ: العواصف، والموت، والزلازل. أترك ما بيدي، وأهاجمه فجأة: لماذا لم تعرفني، لماذا نسيتني؟ هكذا: هذه أمور هامة، أنت تعرفه، وتراقب ما يفعله من بعيد، وتعرفُ حياته كلها، وهو لا يعرفك حتى مجرد معرفة، ويعيش حياته دون أن يعرفك. سيعرفونني في يوم ما. تركتُ السافل يركل سيارته. انتبهتُ عندما انعطفت من الكرم الطيني كيلا يراني. كنتُ أعتقد أنه يشتم بسبب النقود التي اضطر لفقدانها والسيارة المعطلة، وإذ به يشتم بسبب فتاة! يركل السيارة، ويشتم مستخدماً تلك الكلمة التي تُطلق على النساء اللواتي يبعن أنفسهن. أنا أخاف من تلك الكلمة أحياناً. تلك النساء مخيفات، فلا أحبّهن، وأنساهن. مشيتُ.

لعلكِ المقصودة يا نيلفون، ولعلها واحدة أخرى، هذا ما فكرتُ به. ما أبشع تلك الكلمة! تخيفني النساء أحياناً. كأنهن كائنات عصيات على الفهم، ولديهن أفكاراً ظلامية لا يمكن لك أن تعرفها. لديهن أمكنة

ترعش الإنسان، وتسبب له الكارثة إذا انجرف وراءها: شيء يشبه الموت، ولكن السافل يأتيك مبتسماً وعلى رأسه شريطة زرقاء. عندما أُنيرت السماء بلون أصفر من مكان بعيد، خفت من البرق. غيوم، وعواصف ظلماء، وأفكار لم أستطع فهمها! كأننا جميعاً عبيد شخص لا نعرفه. أحياناً، نحاول أن نتمرد قليلاً، ولكننا نخاف بعد ذلك: يرميني بالبرق والصواعق والكوارث البعيدة غير المعروفة! حينذاك، سأكتفي بالعيش في ضوء بيتنا الهادئ من دون أن أتمرد، وأعرف. أنا أخاف من الحرام! كأبي بائع اليانصيب المسكين.

حين رأيت ضوء البيت مازال مناراً، كانت قطرات المطر قد بدأت تتساقط. عندما اقتربت، ونظرتُ من النافذة، وجدتُ أن أمي لم تنم كأبي. ترى ما الذي يقوله هذا الأعرج عني لأمي كيلا يدعها تنام؟ خطر ببالي أن البقال أخبره! لابدّ أن البدين السافل نقل له الأمر فوراً. لابد أنه قال: يا إسماعيل! جاء ابنك هذا الصباح إلى البقالية، ومزّق الجرائد والمجلات، ورماها، وأطلق تهديدات، وهو مسعور، من يعلم إلى أية جماعة انضم! لابد أن الأب بائع اليانصيب الذي لا يعرف شيئاً غير النقود قد قال: كم المبلغ؟ ما هو مبلغ الضرر؟ ودفع ثمن تلك الجرائد المقرفة لا لشيء. لا، ليس للا شيء، بل من أجل أن يخرجها من أنفي مساء، ولكنك ستفعل هذا إذا وجدتني طبعاً. وقفت هناك لأنني لم أقرر بأي شكل ما إذا كنتُ سأدخل أم لا. نظرت إلى النافذة إلى أبي وأمي. عندما بدأ يهطل المطر بعد ذلك، ذهبت، ووضعت الطلاء، وأسطوانة نيلفون، ودفتر فاروق على بروز نافذتي المغلقة، وجلست عند أسفل الجدار، وفكرتُ وأنا أنظر إلى المطر. ازداد هطوله كثيراً.

بعد وقت طويل، وبعد أن صبّ المطر صباً، وبعد أن تذكرت متين، وعندما لم تعد المزاريب التي ثبتها أبي بيديه تستطيع تصريف ماء المطر الهاطل على السطح، نظرتُ بهدوء من النافذة، فرأيت أمي المسكينة قد وزعت أواني الغسيل البلاستيكية هنا وهناك، وتتراكض تحت دلف السقف. بعد ذلك، تذكرت غرفتي لأن وسط جناحي النسر الذي في سقف غرفتي يدلفُ فوق سريري. أنارت المصباح، وطوت الغطاء. نظرت.

في النهاية، عنما هدأ المطر، فهمتُ أنني لا أفكر بهما، ولا بغيرهما، وأنا أفكّر فيكِ فقط يا نيلفون. لابد أنك في سريرك، ولعلكِ استيقظت على صوت المطر، وتنظرين عبر النافذة، وترتعدين من صوت الرعد، وتفكرين. وعندما يتوقف المطر، وتشرق الشمس، تذهبين إلى شاطئ السباحة، وأنا أنتظركِ، وفي النهاية سترينني، ونتحدث، وأحكي لك، وأحكي: قصة طويلة، وطويلة جداً: حياة: أنا أحبك.

فكرتُ بقصصٍ أخرى: يغدو الإنسان مختلفاً إذا آمن. فكرتُ بالدول البعيدة، وبسكك الحديد التي لا تنتهي، وبغابات أفريقيا، وبالصحراء الكبرى، وبالصحارى الأخرى، وبالبحيرات المتجمدة سطوحها، وبالبجع والأُسود التي في كتب الجغرافيا، و(بالبيزونات) والضباع التي تحاصرها وتمزقها التي رأيتها في التلفاز، وبالفيلة والهند والهنود الحمر والصينيين والنجوم، وحروب الفضاء وكل الحروب التي رأيتها في السينما، وبالتاريخ وتاريخنا وقوة طبولنا كلها وخوف الكفار وهم يستمعون إليها: يمكن للإنسان أن يغدو مختلفاً. نعم، لسنا عبيداً. يمكنني أن أتغلّب على المخاوف كلها، وأمزّق القواعدَ والحدود وأرميها،

وأسير نحو هدفي، ويرفرف العلم: سيوف، سكاكين، مسدسات، سُلطة! أنا مختلف، أنا لستُ الماضي، لم يعد لي ذكريات، بل مستقبل فقط. الذكريات من أجل العبيد فقط، تخدرهم. ليناموا. أنا فكرت.

فكرت، ولمعرفتي بأن قوتي لا تكفي لنسيان هذا كله، لم أستطع ترك الدفتر على بروز النافذة، وأخذت الأسطوانة، ومشيت. ولأنني انطلقت في ظلام يمكنني رؤية نهايته، خرجت من كوني مجهولاً، ومشيت نحو مكان مجهول. تفوح رائحة مطر. كنت أقول: سألقي نظرة أخيرة إلى الحي السفلي: ألقي نظرة أخيرة إلى الأضواء والحدائق المزورة المعتنى بها، والبيتون المنتظم الخالي الروح عندما لا يكون هنالك أحد تحت المصابيح، وإلى الأزقة المذنبة التي لا همّ لها ولا طعم. كنت أقول: سألقي نظرة أخيرة عبر إحدى النوافذ قبيل الذهاب، وعدم العودة حتى يوم النصر. لعلك لا تنامين يا نيلفون. لعلك تتفرجين على المطر عبر النافذة. ولعلك تريني عندما يقدح البرق، ويغدو كل شيء أزرقَ، تريني تحت المطر المخيف في منتصف الليل أتصبب مبللاً تماماً، وأنظر إلى نافذتك. كأنني خفتُ فلم أذهب. خطر ببالي هذا وأنا أنزل الطريق. لأن حراسهم هناك سيقولون: ما عملك هنا في هذا الوقت يا ابني؟ هيا، اذهب من هنا، هذه الأمكنة غير مناسبة لك! حسنٌ!

عدتُ، ومررت من أمام بيتي ناعساً كأنني أمر من حي غريب. مازال ضوء أبي وأمي مناراً. مسكين يا ضوء بيتنا الشاحب الفقير! لابد أنهما لم يرياني. عندما قطعتُ السهل، وبدأت أنزل الطريق ارتبكتُ فجأة: مازال متين في الظلام يدفع سيارته وهو يئن ويشتم. اعتقدت أنه

ذهب. تفرجتُ عليه من بعيد كأنني أتفرجُ على إنسان غريب في دولة غريبة أطؤها أول مرة، وكأنني أخاف، ولكن الخوف يمنحني متعة. بعد ذلك، اعتقدت أنه يبكي. إنه يطلق صوتاً مخنوقاً يثير في الإنسان شفقة. أشفقتُ عليه، واقتربتُ بغرابة متذكراً صداقة طفولتنا، وناسياً أن هؤلاء يعيشون متهمين الإنسان.

"من هناك؟"

قلت: "أنا يا متين. لم تعرفني قبل قليل. أنا حسن!"

قال: "عرفتك في النهاية. هل جئتم لتعيدوا النقود؟"

قلت: "أنا وحدي. وهل تريد أن تستعيد النقود؟

قال: "سرقتم مني اثني عشر ألفاً، ألا تعرف هذا؟"

لم أقل شيئاً. صمتنا قليلاً.

بعد قليل، صرخ قائلاً: "أين أنت؟ اظهر كي أرى وجهك!"

تركتُ الدفتر والأسطوانة في مكان جاف، واقتربت.

قال: "ألن تعيد النقود؟ اظهر".

عندما اقتربتُ، رأيت وجهه المتعرق الحزين: تبادلنا النظر.

قلت: "لا، نقودك ليست معي".

"لماذا جئت إذن؟"

"هل كنت تبكي قبل قليل؟"

قال: "خدعتك أذناك. من التعب.. لماذا جئت إلى هنا؟"

قلت: "كم كنا صديقين جيدين في طفولتنا؟" وقبل أن يقول شيئاً أضفت: "يمكن أن أساعدك إن أردت"

بداية، قال: "لماذا؟" وبعد قليل، قال: "ادفع إذن!"

دفعتُ. وعندما تحركت السيارة من مكانها، وصعدت، كأنني فرحتُ أكثر منه. هذا شعور غريب يا نيلفون. ولكنني تضايقتُ عندما رأيت أن المسافة التي قطعناها قصيرة جداً.

قال متين: "ماذا يجري؟" وسحب مكبح اليد.

"انتظر كي نرتاح قليلاً".

قال: "هيا سنتأخر".

دفعت مرة أخرى، ولكننا لم نتقدم كثيراً. كأنها صخرة كبيرة، وليست شيئاً ذا عجلات. كنت أقول لنفسي: ارتحت قليلاً، وسأرتاح أكثر قليلاً، أنزل مكبح اليد، ودفعت السيارة كيلا تنزلق نحو الخلف، ولكنني توقفت بعد ذلك.

قال: "ماذا حدث؟ لماذا لا تدفع؟"

"لماذا لا تدفع أنت؟"

"لم تبق قوة لدي!"

"ما المكان الذي ستلحق به في هذه الساعة؟"

لم يجب. نظر إلى ساعته فقط، وشتم. دفع معي هذه المرة، ولكننا لم نذهب إلى أي مكان! نحن ندفع السيارة باتجاه الصعود، وهي تدفعنا باتجاه الأسفل، ونبقى حيث نحن. في النهاية تقدمنا عدة خطوات، ولكن قوتي نفدت، فتركت. دخلتُ إلى السيارة عندما بدأ المطر يهطل. متين أيضاً جاء، وجلس بجانبي.

قال: "هيا!"

قلت: "غداً تذهب إلى حيث ستذهب. لنتحدث الآن قليلاً".

"بماذا سنتحدث؟"

صمتّ قليلاً، وبعدئذ قلت: "ما أغربَ هذه الليلة، هل تخاف من البرق؟"

قال: "أنا لا أخاف. هيا لندفع قليلاً".

قلت: "وأنا لا أخاف. ولكن الإنسان يقشعرّ عندما يفكر فيه، أتعرف هذا؟"

لم يقل شيئاً.

قلت: "هل تدخّن سيجارة؟" وأخرجت العلبة، ومددتها نحوه.

نزلنا. دفعنا بقدر ما استطعنا. دخلنا إلى السيارة عندما تبللنا تماماً. سألته من جديد عن المكان الذي يحاول الذهاب إليه. ولكنه حين أجابني بسؤال عن سبب مناداتهم لي "ابن آوى" قلت: "لا تهتم هؤلاء أشخاص مجانين".

قال: "ولكنك تمشي معهم. وسلبتموني معاً".

حينئذ فكرتُ بأن أشرح له كل شيء، ولكنني لا أعرف ما سأشرحه، لا لأنه ليس في عقلي، بل لأنني لا أعرف من أين سأبدأ. كأنني يجب أن أذهب، وأعاقب أول مذنب على ذنبه عندما أجد البداية. لا أريد تذكر أول المذنبين، لأنني لا أرغب بأن ألوّث يدي بالدم. أعرف أنني يجب أن أبدأ به يا نيلفون. غداً صباحاً سأشرح لكِ كل شيء. ولكن، لماذا أنتظر حتى صباح الغد؟ فكرتُ بأننا الآن - متين وأنا - ندفع هذه الأناضول، وبعد ذلك ننزل في الطريق معاً، وعندما نصل إلى بيتكم يا

نيلفون، يوقظك متين، وأشرح لك فوراً عن الخطر المتربص بك، وأنتِ تستمعين إلي في الظلام، وترتدين ثوب النوم الأبيض: يعتقدون أنكِ شيوعية يا جميلتي، تعالي لنهرب معاً. تعالي لنذهب. إنهم منتشرون في كل مكان، وما أقواهم! ولكنني مؤمن بوجودِ مكان في هذا العالم يمكننا العيش فيه، أنا مؤمن بوجود مكان..

"هيا لندفع!"

نزلنا تحت المطر، ودفعنا. بعد قليل، انسحب هو، ولكنني دفعتُ بقوة أكبر لأنني مؤمن كما يبدو، ولكنني كما قلت، كأنها صخرة وليست أناضول. تركت حين خارت قواي، ولكن متين رمقني بنظرة اتهامية. عندما ذهبتُ، وجلستُ في السيارة كيلا أتبلل، قال: "تقول عنهم مجانين، ولكنك تمشي معهم. لم يأخذ ذانيك فقط نقودي، بل أخذتموها ثلاثتكم".

"أنا لا يهمني أولئك. أنا لا أهتم لأحد".

لم ينظر كأنه خائف، مازال يتهمني. قلت حينئذ: "أنا لم آخذ قرشاً واحداً من تلك الاثني عشر ألفاً. أقسم لك".

ولكنه لم ينظر كأنه صدّق. أردت أن أمسكه، وأخنقه. مفتاح السيارة في قفله. كم سيكون جيداً لو أنني أعرف قيادة السيارة! ما أكثر الطرقات في العالم، وما أكثر الدول والمدن والبحار في الأماكن البعيدة.

"هيا انزل، وادفع هذه السيارة!"

خرجتُ إلى المطر المنهمر بغزارة دون تفكير، ودفعت. لم يدفع متين.

يضعُ يديه على خاصرتيه، وينظر كسيد. تعبتُ، وتركت، ولكنه لم يشد مكبحَ اليد. قلت شبه صارخٍ لإسماع صوتي في المطر: "تعبتُ".

قال: "لا، يمكنك أن تدفع أكثر".

صرختُ قائلاً: "سأترك، وستنزلق إلى الخلف".

"من سأحاسب على تلك النقود؟"

"هل ستذهب إلى الشرطة إذا لم أدفع؟"

دفعتُ أكثر قليلاً عندما لم يجب، وآلمني ظهري إلى حدّ اعتقادي بأنه سينقصم. سحبَ مكبح اليد نهاية. دخلتُ إلى السيارة. كل طرف من أطرافي مبلل تماماً. أشعلتُ سيجارة. وفجأة أنيرت الأرض والسماء بانفجار لامع لا يصدّق. وصمتّ عندما سقطت الصاعقة في مكان قريب جداً مني.

قال متين: "هل خفت؟"

صمتّ. سأل مرة أخرى. صمت. بعد ذلك، استطعت قولَ: "سقطت هناك. ها هنا، قريب جداً!"

قال: "لا، سقطت في مكان بعيد جداً. ولعلها سقطت في البحر، لا تخف!"

لم أعد أريد أن أدفع.

قال: "لماذا؟ لأنك خفت؟ غبي! لا يمكن أن تسقط في مكان قريب إلى هذا الحد. ألم يعلموكم هذا في المدرسة؟"

لم أقل شيئاً.

صرخ قائلاً: "جبان! جاهل، مسكين، جبان".

قلت: "أنا عائد إلى البيت".

"حسن، ما مصير اثني عشر ألفي؟"

قلت: "أنا لم آخذها. أقسم لك يا هذا".

قال: "احكِ هذا غداً للآخرين، احكه للشرطة!".

نزلت، وضغطت برأسي فيما بين كتفيّ لأحمي رقبتي من الخلف، وفرحتُ عندما بدأت أدفع معتقداً أننا اقتربنا من نهاية الطريق الصاعد. نَزَل متين من السيارة، وتظاهر بأنه يدفع غير مقدمٍ حتى على تشجيعي. ولكنه يقول أحياناً: "هيا، هيا". بدافع الاعتياد، وكأنه يمنحني قوة. فيما بعد، شتم واحدة قال عنها عاهرة، من يعلم من هي. ولكنهم مجموعة أشخاص على ما يبدو، لأنه يقول: سأريـ (كم). تركتُ لأنني لست كما قال سردار، نعم، لستُ خادماً. ولكنه قال هذه المرة:

"هل تريد نقوداً؟ سأعطيك النقود التي تريدها. يكفي أن تدفع الآن".

دفعتُ لأننا صرنا في نهاية الطريق الصاعد. توقفت قليلاً عندما لم أستطع احتمال آلام ظهري، ولكي يدخل قليل من الهواء والدم إلى رئتي، ولكنه مازال يصرخ ويشتم ويعوي. يقول إنه سيعطيني ألف ليرة! دفعتُ أكثر قليلاً واثقاً بآخر قطرة من قوتي. قال: ألفا ليرة. دفعتُ، ولم أقل له: وهل ترك جماعتنا معك نقوداً لتقدم هذه الوعود؟ توقفتُ للراحة عندما وصلت إلى الطريق السهل، ولكنه غضب، وتململ مرة أخرى. كان يشتم، ولم يعد يعيرني اهتماماً. فكرتُ باحتمال أن يركل السيارة بعد قليل، بعدئذ، أقدم على فعل أغرب، وخفتُ. أدار وجهه نحو المطر،

وشتم متوجهاً نحو السماء المظلمة. كأنه يشتم (هُ). خفتُ مما خطر ببالي أيضاً، ودفعتُ كيلا أفكر أكثر. دفعتُ، والسماء ترعد، وهي قريبة جداً فوق التلة، وهي تُضاء بلون أزرق. وبينما يدخل إلى فمي ويقطر من شعري وجبيني مطر صوتُه مخيف ولونه غير معقول، دفعتُ. أغمضت عيني أمام البرق المتزايد تدريجياً، وضغطتُ برأسي إلى ما بين كتفي، وأدرت وجهي إلى الأرض كيلا أرى إلهي، ودفعتُ كعبد. أنا مسكين نسي فكره كله. لا أحد يستطيع اتهامي ومعاقبتي لأنني أطأطئ رأسي. ولا علم لي بالذنب والحرام. كنتُ أدفع راكضاً، وشاعراً بانفعال غريب مع تسارع السيارة. كان متين قد ركب سيارته، وأمسك بالمقود. أسمعه وهو يعوي من النافذة شاتماً. صار يشتم كعجوز شمطاء دون معرفة السبب، أو حوذي مسنّ يشتم خيوله. ولكنه كان يشتم (هُ)، وكأنه ليس من يُرعد السماء! من أنت؟ أنا لا أستطيع مشاركة أحدٍ بكُفره. توقفت، ولم أعد أدفع.

انزلقت السيارة وحدها مسافة. نظرتُ إليها وهي تبتعد ببطء، وكأنني أنظر إلى سفينة مظلمة صامتة ومخيفة تذهب تلقائياً. هدأ المطر أيضاً. خطر هذا ببالي في أثناء ذهاب السيارة تلقائياً: كأن (هُ) يفصل أحدنا عن الآخر كيلا يصيبني العقاب الذي سيعاقبه إياه. ولكن السيارة توقفت بعد أن ذهبت مسافة. عندما أنيرت السماء، رأيت متينَ قد خرج من السيارة.

صرخ وكأنه يعوي: "أين أنت؟ تعال إلى هنا! ستدفعها!"

لم أتحرك.

صرخ متوجهاً نحو الظلام: "لص. يا لص عديم الشرف. اهرب لأرى، اهرب!"

توقفتُ قليلاً حيث أنا. كنتُ أرتجف من البرد. بعد ذلك، ركضتُ، وذهبتُ إليه.

صرختُ قائلاً: "ألا تخاف أنت من الله؟"

صرخ قائلاً: "لماذا تسرق إذا كنت تخاف منه؟"

قلتُ: "أنا أخاف. أما أنت فتنظر إلى الأعلى، وتشتم. لابد أن يعاقبك في يوم ما".

قال: "جاهل غبي. خفتَ من الصاعقة التي نزلت تواً، أليس كذلك؟ أنت تخاف من ظلال الأشجار عندما تبرق السماء، ومن المقبرة والمطر والعاصفة، أليس كذلك؟ رجل هذا القد قده! في أي صفٍ أنت؟ جاهل! سأقول لك هذا: الله غير موجود! حسن؟ تعال الآن، وادفع هذه! أقول لك ألفي ليرة".

قلت: "إلى أين ستذهب بعد ذلك؟ إلى بيتكم؟"

قال: "سأوصلك أيضاً. سأوصلك إلى حيث تريد. لتنزلق هذه السيارة من الأعلى إلى الأسفل أولاً".

دفعت يا نيلفون! هو أيضاً قفز إلى سيارته. وشتم هذه المرة كحوذي يشتم خيوله بحكم الاعتياد، وليس غضباً. اعتقدتُ بأن السيارة ستدور عندما تتسارع بعد قليل، وتنزل الطريق، وكأن هذه الفكرة خطرت ببالي: متين أيضاً اشمئز، وسئم منهم جميعاً. سأركبُ السيارة، ونشغّل جهاز التدفئة، ونتدفأ. بعد ذلك، آخذك، ونذهب معاً إلى البعيد، أو إلى أي

مكان. ولكن المحرّك لم يصدر أي صوت مع نزول السيارة نحو الأسفل. كانت عجلاتها فقط تبتعد على الاسفلت الرطب بصمتها الغريب. حينئذ ركضت، ولحقت بالسيارة من أجل أن أقفز إلى داخلها، ولكن بابها مقفل.

قلت: "افتح! افتح الباب يا متين! افتح، وخذني معك! قف!" لم يسمعني غالباً، لأنه عاد إلى توجيه الشتائم بغضب. ركضتُ بجانبه بقدر ما أستطيع وأنا ألهث مصدراً أنيناً يكاد يخنقني، وأضرب على الزجاج. بعد قليل، سبقني ذلك الشيء البلاستيكي ذو العجلات، وذهب. ولكنني ركضتُ خلفه وأنا أصرخ، ولم تتوقف السيارة، ولا متين. أنار مصابيح السيارة، ونزل إلى الأسفل منيراً البساتين والكروم ومنعطفاً مع المنعطفات. ركضتُ خلف السيارة حتى غابت عن النظر. توقفتُ بعد ذلك.

فكرت.

خطر هذا ببالي عندما بدأت تصطك أسناني نتيجة الارتجاف: بقيتْ اسطوانتك هناك يا نيلفون، في الطرف الآخر للطريق الصاعد. عدتُ، وصعدت طريق العودة راكضاً كي أُدفئ نفسي، ولكن هذا لم يغيّر شيئاً، لأن قميصي ملتصق على جسمي. بدأتُ أركض عندما لم أجد الأسطوانة في المكان الذي اعتقدتُ أنني تركتها فيه. عندما أنيرت السماء برفقة الرعد كنت أرتجف لأنني بردان، لا لأنني خائف. عندما بدأت ألهث بشدة شعرت بألم ظهري من جديد. كنتُ أنزل، وأصعد راكضاً، وبعد كل خطوة أتوقف، وأبحث عن الأسطوانة، ولكنها غير موجودة.

بعد شروق الشمس بقليل، نسيتُ كم مرة صعدتُ الطريق ونزلته

حتى وجدت الأسطوانة. رأيتُ الدفتر والأسطوانة السخيفان حتى كنتُ على وشك الإغماء نتيجة التعب والارتجاف، وقلتُ إنهما ليسا هما حين رأيتُ شبحهما معتقداً أن أحداً ما يلاعبني: يجب أن يكونَ شخصاً يخفي كل شيء، ويجعل حياة العبودية لائقة بي. أردتُ أن أسحق وجه الأمريكي المنيوك لـ Best of Elvis بحذائي، ولكنه تحوّل إلى عجين بتأثير المطر. ليغوروا، ليغوروا، ليغوروا كلهم! ولكني لم أسحقه كي أعطيك إياه!

أولى سيارات النهار كانت شاحنة خليل للزبالة. تصعد الطريق، وحمرةُ الشمس المشرقة تسقط على مؤخرتها. خرجتُ عن الطريق، ودخلتُ الكروم. دخلتُ إلى طريق المقبرة. انعطفتُ من عند آخر الجدار، وذهبتُ عبر الطريق الضيق الذي كنا نذهب فيه أمي وأنا في طفولتي. لديّ مكان قديم هنا بين شجرتي لوز.

جمعت حطام أغصان، وكان من الصعب إيجاد الجافة منها، ولكنني عندما وجدت عدة صفحات في دفتر فاروق، ومزقتها، استطعت إشعال النار بها. يتصاعد دخان أزرق باهت لا يستطيع رؤيته أحد. خلعت قميصي وبنطالي، وكدت أن أدخل بحذائي المطاطي إلى النار، ووقف كما أنا، واستمتعت بالدفء. نظرت إلى جسمي مستمتعاً. إنه عاري تماماً وسط ألسنة اللهب المتصاعدة من الأسفل، وأنا لا أخاف من أي شيء! عضوي الذكري وسط اللهب. نظرت إلى وقفته هكذا. كأن جسمي جسم ذكر آخر: احترق بالشمس كالفولاذ، وكالقوس! فكرت: أنا رجل، أستطيع عمل كل شيء، عليكم أن تخافوا مني! لو احترق قليل من

زغب جسـدي فلن يحدث لي شيء. بعد أن وقـفت قليـلاً، خـرجت من اللهب كي أؤجـجـه. كنت أبحث عن حطام أغـصـان: هبت ريح باردة، فـبـردت مؤخـرتي وارتعـشت. خطر ببـالي أن أقـول: لستُ امـرأة، ولستُ منيـوكـاً: أولئك يخـافـون. فكـرت: مـا سـأفـعله، الموت، الخـوف، اللهب، الدول الأخـرى، الأسلحـة، المسـاكين، العـبـيـد، العلم، البلد، الشـيطان، التمرد، جهنم.

جـفـفتُ الغـلاف المقـوى المتـعـجن للاسطوانة فـوق اللهب. جـفـفتُ ألبستي، وارتديـتـهـا. تمددتُ في زاوية خـاليـة من الطين، ونمتُ وأنا أفكر بكل شيء.

نمتُ فـوراً. حين استـيـقظت، كنت أعـرف أنني حلمتُ، ولكنني لا أعـرف ما حلمت به. كأنه شيء دافئ. كـانت الشمس قد ارتفعت كثيـراً. نهـضت فـوراً، وركـضت. لعله ليس لدي مـتـسـع من الوقت. أنا مـرتبك غـالبـاً.

كـانت تمر السـيـارات المقـرفـة لزحـام يوم الأحـد الهـارع إلى شـاطئ السبـاحة في أثناء نزولي الطريق مسـرعـاً أمـام بيتنا. لم يرني أحد من البيت: لا تُرى أمي هناك، ولا أبي. أسدلا الستـائر. أسـرة تحسين تجمع الكرز على عـجل كـيـلا يدوّد بعـد المطر. فككتُ الخـمـسـمـائة ليـرة عند دخـولي إلى الحي. دكـاكين هذا المكان تفـتـح يوم الأحـد. طلبت شطيـرة وشـايـاً. وبينمـا كنت أحـتـسـيـه، أخـرجتُ المشطين من جـيـبي، ونظرت إليهما. أحدهما أخضر، والآخر أحمر. الله يرى.

سأحكي كل شيء. وسيـظهر الذنب والحرام عندما أحكي كل شيء،

ولن يبقى نقص. وتفهمين يا نيلفون من أكون. تقولين: أنت مختلف تماماً. أنا لستُ عبداً. انظروا إلي، أنا أفعل ما أريد. في جيبي بقية خمسمائة ليرة. أنا سيد نفسي، بل حضرة سيد نفسي. أنتن تذهبن إلى شاطئ السباحة، وتحملن كرات البحر والحقائب، وفي أقدامكن نعال عجيبة، وبجانبكن أزواج وأولاد. أنتنّ مسكينات! لا تفهمن! تنظرن ولا ترين، تفكرن ولا تعلمن. لا يدركن من أكون، ولا يعرفن من سأكون. لأنهن أسوأ من العميان. يا مقرفات! أيها الزحام المقرف الذاهب إلى شاطئ السباحة سعياً وراء اللذة! سيقع على عاتقي جلب كل هؤلاء إلى الطريق الصواب. انظروا إلي: أنا لدي مصنع! انظروا إلي: أنا لدي سوط: أنا سيد، أنا سيد محترم. نظرت إلى زحام شاطئ السباحة من خلف الأسلاك الشائكة، وعندما لم أرك يا نيلفون خانم بين الزحام، خطر هذا ببالي. فكرت به لأن مصطفى أيضاً لم يأت.

مشيت. أنا ذاهب إلى بيتكم. يقول القزم حين يراني: جاء حضرة السيد، ويريد رؤيتك يا نيلفون خانم. تقولين أنت: هكذا إذن، وهل هو من الراقين؟ ادخلوه إلى البهو إذن يا رجب أفندي، أنا سآتي حالاً. كنت أتلفّت في أثناء مسيري لعل نيلفون تكون قد خرجت الآن من البيت، ونتقابل في الطريق. ولكنني لم أصادفك أيتها السيدة المحترمة. عندما وصلت إلى باب حديقتكم، توقفت، ونظرت: لم تكن موجودة السيارة التي دفعها في الطريق صعوداً تحت المطر ليلاً أحمق وعبد أعمى نسيت من هو. أين سيارة الأناضول؟ ولجتُ من الباب وأنا أفكر، ولم أتوجه نحو الباب الكبير ذي الدرج، بل نحو باب المطبخ لأنني لا أريد إزعاج

أحد كسيد محترم. تذكرت ظل شجرة التين وأحجار الجدار. الأمر كالحلم. قرعتُ باب المطبخ. انتظرت قليلاً: سأقول: هل أنت خادم في هذا البيت يا رجب أفندي؟ وأقول: هذه الأسطوانة، وهذا المشط الأخضر لسيدة محترمة جميلة تسكن هذا البيت غالباً، كنت أعرفها قليلاً فيما مضى، والآن، هذا غير مهم. جئت لأعطيها إياهما، لا نية أخرى لي. بعد أن انتظر قليلاً، فكرت: يجب أن يكون العم رجب قد ذهب إلى السوق، فهو غير موجود في البيت. لعله لا يوجد أحد في البيت. هذا كحلم. نعم، ارتعشت!

انفتح الباب حين ضغطتُ على مقبضه بهدوء. دخلتُ إلى المطبخ بصمت قط. تفوح منه رائحة زيت. تذكرتها. ليس ثمة أحد، ولأن حذائي المطاطي بقدمي، لن يسمعني أحد: انعطفتُ من جانب العنبر، وصعدت الدرج. أنا ظل يتجول في الأحلام، وأعتقد أن هذا حلم، ولعله ناجم عن الأرق. خطر ببالي أن أقول وأنا أشمُّ: هذه هي رائحة بيتهم من الداخل إذن. إنه مثل بيت حقيقي! وأقول: أنا جئتُ.

عندما وصلت إلى الطابق العلوي، فتحت بهدوء أحد الأبواب المغلقة. نظرت، عرفت جسمه المقرف فوراً: إنه متين. ينام، والغطاء مسحوب فوقه. فكرتُ بأن لي ديناً عليه ألفي ليرة، وقوله إن الله غير موجود. إذا خنقته فلن يعرف أحد. وقفت، وفكرت: ستبقى البصمات. أغلقتُ الباب بهدوء، ودخلت إلى الغرفة الأخرى من الباب المفتوح.

فهمت من الزجاجة الموضوعة على الطاولة، ومن البنطال الضخم الملقي على السرير المخروب أن هذه غرفة فاروق. خرجتُ من هناك. رأيتُ

أبي على الجدار وارتعشت عندما فتحت الغرفة الأخرى دون تفكير. يا للغرابة! كان أبي ملتحياً. كأنه ينظر إليّ من وسط الإطار بغضب وخيبة، ويقول: آه، أنت مجرّد مخبول مع الأسف. خفتُ. بعد ذلك، سمعت شخير امرأة عجوز. عرفت ذاك الذي على الجدار، ومن في الغرفة.

"من هذا؟"

ولكنني رغم هذا فتحتُ الباب لحظة، ونظرتُ، وعندما رأيتها مدفونة بالأغطية المجعلكة، ورأيت وجهها المجعلك وأذنيها الضخمتين، أغلقتُ الباب فوراً.

"رجب! هل هذا أنتَ يا رجب؟"

ذهبتُ إلى آخر غرفة راكضاً بصمت. وعندما سمعت ذلك الصوت مرة أخرى وأنا أنتظر أمام الباب مرتجفاً: "رجب! أهذا أنت؟ أنا أحكي معك يا رجب! من كان هذا؟" دخلتُ إلى الغرفة فوراً، ودهشت: أنت أيضاً لستِ في غرفتك يا حضرة المحترمة نيلفون! كشفتُ السرير المغطى، وشممت رائحة، ثم غطيته مرة أخرى كي لا أتركُ أثراً، لأن صوت العجوز ذاك ينطلق كيلا أتدخّل بشيء كما يبدو.

"أقول: من هذا؟ من هناك يا رجب؟"

أخرجتُ ثوب نومها من تحت المخدة، وشممته: تفوح منه رائحة نيلفون و(اللافانتا). بعد ذلك، طويته كأنني لم أشمه، ووضعته تحت المخدة، وفكرت بترك المشط والأسطوانة. أتركهما هنا فوق السرير يا نيلفون، لأتركهما. عندما تجدينهما ستفهمين يا نيلفون: منذ كم يوم وأنا أتبعكِ وأحبُك. ولكنني لم أتركهما، كأن كل شيء سينتهي إذا تركتهما. وأنا كنت أقول: لينته كل شيء، ولكنها تنادي من جديد:

"رجب! أنا أناديك يا رجب!"

خرجتُ من الغرفة فوراً، لأنني فهمتُ من قرقعة العجوز الثقيلة أن جدتهم تنهض من سريرها. بينما كنتُ نازلاً الدرج، سمعتُ بابها ينفتح، وعكازها يضربُ الأرض كأنه سيثقبها.

انعطفتُ، ودخلت المطبخ. توقفت لحظة خروجي: لن أترك المكان دون فعل شيء. على الموقد قدر تحتُه نار خفيفة. اشتعل بقوة بعد أن دوّرت المفتاح حتى نهايته. بعد ذلك، دوّرت المفتاح الآخر. خرجت. فكرت: ثمة نقص.

مشيت مسرعاً، وأفكّر بعدم الاهتمام بأحد. وعندما وصلتُ إلى شاطئ السباحة، رأيتُكِ هذه المرة كما توقعت من بين الأسلاك الشائكة وسط الزحام. كنتِ هناك يا حضرة المحترمة نيلفون! لأعطيك هذه الأسطوانة والمشط، ولينته كل شيء! أنا لا أخاف من أحد. كانت تجفف نفسها. هذا يعني أنها كانت تسبح قبل قليل. مصطفى غير موجود. لم يأت. فكرتُ. انتظرت قليلاً، ثم ذهبتُ إلى البقالية. هنالك زبائن آخرون.

قلت: "اعطني واحدة جمهوريت!"

قال البقال بوجه ممتقع: "لا يوجد. لم نعد نبيعها".

لم أقل شيئاً. انتظرتُ قليلاً. أتيتِ أنتِ يا حضرة نيلفون المحترمة، وسألتِ ككل صباح:

"واحدة جمهوريت لطفاً!"

ولكن البقال قال: "لا يوجد. لم نعد نبيعها".

قالت نيلفون: "لماذا؟ البارحة كنتم تبيعونها".

حين أشار البقال نحوي برأس أنفه، نظرتِ إلي أنت. تبادلنا النظر: هل فهمت، هل فهمت، هل فهمتني؟ بعد ذلك: فكرت بأنني سأشرح لكِ كل شيء ببطء وصبر كسيد محترم مهذب: الأسطوانة والمشط جاهزان. انتظرت. بعد قليل، خرجتِ. سأشرح لك كل شيء، كل شيء، وستفهمين.

قلت: "هل يمكننا أن نتحدث قليلاً؟"

دُهشتِ. توقفتِ، ونظرت إلي لحظة. آه من هذا الوجه الجميل! اعتقدتُ أنها ستتكلم. انفعلتُ، ولكنها لم تتوقف! هربتْ كأنها رأت شيطاناً. ركضتُ خلفها فوراً، ولحقتُها دون أن أعير اهتماماً لأحد. قلتُ:

"أرجوك توقفي يا نيلفون! اسمعيني أولاً!"

توقفتُ فجأة. دُهشت حين رأيت وجهها عن قربٍ أكثر. ما لون عينيها؟

قالت: "حسنٌ، قل ما تريد قوله بسرعة!"

كأنني نسيت كل شيء. لم يخطر ببالي أي شيء: كأننا تعارفنا للتو، وليس لدينا ما نقوله. بعد ذلك، قلت بأمل أخير: "هذه الأسطوانة لكِ، أليس كذلك؟"

مددتُ الأسئلة نحوها، ولكنها تنظر إليها، ولم تأخذها!

قالت: "لا، ليست لي".

"هذه الأسطوانة لكِ يا نيلفون، لك. انظري جيداً. تبللت بالماء، وجففتها للتو".

ولكي لا يحاول أحد التظاهر بسوء الفهم من أجلِ اتهامي. وهل مصطفى موجود هنا؟ وبينما كنت انتظر انتهاء الخوف غير المعقول، صرختْ فجأة:

"فاشيّ مجنون. اتركني!"

وهكذا اعترفتْ أنها منهم. أنا دهشت كثيراً بداية، ولكنني بعد ذلك، قررتُ أن أعاقبها هنا فوراً، وعاقبتها بالضرب، وبمزيد من الضرب.

-٢٧-

حين فـهـمتُ أن حسناً هو الذي ضرب ثم هرب، وأن المتمددة على الأرض هي نيلفون، قلت: لماذا تقف؟ اركض! تركتُ شبكة التسوق على الأرض، وركضت، ووصلت إليها.

قلت: "نيلفون، نيلفون، كيف حالك يا ابنتي؟"

انقلبت وكأنها تتمدد في سريرها، وأمسكت رأسها بين يديها، وهو موجه نحو الإسفلت، وترتجف. كأنها تتلوى ليس من ألم جسد بل من ألم روحها، لهذا السبب فهي تئن فقط، ولم يخطر ببالها أن تصرخ.

قلت "نيلفون، نيلفون!" وأمسكتها من كتفيها.

بكت قليلاً، وارتجفت. بعد ذلك، كوّرت يدها، وبدأتْ تضربُ بها الإسفلت، ولكنها لم تعد تئن، بل تؤنب أحدهم غاضبة، ويائسة، وكأنها لم تتحسر بشيء من الندم أيضاً. أمسكتُها.

كأن نيلفون أدركت الحالة، ورأت عندما أمسكت بها المتراكضين نحونا من الزوايا التي كانوا ينزوون فيها، والصارخين، والمنادين، والذين يمدون رؤوسهم الفضولية والخائفة من بين أكتاف الآخرين من أجل فرجة أفضل، وقول شيء إضافي، وكأنها خجلت. أعطتني نفسها لتنهض. رأيت وجهها المدمى. يا إلهي. أطلقت امرأة صرخة.

"استندي إلي يا روحي، استندي".

نهضتْ، واستندت. أعطيتها منديلي.

"هل أنتِ قوية؟"

قال أحدهم: "جاءت سيارة أجرة. اركبا".

أفسح الناس لنا طريقاً. أحدهم جلب لي شبكتي، وحقيبة نيلفون، وقال طفل: "هذه للأخت". وأعطاها أسطوانة.

قال السائق: "إلى المستشفى أم إلى اسطنبول؟"

قالت نيلفون: "أريد أن أذهب إلى البيت".

قلت: "لنذهب أولاً إلى الصيدلية على الأقل".

لم تقل شيئاً. صمتت في طريقنا إلى الصيدلية، وارتجفت، ونظرت شاردة دون اهتمام إلى المنديل الذي أُقرّبه أحياناً من عينيها لرؤية مقدار استعادتها حيويتها.

رفعت رأسها، وقلت لها: "ابقي رأسك هكذا".

لم يكن السيد كمال في الصيدلية، بل زوجته الجميلة. كانت تستمع إلى المذياع.

قلت: "السيد كمال غير موجود؟"

صرختْ حين رأت نيلفون. بعد ذلك، بدأت تتراكض داخل المحل، وفي الوقت نفسه كانت تسأل. ولكن نيلفون جلست، وصمتت. زوجة السيد كمال بدأت تنظّف الجروح التي في وجه نيلفون بالقطن والماء. أنا أدرت ظهري، ولم أنظر".

"السيد كمال غير موجود؟"

قالت زوجته: "أنا الصيدلانية، ماذا تريد منه؟ هو في الأعلى! آه يا جميلتي، بماذا ضربوكِ هكذا؟"

في تلك الأثناء دخل السيد كمال من الباب الذي انفتح. توقف لحظة حين رأى هذا. بعد ذلك، نظر باهتمام وكأنه توقع هذا، وقال: "ما سبب هذا؟"

قالت نيلفون: "ضربوني، ضربوني".

صرخت الصيدلانية: "يا إلهي، ماذا أصبحنا نحن؟ ماذا أصبحنا؟"

قال السيد كمال: "ما المقصود بنحن؟"

قالت زوجته: "الذين فعلوا هذا".

تمتمت نيلفون قائلة: "الفاشيون".

قالت المرأة: "اصمتي أنت، اصمتي الآن. اصمتي، اصمتي".

سمع السيد كمال الكلمة، واقشعر، كأنه سمع كلمة قبيحة أو تذكرها. بعد ذلك، أشرّ إلى المذياع، وصرخ بزوجته: "لماذا تفتحين المذياع إلى هذا الحد؟"

كأن المحل قد فرغ فجأة عندما أغلق المذياع، وبرز الألم والخجل والذنب إلى السطح. لم أرد أن أفكر.

قالت نيلفون: " لا تقفلوه. هل تفتحونه لو سمحتم؟"

فتح السيد كمال المذياع، ولم أفكر أنا. صمتنا جميعاً. عندما أنهت المرأة عملها، قالت: "الآن اذهبوا فوراً إلى المستشفى. يمكن أن يحدث معها نزيف داخلي، ليحمها الله. ضربها على رأسها كثيراً. في مخها..."

قالت نيلفون: "أخي الكبير في البيت يا رجب؟"

قلت: "لا. أخذ سيارته إلى الصيانة".

قالت المرأة: "اركبوا سيارة أجرة فوراً، واذهبوا. هل لديك نقود يا سيد رجب؟"

قال السيد كمال: "أنا أعطيه".

قـالت نيلفـون: "لا، أريد أن أذهب إلى البـيت الآن" وأصـدرتْ أنيناً وهي تنهض.

قالت المرأة: "قفي! لأعطيك حقنة مسكنة للألم".

أدخلت نيلفون في زاوية مستورة عندما لم تعترض. السيد كمال وأنا صمتنا. كان ينظر إلى الخارج عبر واجهة الدكان: واجهة الدكان المقابل، إعلان كوكاكولا، شطائر الشاورمة. لمجرد الحديث قلت:

"جئت مساء الإثنين، وأختُ اسبريناً. كنتَ نائماً. وقد ذهبتَ إلى صيد السمك في ذلك الصباح".

قال: "إنها في كل مكان. أينما ذهب الإنسان، لا تتركه".

"ما هي؟"

"السياسة".

قلتُ: "لا أعرف".

بعد ذلك، نظرنا إلى الخارج قليلاً، إلى زحام يوم الأحد الذاهب إلى شاطئ السباحة. بعد ذلك، عادتا. عندما التفتُّ، ونظرت، رأيت وجه نيلفون. إحدى عينيها مغمضة نصف إغماضة، وجزءان من خدها زرقاوان. قالت زوجة السيد كمال إننا يجب أن نذهب إلى المستشفى، ولكن نيلفون لم ترد، وكررت هذا مرة أخرى، وبعد ذلك، قالت: "نادِ سيارة أجرة" ولكن لزوجها.

قالت نيلفون: "لا" وأخذتْ حقيبتها "نمشي فأصحو. ما أقصر طريق البيت".

مازال الآخرون يتحدثون. أخذتُ شبكتي وصرري، وذهبت، وأمسكت ذراع نيلفون. استندت إلي بشكل خفيف كأن هذا ورثته من جذورها. فتحنا الباب، قُرِع الجرس. كنا خارجين.

قال السيد كمال: "هل أنتِ ثورية؟"

قالت نيلفون برأسها المجروح: نعم. وأراد السيد كمال أن يضبط نفسه، ولكنه لم يستطع.

"كيف فهموا؟"

"من الجريدة التي اشتريتها من البقالية!"

قال السيد كمال: "ها!" ولكن بخجل. بعد ذلك، خجلَ أكثر، لأن زوجته الجميلة قالت له في اللحظة ذاتها:

"يا، ألا أقول لك يا سيد كمال".

صرخ السيد كمال فجأة بوجهها قائلاً: "اصمتي أنت!" وبدا أنه ملّ الخجل.

غادرت مع نيلفون إلى الخارج، تحت الشمس.

قلتُ: "استندي إلي جيداً يا روحي. اعطني حقيبتك".

عبرنا الشارع الرئيس دون أن نلفت انتباه أحد. دخلنا إلى الشارع المقابل. مشينا تحت الشرفات وبين الحدائق المعلق فيها ألبسة السباحة ومناشف ملونة. هنالك من تأخر على إفطاره حتى الآن، ولكنهم لا ينظرون إلينا. بعد ذلك، عبر شاب على دراجة هوائية، ونظر، ولكنه لم ينظر إليها لأنها جريحة، بل لأنني قزم. فهمت هذا من نظرته. بعد ذلك، عبرتْ أمامنا فتاة تنتعل نعال غطس كالبطة، أضحكت نيلفون.

قالت: "أتألم من هنا عندما أضحك". وضحكت أكثر. وقالت:

"لماذا لا تضحك أنت يا رجب؟ لماذا أنت جاد إلى هذا الحد؟ أنت جاد دائماً، وتضع ربطةَ عنق كالرجال الجادين. اضحك!"

عندما ضغطتُ على نفسي، وضحكت، قالت: "آه، لك أسنان أيضاً". وأنا خجلت، وضحكت أكثر. ولكننا صمتنا بعد ذلك. ثم بكت، وفكرت أنها تريد إخفاء بكائها. لم أنظر. وعندما بدأتْ ترتجف، قلت محاولاً التهدئة: "لا تبكي يا روحي، لا تبكي".

كانت تقول: "من أجل لا شيء. ما أسخف هذا.. لمجرّد أمر فارغ.. أنا غبية.. من أجل ولد.."

"لا تبكي، لا تبكي!"

توقفنا. داعبتُ شعرها، ثم خطر ببالي أن الإنسان يريد أن يبكي وحده أحياناً. تركتها. نظرت إلى الشارع. هنالك ولد ينظر إلينا من الشرفة المقابلة بخوف وفضول. يعتقد أنني أبكيتها. صمتت نيلفون بعد قليل. طلبت نظارتها السوداء. هي في حقيبتها. أخرجتها، وأعطيتها إياها. وضَعَتْها.

قلت: "لائقة عليك". ضحكتْ.

قالت: "هل أنا جميلة؟" وقبل أن أجيب قالت: "هل كانت أمي جميلة؟ كيف كانت أمي يا رجب؟"

"أنت جميلة، وأمك أيضاً كانت جميلة".

"كيف كانت أمي؟"

قلت: "كانت إمرأة طيبة".

"طيبة! كيف؟"

فكرتُ: لا تطلب شيئاً من أحد، ولا تكون عبئاً على أحد. كأنها لا

تُعرف لماذا عاشت كظل. كانت السيدة الكبيرة تصفها بأنها مثل قطة تتبع زوجها. وكانت تضحك أيضاً. وكانت كالشمسِ، ولكنها متواضعة. طيبة، نعم، لا يخجل منها الإنسان، قلت: "طيبة مثلكِ".

"هل أنا طيبة؟"

"طبعاً".

"كيف كنتُ في طفولتي؟"

فكرت: كنتِ تلعبين في الحديقة مع متين بشكل جميل. أخوان صغيران. كان السيد فاروق كبيراً، لا يشارككما. كنتما تركضان تحت الأشجار، وكنتما فضوليان. وكان حسن يأتي من بيته، ويشارككما. لم تتعاليا عليه. كنت أسمعكم من نافذة مطبخي: أنلعب لعبة التخبئة؟ حسن، لنعد. أنتِ عدّي يا أختي: (إينة، مينة، دوسي..) التخبئة، التخبئة.. وفجأة كان حسن يقول لك: هل تعرفين الفرنسية يا نيلفون؟

قلت: "هكذا كنتِ في طفولتكِ.

"كيف كنتُ؟"

عندما يجهز الطعام، كنتُ أنادي نحو الأعلى، أقول: الطعام جاهز أيتها السيدة الكبيرة. وتفتحُ السيدة الكبيرة النافذة، وتنادي نحو الأسفل: نيلفون، متين، هيا إلى الطعام. أين أنتما. غير موجودين من جديد يا رجب. أين هما؟ كنت أقول: ها هما هناك تحت شجرة التين أيتها السيدة الكبيرة، ثم تراكم بين أوراق شجرة التين، وتصرخ: آه، إنهما مع حسن مرة أخرى. كم مرة قلت لك يا رجب لا تُدخل هذا الولد إلى هنا. ليذهب، ويجلس في بيت أبيه. وفجأة يُفتح أباجور النافذة الأخرى، ويمد السيد ضوغان رأسه من نافذة الغرفة الأخرى التي جلس

فيها أبوه، وعمل لسنوات، ويقول: ماذا يوجد يا أمي؟ وتردُّ عليه السيدة الكبيرة: اجلس أنت في غرفتك كأبيك واكتب ترهاتك. أنت غير منتبه أبداً بالطبع، وولداك يقومان، ويقعدان مع أولاد الخدم. كان السيد ضوغان يقول: أرجوكِ يا أمي، ما الخطأ في هذا؟ إنهم يلعبون كالأخوة.

"أنت أيضاً يا رجب، لا تُسْحَبُ الكلمة منك إلا بكماشة".

"آنستي؟"

"سألتُك عن طفولتي".

"كنتِ تلعبين بشكل جميل مع متين، أختٌ وأخوها".

تقول السيدة الكبيرة: أخوة؟ التوبة يا ربي. من أين ظهرت هذه الكلمة؟ الجميع يعرفون أنه ليس لهذين الولدين أخ غير فاروق، كما أنه ليس لضوغاني أخ آخر. يقول: أخوا ضوغاني. من لفّق هذه الشائعة؟ وهل سأبدد وقتي بهذه الأكاذيب وأنا في الثمانين من عمري؟ وهل ينتسب قزم وأعرج إلى نسبك يا ابني؟ أنا كنتُ استمع وأصمت. بعد ذلك، عندما يغلقان نافذتيهما، ويدخلان إلى غرفتيهما، كنت أخرج، وأقول: هيا يا نيلفون، وهيا يا متين، جدتكما تناديكما. الطعام جاهز. عندما يصعدان إلى الأعلى، كان هو يبقى في إحدى الزوايا.

قالت نيلفون: "كنا نلعب مع حسن!"

"نعم، نعم!"

"هل تتذكّر؟"

وبينما كنتم - الجدة، والسيد ضوغان، وفاروق الذي يأتي في آخر لحظة ومن يعلم أين كان، ومتين - تتناولون الطعام في الأعلى، أجده في الزاوية التي يبقى فيها، وأقول: هييه، حسن! هل جعت يا صغيري؟

هيا، حسنُ، تعال! كان يأتي صامتاً ومتوجساً، ويجلس على كرسيي الصغير، وأضع أمامه تلك الصينية التي مازلت آكل فيها حتى الآن. وحين أصعد إلى الأعلى، وأُنزِل صحن (الكفتة) والسلطة، والفاصولياء، الدراق والكرز الذي لا ينهيه فاروق، أضعها أمامه، وأسأله وهو يأكل: ماذا يفعل أبوك يا حسن؟ لا شيء. يا نصيب! رجله على ما يرام، هل تؤلمه؟ لا أعرف! أنت كيف حالك؟ متى ستذهب إلى المدرسة؟ لا أعرف! في السنة القادمة، أليس كذلك يا صغيري؟ يصمت، وينظر إلي خائفاً كأنه يراني للمرة الأولى. وبعد موت السيد ضوغان، وذهابه إلى المدرسة، كنت أسأله: إلى أي صف نجحت هذا الصيف يا حسن؟ يصمت. إلى الثالث أليس كذلك؟ ستدرس، وتغدو رجلاً عظيماً! بعد ذلك، ماذا ستفعل؟ تعلقتْ نيلفون بذراعي فجأة.

قلت: "ماذا حدث؟ أنجلس؟"

قالت: "بطني تؤلمني. ضربني عليها أيضاً".

قلت: "أنركب سيارة أجرة؟"

لم تجب. مشينا. خرجنا إلى الشارع الرئيس من جديد. مررنا من بين السيارات الواقفة عند شاطئ البحر، ووسط زحام يوم الأحد القادم من اسطنبول. نظرت حين ولجنا من باب الحديقة، فرأيت السيارة.

قالت نيلفون: "جاء أخي الكبير".

قلت: "نعم. ستذهبون الآن إلى المستشفى في اسطنبول".

لم تقل شيئاً. دخلنا من باب المطبخ. دهشت. نسيت الغاز مفتوحاً. والموقد الآخر مشتعلاً، وأغلقته فوراً بخوف. وبعد ذلك، أصعدت نيلفون إلى الأعلى. لم يكن السيد فاروق هناك. مددت نيلفون على المقعد

الخشبي المطاول، وبينما كنت أضع مخدة خلفها، سمعت نداء من الأعلى.

قلت: "أنا هنا أيتها السيدة الكبيرة، أنا هنا. أنا قادم". وضعت مخدة تحت رأس نيلفون، وقلت: "هل أنتِ على ما يرام؟ سأرسل لك السيد فاروق الآن".

صعدت. خرجت السيدة الكبيرة من غرفتها، ووقفتْ عند آخر الدرج حاملة عكازها.

قالت: "أين كنت؟"

"إلى أين أنتَ ذاهب هكذا؟"

قلت: "دقيقة واحدة. ادخلي حضرتك إلى غرفتك. سآتي حالاً".

قرعت باب السيد فاروق. لم يجب. فتحتُ دون انتظار، ودخلت. السيد فاروق متمدد على سريره يقرأ.

قال: "أصلحوا السيارة فوراً. توقفت بمتين في الطريق الليلة الماضية دون سبب".

قلت: "الآنسة نيلفون في الأسفل. إنها تنتظركم".

قال: "أنا؟ لماذا؟"

نادت السيدة الكبيرة قائلة: "رجب! ماذا تفعل هناك؟"

قلت: "نيلفون في الأسفل. لو نزلتم إلى الأسفل يا سيد فاروق".

دهش السيد فاروق قليلاً. كان ينظر إلى وجهي. ترك كتابه، ونهض من سريره، وخرج.

قلت: "أنا قادم أيتها السيدة الكبيرة". وذهبت، وقلت: "لماذا تقفين هنا؟ امسكي بذراعي، لأمددك على سريرك. ستبردين هنا. أنت متعبة".

قالت: "ماكر. أنت تكذب من جديد. إلى أين ذهبَ فاروق قبل قليل؟"

دخلتُ إلى غرفة السيدة الكبيرة من الباب المفتوح.

قالت: "ماذا تفعل هناك؟ لا تعبث!"

قلت: "أهوّي الغرفة أيتها السيدة الكبيرة. لا ألمس شيئاً، ها أنت ترين".

دخلت السيدة الكبيرة إلى الغرفة. وأنا فتحت الأباجور.

قلت: "هيا، تمددي في سريرك".

تمددت. وسحبت اللحاف إلى جبهتها كطفل صغير وكأنها نسيت في لحظة. الاشمئزاز والقرف، وسألت فجأة بفضول طفل: "ماذا يوجد في السوق؟ ماذا رأيت؟"

سويت أطراف اللحاف. وأخذت مخدتها، ونفضتها.

قلت: "لا يوجد شيء. لم يعد الإنسان يرى أشياء جميلة".

قالت: "قزم مشاكس! كنت أعرف هذا. أنا لا أسألك عن هذا". وجد وجهها الاشمئزاز والكره، وصمتَ.

قلتُ: "اشتريت فواكه طازجة. أتريدين أن أجلب لك؟"

صمتت. أغلقتُ بابها، ونزلت. كان فاروق ونيلفون قد بدأا الحديث منذ زمن.

-٢٨-

بعد أن تحدثت عن الصيدلانية وزوجها، وقالت إنها استندت إلى رجب، وجاءا إلى البيت، أردت أن أسألهما مرة أخرى كيف حدث هذا.

قالت نيلفون: "لم يكن مهماً يا فاروق. إنها مثل إبرة اللقاح".

قلت: "ولكن، اللعنة! تشعرين برعشة الإبرة على ذراعك قبل اللقاح. هل تفهمين؟"

قالت: "نعم، ولكن هذا الشعور يأتي في النهاية، في اللحظة الأخيرة".

"هل هو غبي؟"

قالت: "لا أعرف. لم يكن هكذا في صغره. كان ولداً طيباً، ولكن فيما بعد، هذا العام، فكرتُ بأنه غبي، وساذج. كنت غاضبة من نفسي لأنني لم أستطع التحكم بهذا الموقف المضحك."

قلت متردداً: "بعد ذلك؟"

"بعد ذلك، فهمت أنه فقد التحكم بالأمر منذ زمن. تفكّرُ بأن كل ضربة هي ضربة، وأنك ستنال واحدة أخرى. كنتُ أصرخ في كل الأحوال. لم يهرع أحد للمساعدة. لماذا تتوق لمعرفة هذه الأمور إلى هذا الحد يا فاروق؟"

"هل يُفهم توقي في وجهي؟"

قالت: "إنك كالذين يستمتعون بالألم، كاليائسين. لماذا تتوق إلى تفصيلات اليأس كالمرضى الذين يريدون أن يموتوا عندما يموت أحد المقربين منهم؟"

قلت بمتعة غريبة: "لأنني هكذا".

قالت: "لستَ هكذا. تريد أن تؤمن بأنك يائس فقط".

"لا يا روحي".

"أنت تمثّل اليأس دون جدوى".

"ما هذا الذي تسميه أملاً؟"

فكرتْ نيلفون قليلاً، بعدئذ قالت: "يُفقد الإنسان اهتمامه، ولا يوجد سبب لفقدانه. نعم".

فكرتْ قليلاً أيضاً، وقالت: "الأمر الذي يجعل الإنسان يقف على قدميه، الأمر الذي يجعله منتصباً كيلا يموت هكذا: يفكر الإنسان في طفولته أحياناً: ماذا يحدث لو مت.. حينئذ يملأ قلبي شعور بأنني سأتمرد. إذا توقفت عند هذا الشعور ستفهمه في النهاية. لابد أنك تتوق لمعرفة ما يحدث من بعدك، وهذا التوق لا يُحتمل، وهو مخيف".

قلت: "هذا ليس توقاً يا نيلفون. إنها غيرة واضحة. تفكرين بأنهم سيلهون من بعدك، وسيسعدون، وسيعيشون بشكل جميل متناسينك، ولن تحصلين على نصيبك من هذه المتعة، لهذا السبب تغيرين منهم جميعاً".

قالت: "لا. توق. أنت تتخلى أيضاً عن هذا التوق الذي يحمي الإنسان من الموت. أنتَ تتظاهر بأنك لا تتوق يا أخي".

قلت غاضباً: "لا. أنا أتوق فقط".

قالت بثقة غريبة: "لماذا لا تتوق؟"

قلت: "لا أعرف، لأن الأشياء هي نفسها دائماً، والحكايات هي نفسها".

"لا، ليست هكذا أبداً".

قلت: "هكذا، هكذا. أنتِ أيضاً لا تريدين أن تعرفي كيلا تضحين بإيمانك".

قالت نيلفون: "لا يسمى ما لدى إيمان. ثم إنه لو كان إيماناً فأنا أؤمن لأنني أعرف، لا لأنني لا أعرف".

قلت: "أنا لا أعرف".

صمتنا قليلاً، بعد ذلك، قالت نيلفون: "ما هي كل تلك الكلمات التي قرأتها في الكتب والأرشيف إذن؟ أنت تريد التصرف وكأنك لا تعرف فقط".

قلت: "لماذا أتظاهر بهذا دون سبب؟"

حينئذ فعلتْ شيئاً أراحني: فتحت يديها نحو الطرفين بيأس كالمسلّمين بصدق أنهم لن يبوحوا بالسبب الكامن في عمق أكبر، وأنا أسيطر علي ذلك الشعور الغريب: أنا حرٌّ، ولكنني شعرت بالاشمئزاز من نفسي لسبب ما. كأن أشياء مزورة وازدواجية لدي أخفيها. فكرت على النحو التالي: يعرف الإنسان نفسه إلى درجة معينة، بعد ذلك يتعثر عند نقطة مهما فعل، ويبدأ بثرثرة دون رد. كان رجب قد دخل إلى الغرفة. نهضتُ فجأة، وبثقة لم أعرف من أين استمديتها، قلت:

"هيا يا نيلفون! سآخذك إلى المستشفى".

قالت كطفلة: "أوووف. لا أريد".

"لا تتكلمي كلاماً فارغاً. الصيدلاني على حق. ماذا لو حدث نزيف؟"

"ليس صيدلانياً، بل صيدلانية، ولن يحدث نزيف، أو ما شابه ذلك".

"هيا يا نيلفون، لا تطيلي الأمر!"

"لا، ليس الآن".

وهكذا بدأنا نتحدث، ليس من أجل الوصول إلى نتيجة، بل من أجل صدم الكلمة بالأخرى، واستخراج يأس المعاني بضرب أحدهما بالآخر. أنا أقول هذا، وهي الآخر. يبدو لي أنني يمكن أن أقول الآخر. وهي هذه المرة، وهي أيضاً، دون أن تغيّر الكلمات السابقة، والمعتبرة نتائجَ شيء، وهي هنا لا تفيد بشيء غير استهلاك كلماتٍ وزمن. في النهاية، نعست نيلفون. تمددت جيداً على المقعد المطاول الذي أسندت إليه ظهرها، وقالت لي وهي تغلق عينيها:

"احك لي قليلاً عن التاريخ يا أخي!"

"كيف؟"

"إقرأ الدفتر".

"هل سيفيدك في النوم؟"

ابتسمت باطمئنان فتاة صغيرة تمددت على السرير، لتجبر نفسها على سماع حكاية. هرعتُ فرحاً مفكراً بأن الحكايات ستفيد بشيء في النهاية. صعدتُ إلى غرفتي، ولكن دفتري لم يكن في الحقيبة. بحثت لاهثاً في الدروج والخزانة والحقيبة، بعد ذلك، بحثت في الغرف الأخرى، حتى إنني

دخلت إلى غرفة جدتي، ولكنني لم أجد ذلك الشيء الملعون. عندما فكرت، خطر ببالي أن أكون قد ألقيته على المقعد الخلفي للسيارة مساء أمس بعد أن كنتُ أتفرج على المطر مع نيلفون. ولكنه لم يكن هناك أيضاً. بينما كنت صاعداً إلى الغرف لأعيد البحث، رأيت أن نيلفون قد نامت. وقفتُ، ونظرت. كان وجهها كقناع أبيض متجمد دُهن بصبَاغ بنفسجي وأحمر. فتحة الفم المظلمة تُذكّر بفراغات تمثال مجرد، تثير في الإنسان انتظاراً ورعشة. أرخيت جسمي الضخم على كرسي البحر المطاول الذي جلستْ عليه نيلفون، وقرأت كتاباً، وبقيتُ هكذا.

فكرتُ بممرات الجامعة، وبمواصلات المدينة، وبالقمصان القصيرة الأكمام، وبحر الصيف الرطب، وبأطعمة الغداء التي تؤكل في الطقس الخانق، وبالكلمات. في البيت تقطر الصنابير المغلقة جيداً ماء، وتفوح من الغرف رائحة غبار وكتب. قطعة سمن نباتي بطعم بلاستيكي في الثلاجة المعدنية غدت بيضاء وجامدة جداً منتظرة زمناً مجهولاً. هذا يعني أن الغرفة الفارغة ستبقى فارغة! أردت أن أحتسي مشروباً، وأنام. بعد ذلك، فكرت على النحو التالي: حل هذا على رأس أفضلنا! بعد ذلك، نهضت، ودخلت بهدوء، ونظرت إلى الجسد الجريح النائم. جاء رجب.

قال: "خذوها إلى المستشفى يا سيد فاروق!"

قلت: "علينا ألا نوقظها".

"ألا نوقظها؟"

هز كتفيه، ونزل إلى المطبخ. وأنا خرجتُ من جديد إلى الشمس، وجلسنا عند القن أزاء الدجاجات الغبيات. بعد زمن طويل جاء متين. استيقظ للتو، ولكن عينيه ليستا ناعستين، بل فضوليتين. قال إن

نيلفون حكت له! وبينما كان يحكي لي عما حكته له نيلفون، تدخّل متحدثاً عن الاثني عشر ألفاً التي تركهم يأخذونها في الليلة الماضية، وكيف توقفت السيارة، والمطر الذي وصفه بأنه غير معقول. وعندما سألت عما كان يفعله هناك وحده في تلك الساعة، صمتَ لحظة، بعد ذلك، تحرك حركة غريبة. حينئذ سألته أنا:

"لدي دفتر، يمكن أن أكون قد نسيته في السيارة. هل رأيته؟ إنه ضائع".

"لم أره!"

بعد ذلك، سأل كيف أدرت السيارة من أجل أخذها إلى الصيانة. ولم يصدقني عندما قلت له إنها دارت فوراً بعد أن دفعتُها مع رجب، وذهب راكضاً إلى رجب، وسأله. شتم حظّه عندما أكد الأخير ما قلته، وكأنه هو الذي تعرض للظلم، وليست نيلفون. بعد ذلك، ذكرني متين بما عليَّ فعله. هل ذهب أحد إلى الشرطة؟ قلت إن أحداً لم يذهب. ورأيت متين يتجهم مشمئزاً من الحذر، ولكن وجهه بدا كأنه نسينا، وتذكر ألماً آخر أعمق. أنا دخلتُ إلى البيت. أردت أن أخيفها من أجل الذهاب إلى المستشفى.

قالت: "لا أريد الآن. ممكن بعد الطعام".

شربت مع الطعام براحة لأن الجدة لم تنزل، وتظاهرت بأنني غير منتبه للشعور بالذنب الذي أراد رجب أن يعممه على الجميع. ولكن متين عندما شرح مرة أخرى ما حدث، ورأيتُ حركات رجب، فكرت بأنه أكثر من يشعر بالذنب. ولكنه لم يكن هكذا تماماً. كأننا جميعاً كنا في الخارج، ونعرف هذا، ولكننا لا نعرف ما يجب أن نكونه عندما نواجه

الحدث. بدا لي أن (حسن) الذي لا يعلم أحد مكانه هو الآن في الداخل، ونحن نتهمه ونشفق عليه. بعد الطعام، خطرت ببالي هذه الفكرة الموترة للأعصاب أيضاً: لعلّ ما كان يحدث هذا لو لم تقل له نيلفون "فاشي مجنون". لابد أنني سكرتُ تماماً. بعد ذلك، تعلق هذا المشهد ببالي فجأة: قرأت هذا في الجرائد. في منطقة من مناطق البوسفور - (طرابية) غالباً - سقطت حافلة نقل داخلي ذات مقطورة في البحر بركابها. كأنني في تلك الحافلة الآن. سقطنا إلى قعر البحر، ولكن مصابيح الحافلة مازالت منارة. وكل شخص ينظر مرتبكاً إلى النوافذ، وكأن ظلمة الموت الوالجة إلى الداخل جذابة كإمرأة، وننتظر.

بعد الطعام، سألت نيلفون مرة أخرى عن ذهابها إلى المستشفى، وقالت إنها لن تذهب. صعدتُ إلى غرفتي، تمددت على سريري. فتحت كتاب أوليا جلبي، ونمت وأنا أقرأ.

كان قلبي يخفق بشكل غريب حين استيقظت بعد ثلاث ساعات. لم أستطع النهوض من السرير، كأن فيلاً غير مرئي يضغط فوقي من يدي ورجلي على السرير. كأنني إذا أغمضت عيني سأغوص من جديد في النوم براحة، ولكنني قاومت النوم الحلمي الجميل، ونهضت ضاغطاً على نفسي. وقفت وسط الغرفة كمخبول مدة، بعد ذلك، تمتمت: ما المدعو زمناً؟ ما الحل الذي انتظره؟ كانت الساعة تقترب من الخامسة. نزلت إلى الأسفل.

نامت نيلفون، واستيقظت، وتمددت من جديد على المقعد المطاول، تنظر إلى الكتاب الذي بيدها.

قالت: "كنت دائماً اريد أن أمرض من أجل أن أتمدد، وأستطيع قراءة الكتاب الذي أريد براحة".

قلت: "أنتِ لست مريضة. وضعك أخطر بكثير. انهضي لآخذك إلى المستشفى".

لم تنهض. كانت تقرأ كتابَ الآباء والأبناء للمرة الثانية. وكقارئة تُعدّ عشة كتب لا تريد إقلاقها بأمور صغيرة، قالت: إنها تريد أن تقرأ، دون أن تعيرني اهتماماً. وهكذا التقطتُ فرصة التحدث حديثاً وفارغاً مدة. استخدمتُ هذه المرة كلمة الموت نفسهما من أجل إخافتها منه، ولكنها كانت تبتسم، وتقول إنها لا تعتقد بأن شيئاً كهذا سيقع لها، لأنها لا تشعر بأن وضعها سيء جيداً. حين التفتت إلى كتابها، وقفت هناك متجمداً دهشة من استطاعة تانيك العينين البنفسجيتين المنتفختين القراءة حتى تلك اللحظة.

بعد ذلك، صعدت، تجولت في الغرف باحثاً عن دفتري دون جدوى، ولم أجده. انشغل عقلي بما إذا كنت قد كتبت على دفتري ما يتعلق بالوباء. وبينما كنت أبحث عن الدفتر في الحديقة نزلت، ولكنني نسيتُ أنني أبحث عنه. كان لدي شعور كهذا عندما خرجت إلى الشارع أيضاً: كنت أتجول، ولكن ليس من دون هدف تماماً. مازلت مؤمناً أنني يمكن أن أجد شيئاً في الغالب.

لم تكن حيوية الأمس موجودة في الشوارع وشاطئ السباحة. الرمال رطبة، والشمس لا تدفئها. وبحر مرمرة القذر اللا لون له متروك جانباً. ثمة يأس يذكّر بالموت في المظلات الباهتة المغلقة. كأنها جهزتْ نفسها للانهيار والذهاب مع ريح ظالمة لفرس بعيد لا يعرف من أين جاء وكيف، ولحضارة لم تنشأ من أجل نفسها. عبرتُ من بين سيارات اليوم المنتهي في حر النهار ماشياً إلى المقهى الذي عند أول رصيف كاسر

الموج. رأيت هناك صديق حي قديم: كبر، وتزوج، ومعه زوجته وولده. تحدثنا: نعم، تلك الكلمات البائسة.

قال لزوجته إنني من أقدم سكان هذا المكان. صادفوا رجباً مساء يوم الاثنين. عندما سأل عن سلمى لم أقل له إننا انفصلنا. بعد ذلك، ذكرني بمغامرات الشباب: نسيتُها كلها. مثلاً، ركبنا في القارب، وشربنا حتى الصباح. بعد ذلك، ذكرَ الموجودين من الأصدقاء والآخرين. وحكى عما يفعلانه. سيأتي شوكت وأورهان في الأسبوع القادم، ورأى أمهما. شوكت تزوج، وأورهان يكتب روايات. بعد ذلك، سألني عما إذا كان لدي ولد، وسأل عن الجامعة، وذكّر بحوادث موت. لم يكن هامساً، ولكنه بدا أنه يهمس. أضاف: هنا أيضاً اعتدوا على فتاة صباحاً، من يعلم لماذا ضربوها. حدث هذا وسط الزحام. تفرج الجميع، ولم يتدخل أحد. إنساننا يتعلم عدم التدخل، ويتعلم الخوف، وعدم المساعدة. بعد ذلك، قال إنه يريد أن يلتقيني في اسطنبول، وأخرج بطاقة من جيبه، وأعطاني إياها. حين رآني أنظر إلى البطاقة وهو يهم بالذهاب، قال: لعله لا يُعد مَصنعاً بمعنى الكلمة. لديه ورشة يصنّع فيها أوعية ودلاء وسلال. من البلاستيك طبعاً.

عَرَّجْتُ على البقالية في طريق عودتي إلى البيت، واشتريت زجاجة عرق صغيرة. بعد أن قلت لنيلفون "مستشفى" جلستُ، وبدأت أشرب. قالت نيلفون: "لا، لن أذهب". رجب أيضاً سمع، ولكنه نظر إليّ نظرة اتهامية. لعل هذا سبب عدم طلبي (مازة) منه. ذهبتُ، وحضّرت كل شيء بنفسي، وأرخيت نفسي بعد أن جلست كي تتراكض الكلمات والمشاهد براحة في عقلي. فكرت بأن الهزيمة والنصر مجرد كلمتين،

بأيهما آمنت ستأتيك في النهاية، وتجدك. الروايات التي يكتبونها ياه.. بدأت أشعر أن كل شيء انتهى كالروايات. لعل جملة كهذه موجودة في رواية أورهان. لم أتحرك من مكاني في أثناء وضع رجب المائدة، ولم أهتم لنظراته الاتهامية. خبأت زجاجتي عندما أنزلوا الجدة حين أظلم الجو. بعد ذلك، أخرج متين الزجاجة دون خشية من أحد، وبدأ يشرب. كأن الجدة لا تراه: كانت تتمتم متشكية كأنها تقرأ دعاءً. بعد ذلك، أصعدها رجب إلى الأعلى. كنا صامتين.

قال متين: "هيا لنعد إلى اسطنبول، الآن وبسرعة".

قالت نيلفون: "أما كنت ستبقى حتى منتصف الصيف؟"

قال: "تراجعت". وأضاف: "تضايقت، لنعد فوراً".

قالت نيلفون: "هل تحبهم؟"

"من هم؟"

"أصدقاؤك القدامى".

قال متين: "يجب أن تذهبي فوراً أنتِ يا نيلفون، ليس في الأمر مزاح".

قالت نيلفون: "أما كنا سنذهب غداً؟"

قال متين: "أنا لم أعد أستطيع الاحتمال أكثر هنا. أنت ابق هنا يا فاروق إن أردت. ولكن، اعطني مفتاح السيارة كي آخذ نيلفون".

قالت نيلفون: "ليس لديك إجازة قيادة".

قال متين: "هل تفهمين يا أختي؟ يجب أن تذهبي. ماذا سيحدث إذن؟ انظري! فاروق لن يستطيع عمل شيء. أنا أقود السيارة".

قالت نيلفون: "أنت سكران بقدر ما هو سكران".

قال متين: "ألا تريدين الذهاب؟ لماذا لا تريدين الذهاب؟"

قالت نيلفون: "نحن هنا هذا المساء".

صمتنا. خيّم صمت طويل. رجب يجمع ما على الطاولة بعد أن ساعد الجدة على الصعود، مددها ونزل. رأيت متين يفكر. كأنه دخل وسط غمامة غبار، يمسك بأنفاسه متوتراً. ارتخى فجأة.

قال: "أنا لست هنا هذا المساء." ونهض، وصعد إلى الأعلى. بعد قليل، نزل مرتب الشعر، مبدلاً ملابسه. مشى ذاهباً دون أن يحكي شيئاً. ظلت رائحة الكولونيا تتضوع منه حتى وصل إلى باب الحديقة.

قالت نيلفون: "ماذا حدث لهذا؟"

كجواب على سؤالها غيّرت الموضوع، قرأت بيتاً للشاعر (فضولي):

عَشِقَ وردة جميلة فتية

كل رشفة خمرة تأخذه إلى مئة صراع

ضحكت نيلفون. صمتنا. كأن لم يبق ما نتحدث به. ثمة صمت أكثر من عادي في الحديقة، وأجده أعمق من صمت ما بعد المطر. بدأت أدقق بالقناع الذي على وجه نيلفون بفضول قبيح. كأنها خُتمت بحبر أزرق. مازال رجب يدخل ويخرج. فكرت بالتاريخ، وبدفتري الضائع وبأمور أخرى. أمر لا يحتمل. نهضت على قدمي.

قالت نيلفون: "جيد يا أخي. امشِ قليلاً لعل ذهنك يتفتح".

لم يكن هذا ما أريده، ولكنني مشيت.

قالت نيلفون من خلفي: "انتبه لنفسك. أنت تشرب بكثرة".

كنت أفكر بزوجتي وأنا خارج من الباب. بعد ذلك، فكرت بالشاعر فضولي. ترى هل كان شعراء الديوان يقولون أشعارهم هكذا بتلقائية، أم

أنهم ينكبون على الورق ساعات، ويكتبون، ويشطبون؟ كنت أفكر بهذه الأمور لمجرد إشغال نفسي. فهمتُ أنني لن أعود إلى البيت بسرعة. كان هنالك هدوء مساء الأحد في الشوارع. المقاهي والمقاصف شبه خاوية. بعض المصابيح الملونة المعلقة على الجدار مطفأة، ولعل هذا بسبب شدة عاصفة الليلة الماضية. الآثار الطينية للدراجات التي تدخل حومات الماء عند أطراف الرصيف، وتخرج منها ترسم منحيات لا معنى لها. مشيت حتى الفندق وأنا أتمايل مفكراً بالسنوات التي كنت أركب فيها الدراجة، وبشبابي وزوجتي مرة أخرى، وبالتاريخ، والقصص، ونيلفون التي يجب أن آخذها إلى المستشفى، وأوليا جلبي. سمعت تلك الموسيقا الرديئة برفقة طنين مصباح (الفلورنسن) الذي يضيء لوحة من البلاستيك الشفاف موترة للأعصاب. قضيت فترة طويلة بالتردد. أريد الذنب والبراءة أيضاً. أندهش من الأشخاص المتعلقين بتحمل المسؤولية. لم أكن مسروراً من وعيي الذي يريد أن يقبض علي متلبساً بالذنب. علم الأخلاق يوتر أعصابي: كالمصورين الذين يقفون خلف حارس المرمى في مباريات كرة القدم موترين أعصاب الحراس! في النهاية، فكرت بأننا سنذهب إلى المستشفى صباحاً.

دخلت إلى الفندق من الباب الدوار. وكما يجد الكلب المطبخ بالشم، نزلت إلى مصدر الموسيقا بالسمع ماشياً فوق السجاد الصامت، ومن بين النادلين، وعبر الدرج. فتحت باباً: سائحون سكارى، رجال ونساء، أمامهم زجاجات، وعلى رؤوسهم طرابيش تحلقوا حول الطاولات، يتصايحون. فهمتُ: إحدى ليالي الشرق المعدة للسائحين الأجانب في آخر ليلة لهم في تركيا. وعلى مرتفع عريض، هنالك فرقة موسيقية رديئة تصدر ضجيجاً معدنياً. سألت نادلاً، وبعد أن علمت منه أنّ رقص

هز البطن لم يبدأ بعد، جلست إلى طاولة في مكان خلفي، وطلبت عرقاً بتردد.

بعد أن شربت القدح الأول، بدأت موسيقا سطحية راقصة. حين سمعت قرع الصنج، وعرفته، نظرت، فرأيت في نهاية حزمة الضوء المتحركة في شبه الظلام لحم راقصة محروق. جذبتْ نظري اللوحات اللماعة التي تضعها: عندما تتحرك بسرعة، يبدو كأن الضوء يتدفق من مؤخرتها وثدييها. انفعلتُ.

وقفت. جلب النادل القدح الثاني. جلست ولم أتفرج على الراقصة فقط، بل فكرت بأننا جميعاً نمثّل. الراقصة تمثل لتبدو كالمرأة، السائحون في ليلتهم الأخيرة في الشرق يمثلون أن يرونها كما تريد. مع تجول حزمة الضوء بين الطاولات، نظرت إلى وجوه النساء الألمانيات: لم يكنّ مندهشات، ولعلهن يردن أن يندهشن، فيبتسمن. ما ينتظرنه يتحقق بالتدريج. حين ينظرن إلى الراقصة يفكرن بأنهن لسن "هكذا" ولهذا يشعرن بالطمأنينة. أشعر أنهن ورجالهن يشعرون بهذا، كما أشعر أنهم يروننا جميعاً "هكذا" اللعنة: إنهم يستهينون بنا كربّات البيوت اللواتي ينظرن إلى خدمهم معتبرين أنهم متساوون مع أزواجهن!

شعرت فجأة أنني أُهنت إلى حد لا يوصف. أردت أن أخرب هذه التمثيلية البشعة. ولكنني أعرف أنه ليس ثمة ما يمكنني فعله. أنا أتذوق طعم الهزيمة ولخبطة العقل.

احتدتْ الموسيقا فجأة، وعندما سيطر ضارب إيقاع في إحدى زوايا المرتفع غير المرئية على الصخب دون إجهاد نفسه، أدارت الراقصة مؤخرتها إلى الطاولات، وهزت لحمها بانهماك يدٍ تهتز كالمروحة بعصبية

شديدة. فهمت من الاستدارة العدوانية والمباهية نحونا لثدييها بأنها تعملُ هذا كنوع من إطلاق الممنوع. بعد ذلك شعرت بالراحة حين أظهرت حزمة الضوء على وجهها نصراً وثقة غير متوقعين. نعم، هكذا: لم تفرض علينا طأطاة الرؤوس بتلك السهولة: مازلنا نتمكن من فعل شيء ما، والوقوف على أقدامنا.

ها هي الراقصة تتحداهم الآن. وهي تُفشل نظرات السائحات المحاولات ابتلاع ريقهن ومراقبتهن العلمية. غالبية السواح الذين لبسوا على رؤوسهم طرابيش أرخو أنفسهم أصلاً. لم يعودوا متوجهين نحو امرأة باعتبارها مادة، وتراخوا، نسوا أنفسهم، وكأنهم صغروا أمام امرأة محترمة.

شعرت بسعادة غريبة: أثارني جسد الراقصة الثقيل والمفعم بالحركة معاً. كأننا جميعنا ننهض من ثبات. في أثناء نظري إلى الحروق المحيطة ببطنها المتلامع بالعرق، فكرت بأنني يمكن أن أنكبّ على كل شيء بمنتهى الجد، وتمتمت: لأعود الآن إلى البيت فوراً، وآخذ نيلفون إلى المستشفى، بعد ذلك، أعطي نفسي للتاريخ دون الغوص في أعمق التفاصيل الدقيقة. يمكنني أن أفعل هذا بإيمان متوجهاً إلى القصص الحقيقية والأحداث ذات اللحم والدم بإيمان. يمكنني أن أفعل هذا فوراً، والآن.

بعد ذلك، نزلت الراقصة بين الطاولات كأنها تريد إعلان الاستصغار الذي نشعر به، وأمسكتْ من وضعتْ عينها عليهم من أيديهم، وبدأت تدفع بهم إلى الوسط، وتحثهم على هزّ البطن معها. يا إلهي! فتح الرجال الألمان أيديهم إلى الجانبين برفقة حركات صغيرة غير

ناجحة، واهتزوا بشكل بطيء، ونظروا إلى أصدقائهم بعيون خجلى، ولكنها مؤمنة بأن لها الحق باللهو. ولكن، اللعنة! كل هذا تمثيل، وتمثيل، وأحاول جعل نفسي أؤمن بهذا دون جدوى.

بعد قليل، عندما بدأت الراقصة بما توقعته، وانتظرته، قررت أنني فقدت آمالي كلها مرة أخرى. اختارت من يبدو أكثر تطوعاً وغباء من بين الجميع بمهارة، وبدأت تخلع له ثيابه. لم أعد أحتمل، وطأطأت رأسي عندما بدأت تخلع قميص الألماني السمين وهو يهز بطنه بشكل غير ناجح مبتسماً لأصدقائه. أريد أن يمحا وعيي كله، وألا يبقى أي أثر من ماضيّ، وكذلك من مستقبلي ومن توقعاتي. أريد أن أتخلص من خيالات عقلي، وأن أتجول بحرية في عالم خارج عقلي. ولكنني صرت أعرف أنني لن أستطيع ترك نفسي للتلقائية، وسأبقى مزدوج الشخصية كما أنا دائماً، وسألفّ وأدور في خيالات وأحلام عقلي، وسأجلس مدة طويلة في هذا المكان القذر، ووسط هذه الموسيقا القبيحة.

-٢٩-

جاوز الوقت منتصف الليل بكثير، ولكنني مازلت أسمع بعض الأصوات، ويتأجج فضولي: ماذا يفعلون في الأسفل، لماذا لا ينامون، ويتركون ليّ الليل الصامت؟ نهضتُ من سريري، وسرت نحو النافذة، ونظرت إلى الأسفل: مازال ضوء غرفة رجب يسقط على الحديقة: ماذا تفعل هناك يا قزم؟ خفتُ! ماكر: ينظر إلي فأفهم أنه ينتبه إلى كل شيء في، ويرى حركات يدي وذراعي ويدقق فيهما. إنه يفكر بأشياء ما في رأسه الضخم ذاك، كأنه يريد أن يسمم لياليَّ، ويعكر تفكيري: خفتُ حين خطر هذا ببالي: في إحدى الليالي جاء صلاح الدين إلى غرفتي كي لا أدفن نفسي في الطفولة البريئة لأفكاري، وأتطّهر من قذر الراهن، وكي أعاني العذاب مثله: عندما فكرت، خفت من جديد، توجست، وكأنني بردت: قال إنه اكتشف الموت. فكرتُ مرة أخرى، وانسحبت من الظلام عندما خفت أكثر. اختفى ظلي الساقط إلى الحديقة. عدت بسرعة إلى سريري، ودخلت إلى داخل لحافي. فكرت:

كان هذا قبل أربعة أشهر من موته. كانت هناك ريح شمالية شرقية باردة في الخارج، وهو يغلق النوافذ: انزويتُ في غرفتي ليلاً، وتمددت في

سريري، ولكنني لم أنم لأن قرقعة صلاح الدين بذهابه ومجيئه لم تهدأ، ولأن العاصفة تصفق الأباجور على الجدار ويقشعر جسدي بشكل غريب. بعد ذلك، سمعت وقع الأقدام المقتربة فخفت! قفز قلبي إلى حلقي رعباً حين فُتح بابي فجأة، وفكرت: أول مرة يأتي فيها إلى غرفتي منذ سنوات طويلة. ولج من الباب، وانتصبَ صلاح الدين لحظة هناك عند العتبة: "لا أستطيع النوم يا فاطمة!" كأنه ليس سكران. كأنني لم أر كم شرب على العشاء. لم أقل شيئاً. دخل وهو يتمايل. عيناه تقدحُ شرراً: "لا أستطيع النوم يا فاطمة لأنني اكتشفُ شيئاً مخيفاً. ستسمعينني هذه الليلة. لا أستطيع السماح لك بأخذِ صنارة الحياكة، والذهاب إلى الغرفة الأخرى. اكتشفت شيئاً مهماً، ويجب أن أشرحه لشخص ما". فكرت بالقول له: القزم في الأسفل يا صلاح الدين وهو يدوخ إعجاباً بالاستماع إليك، ولكنني لم أقلْ شيئاً، وجهه صار غريباً. همس فجأة: "اكتشفتُ الموت يا فاطمة. لا أحد هنا منتبه إلى هذا. أنا أول من اكتشف الموت في الشرق الآن". توقف لحظة، بعد ذلك، صار كأنه خائف من اكتشافه. لم يتكلم كسكران: "اسمعي يا فاطمة! أنا أكتب الآن حرف الميم، وعلي أن أكتب مادة: موت!" كنت أعرف، لأنه لا يقول شيئاً غير هذا على الإفطار والغداء والعشاء. "ولكنني لم أستطع الكتابة بأي شكل. أنا أروح وأغدو في غرفتي منذ أيام، وأفكّر بسبب عدم استطاعتي الكتابة، لأنني سآخذ المادة منهم بالتأكيد كما فعلت في المواد الأخرى. وكنت أفكر بأنني لا يمكن أن يكون لدي ما أضيفه إلى ما فكروا به، وكتبوه. ولكنني لم أستطع فهم عدم استطاعتي كتابة هذه المادة". ضحكَ لحظة.

لعلني لم أستطع إنهاء موسوعتي حتى الآن، لأن موتي هو الذي يخطر ببالي، وهذا لأنني وصلت إلى السبعين من عمري، أتقولين هذا؟" أنا لا أقول شيئاً: "لا يا فاطمة. ليس الأمر هكذا. مازلت شاباً، ولم أنهِ بعد ما سأفعله! فوق هذا فإنني بعد هذا الاكتشاف، أشعر بأنني شاب وحيّ إلى حد غير معقول: ثمة أشياء كثيرة جداً يمكن عملها على ضوء هذا الاكتشاف، بحيث لو عشت قرناً آخر لما كفاني!" وصرخ فجأة: "كل شيء، كل شيء، وكل الأحداث والحركات والحياة اكتسبت معنى جديداً جداً. صرت أرى كل شيء مختلفاً. بعد أن ذرعت غرفتي ذهاباً وإياباً طوال أسبوع دون كتابة كلمة واحدة، لمع في رأسي هذا الاكتشاف فجأة قبل ساعتين. قبل ساعتين، أنا أول من يفتح عينيه على خوف (العدم) يا فاطمة. أعرف أنكِ لا تفهمين ولكنك ستفهمينني، اسمعي!" كنت أستمع إليه لأنني لا أستطيع عمل شيء آخر، وليس لأنني أريد أن أفهم. ذرع المكان ذهاباً وإياباً وكأنه في غرفته. "كنت أفكر بالموت وأنا أذرع غرفتي، وأتوق لمعرفة سبب منحهم هذا الموضوع كل هذا الحيّز في كتبهم وموسوعاتهم. أنا أدع جانباً الأعمال الفنية، ثمة آلاف الكتب التي كتبت عن الموت فقط في الغرب. فكّرت بأسباب مبالغتهم بهذا الموضوع البسيط. كانت نيتي هي تمرير هذا الموضوع في موسوعتي بشكل مختصر. كنت سأكتب هذا: الموت هو إفلاس العضوية! وبعد هذا المدخل الطبي القصير، كنت سأنقض أفكار الموت في الأساطير والكتب المقدسة، وبعد أن أعرض مستمتعاً أن هذه الكتب مسروق أحدها من الآخر، سأعرض الجانب المضحك لمراسم الجنازات وتقاليدها لدى مختلف

الأمم بشكل مختصر. لعل محاولتي تناول الأمر بهذا القصر نابعة من عملي على إنهاء موسوعتي في أقرب فرصة ممكنة. ولكن هذه ليست حقيقة الأمر: لأنني لم أكن أفهم الموت حتى قبل ساعتين، وتصرّفت كشرقي عادي لا يهتم بهذا الموضوع يا فاطمة. فهمت هذا قبل ساعتين. ما لم أنتبه إليه طوال هذا العمر رأيته فجأة عندما كنت أنظر إلى صور الموتى في الجرائد قبل ساعتين: أمر مخيف. اسمعي! هاجم الألمان هذه المرة (كاركوفا). هذا ليس مهماً على كل حال. بينما كنت أنظر شارداً إلى صور الموتى في الجرائد قبل ساعتين ودون خوف، كما كنت أنظر إلى الجثث في المشافي وأنا في مدرسة الطب، وفي المشافي الأخرى قبل أربعين عاماً. قدح برق في رأسي فجأة. إنها الدهشة بذاتها، وكانت كصاعقة تنزل فوق رأسي: العدم! نعم، العدم! ثمة ما يدعى لدى موتى هذه الحرب المساكين. ذهب هؤلاء إلى قعر بئر العدم. هذا شعور مخيف يا فاطمة، وأشعر به الآن أيضاً. فكرت على هذا النحو: بما أن الله والجنة وجهنم غير موجودة، فلا يوجد بعد الموت سوى لا شيء. ثمة ما نسميه العدم. عدم فارغ تماما! لا أعتقد أنك ستفهمين هذا فوراً الآن. أنا أيضاً لم أكن أعلم به قبل ساعتين. ولكنني فهمته بعد اكتشاف ما يدعى بالعدم يا فاطمة. ومع الإمعان بالتفكير بعمق، فهمت رعبَ الموت والعدم! لا أحد منتبه إلى هذا الأمر في الشرق. ونحن نتجرجر مئات وآلاف السنين. يجب أن نستعجل الآن. سأشرح لك هذا ببطء. لا أستطيع وحدي تحمّل عبء هذا الاكتشاف في هذه الليلة". كان يتحرك حركات تبدي التململ، وتتحرك يداه وذراعاه كما في سنوات شبابه:

"لأنني فهمت لماذا صار كل شيء بهذا الشكل: لماذا نحن هكذا؟ ولماذا هم هكذا؟ فهمت لماذا الشرق شرق، والغرب غرب. أُقسم أنني فهمت هذا يا فاطمة. أرجوكِ وأتوسل إليك أن تسمعيني بانتباه. ستفهمين". وشرح لي، وكأنني لم أستمع منه هذا مدى أربعين سنة. شرح لي بصوت محمّل بإيمان وانتباه، وكمعلم مخبول ومسن يحاول خداع طفل صغير، عاملاً على التظاهر بالحلاوة والحنية، ولكنه لم يستطع إلا أن يكون منفعلاً وكافراً: "اسمعي الآن بانتباه يا فاطمة! من دون غضب، حسنٌ؟ نحن نقول إن الله غير موجود، لأن وجوده لا يمكن أن يثبت بالتجربة، كم مرة قلت هذا؟ إذن، فإن الأديان كلها التي تعتمد على وجود الله أساساً هي مجرد ثرثرة شعرية فارغة. وهكذا، فإن الجنة وجهنم التي تشرحها هذه الثرثرات غير موجودين. وإذا كانت الجنة وجهنم غير موجودين، فهذا يعني أن حياة ما بعد الموت غير موجودة. أنتِ تتابعينني يا فاطمة، أليس كذلك؟ إذا لم تكن هناك حياة بعد الموت، فإن حياة الميتين كلها تزول مع موتهم بحيث لا يبقى منها شيئاً. ولنراقب هذا الوضع في نظرة الميت: الميت الذي كان يعيش قبل الموت، أين يغدو بعد الموت؟ أنا لا أذكر جسده: أين هو الآن بوصفه وعياً ومشاعر وعقلاً؟ ولا في أي مكان. غير موجود، أليس كذلك يا فاطمة؟ في مكان غير موجود، وفي مكان أدعوه العدم. لم يعد يرى أحداً، ولا يظهر لأحد. هل تفهمين الآن يا فاطمة مدى الرعب الذي يبثه ما أسميه عدماً؟ أرتعد عندما أفكر: يا ربي! لِمَ هذه الفكرة غريبة ومقشعرة للبدن! يقشعر جسدي حين أحاول تجسيدها أمام عيني. أنتِ أيضاً يا فاطمة فكري يا فاطمة، فكري بشيء

لا يكون فيه شيء أبداً، لا يوجد فيه صوت ولا لون ولا رائحة ولا ملمس، وليس له أية خصوصية، وفكري يا فاطمة بمكان لا مكان له في الفراغ: إنك تستطيعين أن تجلبي إلى أمام عينيك شيئاً لا يغطي شيئاً، ولا يُرى، ولا يشعر به، أليس كذلك؟ ظلمة دامسة فقط، ولا يُعرف أنها ظلمة دامسة لا بداية لها ولا نهاية! وهكذا فإن العدم هو ما وراء الشيء المسمى موتاً مظلماً! هل تخافين يا فاطمة؟ قطعُ أجساد الواحدة بقدر قبضة اليد ورؤوسها مهشمة، والمخاخ متناثرة على الأرض، والعيون السائلة والممزقة وسط الدم بين أنقاض البيوت، وعيها، ووعينا، تُدفقُ في العدم، أي الظلام الذي لا أول له، ولا نهاية. كالأعمى غير المنتبه لما يجري له وهو يسقط على ظهره حتى النهاية بعد أن يُدفع إلى هاوية لا قرار لها، بل أكثر من هذا: مثل لا شيء: لعنة الله عليها، عندما يُخطر هذا ببالي يسطير علي الرعب، ولا أريد أن أموت. وعندما يخطر الموت ببالي أتمرد. يا ربي، يا لهذا كم هو مخرّب للأعصاب، والدفن في ظلام لا متناه، وسط ظلام فقط لا بداية له ولا نهاية، ومعرفة أن المرء سيذهب ضائعاً دون أن يشعر بشيء، ودون أن يخرج أبداً، أبداً، أبداً: كلنا سنغرق في العدم يا فاطمة، وسيملؤنا الزوال حتى نهايتنا! ألا تخافين، ألا يخطر ببالك التمرد؟ لابد لك من الخوف، والالتزام بالخوف. لن أتركك هذه الليلة دون تأجيج مخاوف الموت الثورية تلك في داخلك. اسمعي، اسمعي! لا توجد جنة ولا جهنم، وليس هنالك الله، ولا يوجد من يراقبك ويعذبك ويعفو عنك. بعد الموت ستنزلقين وسط هذا العدم كأنك تنزلين إلى قعر بحر ظلام لن تخرجي منه أبداً: ستدفنين في صمت

وقعر لا عودة منه. في أثناء تفسّخ جسدُك في التربة الباردة ستمتلئ جمجمتك ويمتلئ فمك بالتراب كأصيص زرع، وسيتفتت لحمك، ويتناثر كقطع الزبل الجافة، وسيغدو هيكلك العظمي غباراً كغبار الفحم، وسيذوب شعرك حتى آخر واحدة منه، وستذهبين في مستنقع، وأنت تعرفين أنك لا تستطيعين حتى مجرد أن تأملي بالعودة، وستزولين وحيدة في الطين البارد كالجليد للعدم الذي لا يرحم، هل تفهمين يا فاطمة؟

خفتُ! رفعت رأسي عن المخدة بخوف، ونظرت إلى الغرفة. العالم القديم، والعالم الراهن: ولكن غرفتي وأغراضي تنام. تعرّقت. أردتُ أن أرى بعضهم، وأن أحدثهم وألمسهم. بعد ذلك، سمعت قرقعتهم في الأسفل، وتأجج لدي الفضول. صارت الساعة الثالثة. ونهضت فوراً، وهرعت إلى النافذة. مازال ضوء رجب مناراً. فكرت: قزم ماكر، ولقيط خادمة! فكرت متوجسة بليلة شتوية باردة، وبالكراسي المبعثرة، والزجاج والصحون المحطمة، وبالأغطية المقرفة، وبالدم، واقشعر جسدي، كأنني ارتبكت. أين عكازي؟ تناولته، وضربتُ به الأرض، وضربت مرة أخرى، وناديت:

"رجب، يا رجب! تعال إلى الأعلى بسرعة".

خرجتُ من غرفتي، ووقفت عند نهاية الدرج.

"رجب، أنا أناديك يا رجب، أين أنت؟"

أنظر إلى الأسفل. توجد ظلال وسط الضوء المنبعث من الأسفل تتحرك على الجدار: أعرف أنكم هناك. صرخت مرة أخرى، وفي النهاية، رأيت ظلاً.

قال: "أنا قادم أيتها السيدة الكبيرة". ومع تضاؤل الظل ظهر القزم. قال: "ماذا هناك؟ ماذا تريدون؟"

لم يصعد إلى الأعلى.

قلت: "لماذا لا تنام أنتَ في هذه الساعة؟ ماذا تفعلون في الأسفل؟"

قال: "لا شيء. نجلس".

قلت: "أفي هذه الساعة؟ لا تكذب، أنا أكشفك فوراً. ماذا تحكي لهم؟"

قال: "لا أحكي لهم شيئاً. ما بكِ؟ هل تفكرين من جديد؟ لا تفكري! إذا كنتِ لا تستطيعين النوم، فخذي جريدتك، أو فتشي خزانتك"، وانظري ما إذا كانت ألبستك مكانها. كلي فواكه. لا تفكري من جديد بهم!"

قلت: "الآنسة نيلفون فقط موجودة. السيد فاروق ومتين غير موجودين".

"ماذا تريدينني أن أشرحَ لهم أيتها السيدة الكبيرة، لا أعرف!"

في النهاية، صعد الدرج. اعتقدت أنه سيأتي إلي. دخل إلى غرفتي.

قلت: "لا تتدخل بغرفتي. ماذا تفعل؟"

وقف القزم هناك. لحقت به فوراً. التفت فجأة، واقتربَ مني. أمسكني من ذراعي، ودهشت: حسنٌ، لمسني. أخذني إلى سريري، مددني. غطاني بلحافي الدافئ: حسنٌ، أنا فتاة صغيرة، أنا بريئة، أنا نسيت، أنا أتمدد في سريري. هو يخرج.

قال: "أخذتِ قضمة من الدراقة، وتركتِها. هذه أفضل الدراق. إنها لا تعجبك؟ أتريدين أن أخرج لك مشمشاً؟"

خرج ذاهباً، وبقيت وحدي. بينما كنت أغطّي نفسي، كان فوقي السقف نفسه، وأنا فوق الأرض نفسها. الماء نفسه في الإبريق، والكأس نفسه على الطاولة. وبينما كانت الفرشاة والكولونيا والصحن والساعة في مكانها، كنت أتمدد على السرير، وأفكر بغرابة ما يُدعى الزمن فأرتعش. فهمت أنني سأفكّر بما اكتشفه صلاح الدين في تلك الليلة، فخفت. كان الشيطان يشرح:

"هل تستطيعين فهم عظمة هذا الاكتشاف يا فاطمة؟ اكتشفتُ هذه الليلة الخط الفاصل غير المرئي الذي يفصلهم عنا. لا، ليست الألبسة والآلات والبيوت والمفروشات والأنبياء والحكومات والمصانع تفصل بين الشرق والغرب. كل هذه نتائج. ما يفصلنا عنهم هذه الحقيقة البسيطة. انتبهوا هم إلى ذلك البئر الذي لا قرار له، إلى العدم المسمى موتاً، أما نحن فلا علم لنا بهذه الحقيقة المخيفة. ما ينطط الشياطين إلى رأسي هو التفكير بأن الفرق الهائل بيننا نابع من اكتشاف صغير وبسيط إلى هذا الحد! لا يستطيع عقلي استيعاب عدم ظهور شخص واحد في الشرق يفكّر على هذا النحو خلال ألف عام. إذا نظرتِ إلى الحياة والزمن المضيعين يمكنكِ، حتى أنت يا فاطمة، رؤية الأبعاد الكبيرة التي وصل إليها الحمقى والخدر! ولكنني رغم هذا لا أؤمن بالمستقبل، لأنني خطوت الخطوة الأولى البسيطة والمتأخرة كل هذه القرون في هذه الليلة. أنا صلاح الدين داروين أوغلو اكتشفت الموت في الشرق! هل أنتِ منتبهة

إلى ما قلته؟ أنت تنظرين شاردة طبعاً، لأنه لا يمكن أن يَفْهَم النور إلا من يعرفُ الظلام. ولا يمكن أن يفهم الوجود إلا من يعرف العدم. أنا أفكر بالموت، فأنا موجود! لا! مع الأسف أن مخدري الشرق أيضاً موجودين، وأنتِ موجودة وبيدك صنارة الحبك، ولكن، لا أحد منكم يعلم شيئاً عن الموت! حينئذ يجب التحدث على النحو التالي: أنا أفكر بالموت، فأنا غربي! أنا أول غربي خرج قادماً من الشرق. هذا أول شرق صار غرباً! هل فهمتِ يا فاطمة؟" وصرخ فجأة: "آه يا ربي! أنتِ مثلهم عمياء!" بعد ذلك، خطا خطوتين متأرجحاً نحو النافذة مصدراً أنيناً يشبه البكاء. ياللغرابة! للحظة فكرت بأنه سيفتح درفتي النافذة، ويقفز إلى الخارج نحو العاصفة، وسيخفق بجناحين منفعلاً طائراً. بعدئذ، سيفهم الحقيقة، ويسقط مصطدماً بالأرض، ويموت. ولكن صلاح الدين وقف وسط الغرفة، ونظر من وراء الزجاج المغلق والمظلم بعداء ويأس إلى البلد كله، وما يسميه الشرق، وكأنه يستطيع رؤيته: "عميان مساكين! إنهم ينامون! دخلوا إلى فرشهم، والتحفوا بحلفانهم، ودُفنوا بنوم الحمقى الطافح بالطمأنينة، وينامون نوماً عميقاً! الشرق كله ينام. عبيد! سأعرّفهم بالموت، وأحررهم. ولكنني سأحرركِ أنت أولاً يا فاطمة. اسمعيني، وافهمي، وقولي إنك تخافين من الموت!" وهكذا توسل إلي كما توسل من قبل لجعلي أقول إن الله غير موجود، رغم أنه يعرف أنني لن أقولها. خاف، وأراد أن يخدعني بألاعيب الكلمات، وأن يجعلني أؤمن بهذا من خلال تعداد البراهين، وثني أصابعي. لم أؤمن عندما يئس، وصمت، جلس على الكرسي قبالتي. كان ينظر شارداً إلى

الطاولة. ما زال أباجور النافذة يصفق على الجدار. ثم انتبه فجأة إلى الساعة المجاورة لي، فخاف كأنه رأى عقرباً أو أفعى، وصرخ: "علينا أن نلحق بهم! بسرعة أكبر، بسرعة أكبر". تناولَ الساعة، وقذف بها فوق سريري، وصرخ: "لعل ألف سنة من الزمن تفصل بيننا، ولكننا يمكن أن نلحق بهم يا فاطمة. سنلحق بهم، لأنه لم يبق لديهم شيء مخفي عنا. تعلمنا كل ما لديهم. ما هي أعمق حقائقهم؟ هذه أيضاً نعرفها! سأطبع هذه الحقيقة في أطروحة فوراً، وأعلّم مساكيننا. حمقى! إنهم غير منتبهين حتى إلى وجود حياة لهم. أُجنُّ عندما أفكر بهذا. إنهم يعيشون مطمئنين دون شك بأي شيء، ولا علم لهم بوجود الحياة التي يعيشونها، ويجدون العالم طبيعياً بتعقلٍ وسرور! سأُزهق أرواحهم. سأخضعهم جميعاً إلى الخوف من الموت. سيتعلمون أنفسَهم، ويتعلمون الخوف والاشمئزاز من أنفسهم! هل رأيتِ في حياتك مسلماً يعادي نفسه حق عداء، وهل عرفتِ شرقياً يشمئز من نفسه؟ إنهم لا ينتظرون أي شيء من أنفسهم، ولا يعرفون كيف يفصلون أنفسهم عن القطيع. إنهم يطأطئون رؤوسهم لتدفق لا يعلمون ما هو، ويعتقدون أن من يطالب بشيء آخر منحرف أو مجنون! سأعلمهم الخوف من الموت وليس من الوحدة يا فاطمة. حينذاك سيحتملون الوحدة. وحينذاك سيفضلون آلام الوحدة العميقة على طمأنينة الغفلة في الزحام! حينذاك سيرون أنهم يجب أن يضعوا أنفسهم في مركز العالم! حينذاك سيخجلون من بقائهم على ما هم عليه طوال حياتهم، ولن يباهوا بهذا، وسيسائلون أنفسهم، كما أنهم سيسائلون أنفسهم معتمدين على أنفسهم، وليس على الله! سيحدثُ هذا

يا فاطمة. سأوقظهم من حلم الغفلة السعيد والمطمئن المستمر طيلة آلاف السنين! سأبث في قلوبهم رعب الخوف من الموت الخانق والمجنن. سأعمل هذا بالتأكيد. أقسم أنني سأعمله وإن اضطرني الأمر للضرب على رؤوسهم بالهراوة". بعد ذلك، صمتَ قليلاً كأنه تعب من غضبه. وقفَ لاهثاً. لعله كان خجلاً قليلاً، وخانقاً قليلاً أيضاً من الخوف الذي سيبثه، ولكنه بعد ذلك، بدأ من جديد: "اسمعي يا فاطمة! إذا لم تشعري تلقائياً بهذا الخوف، يمكنك أن تدركيه وتشعري به بعقلك. لا تشعرنا الحياة التي نعيشها نحن الشرقيين بهذا الرعب. حينذاك سنتعلم الرعب بعقولنا، وسنتعلمه بشكل أفضل أيضاً. يمكننا أن ننجح بأن نكون مثلهم. يكفيكِ أن تصغي إليّ، وأن تشغّلي عقلك لكي تكوني مثلهم. اسمعي!" ولكنني لم أعد أستمع إليه. كنتُ أنتظر أن يتركني لقفر الليل، ولعودتي إلى النوم.

عندما تعلّق عقلي بالقرقعة المنبعثة من الأسفل، رفعتُ رأسي عن دفء مخدتي. أشعر بأن القزم يتجول في البيت وكأنه يتجول في جسدي. ماذا تفعل يا قزم، ماذا تحكي لهم؟ بعد ذلك، سمعت صفق باب الحديقة، وخفت، وعرفت صاحب وقع الأقدام المنبعث من الحديقة: متين! أين كنت حتى هذه الساعة؟ سمعته يدخل جاعلاً باب المطبخ يصرّ، ولكنه لم يصعد إلى الأعلى. فكرتُ: إنهم في الأسفل. الآن جميعهم في الأسفل، والقزم يحكي لهم. ارتعشتُ، أين عكازي؟ قلت: لأقبض عليهم جميعاً متلبسين، ولكنني لم أنهض. بعد ذلك، سمعت وقع أقدام تصعد الدرج، وارتحتُ. بعد ذلك. أدركت أنه ثمة غرابة بوقع

تانيك القدمين. كان الشيطان احتسى مشروباً، وهو عائد إلى غرفته! توقف حين انعطف عند بابي ذاهباً، وعندما قرع بابي، أردت الصراخ كأنني أنهض من كابوس، ولكنني لم أصرخ.

دخل متين إلى غرفتي. قال: "كيف حالك يا جدة؟" إنه غريب! "ها أنتِ على ما يرام؟" لم أجب. لم أنظر. "أنتِ بصحة جيدة يا جدة. لا تعانين من شيء، ولن يحدث لك شيء". فهمت: سكران مثل جده! أغمضت عيني. "لا تنامي يا جدة! سأقول لك شيئاً!" لا تقل! "تنامي الآن!" أنام، وأشعر بأن سريري اقترب. "لنهدم هذا البيت المهلهل يا جدة". فهمت. "لنهدم هذا البيت، وننشئ مكانه بناء ضخماً. المتعهد الذي سينشئه ويبيعه سيعطينا نصفه. وهذا جيد لنا جميعاً. أنت لا تعرفين شيئاً أبداً". نعم، أنا لا أعرف شيئاً "النقود تلزمنا كلنا يا جدة! مع هذا المسير لن يُسدد مصروف مطبخ هذا البيت قريباً". أنا أفكّر بمطبخنا: كانت رائحة القرنفل والقرفة تفوح من مطبخنا في طفولتي. "إذا لم يُفعل شيء فستبقين جائعة هنا مع رجب. هما لا يعملان شيئاً إزاء هذا. فاروق سكران كل يوم. ونيلفون شيوعية. أتعرفين هذا؟" كنتُ أشم رائحة الغرفة، ولم أكن أعرف كل شيء، "اجيبيني! هذا جيد من أجلك! هل تسمعينني؟" لا أسمع، لأنني لست هنا، أنا نائمة وأتذكر: كنا نغلي المعقود، ونشرب شراب الليمون، والشرابات الأخرى. "أجيبيني يا جدة. أرجوكِ أجيبيني يا جدة!" بعد ذلك، كنت أذهب إلى عند بنات شكرو باشا: مرحباً يا توركان وشكران ونيفان، مرحباً: "ألا تريدين؟ أليس السكن في شقة بناء جميلة ودافئة أفضل

من السكن في هذا البيت المهلهل مع الجوع والبرد؟" جاء إلى طرف سريري. يهزّ قائمة السرير ذات الكرة كي يخيفني: "استيقظي يا جدة. هيا افتحي عينيك. أجيبيني!" لا أفتحهما، وأهتز: بعد ذلك، عندما نركب عربة الخيل من أجل الذهاب أيضاً. لماذا تركتْ فاروقاً زوجتهُ باعتقادك؟ من أجل النقود! لم يعد الناس يفكرون بشيء غير النقود يا جدة!" مازال يهز. اهتزت العربة: تيكي تاكا، تيكي تاكا... ذيول الخيول.. "أجيبيني يا جدة.." تكشُّ الذباب. "لن أدعك تنامين إذا لم تجيبيني!" تذكرت، تذكرت. "وأنا أيضاً أحتاج إلى النقود، وأكثر منهم جميعاً. هل فهمتِ؟ لأنني..." يا إلهي، جلس على حافة سريري. "لا أقتنع بالقليل مثلهما. أنا أشمئز من دولة الحمقى هذه! سأذهب إلى أمريكا. وتلزمني نقوداً. هل تفهمين؟" شممت رائحة الكحول التي تفوح من فمه وتصفعني على وجهي باشمئزاد، وفهمتُ. "ستقولين لي الآن. نعم. أنتِ أيضاً يا جدة تريدين بناءً طابقياً، وسنخبرهم بهذا. قولي: نعم، يا جدة!" لم أقل. "لماذا لا تقولين؟ ألأنك مرتبطة بذكرياتك؟" ذكريات لي. "ننقل الأغراض كلها إلى شقة البناء، تفهمين؟" أفهم كم هي جميلة ليالي الشتاء القفرة: حين يكونُ صمت الليل لي، "ونعلّق صورة جدي هذه التي على الجدار، وتكون غرفتُك مثل هذه بالضبط. أرجوكِ أجيبيني!" لم "سأقضي عمري كله في سجن الحمقى هؤلاء. لا!" خفتُ، وشعرت بيده الباردة على كتفي! اقترب صوته الباكي. كان يتوسل بأنفاس كحولية. كنتُ أتذكر: لا توجد جنة، وليس هناك جهنم، وسيبقى جسدك وحيداً في ظلمة الأرض الباردة كالجليد.

توسّل أكثر. ستمتلئ عيناك بالتراب، وستقرض الديدان أحشائك، وسيتفكك لحمك. "أتوسل إليك يا جدة!" وسيتراكض النمل في مخك، وستتجول الصراصير في رئتيك. وستفوح الديدان في تربة قلبك. بعدئذ توقف فجأة، وقال: "لماذا مات أبي وأمي، وتعيشين أنت؟ هل هذا صحيح؟" فكرتُ. خدعوه. فكرت: القزم في الأسفل يحكي! فكرتُ، ولكنه لم يقل شيئاً آخر. يبكي. اعتقدت للحظة أن يده تذهب إلى رقبتي! فكرت بقبري. تمدّد على سريري، وما زال يبكي. شعرت بالاشمئزاز. كان النهوض من سريري صعباً، ولكنني نهضت. ولبست نعلي، وتناولت عكازي، وخرجت من الغرفة، وذهبت إلى آخر الدرج، وناديت:

"رجب، يا رجب! تعالوا بسرعة إلى الأعلى!"

-٣٠-

كنتُ أجلس مع نيلفون في الأسفل. نهضتُ فوراً عندما سمعت السيدة الكبيرة تنادي، وصعدتُ الدرج راكضاً. كانت السيدة الكبيرة عند باب غرفتها.

كانت تنادي: اركض يا رجب. ماذا يحدث في هذا البيت؟ اخبرني فوراً".

قلت لاهثاً: "لا شيء".

قالت: "يقول لا شيء! هذا مسعور. انظر!"

أشارت برأس عكازها إلى وسط غرفتها مشمئزة كأنها تشير إلى فأرٍ ميت. دخلت: تمدد متين منكباً على وجهه فوق سرير السيدة الكبيرة. يرتجف، ورأسه مدفون في المخدة المطرزة الطرفين.

قالت السيدة الكبيرة: "كان سيقتلني. أقول ماذا يحدث يا رجب؟ لا تخفوا عني شيئاً في هذا البيت".

قلت: "لا شيء. أيليق هذا يا سيد متين، هيا انهض!"

"يقول لا شيء. من خدع هذا؟ ستنزلني إلى الأسفل الآن".

قلت: "حسنٌ، شرب السيد متين قليلاً أيتها السيدة الكبيرة! هذا كل شيء. شاب، يشرب، ولكنه غير معتاد. وها أنتِ ترينه. كان أباه قد وجده هكذا"

قالت: "حسنٌ. اصمت أنت! لم أسألك عن هذا!"

قلت: "هيا يا سيد متين. تعالوا لأمددكم على سريركم".

نهض متأرجحاً. في أثناء خروجه، نظر إلى صورة جدّه التي على الجدار بغرابة. بعد ذلك، عندما دخل إلى غرفته، قال بصوت يشبه البكاء:

"لماذا مات أبي وأمي باكراً؟ أخبرني يا رجب، لماذا؟"

بينما كنتُ أساعده ليخلع ما عليه، ويضطجع، بدأت قائلاً: "الله" فدفعني فجأة:

"يقول الله! قزم مغفل! أنا أخلع ثيابي، لا تقلق". ولكنه لم يخلع ثيابه، وأخذ شيئاً من حقيبته، وقال: "أنا ذاهب إلى دورة المياه". وذهب.

كانت السيدة الكبيرة تنادي. ذهبت.

"أنزلني إلى الأسفل يا رجب. سأرى بنفسي ما يفعلونه في الأسفل".

قلت: "لا يوجد شيء أيتها السيدة الكبيرة: الآنسة نيلفون تقرأ، والسيد فاروق خرج".

"إلى أين يذهب في هذه الساعة؟ ماذا حكيت لهم؟ لا تكذب"

قلت: "لا أكذب. تعالي لأمددك". ودخلتُ إلى غرفتها.

قالت: "هناك أمور تدور في البيت.. لا تدخل إلى غرفتي، لا تعبث" هي أيضاً دخلت إلى غرفتها من ورائي.

كنت أقول: "هيا أيتها السيدة الكبيرة، تمددي على سريرك. ستتعبين بعد هذا". سمعت متين يصرخ. خفتُ. خرجت من الغرفة فوراً.

اقترب متين متأرجحاً، وقال كسكران فجأة: "انظر، انظر ماذا حدث

يا رجب" كان ينظر مشفقاً إلى الدم السائل من معصمه. جُرح، ولكنه ليس عميقاً. يكاد أن يكون خدشاً. بعد ذلك، كأنه تذكر الخوف فجأة، واستذكرني، واستذكر أشياء عادية، والندم.

قال: "هل الصيدلية مفتوحة في هذه الساعة؟"

قلت: "مفتوحة. ولكن، لأعطيك قطناً أولاً يا سيد متين".

نزلتُ إلى الأسفل فوراً. كنت أخرج قطناً من الخزانة.

قالت نيلفون وهي ترفع رأسها عن الكتاب: "ماذا يحدث؟"

قال متين: "لا شيء. جرحتُ يدي".

أعطيته القطن، وبينما كان يضغطه على الجرح، جاءت نيلفون، ونظرت، وقالت: "ليست يدك. إنه معصمك. ولكنه ليس خطراً، كيف نجحت بهذا؟"

سأل متين: "أليس خطراً؟"

قالت نيلفون: "ماذا يوجد في هذه الخزانة يا رجب؟"

قال متين: "تقول إنه ليس خطراً. ولكنني ذاهب إلى الصيدلية".

قلت: "أدوات مختلفة تافهة أيتها السيدة الصغيرة".

قالت نيلفون: "ألا يوجد ما يعود لأبي وجدي من أشياء قديمة؟ ماذا كانا يكتبان؟"

فكرتُ لحظة، بعد ذلك، قلت فجأة: "عن عدم وجود الله".

ضحكت نيلفون، وصار وجهها جميلاً. قالت: "كيف عرفت؟ هل كانا يُخبرانك؟"

لم أقل شيئاً. أغلقتُ الخزانة. صعدتُ إلى الأعلى عندما سمعت السيدة الكبيرة تنادي. مددتها على سريرها من جديد، وأخبرتها بأن

شيئاً لم يحدث في الأسفل. طلبت مني تغيير ماء الإبريق. عندما أخرجت الماء النظيف إلى الأعلى، ونزلت نيلفون تقرأ من جديد. بعد ذلك، سمعت قرقعة في المطبخ. كان السيد فاروق خارج باب المطبخ، ولسبب ما لا يستطيع فتحه. فتحت أنا.

قلت: "لم يكن مقفولاً".

قال: "أنرتم المصابيح كلها". ونفخ في وجهي بخار عرق "ماذا حدث؟"

قلت: "تنتظركم يا سيد فاروق".

قال: "بسببي! آه، بسببي. لو أنكم ذهبتم بسيارة أجرة. أما أنا فكنت أتفرج على رقص هز البطن".

قلت: "إذا كنتم تقصدون الآنسة نيلفون، فليس بها شيء".

قال: "لا شيء؟ لا أعرف". وأضاف كأنه مندهش: "أليست على ما يرام؟"

"على ما يرام. ألن تدخلوا؟"

دخل. التفت بعد ذلك، ونظر إلى الأمام، إلى المصباح الشاحب وراء باب الحديقة، إلى مكان هناك، وكأنه يريد أن يرجع. بعد ذلك، فتح الثلاجة، وأخذ الزجاجة. كأنه فقد توازنه بثقل الزجاجة التي بيده. خطا خطوتين إلى الخلف، ثم انهار على كرسي جالساً. كان يلهث بأنفاس متقطعة.

قلت: "إنكم تسيئون لأنفسكم يا سيد فاروق. لا أحد يشرب إلى هذا الحد".

بعد زمن طويل، قال: "لا أدري". ولم يقل شيئاً آخر.

احتضن زجاجته، وجلس كفتاة صغيرة تحتضن دميتها المحببة.

قلت: "هل أحضّر لكم حساء. لدي مرق لحم".

قال: "حضّر". وجلس قليلاً، ثم ذهب متأرجحاً.

حين أخذت له حساءه، كان متين قد جاء. ألصقوا على معصمه لصاقة رفيعة.

قال: "الصيدلانية سألت عنك يا أختي، ودهشت عندما عرفت أنك لم تذهبي إلى المستشفى".

قال فاروق: "مازلنا غير متأخرين. يمكن أن نلحق".

قالت نيلفون: "ماذا تقول؟ لن يحدث شيء".

قال فاروق: "تفرجتُ على رقص هز البطن مع سواح حمقى على رؤوسهم طرابيش".

قالت نيلفون مبتهجة: "كيف كان؟"

بعد ذلك، قال فاروق: "أين دفتري يا ترى؟ يمكنني استنتاج بعض الأمور من دفتري، ومن التاريخ".

كان متين يقول: "مخدرون.. هذا بسببكم".

قال فاروق: "هل تريد أن تعود إلى اسطنبول يا متين؟ اللهو ذاته موجود في اسطنبول".

قالت نيلفون: "كلاكما سكران. لا أحد يمكنه قيادة السيارة".

صرخ متين: "أنا أقود السيارة".

قالت نيلفون: "لا. سنجلس نحن الأخوة معاً هنا هذا المساء".

قال السيد فاروق: "كلها قصص". وصمت قليلاً، ثم أضاف: قصص لا سبب لها أبداً.

"لا! سأقول هذا في كل مرة. لهذه الأمور أسبابُها".

"أرجوك! في الحقيقة إنك تقول هذا دون ملل".

قال متين: "اصمتا، هذا يكفي!"

قال فاروق: "ترى كيف نكون لو وُلدنا لعائلة غربيّة؟ لو كنا أولاد أسرة فرنسية مثلاً، فهل يفرح متين؟"

قالت نيلفون: "لا. هو يريد أمريكا".

"صحيح يا متين؟"

قال متين: "اصمتوا، سأنام".

قلت: "لا تناموا هنا يا سيد متين، ستبردون".

"لا تتدخل أنت".

"أأجلب لكم أيضاً حساء؟"

قال السيد فاروق: "آه يا رجب! آه يا رجب، آه".

قال متين: "هات!"

نزلت إلى المطبخ، وحضّرت له حساء أيضاً. عندما صعدت، وجدت السيد فاروق متمدداً على المقعد المطاول الآخر. ويتحدث مع نيلفون، وهو ينظر إلى السقف، ويتضاحكان. ومتين ينظر إلى الأسطوانة التي بيده.

قالت نيلفون: "ما أجمل هذا! إننا كأصدقاء المهجع".

كنت أقول: "ألن تصعدوا إلى الأعلى لتناموا؟" سمعتُ السيدة الكبيرة تنادي.

صعدت إلى الأعلى. استغرق تهدئة السيدة الكبيرة وجعلها تتمدد على سريرها وقتاً طويلاً. كانت تريد أن تنزل إلى الأسفل. أعطيتها دراقاً. حين أغلقت عليها الباب، ونزلت، كان السيد فاروق قد غفا، وهو يطلق شخيراً غريباً ينبعث من الأعماق، ويذكّر بالمسنين المعانين كثيراً.

همستْ نيلفون قائلة: "كم الساعة؟"

قلت: "إنها الثالثة والنصف. وهل ستنامين أنت أيضاً هنا؟"

"نعم".

صعدت إلى الأعلى. جلتُ على الغرف كلها غرفة غرفة. أخذت أغطية الأسرة، وأنزلتها. شكرتني نيلفون. وغطيت السيد فاروق.

قال متين: "أنا لا أريد". وكان ينظر إلى غلاف الأسطوانة التي بيده شارداً، وكأنه يتابع التلفاز. قال: "اطفئ النور!"

لأن نيلفون لم تقل شيئاً، أطفأت المصباح العالي المتدلي من السقف. رغم هذا كنتُ أستطيع رؤيتهم، لأن الضوء الشاحب الموجود في الخارج يتسلل عبر أباجور النافذة. كأن السيد فاروق يريد من شخيره إظهار أنه تخلى عن كل شيء. الجو غير مظلم جداً، وثمة ضوء قليل يتسلل من زاوية ما، ويسقط فوق أجساد الأخوة الثلاثة ليذكّر الإنسان بضرورة ألا يخاف. بعد ذلك، سمعت صرير جدجد كان حاداً ومقطّعاً لا يأتي من الخارج بل من مكان قريب. كأنني أريد أن أخاف، ولكنني لا أستطيع. لأنني أرى أحياناً أحدهم يتململ بشكل خفيف، وأفكّر بأنه من الجميل أن يغطي نومَ الأخوة الثلاثة الظلام والشخير المطمئن. أنت لا تنام وحدك مرتعشاً حتى لو نمت هكذا في ليلة شتوية باردة. كأن ثمة أب أو أم أو كلاهما في الأعلى أو في إحدى الغرف الجانبية يسمعانك أو ينتظرانك، فتغدو كأنك تضيع في نوم ريش الطير المطمئن وأنت تفكر بهذا. حينئذ خطر ببالي حسنٌ وفكرت به، وأعتقد أنه يرتعش لسبب ما. لماذا فعلتَ هذا؟ لماذا فعلته؟ فكرت، وفكرت أكثر، وفي أثناء نظري إلى الأجساد الحية المتململة بشكل خفيف فكرت بالحكايات، أعدتها على

نفسي مرات ومرات، وأقول لنفسي: اجلس هناك قليلاً، وبينما كنت أقول: عليّ أن أخاف، وأن أنام على القلب الدافئ للخوف، جاء صوت نيلفون:

"أما زلت هناك يا رجب؟"

"نعم يا آنسة".

"لماذا لم تنم؟"

"كنتُ على وشك أن أنام".

"هيا اذهب، ونم يا رجب. ليس فيّ شيء".

ذهبتُ، وبعد أن شربت حليباً، وأكلت قليلاً من اللبن، تمددت، ولكنني لم أنم فوراً. أتقلّب في سريري، وأفكر بالأخوة الثلاثة الذين ينامون في الغرفة نفسها في الأعلى. بعد ذلك، خطر ببالي الموت. قال السيد صلاح الدين قبل أن يموت: يا ابني، مع الأسف إنني لم أستطع الاهتمام بتعليمك، وتعليم إسماعيل. عذبكما ذلك الشخص المغفل الذي قالوا لكما إنه أبوكما بعد أن أخذوكما إلى القرية. وطبعاً فإن هذا ذنبي إلى حد ما. وقال: غضضتُ الطرف عن إرسال فاطمة لكم إلى هناك. تصرفت بضعف، ولكنني لم أُرد إغضاب فاطمة، لأنها تسدّد النفقات اللازمة للعلم. الخبز الذي تأكلانه لها، والتعذيب الذي تعانيان منه أيضاً، وما أحزنني هو قيام أولئك المغفلين في القرية بتكليس عقليكما بالمخاوف. ولكنني مع الأسف لم أعد أستطيع تعليمكما لأربيكما كإنسانين حرّين تفكران باستقلال، وتقرران. الوقت متأخر جداً. ليس متأخراً لأن الشجرة تنحني وهي غضة فقط، بل لأن إحدى رجليّ في القبر، ولم أعد أستطيع الاكتفاء بتنوير شخص أو شخصين، وتحريرهما.

هنالك ملايين المسلمين المساكين يسيرون في أقبية الظلام، وملايين العبيد المساكين المخدرين ينتظرون ضوء كتابي! آه، مع أن الوقت قصير! مع السلامة يا ابني المسكين الصامت، لأقدم لك آخر نصيحة على الأقل، اسمعني يا رجب: كن واسعاً وحراً، وآمن بنفسك وعقلك فقط، هل تفهمني؟ أنا صمتُّ، مفكراً هازاً برأسي: كلمات! اقطفْ ماس المعرفة من شجرة الجنة يا رجب، اقطف، ولا تخف. لعلك حينئذ ستتلوى وسط الآلام، ولكنك ستكون حراً. لأن الجنة الأصلية، الحقيقية في هذه الدنيا ستؤسس عندما يتحرر الجميع، وحينئذ لن تخاف من شيء. بالكلمات كنت أفكّر أنا، بالكلمات. مجموعة أصوات تزول فور انتشارها في الهواء، إنها الكلمات... نمت وأنا أفكر بالكلمات.

بعد شروق الشمس بكثير، استيقظتُ على قرع نافذتي. إنه إسماعيل. فتحت الباب فوراً. نظر أحدنا إلى الآخر نظرة ذنب وخوف. بعد ذلك، قال بصوت باك: "ألم يأتِ حسن إلى هنا يا أخي؟" قلت: "لا. ادخل يا إسماعيل". دخل إلى المطبخ. وقف كأنه يخشى من كسر شيء. صمتنا قليلاً. كأنه هذه المرة لم يخجل، وقال: "لماذا فعل هذا يا رجب؟ هل سمعت؟" لم أقل شيئاً. دخلتُ. خلعت منامتي. وبينما كنت أرتدي قميصي وبنطالي سمعته يتحدث. قال وكأنه يحدث نفسه: "نفذتُ كل مطالبه. لم يُرد العمل إجيراً عند الحلاق. قلت له: حسنٌ، ادرس. ولكنه لا يدرس أيضاً. يتجول معهم. علمت بهذا. يوجد من رآه. أخبروني. يذهب إلى (بندك) ويجمع نقوداً بالقوة من أصحاب الدكاكين". بعد ذلك، صمتَ قليلاً. اعتقدتُ أنه سيبكي. ولكنه لم يكن يبكي عندما عدت إلى المطبخ. قال متردداً: "ماذا يقول الذين في الأعلى؟ كيف حال

السيدة الصغيرة؟" قلت: "مساء الأمس كانت تقول إنها بصحة جيدة. الآن نائمة. ولكنهم لم يأخذوها إلى المستشفى. لعله لم يضربها إلى الحد الذي يتطلب مستشفى". صمتٌ قليلاً، بعد ذلك، قلت: "أنا رأيته يا إسماعيل. رأيته كيف يضربها!" شعر بالخجل وكأنه هو الذي فعل هذا. انهار على كرسيي الصغير، اعتقدتُ أنه سيبكي. جلس.

بعد قليل، عندما سمعتُ قرقعة منبعثة من الأعلى، صببت ماء الشاي، وصعدت إلى السيدة الكبيرة.

قلت: "صباح الخير. هل ستتناولين إفطارك في الأسفل، أم هنا؟" وفتحتُ أباجور نافذتها".

قالت: "هنا. نادهم، سأراهم".

قلت: "كلهم نائمون" ولكنني عندما نزلت، رأيت نيلفون قد استيقظت: "كيف حالك؟"

ارتدت ثياباً حمراء.

قالت: "أنا جيدة يا رجب. لا أعاني من شيء".

ولكن وجهها لا يقول هذا. إحدى عينيها مغلقة تماماً. وغالباً، تورمت أمكنة الجروح التي تشكلت فوقها قشرة، وصار لونها أدكن.

قلت: "ستذهبين إلى المستشفى مباشرة!"

قالت: "هل استيقظ أخي الكبير؟"

نزلت إلى الأسفل. مازال إسماعيل جالساً كما تركته. أعددت شاياً. بعد قليل، قال إسماعيل: "البارحة جاء الدرك إلى البيت. قالوا: لا تخبئه! قلتُ: لماذا سأخبئه؟ أنا سأعاقبه قبل أن تعاقبه الدولة". صمتَ، وانتظرني كي أقول شيئاً. بدا كأنه سيبكي عندما لم أقل شيئاً.

قال: "ماذا يقولون؟" أشعل سيجارة حين لم يتلق جواباً. "أين يمكنني أن أجده؟" كنتُ أقطع الخبز من أجل تحميصه. قال: "لديه أصدقاء، ويذهب إلى المقهى. فعل هذا لأنه سمع منهم. هو لا يعرف شيئاً". شعرتُ أنه ينظر إلي. كنت أقطع خبزتي. أعاد القول: "هو لا يعرف شيئاً!" قطعت خبزتي.

عندما صعدتُ إلى الأعلى، كان السيد فاروق أيضاً قد استيقظ. نيلفون تستمع إليه مبتهجة، وكان يقول لها: ها أنذا سأعطيك سرّ التاريخ".

ضحكت نيلفون مصدرةً صوتاً خفيفاً، واستمر فاروق:

"ولكن أي حلمٍ هذا؟ خفتُ، واستيقظت، ولكن ذلك لم يكن استيقاظاً. تريدين الاستيقاظ؟ ولكنك تسقطين في هاوية النوم. انظري إلى هذا الشيء المجعلك، خرج من جيبي!"

قالت نيلفون: "آآآه، طربوش!"

"نعم، طربوش ياه! كان السائحون يضعون الطرابيش على رؤوسهم وهم يتفرجون على رقص هز البطن. وأنا لا أدري ما فعلت. خرج من جيبي قبل قليل. كيف اتسع له جيبي؟"

قلت: "هل أقدّم لكم إفطاركم فوراً؟"

قالا: "نعم يا رجب".

لأنهم يريدون أن يعودوا إلى اسطنبول قبل زحام التجار. نزلت إلى المطبخ، وضعت قطع الخبز على النار. سلقت البيض. وبينما كنت أخرج لهم إفطارهم، قال إسماعيل: "لعلك تعرف أنت. لأنك تبقى هنا، ولكنك تعلم بكل شيء أكثر مني يا رجب!" فكرت قليلاً، وقلت: "أعرف بقدر

ما تعرف يا إسماعيل!" بعد ذلك، قلت: إنني رأيته يدخن سيجارة. نظر إسماعيل مندهشاً كأنه مخدوع. بعد ذلك، قال بأمل: "إلى أين سيذهب؟ في يوم ما سيظهر، ويأتي. يا لما يحدث كل يوم، وكم شخص يموت. سينسون هذا". صمتُّ قليلاً، وبعد ذلك، قال: "هل ينسون يا أخي؟" ملأت كأساً بالشاي، ووضعته أمامه، قلت: "هل تنسى أنت يا إسماعيل؟"

صعدت إلى الأعلى.

قلت: "أيتها السيدة الكبيرة، استيقظ الجميع. إنهم ينتظرونك في الأسفل. هيا انزلي، وتناولي إفطارك آخر مرة معهم".

قالت: "نادهم! لدي ما أشرحُه لهم. لا أريدهم أن يُخدعوا بكذبك".

نزلت دون أن أقول شيئاً. كنتُ أضع المائدة. استيقظ متين أيضاً. فاروق ونيلفون يتضاحكان. ويجلس متين صامتاً. عندما نزلت إلى المطبخ قال إسماعيل: "لم يمر حسن على البيت طوال ليلتين. أتعرف؟" ونظر إلي باهتمام. قلت: "لا أعرف. ألم يكن موجوداً في الليلة الماطرة أيضاً؟" قال: "لم يكن موجوداً. دلف السقف، وكاد السيل يجرف كل شيء. جلسنا طوال الليل، وانتظرنا، لم يأتِ". قلت: "لعله دخل إلى مكان ما عندما بدأ المطر، وبقي هناك". نظر باهتمام أكبر. قال: "ألم يأتِ إلى هنا؟" قلت: "لم يأتِ أبداً يا إسماعيل". ولكنني فكرت بعد ذلك، وخطر ببالي الموقد المفتوح. أخرجتُ الشاي والخبز والبيض إلى الأعلى. خطر ببالي.

"هل تريدين حليباً يا آنسة نيلفون؟"

قالت: "لا أريد".

لو أنني غليت الحليب، وأخذتُه إلى نيلفون، ووضعته أمامها دون أن أسألها. نزلت إلى المطبخ. قلت: "هيا يا إسماعيل، اشرب شايك". وضعتُ أمامه إفطاراً، وقطعة خبز. قال: "هل أخبرته يا رجب؟" لم أُجبه. خجل قليلاً، وبدأ يأكل بصمت، وكأنه جاء من أجل أن يعتذر. أخرجت صينية السيدة الكبيرة إلى الأعلى.

قالت السيدة الكبيرة: "لماذا لا يأتون إلى الأعلى؟ ألم تقل لهم إنني أطلبهم؟"

"قلت لهم أيتها السيدة الكبيرة.. الآن يتناولون إفطارهم. طبعاً سيأتون لتقبيل يدك قبل ذهابهم".

فجأة رفعت رأسها عن المخدة بسرعة ماكرة. قالت: "ماذا حكيت لهم الليلة الماضية. قل لي فوراً، لا أريد كذباً".

"ماذا تريدنني أن أقول، لا أفهم؟"

لم تجب. بدأت تشمئز. تركتُ صينيتها، ونزلت.

قال السيد فاروق: "لو أنني وجدت دفتري!"

"أين رأيته آخر مرة؟"

"في السيارة. بعد ذلك، أخذ متين السيارة، ولكنه لم يره".

قالت نيلفون: "ألم تره؟"

نظرا إلى متين معاً، ولكنه لم يجب. كان يجلس مهزوماً كطفل مضروب لم يُسمح له بالبكاء، وفي يده قطعة خبز ولكنه لا يعرف أنها قطعة خبز. نظر شارداً مدة طويلة. بعد هذا، ضغط على نفسه كشبحٍ خرفان ليتذكر، فدهن قطعة الخبز التي بيده بالسمن والمعقود، ثم قضمها متفائلاً، كأن ما يأكله مثل ذاك الشيء الذي كان يأكله قديماً، وليتذكّر

ذلك الزمن القديم والجميل، وليبدأ من جديد. وللحظة بدا كأنه انفعل، ولكنه نسي بعد ذلك، ونسي اللقمة التي في فمه. وقف هكذا كأنّ حصاةً بين فكيه. أنا كنت أنظر، وأفكر.

صرخت نيلفون: "متين! نسألك أنت".

"لم أر دفتركما".

نزلتُ إلى الأسفل. أشعلَ إسماعيل سيجارة أخرى. أنا أيضاً جلستُ إلى الإفطار متناولاً قطع الخبز التي تركتها. لم نتحدث بل نتطلع عبر الباب المفتوح إلى الأرض التي تتقافز عليها العصافير في الخارج. أشعة الشمس تسقط إلى الداخل فوق أيدينا اليائسة. بعد ذلك، قلت لنفسي، لأحدثه، لأنني اعتقدتُ أنه سيبكي. قلت: "متى سحب اليانصيب يا إسماعيل؟" "كان مساء البارحة". بعد ذلك، سمعنا دوياً طويلاً: مرّت دراجة نوزت. قال إسماعيل: "لأنهض أنا". قلت: "إلى أين. نتحدث بعد ذهابِ هؤلاء". جلس. صعدت إلى الأعلى.

أنهى السيد فاروق إفطاره. وهو الآن يدخن سيجارة. قال: "ستتسامح مع الجدة بعد كل هذا يا رجب. ونحن سنتصل بك كل فترة. وسنأتي مرة أخرى قبل نهاية الصيف بالتأكيد".

"نحن بالانتظار".

"إذا حدث شيء - اللهم ارحمنا - اتصل بنا فوراً، وإذا احتجتَ شيئاً أيضاً.. ولكنك لم تعتد على الهاتف، أليس كذلك؟"

قلت: "بدايةً ستذهبون إلى المستشفى، أليس كذلك؟ لا ترحلوا فوراً، لأقدم لكم قدحاً آخر من الشاي".

"حسنٌ".

نزلت إلى الأسفل. صببت الشاي. كان فاروق ونيلفون يتحادثان.

قالت نيلفون: "ذكرتها. كما حدثتني عن تشبيهك رأسك بالجوزة، وسيرى ديدان التاريخ من يقطفه، ويكسره، وينظر إلى داخله، وهي بين تلافيفه. وقلت لك إن هذا عبث. ولكنني أجد قصصك هذه مسلية".

"صحيح. كلها قصص عبثية مسلية".

قالت نيلفون: "لا، ليست كذلك. لم تخطر هذه الأمور بعقلي دون سبب".

"حروب، سلب، جرائم، باشاوات، اعتداءات على أعراض.."

"لا توجد واحدة دون سبب"

"احتيالات، أوبئة، تجار، شجارات حياة.."

"أنت تعرف أيضاً أن لها كلها أسبابها".

قال فاروق: "هل أعرف؟" صمت، ثم تنهّد: "حكايات مسلية وعبثية، آه!"

قالت نيلفون: "تتخبّط معدتي".

قال متين: "كفى، لنذهب".

قال فاروق: "لماذا لا تبقى أنت هنا يا متين؟ تسبح في البحر. ماذا ستفعل في اسطنبول؟"

قال متين: "عليّ أن أكسب نقوداً، الساعة بمائتين وخمسين ليرة في بيت خالتي. سأعطي دروساً طوال الصيف. فهمتم؟"

قال فاروق: "أنا خفت منك!"

نزلت إلى المطبخ. كنت أفكر بما يمكن أن يفيد معدة نيلفون. نهض إسماعيل فجأة. قال: "أنا ذاهب. سيتجول حسن، ولكنه سيعود إلى

البيت في النهاية، أليس كذلك يا رجب؟" فكرت، وقلت: "يعود. إلى أين سيذهب. ولكن، اجلس أنت يا إسماعيل". لم يجلس. قال: "ماذا يقولون في الأعلى؟ هل أصعد وأعتذر منهم؟" ارتبكتُ فجأة. فكرت. كنت أقول: "اجلس يا إسماعيل، لا تذهب!" فسمعتُ ذلك الصوت من الأعلى: عكاز السيدة الكبيرة يضرب على الأرض. هل تذكرت؟ توقفنا لحظة، ورفعنا رأسينا، ونظرنا إلى الأعلى. بعد ذلك، جلس إسماعيل. ضُرب العكاز عدة مرات وكأنه يضرب على رأس إسماعيل. بعد ذلك، سمعنا ذلك الصوت الرفيع العجوز الذي لا يملُّ أبداً.

"رجب، ماذا يحدث في الأسفل يا رجل؟"

صعدتُ إلى الأعلى.

قلت: "لم يحدث شيئاً أيتها السيدة الكبيرة". دخلتُ إلى غرفتها، ومددتها. وأخبرتها بأنهم سيأتون الآن. كنت أفكّر بإنزال حقائبهم إلى الأسفل، إلى السيارة. في النهاية، أخذتُ حقيبة نيلفون، وأنزلتها ببطء. في أثناء إنزالي لها اعتقدتُ أن نيلفون ستقول لي: لماذا أنزلتها يا رجب؟ ولكنني أدركت أنني نسيت تخبط معدتها فور رؤيتها متمددة على المقعد المطاول. كان كأمر نسيته، ولا أريد نسيانه أبداً: لأنني في اللحظة ذاتها رأيتها تتقيأ. أنا توقفت والحقيبة بيدي. وكان فاروق ومتين ينظران مندهشين. فجأة أدارت نيلفون رأسها دون أن تصدر أي صوت: لسبب ما تذكرت البيض حين رأيت ما خرج من فمها. حين كانت نيلفون تتقيأ، نزلت راكضاً إلى المطبخ لأجد ما يفيد معدتها. اعتقدتُ كمغفل أن السبب عو عدم تقديمي الحليب لها هذا الصباح. ولكنني لم أشتر حليباً. نظرت بخبل إلى إسماعيل الذي قال كلاماً ما. بعد ذلك،

هرعت متذكراً شيئاً. حين صعدت من جديد إلى الأعلى، كانت نيلفون قد ماتت. هم لم يقولوا إنها ماتت! أدركت هذا حين رأيتها. ولكنني لم أذكر كلمة الموت لأحد. نظرنا شاعرين بالذنب إلى وجهها الأخضر، وإلى فمها المظلم والمرتاح، وكأنهما وجه وفم فتاة شابة ترتاح، ولم نكن صائبي القرار بإتعابه. بعد عشر دقائق، ذكرت الصيدلانية زوجة السيد كمال كلمة الموت بعد أن جلبها متين بالسيارة. السبب هو نزيف دماغي بحسب قولها. رغم هذا نظرنا إلى نيلفون مطولاً لعلها تنهض وتمشي.

-٣١-

رفعتُ القنفذ الغبي من علبة الطلاء، وانتظرت قليلاً بصمت كي يُخرج أنفه الصغير والعبثي من بين الأشواك لألهو قليلاً. ولكنه لم يخرجه. فهو متيقظ غالباً. انتظرت قليلاً أيضاً، وبعد ذلك، مللت، وأسكت القنفذ الغبي من إحدى أشواكه بانتباه، ورفعته في الهواء. هل تتألم الآن؟ حين تركته فجأة، (طاق) سقط على الأرض، وانقلب. ما أغبى هذا القنفذ المسكين. أشفقت عليك، وشعرت بالاشمئزاز منك، وسئمت.

الساعة تشير إلى السابعة والنصف. أختبئ هنا طيلة يوم كامل. منذ ست ساعات أسلّي نفسي بهذا القنفذ الذي وجدته بعد منتصف الليل. ما أكثر هذه القنافذ قديماً هنا، وفي الأسفل، وعندنا هناك. كانت تدخل إلى حديقتنا ليلاً. كنا - أمي وأنا - ندركُ من صوت الخشخشة الذي تصدره أنها جاءت. وعندما نُشعل عود ثقاب أمام عينيها في الظلام، ترتبك الغبية، وتقف! تقلب فوقها سطلاً، وتأسرها حتى الصباح. ذهبتْ كلها، ولم يبق سوى هذا: أيها القنفذ الأخير المرتبك، مللت منك. عندما كنت أشعل سيجارتي، اشتهيت إشعال حريق، ليس إشعال القنفذ فقط، بل هذا كله، وبساتين الكرز، وآخر أشجار الزيتون كلها. سيكون وداعاً جيداً لكم جميعاً. ولكنني فكرت بأن هذا لا يستحق مجرد التعب

لإشعاله. قلبت القنفذ على ظهره بقدمي، افعل ما تفعله بعد ذلك. أنا ذاهب الآن وفي فمي سيجارة تنسيني جوعي.

قلتُ، لأجمع أغراضي: علبة سجائر بقي فيها سبعُ سجائر، مشطان، كبريت. وتركتُ علبة الدهان بجانب القنفذ الغبي. أخذت دفتر التاريخ العائد للسيد فاروق لنر ما إذا كان سيفيد بشيء، لأنهم سيشكّون أقل بمن يحمل دفتراً، هذا طبعاً إن اهتموا بالأمر، ولاحقوني. قلت: لألقِ نظرة أخيرة إلى هذا المكان قبل ذهابي، إلى مكاني القديم هذا بين شجرتي اللوز والتين. كنت آتي إلى هنا في صغري عندما أتضايق في البيت، ومنهم جميعاً.

بعد أن عبرتُ الطريق الضيق المتعرج، قلت: لألق هذه المرة أيضاً نظرة أخيرة على بيتنا والحي السفلي. حسنٌ يا أبي، وداعاً. عندما يحلّ ذلك اليوم، وأعود إلى هنا منتصراً، ستكون قد علمت هذا من الجرائد، وممن لا أعرف، وحينذاك ستدرك خطأ تصرفك معي. أنا لست ذاك الذي سيكون مجرّد حلاق بسيط. أستودعك الله يا أمي، لعلني أخلصك أولاً من بائع اليانصيب الشحيح هذا. بعد ذلك، نظرت إلى أسطحة وجدران بيوت الرذيلة تلك الغنية والخاوية من المعنى. بيتكم لا يُرى من هنا يا نيلفون. لعلكم أبلغتم الشرطة منذ زمن طويل، أليس كذلك؟ استودعكم الله.

لم أتوقف في المقبرة. عبرتُ من هناك مصادفة فقط. وبينما كنت أقرأ الشواهد شارداً، كُتب هناك (غول وضوغان وصلاح الدين داروين أوغلو)، والفاتحة لأرواحهم. قرأتُها. لسبب ما شعرت أنني وحيد جداً، ومذنب ويائس، فسرتُ مسرعاً خشية أن أبكي.

لم أنزل من الشارع الإسفلتي للمتسابقين إلى اسطنبول ليخوزق أحدهم الآخر صباح الإثنين خشية أن يراني أحد الأغبياء، فيعرفني، ويبلغ عني، ودخلتُ إلى البساتين والحقول. ومع اقترابي تقفز الغربان الملتجئة بكثافة إلى أشجار الكرز هاربةً وشاعرة بالذنب. هل تعرف يا أبي أن أتاتورك نفسه طارد الغربان مع أخته في زمن ما؟ في منتصف الليلة الماضية، استجمعتُ قواي كلها، وذهبتُ، وألقيت نظرة عبر النافذة: كانت المصابيح كلها منارة، ولا أحد يقول: اطفئوها حرام. وأبي وضع رأسه بين يديه، ولا يظهر من بعيد إن كان يبكي أو يحدّث نفسه. فكرتُ أن هذا يعني أن أحداً ما أخبره، ومن المحتمل أن يكون الدرك قد أتوا. أشفقت على أبي عندما تجلت صورته أمامي بهذه الحال، حتى إنني لسبب ما شعرت بأنني سأشعر بالذنب تجاهه.

ولأن مجموعة من العاطلين المتجولين الفضوليين لما يفعله هذا وذاك تجمعوا، وينظرون إلى العابرين هناك في الحي السفلي، لم أمرّ من هناك. خرجتُ عن الطريق الإسفلتي حيث انقطع متين بسيارته في الليلة قبل الماضية، ونزلتُ إلى الأسفل عبر البساتين. عندما نزلت إلى سكة القطار، توجّهت إلى المحطة ماشياً على طول الثانوية الزراعية. لو كان الأمر لأبي، ولو لم يسألونا في امتحان القبول عن أشياء لا يعلموننا إياها، لأدخلني أبي إلى هذه المدرسة، ولتخرجت في السنة الماضية بستانياً بشهادة. يقول أبي: عندما يحصل المرء على شهادة يغدو موظفاً، وليس بستانياً. نعم، موظف لأنه يضع ربطة عنق، ولكنني أرى أنه بستاني يضع ربطة عنق فقط. وهؤلاء يداومون حتى في الصيف. يمكن أن يقرع الجرس بعد قليل، واركضْ، وتعلق بثياب أستاذك ليريك في المختبر أن

للبندورة بذوراً. مساكين، وجوههم محجبة، جائعون للنساء! كلما رأيتُ هذه الأمور، أسرّ كثيراً لظهور تلك الفتاة أمامي. لولا أن تلك الفتاة تسببت بسقوط كل هذه الأمور على رأسي، هنالك احتمال أن أرضى بأن أكون بستانياً بربطة عنق، أو حلاقاً يمتلك دكاناً. وطبعاً ستحتمل الكلام الجارح ليس من أبيك فقط، بل من الحلاق أيضاً على مدى عشر سنوات لتنتقل من أجير إلى معلم. ستنتظرون كثيراً.

هنالك عمال عند مصنع الكابلات. إنهم ينتظرون أمام الحاجز القابل للرفع والإنزال، والمصبوغ باللونين الأحمر والأبيض كذاك الذي يوضع لمنع السيارات من العبور عند مرور القطار. ولكنهم لا يدخلون من ذلك المدخل، بل من الباب الصغير المجاور، وبتعقّل. وفي أثناء ادخالهم البطاقات التي بأيديهم في مكان هناك من غرفة الحارس، ينظر الحراس إلى العمال كالسجانين. والمصنع محاط من جوانبه كلها بالأسلاك الشائكة. نعم، المكان المدعو مصنعاً هو في الحقيقة سجن عصري. ومن أجل خاطر الآلات يستهلك العبيد المساكين عمرهم من الثامنة صباحاً، حتى الخامسة مساءً. إذا وجد لي أبي التماساً، سيقرر فوراً أنني لن أستطيع الدراسة، ويدخلني بين هؤلاء العمال. وسيفرح عندما يفكر بأنني أقضي عمري وراء الآلات في هذا السجن، ويقول: أنقذتُ حياة ابني. وقد كتبت جماعتنا على البراميل الفارغة عند مستودع السجن المدعو مصنعاً ما سيفعلونه بالشيوعيين.

بعد ذلك، تفرجتُ على حمل ترفعه رافعة من سفينة ترسو على رصيف المصنع. ما أكبر الحمل! وما أغرب حركته في الجو! ومن يعلم إلى أين ستذهب هذه السفينة بعد أن تفرغ حملها! توقفت، وتفرجت

قليلاً على السفينة. ولكنني فيما بعد، عندما رأيت العمال القادمين من الطرف المقابل، لم أرد أن يعتقدونني مجرّد عاطل متسكع. يجب ألا يعتقد هؤلاء أنهم أفضل مني لمجرد أنهم وجدوا التماساً، وصاروا أصحاب عمل. وفي أثناء مروري بجانبهم، نظرت: حسنٌ، ليس بيننا فرق. هم أكبر مني سناً بقليل، وألبستهم نظيفة. لن أبدو عاطلاً لولا طين حذائي المطاطي.

كنت قد نسيت الصنبور الذي هنا. بداية، شربت جيداً. أثر سلباً على بطني الجائعة، ولكن هذا جيد أيضاً. بعدئذ، مسحت طين حذائي. وبينما كنت أقول: ليخرج طين هذا المكان الملعون الأحمر من قدمي، ليخرج قذر الماضي المقرف، جاء أحدهم.

قال: "دعني أشرب قليلاً يا ابن البلد!"

ابتعدتُ. يجب أن يكون عاملاً. يرتدي سترة في هذا الحرّ. خلعها، وطواها بانتباه، ووضعها جانباً. لم يشرب، بل مخّط. يغدو اسم التمخيط شرباً من أجل انتزاع دور الآخرين. ترى هل لدى هذا شهادة دراسة متوسطة؟ في جيب سترته محفظة. إنها ظاهرة. مازال يمخط. غضبت. أخذت محفظته من جيب سترته فجأة، حتى إنني وضعتها في جيبي الخلفي. لم يكن ينظر إلي. لم يرني، لأنه ما زال يمخط. بعد قليل، تظاهر بأنه يشرب كيلا يقع في موقف معيب أمامي.

قلت له: "هيا يا ابن البلد، كفى! أنا أيضاً لدي عمل".

انسحب. بعد ذلك، قال لاهثاً: "سلمت". أخذ سترته، وارتداها. ذهب باتجاه المصنع في أثناء غسل حذائي. لم ألقِ مجرد نظرة إليه. عندما نظفت طين حذائي المطاطي، كان قد غاب عن النظر. وأنا مشيت

مشرعاً في الاتجاه الآخر نحو محطة القطار. بدأت الجداجد تصرّ نتيجة الحر. جاء قطار من خلفي. داخله الذين يحاولون اللحاق بأعمالهم يوم الإثنين، واصطفوا كأنهم سمك، وعبروا ذاهبين وهم ينظرون إلي. فوّتُّ هذا. سأنتظر القطار الآخر.

صعدت إلى أرض المحطة البيتونية، وبينما كنت أمشي شارداً والدفتر بيدي كالجميع، وكشخص لديه عمل، لم ألقِ حتى مجرد نظرة إلى الدركيين. وذهبت مباشرة إلى دكان الشطائر.

قلت: "ثلاث شطائر بجبنة القشقوان".

امتدت يدٌ إلى الواجهة الزجاجية، وبداية أدخلتْ قطع الجبن البارزة إلى داخل الخبز. يُخرجون الجبن ويضعونه في الواجهة لتعتقد أن الخبز مليء به! تعتقدون أننا صرنا رجالاً بمعنى الكلمة لاعتقادكم بأنكم نبيهون، وأنكم أنبه مني. حسن، ماذا يحدث لو لم أكن ذلك الغبي الذي تعتقدون؟ ولو أنني أفشلتُ ألاعيبكم كلها. خطر هذا ببالي، فقلت: "اعطني شفرة، وأصبع لاصق جاف". وأخرجت مائة ليرة، ووضعتها على المرمر في الدكان.

أخذت ما أعطانيه صاحب الدكان مع بقية النقود، وذهبت. لم أنظر إلى الدرك أيضاً. تقع دورات المياه في هذه المحطات عند آخر الرصيف. تفوح من داخلها رائحة نتنة. بعد أن أغلقت الباب من الداخل بالمزلاج، أخرجت المحفظة من جيبي الخلفي. نظرت، وإذ هنالك قطعة ألف ليرة، وقصعتان ذات الخمسمائة، ومع الفكّة يغدو مع عاملنا النبيه ألفان ومائة وخمس وعشرون ليرة. وجدتُ في جيب المحفظة الآخر هوية كما توقعت. إنها بطاقات التأمينات الاجتماعية. اسمه (إبراهيم)، وكنيته (شنر)،

واسم الأب (فوزي)، واسم الأمر (كامر)، من (سورمانة) في (طرابظون) .. إلخ. حسنٌ. قرأتها كلها عدة مرات، وحفظتها. بعد ذلك، أخرجت بطاقة الطالب من جيبي، وأسندتها إلى الجدار، وقصصت صورتي بالشفرة بعناية، وأخرجتها. سلخت المقوى الذي خلف الصورة بطرف ظفري. بعد ذلك، نزعتُ صورة إبراهيم شنر عن بطاقة التأمينات. وعندما لصقت باللاصق الجاف مكانها صورتي، صرت إبراهيم شنر. الأمر سهل إلى هذه الدرجة. وضعت بطاقة إبراهيم شنر للتأمينات في محفظتي، ومحفظتي في جيبي، ثم خرجت من دورة المياه، وذهبت إلى دكان الشطائر.

شطائري جاهزة. أكلت مستمتعاً لأنه لم يدخل معدتي غير الكرز وبندورة الحقل طوال يوم كامل. شربت كأس لبن رائب أيضاً. ونظرت لأرى ما سآكل. النقود كثيرة في جيبي. يوجد بسكويت وشيكولا، ولكنني لم أعجب بشيء. بعد ذلك، طلبت شطيرة أخرى. وقلت له سخنها جيداً. لم يقل صاحب الدكان شيئاً. كتفي مسنود إلى مكان العرض في الدكان، وأنا ملتفتٌ بشكل طفيف نحو المحطة، ومرتاح جداً، ولا أهتم بشيء أبداً. التفتُّ مرة واحدة فقط، ونظرت باتجاه الصنبور، لأرى ما إذا كان أحدهم قادماً من طريق السكة الحديدة. لا يوجد. يعتقد عاملنا النبيه أنه ذكي جداً، ولكنه ما زال غير منتبه إلى أنه فقد محفظته. لعله انتبه، ولكنه لا يستطيع التفكير بأنني أنا الذي أخذتُها. عندما أعطاني صاحب الدكان الشطيرة، طلبت جريدة أيضاً.

"حريّت".

أخذتها، وذهبت. وضعوا هناك مقعداً. جلست دون أن أعير انتباهاً لأحد. آكل شطيرتي، وأقرأ.

قبل كل شيء، نظرت لأعرف كم شخصاً مات بالأمس. في (قارص) و(إزمير) و(أنطاكيا) و(بلغاط - أنقرة).. قفزتُ فقرة اسطنبول، وتركتها إلى الأخير. راح منا اثنا عشر شخصاً، ومنهم ستة عشر. فيما بعد، نظرت إلى الذين في اسطنبول، لا يوجد، حتى إنه لا وجود لاسم (إزميت). بعد ذلك، نظرت منفعلاً إلى المكان الذي يجب أن أنظر إليه أصلاً. قرأت بسرعة. ولكن نيلفون داروين أوغلو غير موجودة بين الجرحى. بعد ذلك، أعدت قراءة ذلك كله. نعم غير موجودة. فكرت بإمكانية عدم ورود هذا في هذه الجريدة. خطر هذا ببالي، فذهبت، واشتريت جريدة (مليّيت). لم تكن موجودة أيضاً بين الجرحي. وهم يذكرون أسماء الجرحى، ولكنهم لا يذكرون كثيراً أسماء الذين جرحوهم. ليس مهماً، لو كنت تواقاً لرؤية اسمي في الجرائد لغدوت قواداً أو لاعب كرة قدم.

فيما بعد، طويت الجريدتين شارداً، ودخلت. مشيتُ نحو شباك التذاكر. أعرف إلى أين سأذهب فوراً.

قلت: "واحدة إلى أسكودار".

قال قاطع التذاكر المغفّل: "لا يذهب القطار إلى أسكودار. آخر موقف هو حيدر باشا".

قلت: "نعرف، نعرف. اعطني تذكرة إلى حيدر باشا".

لم يعطني أيضاً. الله يبعث لك البلاء.

قال هذه المرّة: "عادي أم طالب".

قلت: "لم أعد طالباً. اسمي ابراهيم شنر".

قال: "ما علاقتي باسمك؟" ولكنه عندما رأى وجهي، خاف على الأغلب، فصمت، وأعطاني التذكرة.

توترت أعصابي. أنا لا أخاف من أحد. خرجت، ونظرت. ليس هنالك قادم أو ذاهب عند طرف السكة الحديدية. جلس نبهاء آخرون على المقعد الذي كنتُ جالساً عليه قبل قليل. كنت أفكر بالذهاب إليهم، وإجبارهم على النهوض من هناك، والقول لهم: أنا كنت جالساً هنا قبل قليل، ولكن الأمر لا يستحق العناء. وممكن أن تجد منتظري القطار كلهم يتوحدون ضدك. في أثناء بحثي عن مكان للجلوس، خفت كثيراً فجأة: الدركيان ينظران إلي.

قال أحد الدركيين: "معك ساعة يا ابن البلد؟"

قلت: "أنا؟ معي ساعة".

"كم؟"

قلت: "الساعة؟ الثامنة وخمس دقائق".

لم يقولا شيئاً. تحدثا فيما بينهما وذهبا. أنا أيضاً واصلت طريقي، ولكن إلى أين سأذهب؟ المهم، هناك مقعد فارغ. ذهبتُ، وجلستُ. بعد ذلك، أشعلتُ سيجارتي، وفتحت جريدتي، وبدأت أقرأ شارداً كما يفعل الناس الذين يذهبون إلى أعمالهم صباحاً. بعد أن أنهيت أخبار البلد، قرأت الأخبار الخارجية كالرجال المهمين أصحاب المسؤوليات والزجاجات والأولاد. فكرت بإمكانية أن يفعل بريجنيف وكارتر كل شيء إذا كانا قد اتفقا سراً على اقتسام تركيا. بعد ذلك، فكرت باحتمال أن يكون الباب قد أرسلهما إلى تركيا، وفي أثناء ذلك، خفت عندما جلس أحدهم بجانبي.

نظرت بطرف عيني قبل أن أُنزل جريدتي. له يدان ضخمتان مجعدتان وأصابع غليظة. يبدو متعباً داخل بنطال أقدم من بنطالي.

نظرتُ إلى وجهه، وفهمت: عامل مسكين متقدم بالسن مستهلك حتى الجفاف. أشفقت عليه. إذا لم تمتْ بعد عدة سنوات، وتقاعدت، ستكون حياتك كلها قد ذهبت سدى. ولكنه شارد، ولا يبدو متوتراً. ينظر شارداً إلى المنتظرين عند الطرف الآخر من الطريق، ويكاد يكون مسروراً. حينئذ فكرتُ فيما إذا كان ثمة شيء في عقله. لعله اتفق معهم، لعل المنتظرين في المحطة كلهم يلعبون لعبة علي. ارتعشتُ. ولكن العامل المسن تمطى بشكل فهمت منه أنه مجرد أحمق. لماذا أخاف أنا؟ ليخافوا هم مني! ارتحت حين خطر هذا ببالي.

حينئذ خطر ببالي إمكانية أن أحكي له كل شيء، ولعله يعرف أبي من مكان ما. أبي يتجول كثيراً. نعم، أنا ابن ذلك الأعرج بائع اليانصيب، والآن أنا ذاهب إلى اسطنبول، إلى أسكودار. يمكنني أن أحكي له عن عقيدة نيلفون، وعقيدة شبابنا. انظر لم تكتب الجريدة التي بيدي عني حالياً. ولكن، أتعرف؟ يبدو لي أحياناً أن كل هذه الأمور تحدث لنا بسبب الذين يريدون أن يلعبوا لعبة علينا. ولكنني سأفعل شيئاً في أحد الأيام، أجعل تلك الألاعيب تبوء بالفشل. نعم، الآن لا أعرف ما سأفعله، ولكنني أعرف أنني سأدهشكم، هل تفهم؟ وحينئذ ستكتب هذه الجريدة التي بيدي، وسيفهم المغفلون منتظرو القطار السعداء بوجود عمل لديهم يذهبون إليه كل صباح، ولا علم لهم بشيء في العالم. سيرتبكون قليلاً، حتى إنهم سيخافون مني، وسيقولون لأنفسهم: هذا يعني أننا لا نعرف، وكل ما نعلمه لا جدوى منه وغير منتبهين. حين يحلّ ذلك اليوم، ليست الجرائد فقط، بل التلفزات أيضاً ستتحدث عني. سيفهمون. ستفهمون كلكم.

شـردتُ. القطار قـادم. طويت الجـريدة التي بيـدي، ونهـضت على قدمي براحـة. بعـد ذلك، ألقـيتُ نظرة على دفـتـر التاريخ العـائد لفاروق المليء بكتابتـه، وقرأتُ قليـلا! هراء! التـاريخ من أجل العـبيـد. والقـصص من أجل المخـدرين، والحكايات من أجل الأولاد المخـبـولين. التـاريخ من أجل المغـفلين والمسـاكين والخوافين! لم أمـزّق الدفـتـر. رمـيـتُـه في قـعـر صـفيـحة القـمامة الموضـوعـة بجانب المقعد. بعد ذلك، رميت سيـجارتي على الأرض لا مـبـالياً كـالناس الذين يفـعلون شيـئاً، ولا يفكرون فـيـما يفـعلون، كـالجميع، وعـفستُ عـقبـها بقدمي دون تفكير مـثلكم. فُـتـحت أبواب القاطرات: مئات الوجوه تنظر إليّ من القاطرة: يذهبون إلى العـمل صباحاً، ويعـودون من العـمل مسـاء. يذهبون إلى العـمل صـباحاً، ويعـودون من العمل مسـاءً. مساكين، لا يعرفون، لا يعـرفون! سيتعلمـون! سأعلمهم ولكن ليس الآن. الآن، حسنٌ، أنا أيضاً مـثلكم صاحب عمل، وأذهب إلى عـملي صـبـاحـاً، مـثلكـم كلكم، انظروا، أنا أركبُ القطار المزدحم، وأجلس بينكم.

داخل القطار حارٌ ورطب بحـرارة الناس الذين يغلون فـيـهـا. خـافـوا مني، يجب أن تخافوا مني بعد الآن!

-٣٢-

تمددتُ على سريري أنتظر. رأسي مرخى على المخدة، أنتظرهم أن يأتوا، ويقبلوا يدي. بعد قليل، سيقبلون يدي، ويتحدثون، ويستمعون إلي. فجأة دهشت: انقطع الضجيج المنبعث من الطابق السفلي فجأة بشكل تام! لا أسمع وقع الأقدام المتنقل من غرفة إلى غرفة! ولا أسمع قرقعة إغلاق الأبواب وفتح النوافذ، ولا أسمع أحاديثهم المتردد صداها على الدرج والسقوف، وأخاف.

نهضتُ من السرير. تناولت عكازي، وضربت به الأرض عدة مرات، ولكن القزم الماكر لا يبالي. بعد أن قرعت الأرض بعكازي عدة مرات من جديد، وخرجت من غرفتي ببطء لعله يخجل من الآخرين فلا يتصرف بشكل غير مبال، بدأت من جديد:

"رجب، اصعد إلى الأعلى بسرعة يا رجب".

ليس ثمة صوت في الأسفل أبداً.

ما أغرب هذا الصمت وأخوفه. عدت إلى غرفتي بسرعة. كانت رجلاي باردتين. ذهبتُ إلى النافذة، ودفعت الأباجور، ونظرت إلى الأسفل: ثمة شخص يهرع منهمكاً إلى السيارة. عرفته. إنه متين. ركب السيارة، ويا إلهي! تركني مع أفكار في غاية التعقيد. نظرت من

النافذة إلى الأسفل شاردة بأفكار سيئة ومخاوف، ولكن هذا لم يستمر طويلاً. بعد قليل، جاء متين مسرعاً جداً كما ذهب، وأدهشني. خرجت امرأة من السيارة كانت مع متين، ودخلا معاً: عرفتُ تلك المرأة عندما رأيت إشاربها الطويل والحقيبة في يدها: السيدة الصيدلانية. عندما يقولون إنني مريضة، كانت تأتي حاملة حقيبتها الضخمة المناسبة لرجل أكثر من امرأة، وتجاملني بكلامها مبتسمة من أجل أن تحببني بنفسها، لتغرز إبرة السم في جسدي براحة: انظري يا سيدة فاطمة، حرارتك مرتفعة، أنتِ تتعبين قلبك دون مبرر، لأعطيك إبرة بنسلين كي ترتاحي. لماذا تترددين؟ أنتِ زوجة طبيب. انظري، الجميع هنا يريدون الأفضل لك. كنتُ أشكّ في عبارتها هذه، وفي النهاية، عندما أبكي قليلاً يتركونني مع حرارتي، ويغربون. حينئذ كنت أفكر: انتبهي يا فاطمة، إنهم يريدون تسميم جسدك لأنهم لم يستطيعوا تسميم عقلك.

كنتُ منتبهة، وانتظر خائفة. ولكن شيئاً لم يحدث. وقع الأقدام الذي أنتظره لم ينبعث بأي شكل، والصمت القادم من الأسفل لا يريم. بعد أن انتظرت قليلاً، سمعت قرقعة أمام باب المطبخ، وهرعت إلى نافذتي من جديد. الصيدلانية تعود حاملة حقيبتها وحدها هذه المرة: لهذه المرأة مشية عجيبة في الحديقة، فهي شابة وحيوية. لحظة شرودي بالنظر إليها، أثارت قلقي: توقفت فجأة قبل وصولها إلى باب الحديقة بعدة خطوات. وضعت الحقيبة التي بيدها على الأرض، وأخرجت شيئاً منها على عجل. مسحت به أنفها، وبدأت تبكي. فجأة، أشفقت على تلك المرأة الجميلة. قولي، ماذا فعلوا لك؟ احكي لي! ولكنها استجمعت قواها فوراً، وبعد أن لامست عينيها بمنديلها للمرة الأخيرة، حملت

حقيبتها من جديد، وذهبت. لحظة خروجها من باب الحديقة، التفتت، وألقت نظرة إلى البيت، ولكنها لم ترني.

توقفت عند نافذتي بقلق، وتجمدت. بعدئذ، غضبت منهم عندما صار القلق غير محتمل. اذهبوا بعد هذا، اذهبوا! اخرجوا من أفكاري، اتركوني وحدي! ولكنهم لا يأتون حتى الآن، ولا تُسمع تكة من الأسفل. سرت إلى سريري، وفكرت: سيأتون بعد قليل، وبعد أن يصعدوا الدرج مصدرين ضجيجاً، سيدخل فاروق ونيلفون ومتين إلى غرفتي، وسيغنون على يدي، وحينئذ سأفكر مطمئنة وغاضبة وغيورة: ما أغرب شعر الرأس المنحني على يدي! حينئذ سيقولون: نحن ذاهبون يا جدة، نحن ذاهبون، ولكننا سنأتي من جديد. وجدناك في وضع جيد يا جدة، أنتِ جيدة، انتبهي إلى نفسك أكثر، ولا تقلقي علينا. نحن ذاهبون. بعد ذلك، سيخيم الصمت، وسأراهم لحظة ينظرون إلي بانتباه: بانتباه ممزوج بالمحبة والشفقة والغرابة. حينئذ سيفكرون بموتي، وسأدرك أنهم يجدون الموت مناسباً لي، ولعلني أحاول ممازحتهم لأنني أخشى من إثارة شفقتهم علي. وإذا لم يُغضبوني بقول: تفهمي رجباً يا جدة، سأقول تلك الممازحة: هل تعرفون طعم هذا العكاز؟ وسأقول: لماذا لا ترتدون بنطالاتكم القصيرة، ولعلني أقول أيضاً: سأمسككم من آذانكم، وأديركم نحو الجدار، ولعلني أيضاً... ولكنني أعرف أن هذه الكلمات لن تجعلهم يبتسمون ولو قليلاً، وستؤدي إلى تذكيرهم بكلمات الوداع الميتة والعبثية. وبعد أن يصمتوا قليلاً، سيسألون:

"بعد قليل سنذهب يا جدة، على من تريدين أن نسلّم لك في اسطنبول؟"

سأدهش أنا كأنني غير متوقعة هذا السؤال. بعد ذلك سأفكر باسطنبول. ما تركتُه قبل سبعين عاماً في اسطنبول.. ولكنني، آه، لن أخدع مع الأسف، فأنا أعرف: أعرف أنكم تسكنون في ذلك المكان الذي يغرق حتى أنفه بالحرام كما أراد صلاح الدين، وكتب في موسوعته. ولكنني أتوق أحياناً إلى ما أتذكره في ليالي الشتاء الباردة، عندما لا تدفئ قلبي المدفأة التي لم يشعلها القزم جيداً، أتمنى أن أكون بينهم، وأريد أن أكون في غرفة منارة جيداً، ودافئة، ومرحة، وأغوص في خيالاتها، ولكنني، لا، لا أريد أن أغوص في الحرام! وإذا لم أستطع إخراج خيال الغرفة الدافئة والمنارة من عقلي بأي شكل، أنهضُ في النهاية من سريري في منتصف الليلة الشتوية، وأفتح خزانتي، وأُخرجها من تحت البكرات الفارغة، إلى جانب صندوق المجوهرات، ومن الصندوق التي توجد فيه إبر آلة الخياطة المكسورة وفواتير الكهرباء، وأنظر إليها: آه، مع الأسف! متّن جميعكن، وأعلنوا هذا للعالم كله من بعدكن، وأنا قصصتُ هذا من الجرائد، وخبأته. انظرن، انظرن، إنها إعلانات وفاتكن، وفاة سميحة إسان ابنة المرحوم خالد جميل المدير السابق للإدارة العامة لمعامل السكر. وفاة السيدة المحترمة مروة عضوة مجلس إدارتنا، يا لها من عضوة، فهي الأكثر خبلاً. وفاة الأخت نهال البنت الوحيدة للمرحوم عدنان أحد الأثرياء. طبعاً تذكرتك، انظري، ها أنتِ تزوجت من تاجر تبغ، وصار لك ثلاثة أبناء، وأحد عشر حفيداً ما شاء الله، ولكنك في الحقيقة كنتِ تحبين بهلولاً، وهو كان يحب بهتار عديمة الأخلاق. لا تفكري يا فاطمة، انظري ها هي واحدة أخرى، وهي الأخيرة. مضى عليها عشر سنوات على الأغلب: وفاة السيدة نيفان اشكجي المحترمة

ابنة المرحوم شكرو باشا وزير الأوقاف والسفير في باريس، وشقيقة المرحومتين توركان وشكران. آه يا أختي الكبرى نيفان، أقرأ حصولك على رحمة الحق، وبينما أنا واقفة وسط الغرفة الباردة حاملة إعلانات الوفاة، أدركُ أن أحداً من المعارف لم يبق لي في اسطنبول، وبعد ذلك، أفكّر: كلكن دخلتن إلى جهنم التي كان صلاح الدين يتوسل من أجل أن تنزل إلى الأرض، وكتبَ عنها في موسوعته، كلكن غرقتن في محرمات اسطنبول، ما أفظع هذا! عندما أفكر بهذا، أشعر بطمأنينة خوف غريب، وأعود إلى سريري لأنني اشتهي دفء وفير في ليلة الشتاء الباردة، وأرغب بالنسيان والنوم لأن أفكاري أتعبتني: لا يوجد في اسطنبول من أسلّم عليه، نعم.

ليأتوا، ويسألوا أيضاً. لم أندهش أو أنفعل هذه المرة، أنتظرُ لأصفعهم بهذا الجواب فوراً. مازالت لا تصدر ولا تكة من الأسفل. نهضت من سريري، ونظرت إلى الساعة التي على الطاولة، صارت العاشرة صباحاً! أين تأخروا؟ ذهبت، ومددت رأسي من النافذة: مازالت السيارة هناك حيث تركها متين. بعد ذلك، خطر هذا ببالي: لم أعد أسمع الجدجد الذي يقف منذ أسابيع عند باب المطبخ دون حركة: أخاف من الصمت! بعد ذلك، فكرت بالصيدلانية التي أتت قبل قليل، ولكنني لم أستطع ربطها بشيء أبداً، وخطر ببالي مرة أخرى أن القزم يحكي لهم. لابد أنهم تجمعوا من حوله، وهو يحكي لهم هامساً عن الذنب والحرام: خرجتُ من غرفتي فوراً، وذهبتُ إلى عند نهاية الدرج، وضربت الأرض بعكازي وناديت:

"رجب، تعال فوراً يا رجب!"

ولكنني لسبب ما عرفت أنه لن يأتي هذه المرة، وأنني أضرب الأرض بعكازي دون جدوى، وأنني أضغط على صوتي العجوز دون جدوى، ولكنني ناديت مرة أخرى، وسيطر علي شعور غريب وأنا أنادي، ارتعشت: كأنهم ذهبوا جميعاً على ألا يعودوا مرة أخرى دون أن يخبروني، وأنا بقيت وحيدة تماماً في البيت! خفت قليلاً، وناديت مرة أخرى نحو الأسفل من أجل أن أنسى، ولكن ذلك الشعور الغريب سيطر علي أكثر. كأن أحداً لم يبق في العالم، لا إنسان، ولا طير، ولا كلب يستحي، وكأنه لا يوجد حتى مجرد حشرة تذكرني بالحر والزمن بصريرها: كأن الزمن قد توقف، وبقيت وحدي أطلق صوتي اليائس المسيطر عليه الرعب نحو الأسفل دون جدوى، دون جدوى. وأضرب الأرض بعكازي بيأس، وكأن أحداً لا يسمعني: أرائك متروكة وحيدة، وكراسي، وطاولات يتجمع عليها الغبار ببطء، وأبواب مغلقة وأغراض يائسة تطقطق من تلقاء نفسها، وموتك يا صلاح الدين! يا إلهي، خفتُ، واعتقدتُ أن خوفي الممتد كالأشياء وأفكاري سيبقيان كقطعة الجليد لا لون ولا رائحة لهما، وأنني سأبقى منتصبة هنا إلى ما لا نهاية دون أن أسمع شيئاً. بعد ذلك، خطر هذا ببالي فجأة. أردت النزول إلى الأسفل لإيجاد الزمن والحركة، وضغطت على نفسي، فنزلتُ أربع درجات، ولكنني خفت عندما شعرت بدوار: هنالك خمس عشرة درجة أخرى، لا يمكنك أن تنزليه يا فاطمة، ستسقطين! استدرتُ إلى الخلف فوق الدرجة بارتباك، ولكن ببطء. وبينما كنتُ أصعد، وأدير ظهري للصمت المقشعر، أردت أن أفرح نفسي، وأن أنسى. الآن يأتون، ويقبلون يدك يا فاطمة، لا تخافي.

حين وصلتُ إلى باب غرفتي، لم أكن خائفة، ولكنني لم أجد المرح: كان صلاح الدين ينظر إلي من صورته المعلقة على الجدار لإخافتي، ولكنني لم أشعر بشيء، وكأنني فقدت الإحساس بالرائحة والحرارة والطعم واللمس. بعد ذلك، خطوت سبع خطوات صغيرة، ووصلت إلى سريري، وجلست على حافته. بعد ذلك، عندما أرخيت نفسي، واستندت إلى رأس السرير، وبينما كنت أنظر إلى السجادة الممدودة على الأرض، رأيت فراغ الفكرة وتكرارها، وتضايقت: مازلت أقف شاردة مع الفكرة الخاوية. بعد ذلك، تمددت جيداً على السرير. وحين كان رأسي يسقط على المخّدة، فكّرت فيما إذا كان الوقت قد حان. هل يأتون؟ هل يدخلوا من الباب لتقبيل يدي؟ هل أنت جاهزة لنستودعك الله يا جدة؟ نستودعك الله يا جدة. ليس ثمة صوت على الدرج أو قرقعة في الأسفل، وفكرتُ بأنني لست جاهزة بعد، لأنني خفت من القلق، واعتقدت بأنني يجب أن أنتظر، وأن أقسّم الزمن فصوصاً فصوصاً كالبرتقال كما أفعل في ليالي الشتاء الصامتة والقفرة، وسحبت لحافي فوقي، وانتظرت.

كنت أعرف أن فكرة ستأتي وتتعثر وأنا أنتظر هكذا. أية فكرة؟ كنتُ أريد أن يريني وعيي ما في داخله كقفاز مقلوب. أقول في النهاية: هذه أنت إذن يا فاطمة. كأن داخلي هو مقلوب خارجي المنعكس عبر المرآة! لأندهش، وأنسى وأقلق: إذا كان خارجي هو ما يأتون للفرجة عليه، ويقبلون يده بعد قليل إثر نزولهم على الدرج لتناول الطعام، أتوق أحياناً لمعرفة ما هو داخلي. قلبي الخافق: تك، تك، وأفكاري التي تشبه زورقاً ورقياً على ماء جار، وماذا بعد ذلك؟ أمر غريب! أحياناً يختلط

نومي مع يقظتي في الظلام، وأقلق بانهماك حلو. كأن داخلي صار خارجاً، وخارجي صار داخلاً، ولا أجد أيهما أنا في الظلام. تمتد يدي بصمت كقط، وتُشعل الضوء، وتلمس الحديد البارد للسرير محاولة إيجاده، ولكن الحديد البارد يأخذني، ويتركني لليلة شتوية باردة: أين أنا؟ فكرت بأن الإنسان لا يعرف حتى هذا. إذا كانت إنسانة عاشت في البيت ذاته سبعين سنة وتخطئ في هذا الأمر، فأنا أفكر بهذا ولا أقرر من جديد حول غرابة الحياة التي نعتقد أننا استهلكناها، واستعصائها على الفهم، وحول عدم معرفة أحد لماذا كانت حياته على هذا النحو. تنتظر، وتنتظر، وبينما تذهب هكذا من مكان إلى آخر دون أن يعرف أحد السبب، تفكر أنتَ بأفكار عديدة حول حياتك، وانتقالها من مكان إلى آخر. وفي أثناء مراودتك الأفكار الغريبة التي ليس فيها صحيح وخاطئ، وليس لها نتيجة، تنظرين، تجدين أن السفر انتهى هنا يا فاطمة، هيا انزلي! أنزل قدمي هذه أولاً، ثم الأخرى، وأنظر من الحنطور. أخطو خطوتين، ثم ألتفت، وأنظر إلى الحنطور: أهذا هو الذي كان يجول بنا، ونحن نتأرجح فيه؟ هذا هو. هذا يعني أنني سأفكر عندما تحل النهاية على النحو التالي: هذا هو، وأنا لم أفهم شيئاً، ولكنني أريد أن أبدأ من جديد، ولكن لا يوجد إذن لهذا. يقولون: هيا لنر. نحن الآن هنا، في الطرف الآخر، لا يمكنك أن تركبي مرة ثانية، ولن تبدئي مرة ثانية الآن. وعندما يضرب الحوذي خيوله بالسوط مبتعداً بها، أريد أن أبكي أنا الناظرة إلى العربة من خلفها: هذا يعني أنني لا أستطيع البدء من جديد يا أمي، هذا يعني عدم وجود مرة أخرى! ولكنني أفكر متمردة بأنه على الإنسان أن يبدأ من جديد، مثلما تفكر فتاة صغيرة البقاء

بريئة طوال حياتها إن أرادت هذا، ويجب أن تكون هنالك إمكانية لبدء الإنسان من جديد. وحينئذ تخطر ببالي تلك الكتب التي كانت تقرؤها لي نيفان وتوركان وشكران، وسَفَر العودة ذاك الذي أسافره مع أمي، وأفرح مع كدر عجيب.

أخذتني أمي في ذلك الصباح إلى بيت شكرو باشا. وقبل أن تسلمني لهم، قالت لي في العربة ما تقوله في كل مرة: اسمعي يا فاطمة، لا تبكي يا فاطمة عندما أعود مساء لآخذكِ، وإلا فإن هذه آخر مرة أجلبك فيها. ولكنني أنسى فوراً أن أمي قالت هذا. وبعد أن ألعب مع نيفان وتوركان وشكران طوال اليوم، وأنظر إليهن بإعجاب، قائلة كم هن أذكى مني وأجمل، أنسى أن أمي قالت لي هذا. لأنهن يعزفن بشكل جميل على البيانو ويقلدن الحوذي الأعرج وعيواظ بشكل جميل، حتى إنهن قلدن والدهن، وأنا ارتبكتُ كثيراً، ولم أجرؤ على الضحك إلا بعد أن ضحكن. وألقين الشعر بعد الظهر. ذهبن إلى فرنسا، ويعرفن الفرنسية. فيما بعد أخرجن كتاباً بالتركية كما يفعلن في كل مرة، ونقلن الكتاب المترجم من يد إلى يد وقرأن. كان الكتاب جميلاً إلى حد أنه أنساني ما قالته لي أمي. وعندما رأيت أمي أمامي بدأت أبكي مدركة أن وقت العودة إلى البيت قد حان. وحينئذ نظرتْ إلي أمي بحدة شديدة، ولكنني لم أستطع تذكر ما قالته لي في العربة صباحاً. ثم إنني لا أبكي لأن وقت العودة إلى البيت قد حان فقط، بل لأن أمي تنظر إلي بحدة. أشفقت عليّ أم نيفان وتوركان وشكران، وقالت: هيا يا بنات، اجلبوا لها سكرات. وبينما كانت أمي تقول: أنا خجلة جداً يا سيدتي، كن يتوسلن لأمهن وقد جلبت نيفان السكرية الفضية. في أثناء انتظار الجميع إلي

لأسكت، لا أمد يدي لآخذ، قلت: لا، لا أريد هذا، أريد ذاك. حينئذ قالوا لي: ما الذي تريدينه؟ وبينما كانت أمي تقول: كفى يا فاطمة، استجمعتُ جرأتي كلها، وقلت: ذاك الكتاب. ولأنني لم أستطع تحديد الكتاب نتيجة البكاء، استأذنتْ شكران أمها، وجلبت الكتب. حينئذ قالت أمي: لابد أن هذه الكتب لا تناسب هذه البنت، فوق هذا فهي لا تحب القراءة. وبينما كانت أمي تقول هذا، نظرتُ بطرف عيني إلى الكتب. كُتب هناك: (مونت كريستو)، (إيف مونتيبني)، (بول دي كوك). ولكنني أريد. قلت: أيمكنني أخذ قصة روبنسون التي قرأنها في الظهر، فأنا أريدها. خجلت أمي كثيراً، وقالت أمهن: حسنٌ يا ابنتي، يمكن أن يبقى عندك، ولكن لا تضيعينه. إنه لشكرو باشا. حينئذ صمت، وذهبت إلى العربة بتهذيب. وجلست.

في طريق العودة إلى البيت، كنت أخاف من النظر إلى وجه أمي وأنا جالسة أمامها: كانت عيناي المحمرتان من البكاء تنظران إلى الطريق الذي خلف العربة، وإلى نوافذ (فيلا) شكرو باشا التي تظهر حتى ذلك الوقت. فجأة، صرخت أمي بوجهي، وقالت إنني فتاة لدي شطط. يبدو أنها لم تتخلص من غضبها، فبعد أن تحدثت فترة، أضافت أنني لن أستطيع الذهاب إلى فيلا شكرو باشا في الأسبوع القادم. عندما أنظر إلى وجه أمي حينئذ، أفكر بأنها تقول لي هذا من أجل أن تبكيني. لأن كلمات كهذه في أوقات أخرى تبكيني، ولكنني لم أبكِ. لأنني أشعر بفرح وطمأنينة عجيبة. غمرتني راحة عندما وجدت السبب بعد زمن طويل هنا وأنا متمددة على سريري أفكر. بعد وقت طويل، بأن السبب هو ذلك الكتاب. كانت قد قرأت لي قسماً منه نيفان وتوركان

وشكران بالتتابع في ذلك اليوم. لم أفهم كل ما قرأته. بدا لي أنه كتاب يعارضني. ولكنني رغم هذا استنتجت بعض الأحداث. ثمة انكليزي عاش وحيداً في جزيرة قفرة لسنوات طويلة، لأن سفينته غرقت. لا، لم يكن وحيداً تماماً، لأن لديه خادم وجده بعد سنوات. ولكنه رغم هذا كان غريباً جداً. التفكير بذلك الإنسان الذي عاش وحيداً دن أن يرى أحداً طوال سنوات مع خادمه أمر غريب جداً. ولكن ليس هذا الأمر هو الذي منحني طمأنينة أكبر في أثناء ذهاب العربة مهتزة إلى هذا الطرف وذاك. أعرف أن هنالك أمراً مختلفاً. لم تنظر أمي إلي مقطبة الحاجبين، وأكثر من هذا أنني لم أكن أنظر عبر النافذة إلى الأمام، بل إلى الخلف حيث الجهة التي أحبها. لم أعد أنظر إلى (فيلا) شكرو باشا التي غابت عن النظر، بل إلى الطريق الذي تركناه، إلى الماضي الجميل جداً تذكره. ولكن الشيء الجميل أساساً عن الكتاب الذي أمسكه بيدي، وشعوري باحتمال عيشي ذلك الماضي المتشابك من جديد. ولعل نظري المتململ وغير المقاوم سيتجول بين صفحات الكتاب غير المفهومة في البيت دون جدوى، ولكنني في أثناء ذلك سأتذكر - من خلال مقاطع مختلفة من الكتاب - بيت شكرو باشا الذي لن أستطيع الذهاب إليه في الأسبوع القادم، وما فعلناه. لأنني، وكما فكرتُ فيما بعد بكثير، هنا وأنا ممددة على سريري: لا يمكنكِ أن تبدئي حياة جديدة، كما في سفر العربة ذاك، ولكن، إذا كان بيدكِ كتاب، مهما كان هذا الكتاب معقداً وشائكاً، يمكن أن تعودي إلى بداية الكتاب المنتهي، وتقرئينه من جديد، لفهم الغامض والحياة، أليس كذلك يا فاطمة؟

١٩٨٠ - ١٩٨٣

اورهان باموق

نوبل ٢٠٠٦

- ولد في اسطنبول عام 1952 لعائلة ميسورة.
- درس الهندسة المعمارية والصحافة.
- 1982 نشر أول اعماله (رواية جودت بك)
- 1990 أصدر الكتاب الاسود الذي صدر بالعربية عن دار المدى .
- 1992 أصدر رواية القلعة البيضاء .
- 2003 أصدر كتاب "اسطنبول.. الذكريات والمدينة".
- من رواياته الاخرى :

  الثلج ، اسمي أحمر ، البيت الصامت .
- تتسم كتاباته بالعمق في تصوير الإرث العثماني والاضطهاد العرقي والحوار بين الحضارات .
- كانت له مواقف انسانية في بلده ، أحيل بسببها الى محاكمات مطولة .
- 2006 حصل على جائزة نوبل للأدب ، وهو اول كاتب تركي يحصل عليها.

ISBN 2-84305-985-x
9 782843 059858